

الديجافانغ الوطنية  
في الأدب المعاصر

من الثورة العربية  
إلى قيام الحرب العالمية الأولى

الجزء الأول

تأليف

الكتور محمد محمد حسين



لنشر والتوزيع

مكة - هاتف (٤٨١٤٥٦)



# الديجافا من الوطنيت

في الأدب المعاصر

الجزء الأول

من الثورة العرابية الى قيام الحرب العالمية الأولى

تأليف

الكتور محمد محمد حسين



للنشر والتوزيع

# النبوءة الثالثة

حقوق الطبع محفوظة

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م



للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - مكة - هاتف: ٥٥٦٥٤٨١

# بسم الله الرحمن الرحيم

## حياة المؤلف في سطور

- ولد الدكتور محمد محمد حسين عام ١٩٢١ م في سوهاج إحدى مدن الصعيد.
- تلقى تعليمه الابتدائي في بلدته، حتى التحق بمدرسة أسيوط الثانوية ، لأنها كانت المدرسة الثانوية الوحيدة في صعيد مصر وقتذاك .
- التحق بالجامعة المصرية والتي كان هذا اسمها ، وحصل منها على الليسانس عام ١٩٣٧ م من قسم اللغة العربية .
- وكانت هذه الجامعة الوحيدة في مصر والدول العربية كلها آنذاك .
- عين معيداً بالكلية نفسها ، وكلف بتدريس اثني عشر درساً أسبوعياً في السنة الأولى ، وكانت هذه هي السابقة الأولى التي يعين فيها معيد في سنة تخرجه ويكلف بالتدريس .
- حصل على الماجستير والدكتوراه وانتدب للتدريس في كلية الآداب بالإسكندرية عام ١٩٤٠ م ، وكانت وقتها فرعاً من الجامعة المصرية بالقاهرة ، ثم نقل إليها بعد استقلالها عام ١٩٤٢ م وتدرج في وظائف التدريس فيها إلى أن شغل كرسي الأستاذية عام ١٩٥٤ م .
- أعير أثناء عمله بالإسكندرية إلى الجامعة الليبية وجامعة بيروت العربية ،



ثم تعاقد مع جامعة بيروت العربية بعد بلوغه سن التقاعد عام ١٩٧٢م ، وظل فيها إلى أن تعاقد مع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٩٧٦ م ، وظل يعمل فيها إلى عام ١٩٨٢ م حيث رغب في عدم تجديد عقده وعاد إلى الإسكندرية حيث توفي يوم الجمعة ٩ ربيع أول سنة ١٤٠٣ هـ الموافق ٢٤ ديسمبر عام ١٩٨٢ م .  
رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه خيراً عما قدم للإسلام والمسلمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الطبع الثانية

الحمد لله رب العالمين . وصلاته وسلامه دائمين عاطرين على رسوله الأمين ،  
الذي هدانا الله به وأحيانا ، ولولا فضل الله ورحمته لكنا من الضالين الهالكين .  
وبعد فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب (الاتجاهات الوطنية) في جزئه الأول .  
أدخلت عليها بعض التعديل في الفصل الأخير « نزعات إصلاحية » ولم يكديطراً  
عليها بعد ذلك شيء يذكر في بقية فصول هذا الجزء إلا قليلاً . ويستطيع القارئ  
أن يلمس مواضع التعديل بالمقارنة بين ذلك الفصل كما جاء في هذه الطبعة ، وبين  
ملخصه كما يبدو في مقدمة الطبعة الأولى ، التي أبقيتها كما هي دون تعديل . ولم يكن  
من هذا التعديل بدّ بعد أن بدا التناقض واضحاً بين ما جاء في هذا الفصل وبين  
ما كتبه بعد ذلك بستين في الفصلين الثالث والرابع من الجزء الثاني لهذا الكتاب ؛  
ولا سيما ما يتعلق منه بمحمد عبده وحر كته . وقد اجتمعت لي منه مادة صالحة  
لا يتسع لها هذا الكتاب ، أرجو أن يتاح لي نشرها فيما بعد . وهي تكشف عن  
جوانب أغفلها الذين كتبوا عنه وأرخوا له .

وقد كنت أحب أن أنجز في هذه الطبعة للجزء الأول ما وعدت به في تقديم  
الجزء الثاني ، من تعميم هذه الاتجاهات لكي تشمل العالم العربي كله — وظروفه في  
تقديري متشابهة في خطوطها الكبيرة ، يصدق في كل قطر من أقطاره ما صح  
في مصر . فكلها قد مر في فترة تتعلق بفكرة الجامعة الإسلامية ، حين كانت جميعاً  
جزءاً من دولة إسلامية كبرى تعتبر امتداداً للخلافة الإسلامية وهي الدولة العثمانية .



وكلها قد ظهر فيها صراع بين هذه النزعة الإسلامية التليدة الموروثة وبين النزعات القومية الطارئة ، التي بدأت تطلّعها تظهر واضحة في سائر البلاد العربية منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري . وكلها قد مر بفترة صراع بين النزعات الإقليمية وبين النزعة العربية التي تريد أن ترد العرب إلى الوحدة الأصيلة بعد الفرقة الطارئة . وكلها قد دارت فيها معارك حول تصور العروبة : هل هي امتداد للإسلامية السابقة ؟ أم هي صورة من القوميات الغربية اللادينية ؟ وكلها قد شغل بالبحث والمناقشة حول أمثل الطرق والأساليب للنهوض والاستعادة القوة والتخلص من أسباب الضعف وآثاره . ولم يكد الخلاف فيها جميعاً بخروج عن اتجاهات ثلاثة : اتجاه يدعو إلى العودة لينابيع الإسلام الأولى ؛ واتجاه آخر يدعو لاحتذاء الغرب وتتبع خطاه ؛ واتجاه ثالث يدعو إلى إسلامية متطورة يفسر فيها الإسلام تفسيراً يطابق الحضارة الغربية ، ويرر أنماطها وتقاليدها . وكلها قد شغل بمصير الخلافة الإسلامية وواجب المسلمين إزاء إلغاء الحركة الكمالية للخلافة الإسلامية في تركيا . وكلها قد دارت فيه معارك فكرية وأدبية بين المتمسكين بالتقاليد الإسلامية والعربية وبين الداعين إلى الحضارة الأوروبية والمفتونين بأساليبها وأنماطها . كنت أحب أن أنجز وعدي ذاك ، فأعمم هذه الاتجاهات التي تحدثت عنها في هذا الكتاب بجزءيه ولكن ظروف الراية لم تسمح به . فأرجو المَعذرة . ولعلي أفي بهذا الوعد فيما بعد ، أو لعل غيري ينهض به . وقد نهض صديقي الدكتور ماهر حسن فهمي بشطر منه حين أصدر كتابه « القومية العربية والشعر المعاصر » في سلسلة « مع العرب » التي تصدرها مؤسسة المطبوعات الحديثة ، بالقدر الذي سمح به حجم الكتاب وطبيعته . وقد تفضل مشكوراً بتصحيح تجارب هذا الجزء لبعدي عن مصر أثناء طبعه .

والله سبحانه وتعالى هو المستعان . له الحمد في الأولى والآخرة . ولا حول ولا قوة إلا به .

محمد محمد حسين

بنغازي في صباح السبت ١٢ من رمضان المبارك

١٣٨١ ( ١٧ - ٢ / ١٩٦٢ )

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الطبعة الأولى

كان اتجاهي أول الأمر إلى أن أكتب عن الوطنية في شعر شوقي . ولما اجتمعت لي مادة البحث ، رأيت أن الذين كتبوا عن هذا الشاعر قد ظلموه ظلماً بيناً في وطنيته . ونظرت فإذا شوقي ليس وحده هو الذي مدح السلطان عبد الحميد ، فقد كان ذلك اتجاه شعراء العصر جميعاً . ونظرت فإذا شوقي لم يكن وحده الموالي لتركيا ، فقد كانت مغاضبة تركيا وقتذاك لاتعني إلا موالاة أعدائهم وأعداء مصر الإنجليز . ونظرت فإذا الرجل لم يكن وحده هو الذي مدح عباساً - وإن تكن صناعته ووظيفته قد اقتضته ذلك - فقد كان عباس في الفترة الأولى من حياته موضع مدح كل الشعراء ، بل وموضع حب المصريين جميعاً وآمالهم .

ورجعت إلى كتابات العصر وصحفه وتاريخه ، فإذا كل ذلك يوحي بأن وطنية هذه الفترة لم تكن هي وطنيتنا ، وأن قيمها لم تكن هي قيمنا ، وأن تفكيرها لم يكن هو تفكيرنا . فالخطأ في الحكم يرجع في معظمه إلى تغير مفهوم ( الوطنية ) على مر الأيام . فالذين يدرسون أدب الصحراء والفطرة في الجاهلية لا ينصفون إذا وزنوه بموازين الحضارة والمدنية في القرن العشرين . والذين يدرسون شعراء ما قبل الإسلام يظلمون إذا وزنوه بموازين الإسلام . والجليل الذي يولد في هذه الأيام يخطيء إذا درس آداب آبائه بعد عشرين عاماً أو ثلاثين فحكم على الذين مجدوا ( الملكية ) بالحيانة . وكذلك كان شأن الدارسين مع شوقي . لاموه لميوله التركية حين كانت الرابطة العثمانية حديث كل الأمم الإسلامية . وغضوا من



قدره لأنه كان رجل القصر حين كان عباس ساكن القصر موضع أمل الوطنيين من المصريين وقوتهم في مقاومة الاحتلال في شطر من حياته .

وعند ذلك خطر لي أن لأقصر تاريخ الوطنية على شوقي ، وأن أؤرخ للاتجاهات الوطنية في الشعر العربي في مصر جملة ، ورأيت أن مثل هذا البحث قد يصحح كثيراً من الأحكام السابقة العاجلة ، وقد يعين على وضع مقاييس صحيحة للقيم الوطنية وتطورها . فليس من الإنصاف أن يحاسب الناس على أسس مبانة كل المبانة أو بعض المبانة لأسس العصر الذي عاشوا فيه وعبروا عن قيمه واتجاهاته . وليس من البحث العلمي أن يدرس الشاعر منفصلاً عن بيئته التي استمد منها تجاربه . ومن هذا يبدو أن البحث في لبه يستهدف تصحيح القيم الوطنية والقيم النقدية في دراسة الشعراء المعاصرين .

وقد تبين لي من بعد أن الحرب العالمية الأولى ( ١٩١٤ - ١٩١٩ ) كانت حداً فاصلاً بين عصرين متباينين في فهم مدلول ( الوطنية ) . ولذلك رأيت أن أقسم بحثي عن ( الاتجاهات الوطنية في الشعر المعاصر ) إلى قسمين ، ينتهي أولهما إلى قيام الحرب العالمية الأولى ، وهو موضوع بحث هذا الكتاب الذي أقدمه بين يدي القراء .

وقد قسمت البحث إلى خمسة فصول :

تكلمت في الفصل الأول عن ( الجامعة الإسلامية ) فبينت أنها كانت هي التزعة الغالبة على تفكير مصر ، حين لم تكن الفكرة القومية بمعناها الحديث قد سيطرت على الأذهان ، وحين كانت العاطفة الدينية هي المسيطرة على القلوب والأفهام ، وحين كانت الظروف التي تسود العصر توحى بأن الخصومة بين الشرق والغرب هي خصومة بين الإسلام والمسيحية ، أو هي استمرار للحروب الصليبية كما تصور بعض زعماء الوطنية وكتابها . وكان يعين على تدعيم هذا التصور ما يدور من حروب بين تركيا من ناحية وبين الدول الأوروبية الطامعة في اقتسام أملاكها من ناحية أخرى . هذه تنادي بتحرير الشعوب الأوروبية في جنوب أوروبا من وحشية المسلمين ، وتلك تنادي بتماسك الشعوب الإسلامية واتحادها أمام الجشع الأوروبي . كما أعان عليه مهاجمة كثير من سياسة الغرب وكتابه للإسلام والمسلمين ،

وتصويرهم في صورة الهمج المتخلفين ، ورد تخلفهم هذا إلى جمود الإسلام الذي لا يصلح في زعمهم لأن يكون شريعة أمة متمدنة راقية . وأعان عليه كذلك ما كانت تبذله إنجلترا من جهود دائبة للقضاء على تركيا ، بتشجيع كل مناوئ لها وخارج عليها ومذيع مساوئها ومصور لفساد الحكم فيها .

وبينت في هذا الفصل أن موالاة تركيا والإشادة بها ومدح الشعراء للسلطان عبد الحميد لم يكن في حقيقة أمره إلا تمسكاً بخليفة المسلمين الذي يلي أمرهم ويجمع شملهم ، وأن الخروج عليه ومهاجمته لم يكن يعني في أفهام كثرة المعاصرين إلا موالاة المستعمرين أعداء المسلمين . وتتبع ذلك في مختلف المناسبات والأحداث مثل الحركة العربية التي كان يظن أن إنجلترا هي التي تثيرها ، مستعينة بها على قتل الخلافة الإسلامية التي كانت تريد أن تنقلها إلى أمير عربي تضعه تحت حمايتها ، فتتسلط عن طريقه على الرأي العام الإسلامي . ومثل حرب اليونان سنة ١٨٩٧ ، والدستور العثماني ١٩٠٨ ، وسقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ ، وحرب طرابلس سنة ١٩١١ ، وحرب البلقان وسقوط أدرنة سنة ١٩١٢ . وقدم طيارين تركيين إلى مصر سنة ١٩١٤ .

ثم بينت آخر الأمر أن المنادين بالجامعة الإسلامية لم يكونوا جميعاً من المؤيدين للنفوذ التركي في مصر . وأن كثرتهم كانت مدفوعة إلى ذلك بعاطفتها الدينية ، وأن بعضهم كان يتخذ ذلك وسيلة لمناوأة الاستعمار الإنجليزي ، وهو يرى بعد ذلك أن التخلص من النفوذ التركي سهل ميسور .

وتكلمت في الفصل الثاني عن (الجامعة المصرية) ، فتتبع تطور القومية المصرية التي كانت فكرة ناشئة في ذلك الحين ، انتقلت إلى مصر مع ما انتقل إليها من الأفكار الغربية ، فكانت صدى للاتجاه العام نحو تبلور القوميات في القرن التاسع عشر . وقد رددت بذور هذا الاتجاه نحو الجامعة المصرية إلى الثورة العربية ، التي كانت تعبيراً عن شعور المصريين بالاضطهاد إزاء عنصر غريب عنهم هو العنصر الحرکسي . ورأيت أن فكرة الوطنية في ذلك الوقت مختلفة بعض الاختلاف عما نعنيه منها اليوم ، وأنها كانت مختلطة بالفكرة



الإسلامية ، لا تدعو إلى الانفصال عن تركيا ، وإن كانت تدعو إلى مقاومة استبداد العنصر الجركسي والنفوذ الأوروبي. وقلت إن هذه الحركة كانت تستهدف إنشاء رابطة عاطفية بين المصري ووطنه ، تحفزه إلى الاهتمام بأمره والعمل على رفعته ، وأداء واجبه نحوه من جهة ، والمطالبة بحقه فيه من جهة أخرى . ثم تطورت الفكرة القومية على أيدي أصحاب الثقافات الأوروبية ، وبدأت تهاجم الرابطة الدينية وتعتبرها مصدر شر وتفرقة بين أبناء الجنس الواحد . فدعا هذا الفهم الحديد للوطنية إلى أن يهاجمها المتمسكون بالرابطة الدينية ويعتبروها خطراً يهدد وحدة الأقطار الإسلامية ويضعف تكتلها أمام الدول الأوروبية الطامعة في استعمارها .

ثم خفت صوت القومية وركدت الدعوة إليها زمناً بعد فشل الثورة العربية حتى انبعثت من جديد في مختتم القرن التاسع عشر ، متأثرة بفكرة القوميات الأوروبية ، واتخذت شكلين متباينين ، أحدهما يتحدث عن الوطنية حديثاً عاطفياً ويتغنى بها كما يتغنى العاشق بمعشوقه ، محاولاً أن يغزو قلوب المصريين بهذا الحب الحديد . والآخر يتحدث عن الوطن حديث العقل والمصلحة ، ولا يستهدف إثارة الناس ولكنه يحاول إقناعهم ، ولا يتغنى بالوطن المحبوب ولكنه يتحدث عن النفع المادي والمصلحة المشتركة التي تجمع بين ساكنيه . وكان الفريق الأول ممثلاً في مصطفى كامل . وهو يدعو إلى جامعة مصرية إسلامية ، ولا ينكر الرابطة العثمانية ولكنه يتخذها وسيلة لمناوأة الإنجليز . وكان الفريق الثاني ممثلاً في لطفي السيد كاتب حزب الأمة الأول . وهو يدعو إلى جامعة مصرية خالصة ، ولا يعترف بالرابطة العثمانية لأنها لون من ألوان الاستعمار ، كما أنه لا يعترف بالجامعة الإسلامية لأنها وهم لا سبيل إلى تحقيقه من الناحية العملية. وبينت أن الدعوة الأولى كانت أقرب إلى القلوب ، وأن كثرة الناس قد آزرتها والتفت حولها ، وإن انصراف الناس عن الدعوة الثانية كان يرجع إلى أن دعايتها كانوا من كبار الملوك الذين

لا يعنون إلا مصالحهم الخاصة حين يتحدثون عن النفع المادي والمصالح المشتركة وإلى أنهم قد انصرفوا إلى الكلام عن الإصلاح ولم يهاجموا الاستعمار الذي كانوا يوادونه حرصاً على مصالحهم .

وختمت هذا الفصل بالإشارة إلى ما صاحب هذه الحركة المصرية من اتجاه تاريخي في الشعر نحو إحياء المجد الفرعوني والمجد العربي ، اللذين يمثلان التزعتين السابقتين : القومية المصرية والقومية الإسلامية ، واتخاذ ذلك وسيلة إلى استنهاض الهمم ، وبعث الأمل ، ومحاربة اليأس . ورد الثقة إلى الناس الذين تمكن منهم سوء الظن بأنفسهم حتى قتل فيهم روح الأمل والطموح .

وتكلمت في الفصل الثالث عن (محنة الجامعة المصرية) التي بدت في المؤتمر القبطي سنة ١٩١٠ والمؤتمر المصري سنة ١٩١١ . وبينت أن الأزمة ترجع في جوهرها إلى سوء ظن كل من الفريقين بصاحبه ؛ وإلى عدم توافر الثقة بين العنصرين اللذين يكونان الجامعة المصرية ، وإلى الجهل الذي يقود إلى عصبية عمياء لا تقوم على أساس من منطق أو دين ، وإلى التقاليد الفاسدة التي دعت القبط إلى أن ينطووا على أنفسهم ويقصروا اهتمامهم على مشاكلهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن تتحدث صحفهم عنهم وكأنهم أمة مستقلة لها كيان منفصل عن مصر . وهاجت الفتنة فبرزت عارية ، بعد قتل بطرس غالي رئيس الوزراء القبطي سنة ١٩١٠ . واعتبر القبط أن عنصرهم هو المقصود بالاعتداء . ودافع الفريق الآخر عن نفسه بأن الرجل لم يستحق القتل إلا بوصفه مصرياً خان وطنه وأعان عليه المستعمرين . وبلغت الحصومة قممتها حين تم انعقاد المؤتمر القبطي في أسبوط ٥ مارس سنة ١٩١٠ ، مطالباً ببعض المطالب التي كانت موضوع نقاش عنيف حاد في الصحف ، دعا إلى عقد مؤتمر مصري تم انعقاده في ٢٩ إبريل سنة ١٩١١ ، رد على مطالب المؤتمر القبطي التي لا تقوم على أساس من المواطنة المصرية ، ولكنها تقوم على أساس الدين وحده .



ثم تكلمت عما استتبعته هذه الخصومة العنيفة من محاولات صادقة للتوفيق بين عنصري الأمة وتصفية ما بين جيران الوطن من سوء الظن . وانتهيت إلى أن هذا الشقاق كان محنة امتحنت بها الدعوة الناشئة إلى الجامعة المصرية ، وأنه إن كان قمة الخلاف بين عنصري الأمة فقد مهد في الوقت نفسه للوحدة القومية المصرية التي بدت في أقوى مظاهرها في ثورة سنة ١٩١٩ .

وتكلمت في الفصل الرابع عن ( تيارات سياسية ) كانت تتنازع الناس في هذا العصر . وجعلت الثورة العراقية هي نقطة البداية في اهتمام الناس بالمسائل السياسية . فقد كثر فيها حديثهم عن الظلم والظالمين ، وعن حقهم في محاسبة السلطان ، وعن الدعوة إلى النظام النيابي وإلى العدالة الاجتماعية وإلى الحد من تغلغل النفوذ الأجنبي . وظهرت فيها آراء جريئة تدعو إلى التخلص من النظام الملكي مفضلة عليه النظام الجمهوري .

ثم تكلمت عن نشأة الصحافة الوطنية بعدما كان من ركود الحركة حياً واستكاثرة الناس للهزيمة . فظهرت صحيفة المؤيد سنة ١٨٨٩ ، ثم صحيفة الأستاذ سنة ١٨٩٢ . وبينت أن ظهور الحركة الوطنية الحديثة بعد الاستعمار الإنجليزي قد اقترن بحكم عباس . فتكلمت عن وطنيته في أول حكمه ، مما جمع قلوب المصريين حوله ، وما كان من تأييده لقادة الحركة الوطنية وعدائه للإنجليز ، مما أدى إلى اصطدامه بكرورمر . ثم تكلمت عما كان من تراجع أمام الإنجليز ، وعدم صبره للكفاح ، وانصرافه إلى تنمية ثروته من كل طريق ، واستعرضت سياسته المضطربة المتقلبة التي أدت إلى انصراف الشعب عنه ، بعد أن ساد الوفاق بينه وبين الإنجليز ، حين أرضى جورست - خليفة كرومر - جوعه إلى السلطة وإلى المال .

وبذلك استنفدت الحركة الوطنية جهدها في مهاجمة عباس ، واستراح الإنجليز من اجتماع الشعب والحدوي على حربهم . وقدمت صوراً من شعر الشعراء الذين كانوا يمدحون عباساً في أول حكمه ، فانصرفوا عن ذلك إلى نقد سياسته ، منهم من يعنف في ذلك حتى يبلغ حد الهجاء الذي يعرضه للسجن ،

ومنهم من يرفق في ذلك فلا يتجاوز العتاب الهين الرقيق .

ثم تكلمت عن السلطتين اللتين كانتا تتنازعا ن تصريح الشؤن في ذلك الوقت :  
سلطة الاستعمار وسلطة الحديوي ، أو السلطة الفعلية والسلطة الشرعية ، كما  
كانت تسميها الصحف في ذلك الحين ، وعن انقسام الصحف بين مؤيد لعباس  
ومؤيد لكرورمر . وتكلمت عن سعي الاستعمار لخلق بطانة له من المصريين ،  
تحقيقاً لسياسته التي رسمها لنفسه منذ الاحتلال ، وهي أن لا يحكم بطريق مباشر ،  
وأن ينفذ إرادته بأيدٍ مصرية يقع عليها وزر أعمالها أمام الرأي العام ، فتواجه  
ثورته ، وبذلك يقع بأس المصريين بينهم ، ويستنفدون جهدهم في هذه الحصومة .

ثم بينت أن المصريين كانوا موزعين بين النفوذ التركي والنفوذ الفرنسي  
والنفوذ الإنجليزي والقصر . منهم من يلتمس العون على الاستعمار عند الخليفة  
التركي حامي المسلمين ، ومنهم من يلتمسه عند الفرنسيين المنافسين للاستعمار  
الإنجليزي . ومنهم من يحرص على وحدة الصفوف ويشفق من انشقاق المصريين  
فهو يدعو إلى الالتفاف حول القصر . ومنهم من يؤثر العاجلة ويعيش في حاضره  
ولا يطمح إلى خير منه فهو يهادن الإنجليز ولا يطمح في أكثر من دعوتهم إلى  
الإصلاح . ومنهم من يتعلق بسيد من هؤلاء السادة لأنه باع نفسه له فهو يؤيده  
بالحق وبالباطل .

ثم تكلمت عن تأسيس الأحزاب السياسية في سنة ١٩٠٧ : الحزب الوطني  
ومن ورائه الكثرة المثقفة من الشباب ، وهو عنيف في خصومته للاستعمار . بدأ  
عهده مؤيداً لعباس وانتهى إلى مخاصمته ، ولكنه لم يهاجم الخلافة العثمانية في  
الحالين . وحزب الأمة ومن ورائه أعيان مصر وكبار الملاك فيها ، وهو يهادن  
الإنجليز ولا يتجاوز جهده الدعوة إلى الإصلاح . وهو يرى أن ذلك هو الطريق  
الطبيعي إلى الاستقلال . وحزب الإصلاح وهو حزب قليل الأنصار يدعو إلى عباس ،  
فهو لسانه المعبر عن ميوله واتجاهاته . وحزب كان يسمى نفسه بالحزب الوطني  
الحر ، وما هو بوطني وما هو بحر ، فهو دخيل باع نفسه للمحتلين ، ويتمثل  
في صحيفة المقطم . وعرضت لما آل إليه أمر هذه الأحزاب من تطرف في

الخصومة وإسراف في الاتهام ضاق به المصلحون ، فارتفعت صيحاتهم منكرة هذه المهاترات ، داعية إلى الاتحاد وجمع الصفوف .

وتكلمت في الفصل الأخير عن (نزعات إصلاحية) لازمت هذا التطور الفكري والسياسي . وكان دعائها خليطاً من المشتغلين بالسياسة ، وعمن كرهوا أن يزجوا بأنفسهم في هذا المعترك العنيف وآثروا أن يسلكوا طريقاً لا يعرضهم لغضب السلطان . وكان بعض هؤلاء ينظر إلى علل المصريين الخلقية والاجتماعية . يحاول أن ينبه إليها ويرسم الطريق إلى معالجتها ، مستوحياً في ذلك الحضارة الغربية وأساليبها ونظمها . وكان فريق آخر ينبه إلى عيوب الأمم الإسلامية وسوء فهمهم للإسلام محاولاً أن يقيم الإصلاح على أساس ديني . ثم بينت أن التفكير الأوروبي قد تجلّى في دعوات كثيرة ، برزت من بينها ثلاث دعوات كبيرة ، شغلت الرأي العام في مستهل القرن العشرين ، وهي : الدعوة إلى الحرية الشخصية وإلى الحياة النيابية ، والدعوة إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية وتحرير المفكرين من سلطة رجال الدين ، والدعوة إلى تحرير المرأة من الجهل والحجاب وتمكينها من المشاركة في الحياة . وبينت أن الدعوتين الأوليين كانتا متأثرتين إلى حد بعيد بما شاع في الحكم العثماني الفاسد من ظلم ومن استغلال لنفوذ رجال الدين .

ثم تكلمت عن حركة الإصلاح الإسلامي التي ترعّمها محمد عبده ، وتابعه فيها بعض تلاميذه ومعاصريه . وقسمت جهوده فيها إلى قسمين ، اتجه في أولهما - أيام اتصاله بالأفغاني - إلى محاربة ما استولى على المسلمين من ضعف الهنم وفتور العزائم والانصراف عن جهاد الاحتلال . واتجه في الشطر الثاني إلى التوفيق بين الدين وبين المدنية الحديثة ، وإلى الرد على ما كان يوجه إلى الإسلام من شبهات ، وإلى تقريبه من نفوس الشباب الذين نفروا منه ، متوهمين أن الجمع بينه وبين المدنية والعلم غير مستطاع . وكان من أهم ما اتخذته لذلك من وسائل مشاريعه في إصلاح الأزهر ، وفتاويه التي كان يجيب بها على السائلين من مختلف

الأقطار الإسلامية ، ودروسه التي كان يحضرها عدد كبير من المثقفين والوجهاء .  
ثم بينت أثر تجاوز هذين التيارين في انقسام المفكرين والناس في مختلف نواحي  
الحياة إلى محددين ومحافظين ، مما جر إلى احتدام الخصومة بين المتطرفين من  
الفريقين . فكان الفريق الأول يتهم الفريق الآخر بالجهل والتخلف والحمود .  
وكان الفريق الثاني يتهم الفريق الأول بالخروج على تقاليد الإسلام ، وربما ذهب  
في ذلك إلى اتهام أصحابه بالكفر وبأنهم أذئاب المستعمر وأعوانه ، يساعدونه  
عن قصد أو عن غير قصد ، بتحبيب الناس فيه بدلا من تنفيرهم منه . وقد نشأ عن  
تجاوز هذين التيارين تناقض في الحياة المصرية ، التي جمعت بين المحافظة المترمة  
وبين التطرف في الأخذ بأساليب المدنية الغربية ، في البيت الواحد في بعض الأحيان  
مما وضح أثره في شاعر كشوقي ، تجاوز في شعره وصف المرقص والحر ، مع  
مدائح الرسول وتمجيد الإسلام .

وانتهيت إلى أن هذه الصيحات المتباينة المتنافرة ، التي كانت تأخذ الناس من  
كل الجهات ، قد ساعدت على تنبيه الوعي القومي وإنضاج التفكير ، فكانت أشبه  
شيء بالفوضى التي تمهد للنظام ، وبالسدوم الذي يتكشف عن الإجرام ، وبالشك  
الذي يلد اليقين .

ولم يكن يعني في هذه الفصول أن أستقصي الأحداث ، وأن ألم بالتفاصيل .  
لكن عنايتي قد انصرفت إلى توضيح الخطوط الرئيسية ، والاتجاهات العامة ،  
والتيارات الأساسية ، التي ظهرت في هذه الفترة وسيطرت عليها ، مستنبطاً ذلك  
من النصوص الشعرية والنثرية ، مع مطابقتها بالأحداث التاريخية . وأرجو أن أكون  
قد عاونت بذلك على تصحيح بعض المعايير النقدية ، وتوضيح ما يكتنفها من  
لبس أو غموض .

ولا يفوتني في ختام هذا التقديم أن أشكر السيد ماهر حسن فهمي لما قدم لي



من عون في تأريخ كثير من قصائد شوقي بالرجوع إلى تاريخ نشرها في الدوريات  
وفي إعداد فهرس هذا الكتاب .

وعلى الله التوكل والاعتماد ، ومنه العون والتوفيق والسداد .

رمل الإسكندرية } ٢٩ شعبان سنة ١٣٧٣  
٢ مايو سنة ١٩٥٤ محمد محمد حسين



# الفصل الأول

## الجامعة الإسلامية

كانت النزعة الإسلامية غالبية على العنصرية الجنسية والرابطة القومية في مصر إلى أوائل القرن العشرين . ولذلك لم يكن المصريون يجدون غضاضة في الاعتراف بسلطة الخليفة التركي . وحين ثار عرابي على فساد أساليب الحكم في مصر وعلى تغلغل النفوذ الأجنبي لم يخطر بباله أن يخلع طاعة الخليفة أو يخرج عليه ، فهو يعرض عليه خطواته ، مستمداً منه السلطة في كل ما يفعل <sup>(١)</sup> . ويضع مستر بلانت في مقدمة برنامج الحزب الوطني الاعتراف بسلطة الباب العالي وبأن « جلالة السلطان عبد الحميد مولاهم وخليفة الله في أرضه وإمام المسلمين » <sup>(٢)</sup> . وهذا هو قرار الجمعية العمومية الذي صدر بتأييد عرابي عندما عزل الحديوي توفيق بختم بالاعتراف بالولاء للسلطان ، إذ ينص على وجوب « عرض القرار على الاعتبار العالية الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات » <sup>(٣)</sup> . ويقول عرابي في مذكراته « وبعد إمضاء هذا القرار عرض مضمونه بواسطة التلغراف على الحضرة السلطانية ، وصار إبلاغه إلينا رسمياً وإلزامنا بالمداومة على الدفاع وإعطاؤنا لقب ( حامي

١ - مذكرات عرابي ١ : ٧١ ، ٢٢٢

٢ - مذكرات عرابي ١ : ١١٧

٣ - الثورة العرابية ٣٩٠

البلاد المصرية) « (١). وهذه هي المنشورات التي كان يصدرها الخديوي توفيق ،  
تستعين على تنفير الناس من عرابي بتصويره خارجاً على الخلافة ، عاصياً أوامر  
أمير المؤمنين (٢). وقد كانت كل خطب العرابيين تدور حول الخوض على الدفاع  
عن الدين الإسلامي (٣). وظل عرابي يعتمد على مساعدة السلطان وتأييده ، حتى  
أعلن عصيانه تحت ضغط إنجلترا ، فكان لهذا الإعلان أسوأ الأثر . كما يقول  
عرابي نفسه في مذكراته (٤) .

كانت المسألة الشرقية ملونة عند معظم الكتاب والمفكرين في هذه الفترة بلون  
ديني يكاد يكون امتداداً للتزاع الصليبي في العصور الوسطى . وقد ساعد على تجمع  
الشعوب الإسلامية حول راية الخلافة العثمانية ما كان يبدو بوضوح من مطامع  
الدول الأوروبية في هذه الشعوب جميعاً . فكانت روسيا لا تنقطع عن إثارة الفتن  
بين دول البلقان وتأليبهم على الحكم التركي ومدّهم بالسلاح بدعوى التخلص من  
حكم المسلمين (٥) . وكانت العرائض تنهال على الملكة فكتوريا طالبة إنقاذ  
المسيحيين من مذابح المسلمين (٦) . وكان جلادستون زعيم حزب الأحرار بإنجلترا  
يلقي الخطب الرنانة ، ويؤلف الرسائل المطولة ، ناسباً إلى تركيا اضطهاد المسيحيين  
مشيراً إلى السلطان عبد الحميد بقوله « الشيطان » و « العدو المسيح » (٧) . وهذا هو  
المستر بارنج (اللورد كرومر فيما بعد) سكرتير سفارة إنجلترا في الآستانة يكتب  
تقريراً مطولاً عن المسألة البلقانية ، يذكرنا بتقاريره المشهورة عن مصر ، ينسب  
فيه إلى المسلمين ارتكاب جرائم بشعة في الانتقام من المسيحيين ، مقترحاً أن يكون

١ - مذكرات عرابي ١ : ١٩٧

٢ - مصر للمصريين ٥ : ١٨٠ - ١٩٣ ، مذكرات عرابي ١ : ١٩٨

٣ - مصر للمصريين ٥ : ١٩٤ - ١٩٨

٤ - مصر للمصريين ٥ : ٢٠٠ - ٢٠١ ، مذكرات عرابي ٢ : ١٧ - ٢٠

٥ - عبد الحميد ظل الله على الأرض ٧٢ - ٧٣ ، تاريخ الدولة العلية ٣٤١ ، صداقة أربعين عاماً

ص ٢٧٤

٦ - عبد الحميد ص ٧٤

٧ - عبد الحميد ص ٨٤ ، تاريخ الدولة العلية ٣٣٩

حكام هذه الأقاليم مسيحيين <sup>(١)</sup> . وقد بلغ من تعصب أحد كتاب فرنسا أن اقترح حلاً للمسألة الإسلامية القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول الكريم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر في باريس <sup>(٢)</sup> .

و حين تضطر تركيا إلى محاربة روسيا تنهال عليها الأمداد بالموث والرجال من سائر الأقطار الإسلامية ، وينبث الدعاة في كل مكان ، يحرضون الناس على الدفاع عن الإسلام ، حتى تبلغ دعوتهم الهند والصين ، بينما يعلن المسيحيون من رعايا الإمبراطورية العثمانية أنهم لن يقاتلوا الروس أو أي مسيحي آخر <sup>(٣)</sup> . و حين كان يتحدث القيصر عن تحرير النصارى من تركيا ، و حين كانت تتجاوب الصيحات في بلاد البلقان « اقدفوا بالمسلمين إلى البحر » كان السلطان يدعو إلى تحرير المسلمين من روسيا فتتجاوب صيحاتهم : « الآن سوف يسود الإسلام » <sup>(٤)</sup> .

ويغذي هذه الفتنة الدينية ما يردد من أخبار المجازر الوحشية الرهيبة في البلقان ، التي لم ينج من شرها أطفال المسلمين وفتياتهم <sup>(٥)</sup> . و يجيب السلطان عبد الحميد على هذه المجازر البشعة بمجازر أخرى أبشع منها في إخماد ثورة الأرمن سنة ١٨٩٤ م <sup>(٦)</sup> . و يكشف السلطان عبد الحميد في مختتم القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين السياسة الرشيدة التي يستطيع بواسطتها أن يحفظ الإمبراطورية العثمانية المتداعية من الانهيار ويصون عقدها من الانقراض وذلك بالاتجاه إلى تقوية فكرة الجامعة الإسلامية ونشر شعاره المعروف « يامسلمي العالم .. اتحدوا » <sup>(٧)</sup> .

كل هذه الأحداث قد ساعدت على تنمية الشعور بالرابطة الإسلامية ،

١ - تاريخ الدولة العلية ٣٣٩ - ٣٤١

٢ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٨٠١

٣ - عبد الحميد ٩١ .

٤ - عبد الحميد ٩٣ ، صداقة أربعين عاماً ٢٧٤ .

٥ - عبد الحميد ٩٤ و ١٠٣ - ١٠٤ ، الدولة العلية ٢٦١٠ - ٢٦٢ ، صداقة أربعين عاماً

٦ - عبد الحميد ١٣٤ - ١٣٥ .

٧ - ٢٦٨ - ٢٨٣ .

٧ - عبد الحميد ١٦٨ - ١٦٩ و ١٧٢ - ١٧٥ .



وتغذية الإحساس بالخطر الذي يهدد شعوبها أمام غول الاستعمار الغربي المتربص بها ، فيدعوها إلى التجمع حول تركيا ، بوصفها أقوى هذه الشعوب وأقدرها على قيادة المعركة ضد العدو المشترك .

والتأمل لأدب هذه الفترة في مصر ، شعراً ونثراً ، يجد ذلك واضحاً كل الوضوح . فجريدة العروة الوثقى تكتب في سنة ١٨٨٤ . مجموعة من المقالات في الحث على اتحاد كلمة المسلمين ، منها مقال عنوانه (الجنسية والديانة الإسلامية) جاء فيه :

« وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية ، التي لا تميز بين جنس و جنس ، واجتماع آراء الأمة . وليس للوازع أدنى امتياز عنهم إلا بكونه أحرصهم على الشريعة والدفاع عنها . وكل فخار تكسبه الأنساب ، وكل امتياز تفيده الأحساب ، لم يجعل له الشارع أثراً في وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض . بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحققة ، فهي ممقوتة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم ، والمتعصب لها ملوم . فقد قال صلى الله عليه وسلم ( ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية ) . والأحاديث النبوية والآيات المتزلة متضافرة على هذا . ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى - اتباع الشريعة - (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف في جنسه ، ولا امتياز له في قبيلته ، ولا ورث الملك عن آبائه ، ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه . وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه . . هذا ما أرشدتنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن ، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس ، والفارسي يقبل سيادة العربي ، والهندي يدعن لرياسة الأفغاني ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض . وإن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل ، مادام صاحب الحكم

حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذاهبها . . . (١) » .

وفي مقال آخر عنوانه « التعصب » ، يرد جمال الدين الأفغاني (٢) على من يمجدون التعصب للوطن ويحطون من شأن العصبية الدينية ، فيرميهم بالغفلة وبأنهم أبواق المستعمر الذي يحاول توهين العصبية الدينية ليقطع الرابطة التي تجمع بين شعوبها ، ويدلل على كذب المستعمرين وتدليسهم بأنهم أكثر الناس عصبية للدين في كل ما تجري عليه سياستهم (٣) . ويقول في مقال ثالث له عنوانه (الوحدة الإسلامية) :

« لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم ، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة والسلطين في جنس واحد . . . . . وجلب تنازع الأمراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم . . . . . ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل ، فانقلبوا مع الهوى ، وضلت عنهم غايات المجد الموثل ، وقنعوا باللقاب الإمارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان ، واختاروا موالة الأجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس ، ولجأوا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم ، استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل » (٤) .

ويقول عبد الله النديم في مقال طويل له في مجلة ( الأستاذ ) سنة ١٨٩٣ عنوانه ( لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا ) :

« لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التي هي جزء منها في الحقيقة . ولكن المغايرة وسعي أوروبا

١ - تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٢٣ - ٢٢٧

٢ - المعروف أن جمال الدين الأفغاني هو صاحب الفكرة في مقالات « العروة الوثقى » التي كانت تصدر في باريس ، وأن محمد عبده هو الذي كان يصوغ هذه الأفكار بعبارة .

٣ - تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٤٩ - ٢٥٨ .

٤ - نفس المرجع ٢ : ٢٧٦ - ٢٨٢ .

في تلاشي الدين الإسلامي أوجب هذا التحامل الذي أخرج كثيراً من ممالك الدولة بالاستقلال أو الابتلاع . وإننا نرى كثيراً من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الأحكام . ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتاً وأحسنها تبصراً وأقواها عزيمة . فإنها في نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدواني ، لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثمان عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا ، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان ، وكثير من اللغات . والفن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يمثلهم مذهباً أو يقرب منهم جنساً . وكل دولة طامعة في قطعة تحتلها باسم المحافظة على حدودها أو وقاية دينها ، مع اتساع أراضيها ، وعدم وجود السكك الحديدية المسهلة للتنقل والتجول ، وعدم وجود أنهر مستمرة الفيضان في غالب أراضيها ووجودها تحت رحمة الله تعالى ، إن شاء أمطرها فأخصبت أو منعها فأجدبت ، وهذه أمور لو ابتليت بها أعظم دول أوربية لما قامت هذه الصواعق أكثر من عام أو عامين وتسقط أو تتلاشى <sup>(١)</sup> ويقول مصطفى كامل في مقدمة كتابه (المسألة الشرقية) الذي ظهر سنة ١٨٩٨ « وإني أضرع إلى الله فاطر السموات والأرض من فؤاد مخلص وقلب صادق ، أن يهب الدولة العلية القوة الأبدية والنصر السرمدي ، ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر في سؤدد ورفعة ، وأن يحفظ للدولة العثمانية حامي حماها ، وللإسلام إمامه وناصره ، جلالة السلطان الأعظم والخليفة الأكبر الغازي عبد الحميد الثاني ، وأن يحفظ لمصر في ظل جلالته عزيزها المحبوب وأميرها المعظم سمو الحديوي عباس حلمي الثاني . إن ربي سميع مجيب <sup>(٢)</sup> . »

ويقول : « اتفق الكتاب والسياسيون على أن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع القائم بين دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها . وبعبارة أخرى هي مسألة وجود الدولة العلية نفسها في أوروبا . وقد قال كُتَّاب

١ - سلافة النديم ٢ : ٦١ - الأستاذ ، عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٤ .

٢ - المسألة الشرقية ص ٤ .

آخرون من الشرق ومن الغرب بأن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع المستمر بين النصرانية والإسلام ، أي مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الإسلام وبين دول المسيحية » (١)

ويقول بعد ذلك ، في تصوير إثارة إنجلترا للأقليات المسيحية في الإمبراطورية العثمانية : « وأما العناصر التي كالأرمن ، تستعملها بعض الدول كإنكلترا ، فهي تثور بعوامل الدين وبدسائس دينية . وقد ثبت ذلك جلياً في المسألة الأرمنية ، وشهد أن الأرمن الكاثوليك كانوا على سكينة تامة بينما كان البروتستانت يثورون ويدبرون المكائد ضد الحكومة العثمانية . فمسألة الدين في الدولة العلية هي الآلة القوية التي يستعملها أصحاب الدسائس والغايات . وأولئك الذين يثورون بدسائس أعداء الدولة إنما يثورون ضد أنفسهم ، ويقضون على حياتهم وسعادتهم بعيشهم وجنودهم واتباعهم لأوامر أعداء الدولة المحركين لهم . فالذين ماتوا من الأرمن في الحوادث الأرمنية إنما ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية . والذين ماتوا في كريت ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية . بل والذين ماتوا من جنود اليونان في تساليا ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية نفسها » (٢) .

ويقول في تمجيد السلطان عبد الحميد : « وإن أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان ووجه عنايته لإبطال مساعي الدخلاء وتطهير الدولة من وجودهم هو جلالة السلطان الحالي . فقد تعلم من حرب سنة ١٨٧٧ وما جرى فيها أن الدخلاء بلية البلايا في الدولة ومصيبة المصائب . فعمل بحكمته العالية على تبديد قوتهم وترية الرجال الذين يرفعون شأن الدولة ويعملون لإعلاء قدرها » (٣) .

ويقول في ضرورة المحافظة على سلامة الإمبراطورية العثمانية وتصوير قوة نفوذها بين الأمم الإسلامية : « ولكن الحقيقة هي أن بقاء الدولة العلية ضروري

١ - المسألة الشرقية ص ٥

٢ - المسألة الشرقية ص ٨ ، ٩

٣ - المسألة الشرقية ص ١٠

النوع البشري، وأن في بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق. وقد أحس الكثيرون من رجال السياسة ومن رجال الأقلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن العام، وأن زوالها (لا قدر الله) يكون مجلبة للأخطار، أكبر الأخطار، ومشعلة لنيران يمتد لهبها بالأرض شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام يكون داعية لثورة عامة بين المسلمين وحرب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صنيانية. »

« وإن الذين يدعون العمل لخير النصرانية في الشرق يعلمون قبل كل إنسان أن تقسيم الدولة العلية أو حلها يكون الضربة القاضية على مسيحيي الشرق عموماً قبل مسلميه. فقد أجمع العقلاء والبصيريون بعواقب الأمور على أن دولة آل عثمان لا تزول من الوجود إلا ودماء المسلمين والمسيحيين تجري كالأنهار والبحار في كل واد » (١).

ويقول في سعي إنجلترا لهدم الخلافة التركية وتعضيدهم لكل خارج عليها : « وقد علمت إنجلترا أن احتلالها لمصر كان - ولا يزال يكون مادام قائماً - سبباً للعدواة بينها وبين الدولة العلية، وأن المملكة العثمانية لا تقبل مطلقاً الاتفاق مع إنكلترا على بقائها في مصر... ولذلك رأت إنكلترا أن بقاء السلطنة العثمانية يكون عقبة أبدية في طريقها ومنشأ للمشاكل والعقبات في سبيل امتلاكها مصر، وأن خير وسيلة تضمن لها البقاء في مصر ووضع يدها على وادي النيل هي هدم السلطنة العثمانية ونقل الخلافة الإسلامية إلى أيدي رجل يكون تحت وصاية الإنكليز، وبمثابة آلة في أيديهم. ولذلك أخرج ساسة بريطانيا مشروع الخلافة العربية مؤملين به استمالة العرب لهم وقيامهم بالعصيان في وجه الدولة العلية... ولذلك أيضاً كنت ترى الإنكليز ينشرون في جرائدهم أيام الحوادث الأرمنية مشروع تقسيم الدولة العلية - حماها الله - جاعلين لأنفسهم من الأملاك المحروسة مصر وبلاد العرب، أي السلطة العامة على المسلمين. »

« والذي يبغض الإنكليز على الخصوص في جلالة السلطان الحالي هو ميله الشديد إلى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الإسلامية . . . ومن ذلك يفهم القارىء سبب اهتمام الإنكليز بالأفراد القليلين الذين قاموا من المسلمين ضد جلالة السلطان الأعظم وسبب مساعدتهم لهم بكل ما في وسعهم . . . فإن مشروع جعل الخلافة الإسلامية تحت وصاية الإنكليز وحمايتهم هو مشروع ابتكره الكثيرون من سواسهم منذ عهد بعيد . وقد كتب كتاب الإنكليز في هذا الموضوع ومنهم المستر بلانت المعروف في مصر . فقد كتب كتاباً قبل احتلال الإنكليز لمصر في هذا المعنى سماه (مستقبل الإسلام) وأبان فيه أغراض حكومة بلاده وأمانى الإنكليز في مستقبل الإسلام . وقد كتب في فاتحة كتابه :

لا تقنطوا فالدرّ يُنْشَرِعُ قَدْهُ ليعود أحسن في النظام وأجمل

« أي أن هدم السلطنة العثمانية لا يضر بالمسلمين ، بل إن هذا العقد العثماني ينثر ليعود عقداً عربياً أحسن وأجمل . ولكن ما لم يقله المستر بلانت هو أن قومه يريدون هذا العقد العربي في جيد بريطانيا لا في جيد الإسلام ! ! . وبين المستر بلانت أيضاً (أن مركز الخلافة الإسلامية يجب أن يكون مكة ، وأن الخليفة في المستقبل يجب أن يكون رئيساً دينياً ، لا ملكاً دنيوياً) أي أن الأمور الدنيوية تترك لإنكلترا لتدبر أمورها كيف تشاء ! ويعقب المستر بلانت ذلك بقوله (وإن خليفة كهذا يكون بالطبع محتاجاً لخليف ينصره ويساعده ، وما ذلك الخليف إلا إنكلترا ! ! ) وبالحملة فحضرة المؤلف لكتاب مستقبل الإسلام يرى — وما هو إلا مترجم عن آمال أبناء جنسه — أن الأليق بالإسلام أن ينصب إنكلترا دولة له . ولم يبق للمستر بلانت إلا أن يقول بأن الخليفة يجب أن يكون إنكليزياً ! ! » (١)

ويختتم مصطفى كامل الفصل الأول من كتابه بالدعوة إلى الالتفاف حول الراية العثمانية بقوله « أما واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة إنكلترا للدولة العلية فبين لا ينكره إلا الخونة والخوارج والدخلاء . فواجب العثمانيين أن



يجتمعوا جميعاً حول راية السلطنة السنية ، وأن يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قواهم ولو تفانى الكثيرون منهم في هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة لا عبيداً . وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة ، وأن يعزّزوها بالأموال والأرواح ، ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفي بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية » (١) .

وكان محمد فريد خليفة مصطفى كامل متفقاً معه في أن مصلحة مصر في ذلك الوقت تدعو إلى موازرتها لتركيا ، لأن ذلك هو السبيل الأمثل إلى مناهضة المستعمرين . يدل على ذلك اهتمامه بتأليف كتاب عن (تاريخ الدولة العلية العثمانية) يقول في مقدمته : « على أن الملك العثماني قد لَمَّ من شعث الولايات الإسلامية وقطع من تقاطعها ما رَدَّ على السيطرة الإسلامية كل السيطرة الشرعية . على أثر ذلك قامت قيامة التعصب الديني في الممالك الأوروبية ، واتفقت على اختلافها ، وتوحدت على تعددها ، وانسابت على الملك العثماني ، وأخذت تحاربه مثنى وثلاث ورباع لتقويض عرشه وردّه إلى مهده الأول . . . فلما كانت هذه الدولة قد وقفت نفسها للذب عن حرية الشرق والذود عن حوضه ، ولما كانت هي الحامية لبيضة الدين الإسلامي زمناً طويلاً . . . رأيت من الواجب علي خدمة للحقيقة ونفعاً لأبناء البلاد ، أن أدون هذا التاريخ . . . راجياً منه تعالى أن يوفقني لخدمة الوطن ونفع بنيه وأن يديم ويؤكد ما بين مصرنا والدولة العلية من التبعية ، وأن يحفظ خديونا المعظم عباس حلمي الثاني ملجأ لمصر وأبنائها ومنقذاً لها من ورطتها إنه السميع المجيب » .

ومما يدل على حسن تقبل الرأي العام لهذا الكتاب أنه طبع للمرة الأولى سنة ١٨٩٣ ، فلم يمض على طبعه ثلاثة أعوام حتى أعيد طبعه سنة ١٨٩٦ ، مع قلة عدد القراء في ذلك الوقت . ومما يدل على ثبات مؤلفه على آرائه فيه أنه طبعه للمرة الثالثة سنة ١٩١٢ حين بلغ الحصار بينه وبين الخديوي عباس ذروته .

وقد صور كرومر في كتابه (مصر الحديثة) الذي ظهر عقب مغادرته مصر سعة انتشار فكرة الرابطة الإسلامية بين المصريين ، واعترف بما تتمتع به الخلافة التركية من نفوذ واسع في مصر ، فتكلم عن الحجاب الكثيف من التعصب الديني الذي يقوم بين الإنجليزي الراغب في إصلاح مصر - حسب زعمه - وبين المصريين<sup>(١)</sup> . كما تكلم عن تمسك المصريين بعقيدتهم الإسلامية المتغلبة على الوطنية بمعناها الإقليمي ، والتي تؤمن بالوحدة الكاملة بين المسلمين في سائر أقطار الأرض<sup>(٢)</sup> . وتكلم في موضع آخر من كتابه عن هيئة المصريين المركوزة في أعماق نفوسهم للترك المستعمرين<sup>(٣)</sup> ، وعن عطفهم على الخليفة التركي كلما وقع في محنة ، مستشهداً على ذلك بما حدث سنة ١٨٩٢ حين عارضت إنجلترا صدور فرمان التركي ، وفي سنة ١٩٠٦ حين اختلفت إنجلترا وتركيا على حدود مصر الشرقية في سيناء . فقد أثار شعور المصريين - كما يقول - أن تذل دولة مسيحية خليفة المسلمين<sup>(٤)</sup> .

\* \* \*

هذه النزعة الإسلامية التي رأيناها واضحة في كتاب العصر وقادته ومفكريه نستطيع أن نتبعها في الشعر فنجدها في مثل هذا الوضوح . فليس بين الشعراء المعاصرين وقتذاك ، على اختلافهم وتباين نزعاتهم ، من يخلو ديوانه من شعر في مدح الخليفة التركي ، والإشادة بفضله على المسلمين ، وحرصه على إعلاء كلمة الدين . وليس فيهم من تخلف عن المشاركة بشعره في حروب تركيا وأحداثها الجسام ، مثل حرب اليونان وحرب طرابلس وحرب البلقان والدستور العثماني وسقوط عبد الحميد . وهم يرون أن الخليفة هو الجامع لشمل المسلمين ، وأنه حين يحارب إنما يحارب دفاعاً عن الإسلام وتمسكاً بإعلاء كلمته بين الدول

١ - Modern Egypt ٢ : ١٣٩

٢ - المرجع نفسه ٢ : ١٣٢ - ١٣٣

٣ - المرجع نفسه ٤ : ١٦٩

٤ - المرجع نفسه ٢ : ١٧٠

التي تتربص به . وهم يدعون إلى اتحاد كلمة المسلمين في ظل راية الخلافة ،  
محذرين من الإصغاء إلى دعوة التفرقة التي لا تصيب الأمم الإسلامية جميعاً  
إلا بالشر .

يقول شوقي (١) :

رَضِيَ المسلمون والإسلام	فرع عثمان . دُمَ فِداك الدوام
إليه عبد الحميد جلّ زمان	أنت فيه خليفة وإمام
عُمَرُ أنت ، بَيِّدُ أنك ظل	للبرايا وعصمة وسلام
ما تتوجت بالخلافة حتى	تُوج البائسون والأيتام
ولأنت الذي رعيته الأُمُودُ	ومسرى ظلالها الآجام
أمة الترك والعراق وأهلوه	ه ولبنان والربى والخيام
عالم لم يكن لينظّم لولا	أنك السّلم وسطه والوثام

ويقول حافظ من قصيدة له أنشئت في عيد تأسيس الدولة العلية ١٩٠٦ : (٢)

لقد مكن الرحمن في الأرض دولة	لعثمان لا تغفو ولا تتشعب
بناها فظنتها الدراري (٣) منزلا	لبدر الدجى تُبنى وللسعد تُنصب
وقام رجال بالإمامة بعده	فزادوا على ذاك البناء وطنبوا
وردوا على الإسلام عهد شبابه	ومدوا له جاهاً يرجى ويرهب
أسود على البسفور تحمي عرينها	وترعى نيام الشرق والغرب يرقب

ويقول محرم (٤) :

يا آل عثمان من ترك ومن عرب	وأى شعب يساوي الترك والعربا
صونوا الهلال وزيدوا مجده عاماً	لا مجد من بعده إن ضاع أو ذهابا

١ - الديوان ١ : ٢٩٦

٢ - الديوان ٢ : ١٧

٣ - الدراري : الكواكب المضيئة ، جمع دري ( بضم ثم كسرة مشددة )

٤ - الديوان ٢ : ٤

ملك الهلال وهذا المجد والحسب  
فجدد العهد والحق الحب والرغب  
على سواك لقينا الحين والعطبا

أبو الخلائف ذو النورين (١) مورثنا  
يا تاج عثمان إن اليوم موعدا  
لو ضاع عهدك أو حام الرجاء بنا

ويقول (٢) :

شرعوا لما وضع السبيل الأقوم  
عنها من الحدّ ثان ليل مظلم  
وهم حماة ثغورها ، وهم هم  
بالحرب يزخر في نواحيها الدم  
ويصان من كيد الحصوم ويعصم

لولا بنو عثمان والسّنن الذي  
سطعوا بآفاق الخلافة فانجلي  
فهم ولاية أمورها وكفاتها  
تعتز آناً بالسلام وتارة  
فبتلك يكفّي الملك ذا شحنائه

ويقول (٣) :

والأرض تشرف فوقها الأعلام  
والناس فيهم منسّم (٤) وسنام  
ملك بأمر إلهه قوام  
رأي له في المشكلات حسام  
للملك ما ذهبت به الأيام  
ومضاؤه لتضعع الإسلام  
وكذاك يحمي غيله الضرغام  
عاداك بين العالمين دوام  
تعنوك الأعراب والأعجام

إنّا بني عثمان أعلام الوري  
إنّا السنام إذا الأنام تفاخرت  
إنّا يسوس أمورنا وقيمها  
رحب الذراع كفى الذي نعنى به  
عبد الحميد أتاح في أيامه  
لولا حزامته وشدة بأسه  
ما زال يحمي حوضه مذ جاءه  
دُم يا أمير المؤمنين فما لمن  
لازلت ياركن الخلافة شامخاً

ويقول الكاشف ، من قصيدة له في عيد جلوس السلطان عبد الحميد

١ - ذو النورين هو عثمان الأول الذي تنسب إليه دولتهم المتوفى سنة ١٣٣٦ م

٢ - الديوان ٢ : ٤٣

٣ - الديوان ٢ : ٣٣

٤ - المنسّم : خف البعير . أي أن في الناس الكبير والحقير

سنة ١٩٠٠ (١) :

يا ناصر الإسلام إن زماننا      بك صار في عز وفي استكبار  
ومعزاً كل مسلم لك خاضع      ومذلّ كل معاند جبار  
ومعيد أدوار الشباب لموطن      كم للحوادث فيه من أدوار  
ويقول من قصيدة يرثي بها خاله ، مبيناً فضله عليه في إرشاده وتربيته تربية  
إسلامية صحيحة (٢) :

وقد كنتَ المُعينَ على صلاحِي      ومرشديَ العَظيمَ إلى الكمال  
تعلّمني الرمايَـة والقوافي      وآداب الخطابة والجدال  
وتلهمني المعاني باهرات      أسيل بهن كالسحر الحلال  
وتوضح لي المسالك والمساوي      فأبلغ كل ممتنع المنال  
وتُشرِّبني بعلمك حبّاً ديني      وقومي والخليفة والهلل  
ويقول نسيم من قصيدة له في تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد الفطر (٣) :

أُقيمت عرشك بين الحق والسدَد      فزاده الله تثيتاً إلى الأبد  
... فكيف نفزع في الدنيا لطائرة      وأنت تحمي ذمار الفازع الخُصْد (٤)  
خليفة الله يا ابن الغر من نجْب      لله درك يوم الرّوع من عضد  
جاهدت في الملك تحميه وتحفظه      جهاد طه مع الأنصار في أُحُد  
والسيف يكتب آيَ الفتح محكمة      على البلاد بنفس من دم جَسَد (٥)  
وقد أعدت إلى الإسلام نصرته      حتى زهي بك واستدري إلى سند

١ - الديوان ١ : ٨

٢ - الديوان ١ : ١٤٧

٣ - الديوان ١ : ١٦

٤ - الخُصْد : العاجز عن النهوض .

٥ - الجَسَد : الدم ، وهو توكيد .

ويقول في قصيدة أخرى (١) :

وقد أعدت إلى الإسلام نصرته  
وبت ترعى الرعايا في مراقدها  
وكان قبلك قلب السيف مضطرباً  
فلا برحت لهذا الدين تكلوه

حتى ارتدى روضة باليانع الخضيل  
وصرت تحمي دمار الفازع الوجل  
فقرّ بعدك قلب السيف في الخلل  
حتى يعود إلى أيامه الأول

ويقول عبد المطلب من قصيدة له في تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد الدستور (٢) :

يا عيدٌ حيٍّ وأنت خير نهار  
ملك أقام على الخلافة منهم  
من بعد ما كان الزمان يحلها  
عهد مضى - لا عاد - كبّل دولة الـ

عبد الحميد بدولة الأحرار  
حرماً وقاها صولة الأشرار  
بالجور دار مذلة وبوار  
إسلام في الأغلال والآصار (٣)

فرمت مقاتلتها يدُ الأطماع من  
هذي تطالب بالدخول وهذه  
لولا أمير المؤمنين يحوطها

دول كليفن بحب الاستعمار  
تحتال في وطر من الأوطار (٤)  
لرأيتها خبراً من الأنخبار

ويقول من قصيدة له تزيد على مائتي بيت في الحرب العالمية الأولى ،

حين أعلنت إنجلترا الحماية على مصر سنة ١٩١٤ (٥) ، وقد بدأ قصيدته بتحية العلم التركي :

هلال الهدى في دارة المجد أشرق  
ويا علم الأعلام كم خفقت قلو

ودونك ليل الغي بالرشد فامحق  
ب قوم إلى مرأى حيفاً فيك فاخفق

ثم مضى في تصوير سوء حال مصر وما يسام أهلها ، إذ يساقون مرغمين إلى الموت ، مقاتلين تحت الراية البريطانية ، مخلفين وراءهم أرامل وأيتاماً وأمّهات ثاكلات . ثم تكلم عن مهاجمة أساطيل الحلفاء للأستانة مقر خلافة المسلمين ،

١ - الديوان ١ : ١٢٩

٢ - الديوان ٩٣ - ٩٤

٣ - الآصار : جمع إصر ( بكسر الحزة ) ، وهو النقل والذنب .

٤ - الوطر : الحاجة ، والجمع أوطار .

٥ - الديوان ١٥٩ - ١٧٤ .



مظهراً شماتته بعودة أساطيلهم خائبة مهزومة :

فأبلغ بني التاميز عنا وحلفهم      بباريس أنباء النذير المصدق  
عشية يحدون الأساطيل شرعاً      على اليم تحبو في الحديد المطبق  
تشن على دار الخلافة غارة      من البحر إن تقرع بها الدهر يفرق  
... تألفن بالعدوان ، يجرين باسمه      إلى غرض من مُدَّ حَضُّ الهُون مُزْلَق  
فأقبلن في شمل من البغي جامع      وعدن بشمل بالهوان مفرق  
... ومن يتحرش بالردى يتكرع الردى      زعافاً ومن يستنبث النار يُحرق<sup>(١)</sup>

وشعراؤنا المعاصرون في هذه الحقبة يعلقون على تركيا آمالاً جساماً .  
فهم يعلنون ولائهم لخليفة المسلمين في شتى المناسبات ، شاكين إليه ما نابهم من  
ضرر وما نزل بهم من خطب ، راجين تدخله لإنقاذهم . بل إنهم ليرون ذلك  
واجباً على خليفة المسلمين الذي نيظ بعنقه رعاية شؤونهم وحيطة دولهم ،  
يعاتبونه - وقد يقسون في العتاب - إن تخلف عنه :

يقول شوقي (٢) :

عالي الباب ، هُزَّ بابُك منا      فسعينا وفي النفوس مَرَام  
وتجليت فاستلمنا كما للذَّ      مأس بالركن ذي الجلال استلام  
نستميع الإمام نصرأ لمصر      مثلما ينصر الحسام الحسام  
فلمِصر - وأنت بالحب أدري -      بك يا حامي الحمى استعصام  
يشهد الله للنفوس بهذا      وكفاها أن يشهد العلام  
وإلى السيد الخليفة نشكو      جور دهر أحراره ظلام  
وَعَدُّوها لنا وعوداً كباراً      هل رأيت القرى علاها الجَهَام؟<sup>(٣)</sup>

١ - يكرع : أي يشرب . استنبث النار : كشف عنها التراب .

٢ - الديوان ١ : ٢٩٩

٣ - الجَهَام (بفتح الجيم) السحاب لا ماء فيه . يشبه وعودهم بالسحاب الذي لا يُمْطر .

ويقول في ختام قصيدته الطويلة في الوقائع العثمانية اليونانية (١) :

وإني لطير النيل لا طير غيره      وما النيل إلا من رياضك بحسب  
.. فلا زلت كهف الدين والهادي الذي      إلى الله بالزلفى له      نتقرب

ويقول حافظ من قصيدة له ، يشكو فيها نوب الزمان سنة ١٩١٠ ، ويبكي  
مجد الترك والعرب ، ويصور ما يلقي المصريون في ظل الاحتلال من هوان ،  
عائياً على الترك إهمالهم أمر مصر وتركها لقمة سائغة في يد المستعمرين (٢) :

فإن تكن نسبي للشرق مانعي	حظاً ، فواهاً لمجد الترك والعرب (٣)
وقاضيات لهم كانت إذا اخترطت	تدثر الغرب في ثوب من الرهب
وجمرة لهم في الشرق ما همدت	حتى علاها رماد الختل والكذب
متى أرى النيل لا تحلو موارده	لغير مرتبب في الله مرتقب
فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت	جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب (٤)
.. يا آل عثمان ما هذا الجفاء لنا	ونحن في الله إخوان وفي الكتب
تركتمونا لأقسام تخالفنا	في الدين والفضل والأخلاق والأدب

ويقول الكاشف من قصيدة له في عيد جلوس الخديوي عباس سنة ١٩٠٣ ،  
مشيراً إلى سعي ممدوخه في توكيد صلات الود بين مصر وتركيا ، مبيناً نفع هذه  
السياسة في القضية المصرية (٥) :

إن اتصالك بالخليفة ضامن      رد المغير مروّعاً مغلوباً  
والحجة البيضاء في يدك التي      فتحت مجالا للجهاد رحباً (٦)

١ - الديوان ١ : ٤٧ .

٢ - الديوان ٢ : ١١٨ - ١١٩ .

٣ - واهاً : كلمة تعجب ، وتأتي للتحسر ( فنقول واهاً على ما فات ) أي : يا حسرتي على ما فات .

٤ - اللؤلؤ الرطب : أي الدمع ، وهي استعارة في غير موضعها ، فليس هذا مكان تشبيه الدمع باللؤلؤ .

٥ - الديوان ١ : ٣٢ .

٦ - يقصد أنه حجتك الكبرى في عدم شرعية الاحتلال . لأنه نقض صريح لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، التي اعترفت فيها إنجلترا مع سائر الدول باستقلال مصر وبقائها تحت السيادة العثمانية .

ويقول من قصيدة له في الثورة العراقية يختمها بالحسرة على احتلال إنجلترا لمصر ، مترقياً اليوم الذي تجلو فيه عنها ، فتعود إلى راية الإسلام ورعاية خليفة المسلمين (١) :

ويا بلادي مالي كلما نظرت	عيناى ما فيك من جند وأعوان
وسطوةً للدخيل المعتدي اضطربت	روحي وقرح سكب الدمع أجفاني
واحرّ شوقي إلى يوم أراك به	في مأمن منه بل واطول تحناني !
فلا نطيع سوى عبد الحميد ولا	نرضى أميراً سوى عباسك الثاني
هناك أهتف بالأشعار منتشياً	مهتأ أطرب الدنيا بألحاني
يا مصر دام لك النيل الوفي ولا	أقلتي فيك غصن غير ريان

ويقول من قصيدة له في حرب طرابلس سنة ١٩١١ ، يحض فيها المصريين على التمسك بعري العثمانية ، داعياً عباساً إلى العودة لأحضان الخلافة بعدما كان من جفاء (٢) :

إن الذي جعل الخلافة فيكم	جعل المودة والمحبة فينا
إن ائتلاف قلوبكم وقلوبنا	ليمد أيديكم إلى أيدينا
يا آل مصر - وفي الحوادث عبرة -	فتصفحوها اليوم معتبرينا
فدعوا القضية للخليفة عليكم	بعد الوداد إليهم ناجونا
ما كان من حرج على مصر إذا	جربتم بعد الجفاء اللينا

ويقول من قصيدة يهنئ فيها عباساً بعودته من دار الخلافة بعد حادثة الحدود سنة ١٩٠٦ ، مستبشراً بوصل ما انقطع من حسن الصلات بالسلطان عبد الحميد مفنداً أقوال الذين زعموا أن الاستعمار الإنجليزي العادل خير من عودة مصر إلى أحضان الحكم التركي الظالم ، مهاجماً الإنجليز الذين استعدوا للحرب دفاعاً عن مصر فيما يزعمون ، وكأنها قد وكلتهم في الدفاع عنها . وليس معقولا أن

١ - الديوان ١ : ٥٤

٢ - الديوان ٢ : ٢٢

يستعين عباس بعدوه على أهله (١) .

وتروح بالهمم العلى مشغولا  
تغدو تبوعاً للخليفة مخلصاً  
هل بعد ما حدثته وشهدته  
... صف للرعية كيف مكّن عرشه  
جذلان يحسبه العداة عيلاً  
وانصح عباداً يزعمون الشرّ في  
في المشرقين وشيد الأسطولا  
هم أرجفوا بالحرب يتدرونها  
أن يستعيد إلى الفرات النيل  
قالوا استعان بنا على سلطانه  
وتوقعوا التدمير والتقتيلا  
هل تستغيث بضيفك المملول (٢) من  
من أن يمد يداً إليه طولى  
... متباينون هم ونحن شرائعاً  
أهلك والمولى الأعزّ قبيلاً  
وطبائعاً ومنازعاً وأصولاً

ويقول رداً على الذين يزعمون أنه بدعوته إلى الاتفاق مع تركيا إنما يريد أن يستبدل استعماراً باستعمار ، وأن تركيا قد لا تستطيع أن تمنع حليفها ألمانيا احتلال مصر بعد طرد الإنجليز . وذلك من قصيدة له في عيد جلوس الحديوي عباس (٣) :

ولأي ذنب صد عي معشري  
يوم الحساب وخاني إخواني  
لم أدر من أغضبتُه وأثرته  
قومي ؟ . . أم الخصم الذي أعياني ؟  
أوكلما سمعوا بمصر منادياً  
قالوا أجير الترك والألمان  
قومان متحدان يومئهما على  
خصميهما وغداً سيختصمان  
إن يرضيا - ومن المحال رضاهما -  
دفع المقيم ، فمن لنا بضمان ؟  
هل نبذلنّ مسيطراً بمسيطر  
ونقرّ من نهم إلى غرثان

يجيب الشاعر على دعواهم هذه بقوله :

ماذا ينال الترك من مصر إذا سلمت وساورها مغيرٌ ثاني

١ - الديوان ٢ : ٣٧

٢ - يقصد بالضيف المملول الاستعمار الإنجليزي ، وبالأهل : تركيا .

٣ - الديوان ٢ : ٤٠

أقول : غير صحيحة دعواكم فينا ، وإن شئت على الأذان ؟

ويقول من قصيدة كتبها في عيد جلوس السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٣ ،  
وقسا فيها على الترك حين عاتبهم على تخليهم عن القضية المصرية ، بعدما وقع  
من جفاء بين السلطان عبد الحميد والخديوي عباس بسبب جزيرة طاشوز<sup>(١)</sup> :

كذبتُم إذا ما شكونا جورَ غالينا	كذبتُم وادّعينم أنه بطرُ
واليوم لانتشكي حكماً ولا حكماً	ولا نعوذ بكم مما أتى القدر
ولا نكلفكم حرب الطبيعة إذ	لا بيضكم عندها تغني ولا السمر <sup>(٢)</sup>
ولا سألناكم مالا يكون لنا	عوناً ، فلسنا إلى ذي الفقر نفتقر
لكننا نرتجي منكم مجاملة	نسلو بها وعلى الأهوال نصطبر
بكي بنو الصين من أخبارنا جزعاً	وما استفزكم من أمرنا خبر
... هلا ذكرتم لنا صنعاً ومأثرة	إن كان للذكر في ألبابكم أثر ؟!
فكم جهرنا وأعلننا محبتكم	رغم الذين بقاسي بغضكم جهروا
وأندرونا <sup>(٣)</sup> فردناكم مظاهرة	حتى اكتفيتم وما أغتتهم النذر
ولا نمن عليكم أو نفاخركم	بطائلات أبادينا ونفتخر <sup>(٤)</sup>
فالقوس منكم ومنا السهم والوتر	والأسدُ أنتم ونحن الناب والظفر
... يا آل عثمان ، والدنيا مولية	عنا وعنكم إذا لم تنفع العبر
وإن بقيتم على هجر فشمركم	وشملنا شدّر بين العدي مذر
عودوا بلاداً أصيبت في عزائمها	ومالها وبنيتها فهي تختصر
فلم يقم شعراء النيل موسمهم	ولا استفزتهم الألقاب والبدر
قد كان ينظم درّ التهنتات فمي	فاليوم تنثر من أجفاني الدرر

١ - الديوان : ١٠٥ وتراجع تفاصيل مشكلة طاشوز في : مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٩٥ وما بعدها .

٢ - البيض : السيوف ، والسمر : الرماح .

٣ - الضمير في أندرونا مقصود به الإنجليز الذين يجاربون النفوذ التركي في مصر .

٤ - يشير إلى مساعدات مصر لتركيا في حروبها .

...إني وإن كنت في سخط لمعترف  
وإن تغير ما ضيكم بحاضركم  
أضعت أيامي الأولى سدى فعدت  
بأنكم لو نصرتم مصر تنصر  
فلن تحل بقلبي المخلص الغير  
تلومني فيكم أيامي الأخر<sup>(١)</sup>

ويقول على الغاياتي ، من قصيدة له وجهها إلى السلطان عبد الحميد في عيد  
الدستور العثماني سنة ١٩٠٨<sup>(٢)</sup> .

أمر المؤمنين مضت قلوب	إليك يحثها الحب المكين
توأم أن تراك لها معيناً	وأنت لها على الدهر المعين
رأتك أمامها الأمل المرجى	وفيك لدائها البرء المين
فيا أمل القلوب ، إليك مصر	تشير وبين جنيها حزين
تحن إليك يا رب المعالي	وقد حلت بساحتها الشجون
رمتها الحادثات بشرّ قَوْمٍ	لهم في كل مظلمة شؤون
قضت في عصرهم مصر ، ولولا	رجاء فيك ما قرّت عيون
فأعزّز يا حمى الإسلام شعباً	بعزك لا يذل ولا يهون

\* \* \*

وكان الشعراء يؤيدون ما يذهب إليه كثرة المصريين من أن الدول الأوربية  
حين تتذرع بالدين في طلب حماية الأقليات المسيحية في البلقان ، فتثير فيها الفتن  
التي لا تنقطع ، إنما تفعل ذلك طمعاً في اقتسام الإمبراطورية العثمانية ، فهم  
يخفون مطامعهم السياسية تحت ستار الدين .

١ - كان من آثار عنف الكاشف في هذا العتاب وخشونته أن لأمه صديقه الشاعر محرم ، إذ  
توهم أنه انصرف عن العثمانية إلى موالاة الإنجليز فأجابه بقوله :

أتدري بمذري في شكائي وتعلم	وتكثر لومي ؟ .. إنك الآن تظلم
توهمت أني حلت عن مبدئي الذي	نشأت عليه .. بنس ما تتوهم
فأخذتني بالعتب عند وجوبه	وعتبي على الترك انصراف إليهم

٢ - وطنيتي ص ٥٥

يقول شوقي من قصيدة له في الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ (١):

هب النسيم على مقدونيا برّدا	من بعدما عصفت جمرأ سوافيها (٢)
تغلي بساكنها ضغناً ونائرة	غلكي الصدور إذا ثارت دواعيها
عانت عصائب فيها كالذئاب عدت	على الأقطيع لما نام راعيها
خجلاً لها من رسوم الحكم دارسها	وغرها من طول الملك باليها
فسامر الشرّ في الأجيال رائجها	وصبح السهل بالعدوان غاديا
مظلومة في جوار الخوف ظلمة	والنفس مؤذية من راح يؤذيها
رثت لها وبكت من رقة دول	كالبوم يبكي ربوعاً عزّ باكيها

ويقول الكاشف ، من قصيدة له في حرب البلقان سنة ١٩١٣ ، مشيراً إلى ما ارتكبت فيها أمم البلقان المسيحية من جرائم بشعة في التنكيل بجيرانهم من المسلمين . (٣) :

صليبية يا قوم أم عنصرية	حروبكم؟ والدين هذا أم الشُّرك؟
وجيرانكم أعداؤكم أم حمايتكم؟	وأعداء عيسى المسلمون أم الترك؟
فهل كان عيسى يطلب الثأر بالحقنا	وهل كان من أخلاقه البغي والفتك (٤)؟
أقرّ بأضغان النفوس ملوككم	ومن كان في شك فقد ذهب الشك

ويقول من قصيدة أخرى في الموضوع نفسه (٥):

أأصبر حتى يسقط العرش بينهم وتلتهم النيران تلك الحمائل؟

١ - الديوان : ١ : ٣٦٠

٢ - السافية : الريح التي تسفي التراب أي تثيره وتذروه ، والجمع سوافي . يشير إلى هدوء

الفتن بعد الدستور . ٣ - الديوان ٢ : ٢٣

٤ - الحقنا : الفحش . يشير إلى منك أعراض المسلمين . وقوله « أم الترك » كذلك هي في

الديوان . والأصح أن يقول « أو الترك »

٥ - الديوان ٢ : ٢٤ .

حياتي لمغلوبين عانوا مكايـداً صليبية قبل الوغى وحبائلا  
إذا استجدوا بالمسلمين تخلفوا وكم وجدوا من قوم عيسى فحائلا  
فيا آل عثمان اتعاضاً فإنها تجاريب أيقظن الشعوب الغوافلا  
ويقول عبد المطلب من قصيدة له في عيد الدستور (١) :

عهد مضى - لاعاد - كبّل دولة الـ إسلام في الأغلال والآصار (٢)  
فرمت مقاتلها يد الأطماع في دول كلفن بحب الاستعمار  
هذي تطالب بالدخول ، وهذه تحتال في وطرٍ من الأوطار  
لولا أمير المؤمنين يحوطها لرأيتها خبراً من الأخبار

\* \* \*

وذلك الذي أشرنا إليه منذ قليل من مهاجمة مصطفى كامل لمشروع الخلافة  
العربية الذي يراه إحدى دسائس الإنجليز للتفريق بين المسلمين ووضع خلافتهم  
تحت النفوذ البريطاني . له نظائر في الشعر .

يقول شوقي ، من قصيدة « ضجيج الحجيج » التي رفعها إلى السلطان  
عبد الحميد سنة ١٩٠٤ ، شاكياً فيها اضطراب الأمن في ربوع الحجاز بسبب تمرد  
شريف مكة ، مما أدى إلى تهديد الحجاج ، طالباً إليه ألا يهين في تأديب الثائرين ،  
وأن لا تأخذه بهم رحمة (٣) :

ضج الحجاز وضج البيت والحرم قد مسها في حماك الضر فاقض لها  
لك الربوع التي ريع الحجيج بها أدب أدب أمير المؤمنين ، فما  
لا ترج فيه وقاراً للرسول فما . . في كل يوم قتال نقشعر له  
واستصرخت ربها في مكة الأمم خليفة الله ، أنت السيد الحكيم  
ألشريف عليها أم لك العلكم ؟ في العفو عن فاسق فضل ولا كرم  
بين البغاة وبين المصطفى رحيم وفتنة في ربوع الله تضطرم

١ - الديوان ٩٤ .

٢ - يشير إلى عهد الدسائس والجواسيس الذي سبق منع الدستور .

٣ - الديوان ١ : ٢٦٣ - ٢٦٦ .



أُزْرِيَ الشَّارِيفُ وَأَحْزَابُ الشَّارِيفِ بِهَا  
لَا تَجْزُهُمْ مِنْكَ حُلْماً وَاجْزُهُمْ عَنَّا  
كَفَى الْجَزِيرَةَ مَا جَرُّوا لَهَا سَفْهًا  
تِلْكَ الثُّغُورُ عَلَيْهَا - وَهِيَ زَيْتُنْهَا -  
فِي كُلِّ لَحْ حَوَالِيهَا لَهُمْ سَفْنٌ  
وَالْأَهْمُ أَمْرَاءُ السُّوءِ وَاتَّفَقُوا  
فَجَرَدَ السِّيفُ فِي وَقْتٍ يَفِيدُ بِهِ  
وَقَسَمُوا مَا كَارِثُ أَلَمِيَّتٍ وَانْقَسَمُوا  
فِي الْحُلُمِ مَا يَسِمُ الْأَفْعَالُ أَوْ بِهِمْ  
وَمَا يَحَاوُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا الْعَجْمُ (١)  
مَنَاهِلُ عَذِبَتْ لِلْقَوْمِ فَازْدَحَمُوا  
وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانٍ يَابَسَ قَدَمٌ  
مَعَ الْعِدَاةِ عَلَيْهَا ، فَالْعِدَاةُ هُمْ  
فَإِنْ لِلسِّيفِ يَوْمًا ، ثُمَّ يَنْصَرِمُ

ويقول حافظ ، من قصيدة يهنيء فيها السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه  
سنة ١٩٠٨ ، ويشير فيها إلى ما كان يضمّره شريف مكة من عصيان  
السلطان : (٢)

مَنْ عَلَى دَارِ السَّلَامِ تَحِيَّةٌ  
وَعَلَى رِجَالِ الْجَيْشِ مِنْ مَاشٍ بِهِ  
وَعَلَى الْأَوَّلَى سَكَنُوا إِلَى الْحَسَنِ سَوَى  
وَالِي الْحِجَازِ الْخَارِجِيَّ وَمَا بِهِ  
مَا لِلشَّرِيفِ الْمُنْتَمِي حَسْبًا إِلَى  
أَمْسَى بِمَالِكِهِ وَيَنْصُرُ غِيَّةً  
تَالَهُ لَوْ جُنْدَتُمَا رَمْلَ الثَّقَا  
وَعَرَسْتُمَا أَرْضَ الْحِجَازِ أَسَنَّةً  
وَأَقَمْتُمَا فِيهَا الْمَعَاقِلَ مَنَعَةً  
لَدَهَا كَمَا وَرَمَا كَمَا وَذَرَا كَمَا  
إِنْ تَأْتِيَا طَوْعًا ، وَإِلَّا فَاتِيَا  
وَعَلَى الْخَلِيفَةِ مِنْ بَنِي عُثْمَانَ  
أَوْ رَاكِبٍ أَوْ نَازِحٍ أَوْ دَانِي  
ذَاكَ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الْعَصِيَانِ  
إِلَّا اقْتَنَاصُ الْأَصْفَرِ الرِّنْسَانِ  
خَيْرُ الْبَرِيَّةِ مِنْ بَنِي عَدْنَانَ  
وَضِلَالُهُ بِجُثَالَةِ الْعَرَبَانِ  
وَنَزَلْتُمَا بِمَوَاطِنِ الْعَقْبَانِ  
وَأَسَلْتُمَا بِحَرٍّ مِنَ النِّيرَانِ  
مِنْ أَرْضِ نَجْدٍ إِلَى خَلِيجِ عُمَانَ  
مَاحِي الْحِصُونِ وَمَاسِحِ الْبِلْدَانِ  
كَرَهَا بَلَا حَوْلٍ وَلَا سُلْطَانَ

١ - يشير إلى مطامع الدول الأوروبية في بترول العراق الذي أصبح موضع تنافسهم منذ أول القرن  
العشرين . كما يشير إلى تسريحهم للمحميات في جنوب جزيرة العرب ، ولشواطئ الخليج  
العربي في شرقها واصطنائهم أولياء من أمراء هذه البلاد .

٢ - الديوان ١ : ٤٩ .

ويقول محرم من قصيدة له في حرب طرابلس سنة ١٩١٢ (١) .  
 ألا إن من شقّ العصا لمدّمّمٌ  
 ومن كان يأبى أن يوالي إمامه  
 سيعلم من خان الخليفة أنه  
 أطاع هواه واستزلته فتنة  
 له الويل ، ماذا هاج من نزواته  
 أطلب ملكاً أم يريد خلافة  
 تبارك ربّي ، كيف يعصيك مسلم  
 تباركت ، إن المسلمين كما ترى  
 وإن الذي يبغي الفساد لآثم  
 طواعيةً وإلاه والأنف راغم  
 موقّع أمر شره متفاقم  
 عضوض تلوّى في لهاها الأراقم  
 فثار يرامي ربه ويراجم ؟  
 تقام لها في المشعرين المواسم ؟  
 فيوقع بالإسلام ما أنت عالم ؟  
 تفارق ، منها مستطير ورازم

ويقول مشيراً إلى قوة الترك وحسن بلائهم في الدفاع عن الإسلام ، بما يجعلهم أحق من العرب في القيام على خلافة المسلمين ورعاية شعوبهم (٢) :

أسد الخلافة إن دبّ الضراء لها  
 صانوا محارمها بالبأس فامتنعت  
 وألبسوها ثياب العز ضافية  
 حاكوا سوابغها من نافذ ذرب  
 شدوا دعائمها من بعدما اضطربت  
 تمر بالدهر والأحداث هازئة  
 ما للخلافة إلا الترك تحرسها  
 وللأعراب حق لا نضيّعه  
 بنو أيّنا وإخوان الزمان على  
 منا ومنهم حماة الملك ، يجمعنا  
 عادي الثعالب أو ضاري السراحين (٣)  
 على المبيح وعافت خُطّة الهون  
 تمشي تجرّها فوق العرائن  
 وقاطع من سيوف الله مسنون  
 وداركوها بتأييد وتمكين  
 نخوض أهوالها شتى الأفانين  
 الله يحرسهم في آل ياسين  
 وإن رُمينا بتفريط وتهوين  
 ما كان من شدة يوماً ومن لين  
 عند اللوائين عهد غير موهون

١ - الديوان ٢ : ٣٧ . ٢ - الديوان ٢ : ٥٩ .

٣ - دبّ الضراء : أي مشي مستخفياً . السراحين : الذئاب .

٤ - استطار الشيء تفرق . رزم البعير لم يستطع النهوض من الإعياء .

ويقول الكاشف ، من قصيدة له في عيد الدستور العثماني (١) يهاجم فيها  
الناشرين على الخلافة من أهل الحجاز وأهل اليمن ممن يدعون إلى الخلافة العربية  
ويقول : إن تعاليم الإسلام سوت بين المسلمين ، ولم تختص بخلافتهم أمة دون  
أمة ، فأحقهم بها هم أقدرهم على القيام بحقها والنهوض بأعبائها :

ما اختص أحمد بالخلافة أمة . علماً بأن الدائرات تدور  
أولى بها من صانها من بعد ما عبثت مقادير بها وعصور  
وجلا السماء السيفُ وهي دجى كما ملأ السريرُ الأرضَ وهي تمور  
شقيت بما تتوهم الأعداء من هذا التراث ، وإنه لعسير

ويقول ، من قصيدة أخرى هنا بها الخديوي عباس في عودته من الأقطار  
الحجازية حين زارها حاجاً سنة ١٩١٠ (٢) :

يا ناصر الإسلام كيف مكانه من عُرْب تلك البيد وهو العادل؟  
أينازعون على الخلافة قادة لولا هم غال الخلافة غائل؟  
الله قدرها لهم وأعزهم ما دام فيهم قانت ومقاتل  
فليسكن العرب الكرام إليهم وليربأن بنفسه المتطاول  
هل يفتديها والخطوب جلائل من لم يصنها والخطوب قلائل؟

ويقول نسيم (٣) :

خليفة الله ، يا خير الورى ملكاً له الظبأ والوغى والجحفل السجب  
إن المنابر - والعبادُ تكنفها - تختال باسمك ما قبلت بها الخطب  
تتلى عليها عظات النسك مرشدة حتى تزول بها الأحقاد والريب  
مولاي مافي ملوك الشرق قاطبة سواك بينهم للملك منتخب

١ - الديوان ٢ : ٢٨ - ٢٩ .

٢ - الديوان ٢ : ٦١ .

٣ - الديوان ١ : ٧٥ .

وليس فيهم سواك الدهر ذولجب  
فهل بضرك غوغاء خليقتهم  
تغنو له الترك والأعجام والعرب  
في كل ماثرة يروونها الكذب ١٩

\* \* \*

وكان الشعراء يثورون لكل ما يمس شعباً إسلامياً حيثما كان ، ويرتفع صوتهم في كل نازلة تلم بموطن الخلافة .

ينتصر الترك في حربهم مع اليونان سنة ١٨٩٧ ، فيرتفع صوت شوقي بملحمته الحماسية الرائعة التي تفيض قوة ، والتي تجاوزت مائتين وخمسين بيتاً (١) :

بسيّفك يعلو الحق والحق أغلب وينصّر دين الله أليان تضرب

يشيد فيها بانتصار الترك الذين أعلوا راية الإسلام وصانوا خلافته ، فارتفعت رؤوس المسلمين وكانوا من قبل ينكسونها خجلاً (٢) :

رفعنا إلى النجم الرؤوس بنصركم وكنا بحكم الحادثات نصوب  
ومن كان منسوباً إلى دولة القنا فليس إلى شيء سوى العز ينسب

وقد ردت هذه الحرب إلى الناس ثقتهم بتركيا بعد أن كانوا يعتقدون - تحت تأثير الصحف الموالية للاستعمار كالمقطم - أنها قد صارت إلى حال من الضعف والانحلال ، لا تستطيع معها مناهضة اليونان ، حتى لقد غلا بعضهم بعد هذا النصر فتصور أنها من أقوى الدول وأنها تقدر على تدوين أي دولة أوروبية (٣) .

ويعلن السلطان عبد الحميد الدستور ، الذي سوى بين الشعوب العثمانية على اختلاف أجناسها وأديانها سنة ١٩٠٨ ، فيرتفع صوت شوقي بقصيدته (٤)

---

١ - الديوان ١ : ٧٥

٢ - الديوان ١ : ٣٠

٣ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٩١١

٤ - الديوان ١ : ٣٥٨

بشرى البرية قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميتها

وفيهما يبين ما أفاض الدستور على البلاد العثمانية من أمن ، وما كان له من أثر في إطفاء الفتن التي لم تنقطع ، بعد أن سكنت إليه الشعوب العثمانية على اختلاف أديانها وأجناسها ، لأنه سوى بينها بتمثيلها في المجلس النيابي . ويختم قصيدته بالحث على السلام ، وبأن اختلاف الأديان لا ينبغي أن يكون داعياً إلى الخصام ، فكلها يدعو إلى الله ، ويحث على الخير ، وينهى عن الشر .

ويسكت حافظ ، ولكنه يتكلم في العيد الأول للدستور بعد عام ، ويلقي قصيدة في حفل أقيم في الأزبكية سنة ١٩٠٩ بعد عزل السلطان عبد الحميد ، ممجداً الجيش التركي الذي تم على يده هذا الانقلاب الذي عم خيره كل البلاد العثمانية كما توهم (١) :

أجل هذه أعلامه ومواكبه	هنيئاً لهم فليسحب الذيلَ ساحبه
هنيئاً لهم فالكون في يوم عيدهم	مشاركه وضاعة ومغاربة
رعى الله شعباً جمع العدل شملته	وتمت على عهد الرشاد رغائبه (٢)
تحالف في ظل الهلال إمامه	وحاخامه - بعد الخلاف - وراهبه

ويختم القصيدة بتهنئة السلطان محمد رشاد :

ليهنيء أمير المؤمنين محمداً	خلافته فالعرش سعد كواكبه
ستملك أمواج البحار سفينته	كما ملكت شُمّ الجبال كتائبه
ممالكه محروسة وثغوره	ركائبه منصوره ومراكبه

ويذيع محرم قصيدته (٣) :

من يمنع الليث أن يعتز أو يشا	ما قيمة السيف إن جردته فنبأ
------------------------------	-----------------------------

وفيهما يحث على تضامن الشعوب العثمانية من ترك ومن عرب في سبيل رفع

١ - الديوان ٢ : ٤٨

٢ - السلطان محمد رشاد هو الذي خلف السلطان عبد الحميد بعد عزله .

٣ - الديوان ٢ : ٤ .

راية الإسلام .

ويقول الكاشف قصيدته (١) :

دار الخلافة حاطك البسفور وأجلّ قدرك في الوري الدستور

يشير فيها إلى فتن العراق واليمن التي يثيرها المنادون بالخلافة العربية فيضيفون إلى متاعب الدولة في البلقان متاعب جديدة ، منادياً بأن خلافة المسلمين لمن يحميها وأن أعباءهم لا ينهض بها إلا أقواهم ، وبأن العصبية ليست من الإسلام ، مؤكداً حبه وولاءه لدولة الإسلام وخليفة المسلمين ، الذي تتجه إليه وحده أبصارهم في سائر بقاع الأرض .

« حوران » مزدجر و« مقدونية »	ثكلى وقد راع « العراق » نذير
وتنصلت « صنعاء » من فجّارها	وأبى على المتطاولين « عسير »
لن يخلو « البلقان » من شر وإن	ملأت ثراه جماجم ونحور
من لم يطعمك موقفاً مستغفراً	فليبق وهو المرغم المقهور
المسلمون على اختلاف بقاعهم	في الأرض ما لهم سواك نصير

ويرتفع صوت عبد المطلب بقصيدته (٢) :

يا عيدُ حيٍّ وأنت خير نهار عبد الحميد بدولة الأحرار

ويرتفع صوت الغياثي بقصيدته (٣) :

أمير المؤمنين مضت قلوب إليك يحثها الحبّ الكمين

ويقول عبد الحلیم المصري (٤) :

تهلل الحج والدستور في رحب وطلعة العيد لاحت ثم لم تغب

١ - الديوان ٢ : ٢٧

٢ - الديوان ٩٣

٣ - وطني ص ٥٥

٤ - الديوان ١ : ٤٣

عيد الخلافة عيد الدين ، زانهما  
 إن قيل في مصر إن الترك قد ظلموا  
 ما أعذب القتل من سيف الصديق وما  
 بلوت يا مصر من ظلم الحبيب ومن  
 عيد الممالك من عجم ومن عرب  
 فمُرُّ ظلمهم أحلى من الضرب (١)  
 أمره إن يكن من غير مصطحب  
 عدل العدو ، فما يحلو لك اطلبي

ثم يلغي عبد الحميد الدستور الذي أصدره كارها ، بعد حملة صحفية شنت  
 بزعماء الاتحاديين وبينت فساد دينهم . ويلجأ زعماء الاتحاديين في الجيش إلى  
 العنف ، فيقتحمون الآستانة ويحاصرون يلدز ، ويشتبكون مع رجال عبد الحميد  
 في معركة كبيرة تنتهي بالتسليم . ثم يقبضون على أنصاره ويعدمون منهم عدداً  
 كبيراً يزيد على الألف . وتجتمع الجمعية العمومية - وكان الاتحاديون هم المسيطرين  
 عليها - فتقرر عزل السلطان عبد الحميد وتولية السلطان محمد رشاد في ٢٧ إبريل  
 سنة ١٩٠٩ . وعند ذلك ترتفع أصوات الشعراء في مصر ، بين مشفق على عبد  
 الحميد يرثي له في بلواه ، وعاتب عليه سوء سياسته التي انتهت به إلى هذا المصير ،  
 وشامت به يشنع بما لقي خصومه على يديه من نكال .  
 أما شوقي فقصيدته في هذه المناسبة مشهورة (٢) :

سَلْ يَلْدِزْأَ ذات القُصُور هل جاءها نبأ البدور

وهو يرى فيها أن السلطان عبد الحميد في موقفه أجدر بالثناء ، لما آل إليه  
 من دل بعد عز ، فهو يعطف عليه في محنته ، ويحله من نفسه محلاً كبيراً ،  
 بين شماتة الشامتين ولوم اللأئمين :

شيخ الملوك وإن تضع  
 نستغفر المولى له  
 ونراه عند مضابه  
 وضع في القواد وفي الضمير  
 والله يعفو عن كثير  
 أولى بياك أو عذير

١ - الضرب « بفتح الصاد والراء » العسل .

٢ - الديوان ١ : ١٣٦

ونصونه ونجسته بين الشماتة والنكير  
عبد الحميد ! حساب مة ملك في يد الملك الغفور

ولكن ذلك لا يمنعه من أن يلومه ليمسكه بالحكم الفردي ، ومحاربتة نظام  
الشورى الذي :

هو حكمة الملك الرشيد - وعصمة الملك الغرير  
كما لا يمنعه من الإشادة بالثوار الذين هبوا - كما يقول - لنصرة الحق ،  
وعرضوا أنفسهم في سبيله للهلاك :

يا أيها الجيش - الذي لا بالدعي ولا الفخور  
يخفى فإن ريع الحمى لفت البرية بالظهور  
كاليث يسرف في الفعا ل وليس يسرف في الزئير  
الحاطب العلياء بال أرواح غالية المهور  
عند المهيمن ما جرى في الحق من دمك الطهور

أما حافظ فهو شديد العطف على عبد الحميد في بلواه ، وقصيدته تفيض  
بالحزق على مصيره المؤلم (١) :

لا رعى الله عهدا من جدود كيف أمسيت يا ابن عبد المجيد (٢)  
كنت أبكي بالأمس منك ، فمالي بت أبكي عليك عبد الحميد  
فرح المسلمون قبل النصارى فيك قبل الدروز قبل اليهود  
شمتوا كلهم ، وليس من الهممة أن يشمت الورى في طريد  
أنت عبد الحميد والتاج معقود د عبد الحميد رهن القيود  
خالد أنت رغم أنف الليالي في كبار الرجال أهل الخلود

١ - الديوان ٢ : ٤٣

٢ - الجدود : المخطوط ، جمع جد « بفتح الجيم » وهو الخط . عبد المجيد : هو أبو السلطان عبد الحميد .



وهو يتناسى سيئاته ، ولا يذكر له إلا الحسنات ، قائلاً إن الكمال في الدنيا  
محال :

لك في الدهر — والكمال محال — صفحات ما بين بيض وسود  
حاولوا طمس ما صنعت وودوا لو يطبقون طمس خط الحديد<sup>(١)</sup>  
ولِّي الأمر ثلاث قرن ينادي باسمه كل مسلم في الوجود  
كلما قامت الصلاة دعسا الدا عي لعبد الحميد بالتأييد  
فاسم هذا الأمير قد كان مقرو نأ بذكر الرسول والتوحيد

ولكن حافظاً يعود فيهاجمه بعد أن يفیق من هول المفاجأة في قصيدته التي  
ألقاها في الاحتفال بعيد الدستور العثماني في الأربكية بعد عزله بثلاثة شهور  
( يوليو سنة ١٩٠٩ ) فيقول<sup>(٢)</sup> :

ولم يغن عن عبد الحميد دهاؤه ولا عصمت عبد الحميد تجاربه  
ولم يحمه حصن ولم ترم دونه دنائره والأمر بالأمر حازبه  
ولم يخفه عن أعين الحق مخدع ولا نفق في الأرض جم مساره<sup>(٣)</sup>  
وأصبح في منفاه والجيش دونه يغالب ذكرى ملكه وتغالبه  
يناديه صوت الحق : ذق ما أذقتهم فكل امرئ رهن بما هو كاسبه  
مضى عهد الاستبداد واندك صرحه وولت أفاعيه وماتت عقارب

أما الشاعر محرم فالوفاء يغلب عليه في قصيدته . وهو يرى الناس الذين كانوا

---

١ - يشير إلى سكة الحديد التي أنشأها السلطان عبد الحميد بين دمشق والمدينة سنة ١٩٠٠ وتمت  
سنة ١٩٠٨ وكان المشروع وقتذاك حديث المسلمين لضخامته وتكاليفه الباهظة التي نهض بها  
عبد الحميد دون أي عون خارجي ، مع سوء الظروف المالية التي كانت تقاسيها تركيا . وطول  
الخط ١٢٠٠ ميل . وقد قدرت تكاليفه بثلاثة ملايين من الجنيهات ، اكتب فيها المسلمون  
في سائر بقاع الأرض .

٢ - الديوان ٢ : ٤٨ .

٣ - يشير إلى ما عرف عن عبد الحميد من شدة حذره ، وكثرة ما أنشأ في قصوره من مخابىء  
وسرايب .

يترفون إلى عبد الحميد بالأمس ولا يرونه إلا خيراً خالصاً يأكلون لحمه اليوم  
ولا يرونه إلا شراً صرفاً . وكأنه يردد قول الشاعر القديم :

والناسُ ، من يَلْقَ خيراً قاتلون له ما يشتهي ، ولأُمّ المخطيء الهبل  
يدافع عن عبد الحميد ، فيلقي تبعة ما يتهمه به خصومه من تهم على عاتق  
بطانته (١) :

ثوى عائر الآمال يؤنسه الأسى	وتوحشه أوطاره ومآربه
كان جلال الملك لم يبدُ حوله	مهيباً ولم تُضرب عليه مضاربهُ
كان سرايا والفيالق لم تسر	إلى الموت تشني دونه من يحاربه
كان رؤوس الصييد لم تنك خشعاً	لدى بابه المرجو بالأمس حاجبه
كان بغاة الجود والمجد لم تفد	عليه ولم تهطل عليهم مواهبه
كان بناء الشعر لم تغش بابه	بمستعليات تزدهيها مناقبه
كان الأولى زانوا المنابر باسمه	أحلوا بدين الله مالا يناسبه
طووا ذكره واستودعوا الله عهده	وكل امرئ رهن بما هو كاسبه

\* \* \*

أرى الناس من يقعد به الدهر ينقموا	عليه وإن كانت قليلا معاييه
ألم يك ظل الله بالأمس بيننا	نلوذ به والخطب ضنك مذاهبه (٢)
أنظريه قهاراً ونوذييه مرهقاً	كفى الليث شراً أن تفل مخالبه
ألا راحم ؟ هل من شفيع ؟ أما كفى ؟	أكل بني الدنيا عدو يغاضبه ؟
أكان يريد السوء بالملك ؟ أم يرى	مسرته في أن ترن نوادبه ؟
أكل ما تيه ذنوب ؟ أكله	عيوب ؟ ألا من منصف إذ نحاسبه ؟
أكل ذوي التيجان بالعدل قائم ؟	أما فيهم من لا تعد مثالبه ؟
أليس الأولى غشوه أجدر بالأذى ؟	وأولى الورى بالشر من هو جالبه

١ - الديوان ٢ : ٨

٢ - ظل الله على الأرض : لقب الخليفة التركي .

أما ولي الدين يكن - وهو ينتمي إلى حزب الاتحاد الذي قام بالثورة - فهو لا ينسى مطاردته لهم ، وما ذاقوا على يديه من نكال . فقصيدته كلها تشنيع بعنده الذي اقترن - حسب زعمه - بسيادة الجواسيس والحواري وغلبة الهوى على الإنصاف . فهو شامت لا تختلج في قلبه خلجة من رحمة ، ولا تفيض عينه بدمعة رثاء . ويزيد في ثورة نفسه عليه أنه لا ينسى السنين الخالكة التي قضاها منفياً في «سيواس» ، فلم يفرج عنه إلا بعد صدور الدستور . فقد كانت ذكرى هذا الاضطهاد عالقة لم تبرح ، وهو قريب عهد بها لم يمض عليها غير شهور . ولذلك فقد كان حنقه شديداً على شوقي في قصيدته التي أشرنا إليها منذ قليل ، فنقضها عليه بقصيدة من نفس البحر والقافية ، يقول فيها : إنك تذكر آلام سكان القصور ولكنك تنسى آلام سكان القبور ، وتذكر ما وهب ، ولكنك تنسى ما هب . وتبكي عليه اليوم ، وتنسى أنه أبكى بالأمس كثيراً من الأبرياء . فهو لا يذكر للرجل حسنة واحدة ، ولا يراه إلا شراً خالصاً . بل لا يرى الذين سيكونه إلا من عباد الملوك ، الذين يندبون ما ضاع من هبات ذلك الطاغية المفسد (١) .

هاجتك خالية القصور	وشجتك آفة البدور
وذكرت سكان الحمى	ونسيت سكان القبور
وبكيت بالدمع الغزي	ر لباعث الدمع الغزير
ولواهب المال الكثي	ر وناهب المال الكثير
حامي الثغور الباسما	ت مضيع أهلة الثغور (٢)
أهدى الفتور لقلبه	ما باللوا حظ من فتور
واستغفرته عن الرعا	يا كل أنسة نفور
والجند عارية منا	كبها مقصمة الظهور

١ - الديوان ص ٣٠ .

٢ - الثغور الأولى : أفواه الحسان ، والثانية : البلاد التي على الحدود . يقول إنه كان يحمي النساء ، ولكنه كان يضيع الملك .

دقت فعادت كالسيور	خُمنصُ البطون من الطّوى
بين الجنادل والصخور <sup>(١)</sup>	لله أجساد ثوت
من بعد مضجعها الوثير	باتت على خشن الثرى
لهفي على تلك الزهور	كانت زهور شبية
يَتِمَّتْ ومن شيخ كبير	كم خلفها من صبية
إن المآب إلى النشور	يتربون مآبها
ر يموت من تلك الشرور	من كان يستحلي الشرور
ر بكاه عبّاد السرير	لما أدبل من السرى
هيهات يرجع بالندور	نذروا النذور لعوده
أسفوا على المال الدريـر	أسفوا عليه وإنما
ر وشدّ عن عفو الغفور	طلبوا له عفو الغفور
ودع البرية في الهجير	قلّصُ ظلالك راحلا

\* \* \*

وتغير إيطاليا على طرابلس سنة ١٩١١ ، فتشتبك في حرب مع تركيا التي استنجدت بالدول الأوروبية ، فلم تجد منها إلا فتوراً. وتآلف في مصر اللجان ، وتقام الأسواق الخيرية لجمع التبرعات وإرسال البعوث الطبية ، وينشئ الشيخ علي يوسف جمعية الهلال الأحمر في ٧ نوفمبر سنة ١٩١١ . ويتطوع في الحرب كثير من المصريين بدافع من الحمية الإسلامية ، رغم معارضة الإنجليز<sup>(٢)</sup> . وترتفع أصوات الكتاب والشعراء ، تثير الحمية في النفوس . فيلقي شوقي قصيدة في حفل جماعة الهلال الأحمر بحث فيها الشعوب الإسلامية التي تجمعها الرابطة العثمانية على التعاون والاتحاد<sup>(٣)</sup> .

١ - يشير إلى ما كان يشنع به الاتحاديون ووجوده بين الناس من أنه كان يتخلص من خصومه بربطهم بالأصفاد والأثقال وإلقائهم في عياه البسفور . وهي شائعات لم تثبت صحتها .

٢ - مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٢٦٥ ، ٢٦٧

٣ - الديوان ١ : ٣٠٣

يا قوم عثمان والدنيا مداولة  
كونوا الجدار الذي يقوى الجدار به  
البرّ من شعب الإيمان أفضلها  
هل ترحمون لعل الله يرحمكم  
في ذمة الله ، أوفى ذمة ، نفر  
ويقول حافظ قصيدته (١) :

طمعٌ ألقى عن الغرب اللثاما  
فاستفق يا شرق واحذر أن تناما  
يستثير فيها حمية المسلمين بتصوير  
وما استحلت من محارم :

كبلوهم ، قتلوهم ، مثلوا  
ذبحوا الأشياخ والزمنى ولم  
أحرقوا الدور ، استحلوا كل ما  
بارك المطران في أعمالهم  
أهـذا جاءهم إنجيلهم  
وبسخر من الجيوش الإيطالية هازئاً ، وقد وردت الأخبار الأولى بهزيمتهم :  
خبّروا فكتور (٤) عنا أنه  
أدهش العالم لما أن رأوا  
حاتمَ الطالبان قد قلّدننا  
أنتَ أهديت إلينا عدّة  
وسلاحاً كان في أيديكم  
بذوات الخدر ، طاحوا باليتامى !  
يرحموا طفلاً ولم يبقوا غلاماً (٢)  
حرّمت لاهاي في العهد احتراماً (٣)  
فسلوه : بارك القومَ علاماً ؟  
أمراً يلقي على الأرض سلاماً ؟  
أدهش العالم حرباً ونظاماً  
جيشه يسبق في الجري النعاما  
منّة نذكرها عاماً فعاماً  
ولباساً وشراباً وطعاماً  
ذا كلال فغدا يفري العظاما

١ - الديوان ٢ : ٦٦

٢ - الزمنى ذور العامات ، جمع زمن ( على وزن كفف ) .

٣ - مؤتمر لاهاي سنة ١٨٩٩ انعقد للقضاء على أسباب الحرب وتخفيف ويلاتها .

٤ - ملك إيطاليا .

أَكثَرُوا التَّزَهَةَ فِي أَحْيَانِنَا      وَرَبَانَا لِنَهَا تَشْفِي السَّقَامَا  
وَأَقِيمُوا كُلَّ عَامٍ مُوسِمًا      يَشْبَعُ الْأَيْتَامُ مِنَّا وَالْأَيَامَى (١)  
لَسْتُ أَدْرِي ، بَتَّ تَرَعَى أُمَّةٌ      مِنْ بَنِي التَّلِيَانِ أَمْ تَرَعَى سَوَامَا (٢)

وينشئء محرم ثمانى قصائد في مناسبات مختلفة من هذه الحرب ، (٣) تفيض  
بالغيرة على الإسلام واستنهاض الهمم للذود عن حياضه ومدافعة أعدائه . يقول  
في إحداها :

رَوَيْدًا بَنِي رُومَا      فَلِلْحَرْبِ فَتِيَّةٌ  
أُولُوكَ أَبْطَالُ الْخِلَافَةِ      تَحْتَمِي  
هَمَّ الْمَانِعُوهَا أَنْ يُقَسَّمَ      فَيَشْهَى  
أَنْذَعْنَ لِلْبَاغِي وَنَعْطِيهِ      حُكْمَهُ  
هَمَّا أَخَوَا الْعِزَّ الَّذِي      دُونَ شَأُوهُ  
أَقَمْنَا عَلَى عَهْدَيْ      وَفَاءٍ وَأُلْفَةٍ  
عَلَى طُولِ مَاقَالِ      الْوُشَاةِ وَخَبَبَتِ  
وَيَقُولُ الْكَاشِفُ (٤) :

الْمُؤْمِنُونَ إِلَيْكَ      مُسْتَبَقُونَ  
فَاحْشُدْ كِتَابِكَ      الَّتِي أَعْدَدْتَهَا  
وَيَقُولُ فِيهَا لِإِيطَالِيَا : أَهَذَا الْعَدُوَانِ الْوَحْشِيِّ أَوْصَاكُمُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟

١ - جمع أيم ( بتشديد الياء وكسر ها ) وهي من لا زوج لها .

٢ - السوام : الإبل التي ترعى .

٣ - الديوان : ٢ : ١٨ - ٣٩

٤ - اللهازم : الأسنة القاطعة ، جمع لَهِزَمَ (على وزن جعفر) .

٥ - الصياصي : الحصون . المخارم : المسالك في الجبال .

٦ - قلاه : كرهه . صرمه : قاطعه وخاصسه .

٧ - خبيوا : أفسدوا . السخائم : جمع سخيمة وهي الحقد والبغض .

٨ - الديوان : ٢ : ١٧

يا آل عيسى ما لعيسى لم يقم      مستنكراً ما أنتمُ جانونا ؟  
أوصاكم بالمعتدين ، فما لكم      بالآمن المأمون فتّاكينا  
ماذا جناه المسلمون عليكمُ      وهم على الأمصار غلابونا ؟

ويهاجم فيها سياسة الإنجليز التي أكرهت مصر على الحياذ :

ما للحيود وما لمصر ؟ وما بها      إلا شجون تستثير شجوننا  
ما كان للمتطوع المختار أن      يشكو قيوداً أو يخاف ظنوننا

ويذيع عبد المطلب قصيدتين طويلتين تزيد كل منهما عن مائة بيت . كتب  
الأولى في ليلتين كما يقول ، حين وردت الأنباء بهجوم الجيوش الإيطالية  
على طرابلس فجاشت نفسه حزناً على أهلها (١) :

بني أمنا ! ! أين الحميس المدرب      وأين العوالي والحسام المدرب ؟  
إذا اهتز في نصر الحنيف تساقطت      نفوس العدا في حده تتحلب  
خليئي ! ! مالي إذ تذكرت برقة      بجنبي نيران الأسى تتلهب ؟ !  
نعم . . راغبي من نحو برقة صارخ      يهيب بأنصار الهلال : ألا اركبوا  
دعاصارخ الإسلام يالْبَنِي الهدى      أغار العدا أين الحسام المشطّب ؟  
كأنني به يدعو الخلافة مسمعاً      كأنني به في المسلمين يثوب (٢)

وهو يعجب للبابا إذ يبارك الجيوش الإيطالية متسائلاً : أين هذا من تعاليم  
المسيح ؟ ويسخر منهم قائلاً : إن كنتم راغبين حقاً في الجنة التي وعدكم البابا فنحن  
نخليقون أن نقرّبكم منها :

إذا وقف البابا يبارك جندكم      فما كل بابا للمسيح مقرّب  
سلوه : أفي الإنجيل للحرب آية ؟      إذا كان في إنجيله ليس يكذب  
لكم جنة البابا مآب . فإنما      مفاتها في أرض برقة تُطلب

١ - الديوان ٢٥ - ٤١

٢ - ثوب الداعي : لوح بثوبه طلباً للإغاثة .

سلوا جنة البابا بماذا تزيّنت      لتلقى الأولى في لجة البحر غيّبوا  
هلموا تقربكم إليها فإنما      صوارمنا تدني لها وتقرب  
ثم أردف هذه القصيدة بالقصيدة الثانية ، بعد أن احتدم القتال بين  
الجيشين (١) :

هي الهيجاء كم طحنت قرونا      وكم سحنت حوادثها قرونا  
وهو يعجب فيها لسكوت الدول الأوروبية عن عدوان إيطاليا ، ورضاهم  
عن مسلكهم ، في الوقت الذي يهيجون فيه ويموجون حين يرتفع صوت من  
مستعمراتهم بالشكوى من ظلمهم :

وأهلُ الغرب في لعب وهو      على ما بينهم يتغامزوننا  
دعونا المُقسطين فما وجدنا      وأشهدنا الملوك فأنكرونا  
وهمنا ، حين خلناهم عدولا      بما شاء الهوى ، لا يحكمونا  
بغت روما فلم نسمع نكيراً      ولو شاءوا سمعنا المنكرينا  
وإن غضب ، ذباداً عن حياض      لنا هدمت ، إذا هم يسخطونا  
ملوك الغرب !.. ما هذا التعامي ؟      وما للحق بينكم مهيئنا ؟

أما ولي الدين يكن فهو يذيع قصيدة قصيرة في ستة وعشرين بيتاً عنوانها (لبّيك  
أماه دعوت الكرام « (٢) :

من أين جدّ اليومَ هذا الخصام      يا أممَ الغرب نقضتِ الدمام  
وقصيدته تختلف عن سائر القصائد السابقة في أنها تخلو من كل إشارة للإسلام  
فهو لا يستنهض الهمم فيها باسم الدين ، ولكنه يستنهضها باسم الحمية لأرض  
الوطن . وذلك لأنه ينتمي إلى جماعة «تركيا الفتاة» أو حزب الترقى كما كانوا

١ - الديوان ص ٢٨٥

٢ - الديوان ص ٤٨ .



يسمونه في بعض الأحيان، الذي كان يدعو إلى القومية التركية الطورانية، والذي كان يستبعد الإسلام من مقومات الوطنية .

\* \* \*

ويضطرب البلقان في أواخر سنة ١٩١٢ ، حين تقوم بلغاريا والصرب والجبل الأسود مطالبة باستقلالها الإداري عن تركيا ، مهاجمة أساليبها الإدارية في الحكم وتقوم اليونان مطالبة بجزر الأرخبيل . وتعلن تركيا الحرب على هذه الدول في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٢ . فتنشأ اللجان والجمعيات في مصر لجمع التبرعات . وينعقد مؤتمر لندن في أوائل ديسمبر للنظر في المسألة البلقانية . ويظل يوالي جلساته حتى ٢٣ يناير . وينتهي إلى قرارات تقبلها الوزارة التركية القائمة وقتذاك ، أهمها التنازل عن أدرنة وعن جزر الأرخبيل . ويثور حزب الاتحاد على الوزارة فيسقطها ويستأنف القتال . وترد الأخبار الأولى إلى مصر بانتصارهم ، فتقوم مظاهرات الفرح والابتهاج بهذا النصر . وتقبض سلطات الاحتلال على بعض المحرضين عليها (١) . ولكن هذا الفرح لا يلبث أن يتحول سريعاً إلى وجوم ، حين ترد الأنباء بتقهقر الجيوش وسقوط أدرنة بعد حصار دام خمسة شهور أبلت فيه حاميتها أروع بلاء . ويفزع المسلمون حين تتوالى الأنباء بتقدم جيوش البلقان ، وقد انفتح أمامهم الطريق إلى الاستانة بعد سقوط أدرنة حتى أصبحوا على أبوابها . ويرتكب جنود البلقان جرائم بشعة في الانتقام من سكانه المسلمين (٢) .

وعند ذلك يرتفع صوت شوقي بقصيدة من أروع قصائده ، تزيد على مائة بيت ، يندب فيها مجد الإسلام الزائل ، وقد ذكره تخلص ظله عن شرق أوروبا وقتذاك بضياح سلطانه في غربها حين طرد العرب من الأندلس . ولذلك سمى قصيدته « الأندلس الجديدة » (٣) :

١ - مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٢٨٨ وما بعدها .

٢ - حرب البلقان ص ١٧٧ وما بعدها ، صداقة أربعين عاماً ص ٢٧٣ وما بعدها

٣ - الديوان ١ : ٢٨٧ - ٢٩٥

يا أخت أندلس عليك سلام  
نزل الهلال عن السماء فليتها  
أزرى به وأزاله عن أوجه  
جرحان تمضي الأمتان عليهما  
بكما أصيب المسلمون ، وفيكما  
لم يُطَوَّ مآتمُها . وهذا مآتم  
ما بين مصرعها ومصرعك انقضت  
خلت القرون كليلَة وتصرمت

هوت الخلافة عنك والإسلام  
طويت وعمّ العالمين ظلام  
قدّر يحط البدر وهو تمام  
هذا يسيل ، وذاك لا يلتام  
دفن اليراع وغيب الصمصام  
لبسوا السواد عليك فيه وقاموا  
فيما نحب ونكره الأيام  
دول الفتوح كأنها أحلام

ويخاطب شوقي في هذه القصيدة دعاة الهزيمة من ساسة الترك - وهم من الاتحاديين - الذين كانوا ينادون بأن البلقان مصدر متاعب للدولة ، ويرون الخير في أن تتخلي عنه وتكفي نفسها هذه المتاعب التي لا قبل لها بها ، قائلاً : إن هؤلاء الذين يفكرون على هذا النحو هم الذين يؤثرون الراحة على الكفاح ، ويحلون المشاكل بالهروب منها بدل أن يواجهوها. وقد كان أولى بهم أن يتجهوا لإصلاح الإدارة في البلقان بدل التفكير في التخلي عنه :

زعموك همّا للخلافة ناصباً  
ويقول قوم : كنت أشأم مورد  
ويراك داء الملوك ناس جهالة  
لو آثروا الإصلاح كنت لعرشهم  
وهم يقيّد بعضهم بعضاً به  
صوّر العمى شتى ، وأقبحها إذا  
ولقد يقام من السيوف وليس من

وهل الممالك راحة ومنام ؟  
وأراك سائغة عليك زحام (١)  
بالمك منهم علة وسقام  
ركناً على هام النجوم يقام  
وقيود هذا العالم الأوهام  
نظرت بغير عيونهن الهام (٢)  
عثرات أخلاق الشعوب قيام

١ - يشير إلى تزاخم الدول الأوروبية وتنافسها على مناطق النفوذ في البلقان .  
٢ - يقول : إن من أقبح العمى أن يسيطر الوهم على الإنسان ، فيرى الأشياء كما يصورها له وهمه ، لا كما تراها عينه التي في رأسه وكما هي في الواقع .

ويندد شوقي بالذين استغلوا اسم الدين في الانتقام من المسلمين الأمنين ،  
والتنكيل بالأبرياء من المدنيين ، فارتكبوا باسم المسيحية أبشع الآثام ، والمسيحية  
منهم براء ، فما كان المسيح عليه السلام سفاكاً للدماء ، ولا كان داعياً لإباحة  
الحرقات ، وإنما كانت دعوته رحمة ومحبة وسلاماً :

أخذ المدائن والقرى بخناقها	جيشٌ من المتحالفين لهُام <sup>(١)</sup>
غطت به الأرض الفضاء وجوها	وكست مناكبها به الآكام
تمشي المناكر بين أيدي خيله	أنى مشى ، والبغي والإجرام
ويحته باسم الكتاب أقسّة	نشطوا لما هو في الكتاب حرام
ومسيطرون على الممالك سُخرت	لهم الشعوب كأنها أنعام
من كل جزار يروم الصدر في	نادي الملوك وجدّه غنّام <sup>(٢)</sup>
سكّينه ، ويمينه ، وحزامه	والصوبلحان ، جميعها آثام
عيسى ! سبيك رحمة ومحبة	في العالمين وعِصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرءاً	هان الضعاف عليه والأيتام
يا حامل الآلام عن هذا الورى	كشّرت عليه باسمك الآلام
أنت الذي جعل العباد جميعهم	رحماً وباسمك تقطع الأرحام
واليوم يهتف بالصليب عصاب	هم للإله وروحه ظلام <sup>(٣)</sup>
خلطوا صليبك والخناجر والمدى	كل أداة للأذى وحمام

ثم يقدم صوراً من الجرائم المنكرة التي دفع اليها التعصب الذميم الذي يبرأ  
منه كل دين فيقول :

كم مرضّع في حجر نعمته غدا	وله على حد السيوف فطام
وصبيّة هتكت خميلة طهرها	وتناثرت من نورهِ الأكمام

١ - لهام ( بضم اللام ) : أي عظيم كأنه يلتهم كل شيء .

٢ - الغنّام : راعي الغنم .

٣ - روح الله : هو المسيح عليه السلام .

وأخي ثمانين استبيح وقاره  
وجريح حرب ظامىء وأدوه لم  
ومهاجرين تنكّرت أوطانهم  
السيف إن ركبوا الفرار سبيلهم  
يتلفتون مودعين ديارهم  
لم يغن عنه الضعف والأعوام  
يعطفهم جرح دم وأوام  
ضلوا السبيل من الدهول وهاموا  
والنطع إن طلبوا القرار مقام<sup>(١)</sup>  
واللحظ ماء ، والديار حرام<sup>(٢)</sup>

ويحمل الشاعر الترك في ختام القصيدة تبعة تفريطهم في هذا الملك الذي  
أسسه أجدادهم فضيعوه بفرقهم وتخاذلهم وما تملكهم من غرور ، وبتفريطهم  
في نشر العلم وإقامة العدل .

ويكتب الكاشف في هذه الحرب ثلاث مقطوعات قصار<sup>(٣)</sup> :

أولها :

خطوبكم يا آل عثمان جمة ولكنكم أقوى عليها وأقدر

والأخرى :

صليبية يا قوم أم عنصرية حروبكم ؟ والدين هذا أم الشرك

والثالثة :

بأية عيد أنت يا عيد عائد تفيض تباريحاً لنا أم شمائلنا

أما عبد المطلب فقد عبر عن حزنه ونقّس عن ثورته وصور ما عانى مسلمو  
البلقان من اضطهاد في قصيدته<sup>(٤)</sup> :

صريف المنايا أم صليل الصوارم ؟ وليل الردى أم نفع تلك الملاحم

\* \* \*

وترد الأنباء بعد هذه الكوارث المتلاحقة ، المشبّطة للهمم ، والداعية إلى

١ - النطم ( بكسر النون وفتحها ) : قطعة من الجلد كانت تفرش لمن يضرب عنقه .

٢ - الديار حرام : لأن جيوش البلقان أشعلت فيها النار انتقاماً .

٣ - الديوان ٢ : ٢٣ - ٢٤ .

٤ - الديوان : ص ٢٧١

اليأس بقدم طيارين تركيين إلى مصر في سنة ١٩١٤ قبيل الحرب العالمية الأولى .  
وتسقط بهما طائرتهما في الطريق ويموتان فيعاود المحاولة زميلان آخران يصلان  
سالمين . فيستبشر المصريون ويستيقظ في نفوسهم الأمل بصعود نجم الإسلام  
وقيام دولته . ويستقبل الشعراء هذا الحادث الجديد السعيد ويذيعون الشعر  
مهتئين ومعزين .

يقول شوقي (١) :

يا راكب الريح حيّ النيل والهرما	وعظم السفع في سيناء والحرما
عاد الزمان فأعطى بعدما حرّما	وتاب في أذن المحزون فابتسما
فيا رعى الله وفداً بين أعيننا	ويرحم الله ذاك الوفد ما رحما
هم أقسموا لتدينن السماء لهم	واليوم قد صدقوا في قبرهم قسما

ويقول حافظ : (٢)

أهلا بأول مسلم	في المشرقين علا وطار
النيل والبسفور في	لك تجاذبا ذيل الفخار
يوم امتطيت براقك الـ	ميمون واجتزت القفار

وفيه يدعو إلى الأخذ بأسباب القوة في عالم ليس فيه للضعفاء مكان :

والظلم من طبع النظم	م فإن ظلمت فلا تمار (٣)
خلق الضعيف للخدمة الـ	أقوى ، وليس له خيار
فتقو برهبنك القوي	ي وهن يلازمك الصغار
في الأرض ما تبغون من	عز وآمال كبار
فيها الحديد وفيه بأ	س يوم يمتهن الذمار

١ - الديوان ١ : ٢٦٧

٢ - الديوان ٢ : ٧٦

٣ - لا تمار : أي لا تجادل ولا تنازع . يقول : إن نظام الكون كما خلقه الله ، يقوم على وجود القوي والضعيف ، وعلى التنافس في طلب السيادة ، فلا تجادل في ذلك .

فيها الكنوز الحافلا      ت لمن تبصر واستنار  
منها استمد قواه من      قهر الممالك واستعار  
وبما احتوت ردة الحصية      ف الرأي غارة من أغار  
ويقول عبد المطلب (١) :

وقفت لك الدنيا فسيري      مسرى الضياء من الأثير  
يا أخت ساجدة النجو      م وبنت ساحة الضمير  
من عهد آدم لم تزل      عذراء مسبكة الستور  
وهو يذكر مجد الإسلام في أكثر من موضع من القصيدة حيث يقول :  
طير السلام بطائر ال      إسلام والأسد المزير  
وحيث يقول :

يا طائر الإسلام      فهو بالعواصم والثغور  
وحيث يقول :  
يا دولة الإسلام هد      ي يا كواكبه أنيري

\* \* \*

كانت العاطفة الدينية إذن غالبية مهيمنة . وكان الدين والوطنية توأمين متلازمين ، كما قال مصطفى كامل في خطبة له سنة ١٩٠٠ (٢) . وقد أعان على تعلق الناس بالفكرة الإسلامية مهاجمة كرومر الدائمة للمسلمين في بعض تقاريره وفي كتابيه اللذين ظهرا بعد مغادرته مصر « مصر الحديثة » و « عباس الثاني » (٣) ، وتصويرهم في صورة الهمج المتخلفين ، ومهاجمته للإسلام وتصويره ديناً رجعيّاً لا يصلح لأن يقوم على أساسه نظام اجتماعي راق . كما أعان على تقوية فكرة الجامعة الإسلامية مهاجمة الدول الأوروبية للإمبراطورية العثمانية باسم الدين ، حميةً لدول البلقان المسيحية (٤) ، مما أثار شعور العطف على تركيا ودعا إلى الالتفاف

١ - الديوان ص ٩٥ . هد البعير ( كضرب ) هدر .

٢ - مصطفى كامل ص ١٢٢

٣ - Modern Egypt ٢ : ١٢٩ - ١٥٤ ، عباس الثاني ص ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٩

٤ - تاريخ الدولة العلية ٣٢٧ - ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ - ٣٥٠

حول الخلافة، حتى رأينا الشعب على اختلاف طبقاته يسارع إلى مد يد المعونة لها في كل حروبها ومحنها، بالمال وبالرجال، وتقوم فيه مظاهرات الفرح والابتهاج كلما وردت عليه الأنباء بانتصار جيوش المسلمين<sup>(١)</sup>.

والواقع أن المنادين بفكرة الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية لم يكونوا جميعاً من المؤيدين للنفوذ التركي في مصر. فمن بين هؤلاء الترك المستعربون، أمثال شوقي ويكن والكاشف، الذين تدفعهم إلى تأييده رابطة الدم وعاطفة الحنين للأصل، والشعور بالانتماء للسادة الحاكمين. فالكاشف يقول في العيد القضي للسلطان عبد الحميد<sup>(٢)</sup>:

تفانيت في حبّكم ؛ إنني لكم على النفس والأهلين والحلق مؤثر  
ولا غرو إن غالبت فيكم فجامعي وإياكم دين وطبع وعنصر

أما ولي الدين يكن - مع ما هو معروف من مشايعته للاحتلال الإنجليزي الذي كان يحمي أعضاء « تركيا الفتاة » من الاتحاديين في مصر، كما سنبين فيما بعد، فهو ينتمي إلى ذلك الحزب المشهور بعصبية الطورانية. ولذلك فهو يرد على كاتب هاجم الترك في جريدة المقطم بمقال يبدوّه بالبيتين العربيين القديمين:

مهلاً بني عمنا !.. مهلاً موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا  
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

ثم يقول « شهد الله وكل عثماني حر يكون قرأ لي شيئاً أني لا أتعصب للدين ولا للجنس. أنا تركي وأبغض عباد الله إلي تركي يعتدي. أحب العناصر العثمانية كلها، وأخذ بناصر المستضعف منها. ثم أحب العرب حباً خالط الروح وجري مجرى الدم من العروق. وأنا عربي الأدب والقلم، عربي التزعة. ومن

---

١ - راجع في الحرب اليونانية التركية سنة ١٨٩٧ مذكراتي في نصف قرن ٢: ٢٣٩ - ٢٤٣ وفي الحرب الطرابلسية سنة ١٩١٢ نفس المرجع ٢ ب: ٢٦٥ - ٢٦٦. وفي حرب البلقان

(سنة ١٩١٢). ٢ ب: ٢٨٩

٢ - الديوان ١: ٤٦

أبغض العرب فأنا مبغضه . أولئك إخواني الذين أغنيهم فيطربون ، وأحدتهم فيقبلون علي بالسمع . هكذا عهد العرب الكرام بأخيهم هذا . »

« غير أنني لا أكذبهم . إني كذلك لا أحب من يسب الترك ولا من يكون لهم عدواً . وكذلك العرب لا يحبون من لا يحب إخوانهم . وإذا جرى بين العرب والترك شر أكون يومئذ بمعزل عن كليهما داعياً عليهما بالفضل جميعاً . »

« زعم عزت الجندي أن الذين خانوا الدولة هم أتراك . ثم ذكر رجالاً منهم محمد علي الأول مؤسس الأسرة الخديوية بمصر . سامحه الله . إن محمد علي خالي ، جدتي شقيقته ، لا تصح شهادتي له . فأنا أدع الحكم في وفائه وخيانتة لأهل الإنصاف . »

« ولكن مصطفى فاضل قائد كتائب الحرية ومدحت أبا الدستور تركيان ، الصقولي والكوبريلي أيضاً تركيان . وغير هؤلاء كثير إن شاء الجندي ذكرت له أسماءهم وعددت ما تيسر من أعمالهم . (١) »

أما شوقي فهو الذي يقول في مقدمة ديوانه الأول « أنا إذن عربي تركي يوناني جر كسي » وهو الذي يقول في الحرب العثمانية اليونانية (٢) :

وزينب إن تاهت وإن هي فاخرت فما قومها إلا العشير المحجب  
يؤلف إيلام الحوادث بيننا ويجمعنا في الله دين ومذهب

وشعره بعد هذا يفيض بالحنين الصادق والحماسة الحارة لكل ما يمت للترك بسبب .

ومن بين المعتنقين لفكرة الرابطة العثمانية والمؤيدين للنفوذ التركي علماء الدين من المسلمين ومن ذهب مذهبهم وأحس إحساسهم ممن يؤيدون هذا النفوذ بدافع من الغيرة الدينية ، تحت تأثير الظروف المختلفة التي سادت العصر ، والتي أشرت إليها فيما سلف . وهؤلاء لا يحتاجون إلالمما يمس دينهم . ولا يرون بين الأقطار الإسلامية

١ - الصحائف السود ١٠٧ - ١١١

٢ - الشوقيات طبعة سنة ١٩١٢ ص ١٥



من يستطيع أن ينهض بعبء الذود عن الإسلام والمسلمين غير تركيا ، لأنها أقواها وأقدرها على مواجهة مطامع الدول المسيحية . ومن هؤلاء عبد المطلب الذي يلقب نفسه بشاعر الإسلام ، حيث يقول في انتصار الترك على اليونان :

هذا مقامك شاعر الإسلام فقف القريض على أجلّ مقام<sup>(١)</sup>

ومن بين المؤيدين للنفوذ التركي وقتذاك نفر من الزعماء المصريين الذين يؤمنون بأن لمصر كياناً مستقلاً ، ولكنهم يتخذون ذلك سبيلاً لمناوأة الاستعمار ، ويرون أن التخلص من النفوذ التركي بعد ذلك أمر سهل ميسور ، وأن النفوذ التركي في حقيقته لم يكن قبل الاحتلال إلا نفوذاً إسمياً . ومن هؤلاء مصطفى كامل ومحمد عبده وعبد الله النديم والبكري ومحرم والغاياني .

أما مصطفى كامل فهو يجيب الأمير لاي بارنج « شقيق كرومر » حين لقيه في لندن سنة ١٨٩٥ فسأله عن جنسيته بقوله « مصري عثماني » ، ثم يجيب على تعجبه لجمعه بين الجنسيين بقوله : « ليس في الأمر جنسيتان بل في الحقيقة واحدة لأن مصر بلد تابع للدولة العلية » . ولكنه يقول من خطبة له في الإسكندرية في سنة ١٨٩٧ : « إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هي مظاهرة قوية ضد الاحتلال الإنجليزي ، واشترك أفراد الأمة على اختلافهم في الاكتاب للجيش العثماني هو اقتراح عام ضد الإنجليز في مصر .<sup>(٢)</sup> » ويقول في خطاب له إلى مدام جوليت في هذا العام : « إنك تعلمين خطتي نحو تركيا . وما أراه واجباً نحوها . فقد أفصحت عن ذلك في خطبتي . واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلائق مع تركيا ما دام الإنجليز محتلين وطننا العزيز »<sup>(٣)</sup>

أما محمد عبده فهو يقول أثناء إقامته في بيروت سنة ١٨٨٦ م : « إن المحافظة

١ - ديوان عبد المطلب ص ٢٥٣

٢ - مصطفى كامل ٨٢

٣ - مصطفى كامل ص ٨٣ وراجع كذلك الفصل الثامن عشر من نفس المرجع ( مصطفى كامل وتركيا ) .

على الدولة العلية العثمانية ثلاثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله . فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته . وليس للدين سلطان في سواها . وإنا على هذه العقيدة والحمد لله ، عليها نحيا وعليها نموت » (١)

ولكنه كان يصرح بعد عودته إلى مصر بأنه يرى للبلاد العثمانية أن تنصرف إلى ترقية نفسها بنفسها ، من غير معاداة ولا مباراة لتركيا ، وأن تنتظر الفرص للاستقلال . وقد سافر للأستانة ثم عاد منها كارها للترك مشنعاً بفساد الإدارة وباستبداد السلطان عبد الحميد . ولكنه لم يكشف عن عدائه لتركيا ، بل ظل - على العكس - يصرح بأن الخلاف بين مصر وتركيا ، أو بين العرب وبين تركيا ، لا تستفيد منه إلا الدول الأوروبية ، وخصوصاً إنجلترا . ولذلك فهو يقول لرشيد رضا في حديث جرى بينهما عقب انتصار الترك في حرب اليونان سنة ١٨٩٧ : « إن كثيراً من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها - وإن كان أكثرهم يحبها - وأنا أيضاً أكره السلطان . . ولكن لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءاً ، فإنها سياج في الحملة . وإذا سقط نبقي نحن المسلمين كاليهود بل أقل من اليهود . فإن اليهود عندهم شيء يخافون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم ، وهو المال . ونحن لم يبق عندنا شيء ، فقدنا كل شيء » (٢)

أما عبد الله النديم فهو الذي يقول سنة ١٨٩٣ : « يا بني مصر . . ليعد المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفاً للعصبية الدينية . وليرجع الاثنان إلى القبطي والإسرائيلي تأييداً للجامعة الوطنية . وليكن المجموع رجلاً واحداً يسعى خلف شيء واحد ، هو حفظ مصر للمصريين » (٣)

أما محمد توفيق البكري فهو يقول في حديث له مع مراسل النيويورك هيرالد سنة ١٨٩٣ إن مبدأه هو « مصر للمصريين » وهو ضد أي احتلال فرنسي أو إيطالي أو تركي ، كما أنه ضد الاحتلال الإنجليزي ، وأنه يعتقد أن البلاد قادرة على حكم

١ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٩٠٩

٢ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٩١٣ - ٩١٥ .

٣ - سلافة النديم ٢ : ٧٨

نفسها<sup>(١)</sup> . وهو بعد هذا صاحب القصيدة المشهورة التي بعثها للسلطان عبد الحميد بعد حرب اليونان ، فقرئت في محفل حافل وحفظت في المكتبة السلطانية<sup>(٢)</sup> . ومن المؤيدين للنفوذ التركي بعد كل هؤلاء وهؤلاء عامة الناس الذين لا يعرفون لهم رابطة غير رابطة الدين ، ولا يعرفون لهم راعياً غير الخليفة إمام المسلمين ، ولا يعرفون ما الوطن وما الوطنية . فقد كانت هذه الكلمات وأمثالها وقتذاك من مستحدثات الشباب الذي تعلم في أوروبا ، حتى إن رشيد رضا ليقول في مناسبة ذكر محاسن الحديوي عباس : « أول ما عرف الناس من محاسنه ما يسمى في عرف هذا العصر » بالوطنية<sup>(٣)</sup> »



---

١ - مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٧٤ .

٢ - شعراء العصر ١ : ١٩٥ .

٣ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٢ .

## الفصل الثاني

### الجامعة المصرية

إلى جانب ذلك الصوت القوي الغلاب الذي كان ينادي بوحدة الشعوب الإسلامية ، ويستنهض الحمم باسم الإسلام ، ويرى أن النهضة الوطنية لا تتم إلا عن طريق الدين ، أو بمساعدته واستغلال سلطانه على النفوس على أقل تقدير ، إلى جانب ذلك الصوت القوي الغلاب ، كانت هناك دعوة ناشئة تنادي بالقومية المصرية ، وتبث الشعور بالوطنية الإقليمية في الأمة ، التي تقوم - حسب تصورهم - على الجنس لا على الدين ، منادية بقصر الاهتمام على المصالح المصرية ، ومعالجة مشكلاتها مستقلة عن مشاكل الدولة العثمانية والأقطار الإسلامية .

كانت هذه الدعوة صدى للاتجاه العالمي نحو فكرة القومية في القرن التاسع عشر . وكان المبشرون بهذه الدعوة في مصر متأثرين تأثراً واضحاً بالتفكير الأوربي كما يبدو من خطبهم وكتاباتهم . وقد نشأت هذه الفكرة الجديدة نتيجة للتوسع الاستعماري الذي تلا اكتشاف مساحات واسعة جديدة لم تمسها يد في أمريكا وأواسط أفريقيا ، أصبحت ميداناً للتنافس الاستعماري بين الدول الأوربية . وكانت حرب أمريكا في سبيل استقلالها ، والثورة الفرنسية من بعدها في مختتم القرن الثامن عشر ، هي نقطة البداية لهذه الحركة التي اتخذت شكلاً عنيفاً ،

وأصبحت العقيدة التي تدين بها الشعوب الأوروبية الصغيرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر <sup>(١)</sup> . فقد رفضت هذه الدول أن تربط نفسها بعجلة وزارات الخارجية في الدول الكبرى التي تنطوي تحتها ، لتسوقها إلى الحروب حين تشاء ، وتحملها تبعاتها من دماء ومن أموال .

نشأت مجموعات من الكتل البشرية ، تقوم كل كتلة منها على أساس الاعتقاد بأنهم شعب واحد . وكان ذلك نتيجة للتقسيم الصناعي الذي قسمت فيه الجماعات البشرية في دول أوروبا الصغرى حسبما رأت الامبراطوريات الكبرى أنه محقق لمصالحها . وتعصبت كل مجموعة من هذه المجموعات لفكرة الوطن والقومية ، واندفعت في حماس عاطفي بالغ لتحقيقها ، واستنقاذاً من الدائرة الكبيرة التي كانت تنطوي تحتها ، مطالبة بحقها في الاستقلال الكامل بتدبير شؤون نفسها داخل حدود ذلك الوطن . والمتدبر لحروب القرن التاسع عشر يجدها في مجموعها صادرة عن أصل واحد هو ظهور الروح القومية ، التي كانت سبباً في تقويض الإمبراطوريتين النمساوية والعثمانية ، والتي قامت على أساسها الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية ، والتي ارتفعت على أساسها أصوات جديدة تنادي بالوطنية والقومية بين التشيك والسلوفاك والرومانيين والبولنديين <sup>(٢)</sup> . وكان الكتاب والشعراء والصحف والدعاة يغذون فكرة القومية الجديدة التي تستند إلى ما غرسته الثورة الفرنسية في النفوس من تعاليم الديمقراطية ، وما نشرته من الدعوة إلى الحرية التي أيقظت الشعور القومي وروح التمرد في الشعوب ، حتى أصبح التغني بمجد الوطن والتضحية في سبيله هو الأغنية (الرومانسية) المحببة التي ترددها الجماعات ويترنمون بها ترنمهم بالتراتيل الدينية . وارتفعت قيمة التضحية بالجهد وبالمال وبالروح في سبيل مجد هذا الوطن الذي اتجهت إليه عواطف الناس ، وكأنما هو معبود جديد هداهم إليه نبي جديد .

كان المبشرون بهذه الدعوة الجديدة في مصر متأثرين تأثراً واضحاً بالتفكير

١ - معالم تاريخ الإنسانية ٤ : ٩٢٠ - ١٠٦٣

٢ - عصر الخرافة ٢ : ٢٦ - ٢٧

الأوربي كما يبدو من خطبهم وكتاباتهم وشعرهم . ولعل من أوضح الشواهد على ذلك ما جاء في مقال لعبد العزيز جاويز نشره في صحيفة العلم سنة ١٩١٠ وعنوانه « الحركات الوطنية في مصر » حيث يقول (١) :

« سألني قوم أن أشرح لهم ما علمته من أمر الحركة الوطنية ومبتدأ خبرها وسر سياستها . وقد نبههم إلى ذلك ما قرأوه من الحوادث الخطيرة التي جرت لهذه الأيام الأخيرة في القطر وما رددته الجرائد من توقع حدوث أمور ذات بال ربما غيرت من أسلوب حكومته وبدلت من أوضاع سياسته » .

« إن الشعور بالوطنية اصطلاح أفرنكي انتقلت بذوره إلى الشرق من مطاوي العلوم العصرية وأصول المدنية الحديثة التي اهتدى إليها أهل الغرب » .

ونستطيع أن نقول إن هذه الحركة الجديدة قد نشأت قبيل الثورة العراقية . وكانت هذه الثورة صوتها القوي ويدها الباطشة وقوتها المنفذة . وتمثلت هذه الدعوة في جمعية « مصر الفتاة » السرية ، التي تألفت في الإسكندرية (٢) ، والتي أصدرت صحيفة باسمها للدعوة إلى الحرية (٣) ، وفي بعض الصحف الثائرة التي برزت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنتقد سياسة الحكومة وتندد بتفريطها في حقوق البلاد ، مثل صحيفتي « مصر » و « التجارة » لأديب إسحق (٤) ، وفي « الحزب الوطني » الذي تألف قبيل الثورة العراقية من الرجال الذين ترعموها بعد ذلك (٥) .

١ - صحيفة العلم : العدد الأول ٧ مارس سنة ١٩١٠ .

٢ - زعماء الإصلاح ١١١ ، ٢١٢ .

٣ - الثورة العراقية ٧٢ .

٤ - المرجع نفسه ٦٩ .

٥ - المرجع نفسه ٧١ ، ٧٢ والتشابه بين جمعية (مصر الفتاة) التي حركت الثورة العراقية وكانت نواتها ، وبين جمعية « تركيا الفتاة » التي حركت الثورة التي انتهت بخلع السلطان عبد الحميد ، والتي كان الانقلاب الكمالي بعد الحرب العالمية الأولى امتداداً لها . هذا التشابه بين الاسمين ، وبين الأهداف الثورية لكل منهما ، مع الاتفاق الزمني ، لأن مؤسس « تركيا الفتاة » ، على ما هو معروف ، هو « مدحت » المعاصر للثورة العراقية ، يوحي بوجود صلة . ويؤيد وجود هذه الصلة أن عدداً كبيراً من أعضاء الحزبين التركي والمصري كانوا =

وخير ما يصور هذه الدعوة في ذلك الوقت مقال لمحمد عبده نشرتة الوقائع المصرية في ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١ ، تحدث فيه عن الوطن وعن وجوب التفاني في حبه والذود عنه ، بدأه بتعريف الوطن فقال<sup>(١)</sup> :

« تقرر مما سلف أن لا بد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون إليها ، ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلباً ، وأن خير أوجه الوحدة الوطن ، لامتناع النزاع والخلاف فيه . ونحن الآن مبينون بعون الله ماهية هذا الوطن وبعض ما يجب على ذويه . »

« الوطن في اللغة محل الإنسان مطلقاً ، فهو السكن بمعنى : استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها ، أي اتخذوها سكناً . وهو عند أهل السياسة مكانك الذي تنسب إليه ، ويُحفظ حقلك فيه ويُعلم حقه عليك ، وتأمين فيه على نفسك وآلك ومالك . ومن أقوالهم فيه : لا وطن إلا مع الحرية . وقال لابروير الحكيم الفرنسي : لا وطن في حالة الاستبداد ، ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر ذاتية ومناصب رسمية . وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين : المكان الذي فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية . »

ثم يقول : « أما السكن الذي لاحق فيه للساكن ، ولا هو آمن فيه على المال والروح ، فغاية القول في تعريفه أنه مأوى العاجز ومستقر من لا يجد إلى غيره سبيلاً . فإن عظم فلا يسر ، وإن صغر فلا يسوء . قال لابروير السابق الذكر : ما الفائدة من أن يكون وطني كبيراً إن كنت فيه حزيناً حقيراً ، أعيش في الذل والشقاء خائفاً أسيراً . »

« على أن النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف

= من الماسون . وأن الحزبين كليهما كانا متأثرين بمبادئ الثورة الفرنسية التي كان بعض زعمائها ومفكرها من الماسون أيضاً . ولكن الأدلة المادية القاطعة تعوز المؤرخ . وإذا قدر للماسونية أن ينكشف عنها الغطاء ويتضح ما يحيطها من غموض ، فسوف يساعد ذلك كثيراً على كشف الغموض الذي يحيط بهذه الحركات وبأعمالها . وسوف يغير ذلك كثيراً من الآراء السائدة المقررة عن بعض رجال العصر وأحداثه .

١ - تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ١٩٤ - ١٩٦ .

الذاتي ، فهو يغار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذي ينتمي اليه ، وإن كان سيء الخلق شديداً عليه . ولذلك قيل في مثل هذا المقام : إن ياء النسبة في قولنا مصري وإنجليزي وفرنسوي ، هي من موجبات غيرة المصري على مصر والفرنساوي على فرنسا والإنجليزي على إنجلترا... فإذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه ، فهو سكنه الذي يأكل فيه هنيئاً ، ويشرب فيه مريئاً ، ويبيت في الأهل آمناً . وهو مقامه الذي ينسب إليه ، ولا يجد في النسبة عاراً ولا يخاف تعبيراً . وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التي حصلت له بما أوضاعناه من دخوله في دور الحياة السياسية . »

ويختتم محمد عبده مقاله بيث الأمل في نفوس المصريين والرد على المشبطين اللهم ، الذين لا يزالون ينعقون بأن المصري قد ألف الذل وتعود احتمال الظلم ، بما لا يدع مجالاً للأمل في بث الشعور بالوطنية فيه ، ضارباً المثل بفرنسا التي كان شعبها يعاني الرق في ظل النظام الإقطاعي ، ثم لم يمنعه ذلك أن ينال حقه . وفي هذه الفقرة يبدو أثر حركات الاستقلال والمطالبة بالحرية التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر . إذ يقول :

« ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر وإلباسهم جميعاً لباس الجهالة والذل ، ولكن أثبت الحوادث إلا أن تثبت لنا وجوداً وطنياً ورأياً عمومياً ولو كره المبتلون . على أن منهم فئة لا يزالون يؤمنون أسماؤنا بما يكررون من سفاسف القول من مثل : إننا تعودنا احتمال الظلم والحيف ، وألفنا الخدمة والرق ، فلن يستقل لنا رأي ؛ ولن نهتدي سبيل الحرية . كأنما هم لا يعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصاراً ، وكانوا في قديم الأيام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح ، وأن العالم بأسره كان فريقين : أحراراً يظلمون ، وعبيداً يطيعون . أو لم يكن في بلاد الفرنسيين من قبل هذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون في الأرض لغيرهم ، ويباعون كما تباع العجماءات . أولم يقل كاتبهم فولتير في وسط المائة السابقة : لا يزال في بلادنا ستون ألفاً أو سبعون ألفاً عبيداً للرهبان ؟ »



« فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيين من الوصول إلى ما أدركوه من رفعة المقام ، وأن يروا أمثال ثيارس وجريفي وغامبتا في أبناء الذين كانوا من قبل عبداناً أرقاء ؟ »

« ولئن كان فضل هذه المائة أن يكتب في صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف ، فلقد رجونا — وحقق الله هذا الرجاء — أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء في هذا العصر ، وحسن ذلك ابتداء ، وحسن ذلك ختاماً »  
ولكن الذي يبدو من مراجعة كتابات محمد عبده التي تلت ذلك أن المقصود بكلامه عن الوطن في هذا المقال يختلف بعض الاختلاف عن مدلول هذه الكلمة في أذهاننا اليوم . فقد كتب بعد ذلك بسنوات ثلاث مقالا في صحيفة العروة الوثقى عنوانه : « ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها » . تكلم فيه عما آل إليه أمر المسلمين من تأخر وانحطاط ، واستعرض آراء المصلحين ، فقال : إن بعضهم يظن أن أمراض الأمم تعالج بنشر الصحف ، وأنها تكفل لإنهاض الأمم وتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق . وفريق آخر يرى أن شفاءها من هذه العلل القاتلة يتم بإنشاء المدارس على الطراز الجديد المعروف في أوروبا حتى تعم المعارف لجميع الأفراد . وبعد أن فند الرأيين أثبت رأيه الذي يذهب فيه إلى أن انتشال الأمة الإسلامية مما هي فيه من ضعف لا يتم إلا عن طريق الدين <sup>(١)</sup> .

يقول محمد عبده في تفنيد آراء الذين يذهبون إلى الإصلاح عن طريق الاستكثار من إنشاء المدارس على الطريقة الأوروبية :

« شيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل ما يسمونه تمدناً . فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ ... نعم ، ربما يوجد بينهم أفراد يتفسيهقون بألفاظ الحرية والوطنية الجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها في عبارات متقطعة براء ، لا تعرف غايتها

ولا تُعلم بدايتها . وسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسملة أخرى على حسب ما يختارون . ووقفوا عند هذا الحد . ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المباني والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهاة ، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره . . . . وهذا جدعٌ لأنف الأمة ، يشوه وجهها ويحط بشأنها . وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيها على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها . »

وهذا المقال يدعونا إلى تعديل فكرتنا عن مدلول الوطن والوطنية في مقال محمد عبده الأول في الوقائع المصرية . وهو - مع ما سبقه وما تلاه من كتابات محمد عبده - يدعو إلى التفكير في تعديل ما يسود آراء محمد عبده من تباين واختلاف يبلغ حد التناقض في بعض الأحيان . ومهما يكن من أمر ، فهذا المقال الأخير يدل على أن الدعوة إلى الوطنية بمعناها المتعارف عليه الآن كانت قد نشأت ، وكان لها دعاة من أصحاب الثقافات الأوروبية ، المعادين لفكرة الرابطة الإسلامية . وهم الذين عناهم محمد عبده بالفقرة التي اقتطفناها من مقاله . وهم الذين يهاجمهم أيضاً في مقال آخر له عنوانه « التعصب » حيث يقول (١) :

« أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير . فقلما تكون عبارة إلا وهو فانتحتها أو حشوها أو خاتمتها ، يعدّون مسماه علة لكل بلاء ، ومنبعاً لكل عناء ، ويزعمونه حجاباً كثيفاً وسداً منيعاً بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ، ويجعلونه عنواناً على النقص وعلماً للذائل . والمتسربلون بسراويل الإفرنج ، الذاهبون في تقليدهم مذاهب الخبط والخلط ، لا يميزون بين حق وباطل ، هم أحرص الناس على التشديق بهذا البدع الجديد . فتراهم في بيان مفسد التعصب يهزون الرؤوس ويعبثون باللحي ويرمون السبال ، وإذا رموا به

شخصاً للحط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظه الإفرنجي « فانا تيك » .  
ثم يبين أن التعصب هو الرابطة التي شكل الله بها الشعوب ، ويقول إن  
الشعوب تظل بخير ما بقيت قوة الربط بين أفراد الأمة ، فإن ضعفت تداعى  
بنيانها للانحلال . ثم يقول :

« التعصب كما يطلق ويراد به النعرة على الجنس ، ومرجعها رابطة  
النسب والاجتماع في منبت واحد . كذلك توسع أهل العُرف فيه ، فأطلقوه  
على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً . والمنطقة من مقلدي  
الإفرنج يخصصون هذا النوع بالملت ، ويرمونه بالنعس . ولا نحال مذهبهم  
هذا مذهب العقل . فإن لُحمةً يصير بها المتفرقون إلى وحدة ، تندفع عنها  
قوة لدفع الغائلات وكسب الكمالات ، لا يختلف شأنها إذا كان مرجعها  
الدين أو النسب . وقد كان تقدير العزيز الحكيم وجود الرابطين في أقوام  
مختلفة من البشر . وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها  
الكون الإسلامي . »

« ثغغ جماعة من مترندقة هذه الأوقات في مفاصد التعصب الديني . وزعموا  
أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به إخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع ما يلهم  
بدينهم من غاشية الوهن والضعف ، هو الذي يصدهم عن السير إلى كمال  
المدنية ، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمي بهم في ظلمات الجهل ،  
ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم . ومن رأى  
أولئك المشغغين أن لا سبيل لدرء المفاصد واستكمال المصالح إلا بالانحلال العصبية  
الدينية ومحو أثرها ، وتحليص العقول من سلطة العقائد . وكثيراً ما يرجفون  
بأهل الدين الإسلامي ، ويخوضون في نسبة مذام التعصب إليهم . »

ثم يبين أن الدين أعظم مقوم للخلق ، وأن الغلو الذي يطرأ على العصبية  
الدينية فيدعو إلى إذلال المخالفين في الدين ، كالغلو الذي يطرأ على العصبية  
الجنسية فيدعو إلى إذلال المخالفين في الجنس واستعبادهم . ويبين أن الدعوة  
إلى التعصب في الجنس الذي يسمونه « الوطنية » إنما يروجه الإفرنج الذين

يريدون أن ينقضوا بناء الملة الإسلامية ، ويفرقوا بين شعوبها ، ليسهل عليهم استعمارها . وأن المغفلين من المسلمين الذين تبعوا هذه الدعوة الخبيثة قد هدموا العصبية الدينية ، ثم لم يستطيعوا أن يقيموا مكانها العصبية الجنسية التي يسمونها الوطنية .

كانت هناك دعوة جديدة للوطنية بالمعنى الأوروبي . ولكن هذه الدعوة كانت مختلطة بالدين في أذهان كثير من الناس ، كما يبدو من كلمات محمد عبده ، و كما يبدو من قول البارودي وهو في منفاه (١) :

لم أقرف زلة تقضي عليّ بما أصبحت فيه ، فماذا الويل والحرب (٢)  
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنبٌ أدان به ظلماً وأغترب ؟ !  
ومن قوله في قصيدة ينهى فيها الحديوي توفيق بعيد جلوسه قبيل الثورة ،  
مثنياً عليه لسنه نظام الشورى استجابة لرغبات الأمة ، حيث يشير إلى المصريين  
بقوله « أمة أحمد » (٣) :

وتمتعت بالعدل منك رعية كانت فريسة كل باغ معتد  
فحبالك ربك بالحميل كرامة لخزيل ما أوليت « أمة أحمد »

\* \* \*

تصور هذه المقتطفات التي قدمناها أن الدعوة إلى نوع من الوطنية كان قد بدأ في الظهور قبيل الثورة العربية ، وأن هذه الوطنية كانت فيما يبدو نتيجة تسلط العنصر التركي واستثاره بكل خير ، وأنها كانت تستهدف إنشاء رابطة عاطفية بين المصري ووطنه ، تحفزه على الاهتمام بأمره والعمل على رفعته وأداء واجبه نحوه من جهة ، والمطالبة بحقه فيه من جهة أخرى . وربما كانت الناحية

١ - الديوان : ٣٧

٢ - الحرب « بالتحريك » الويل والغضب

٣ - الديوان ١ : ٧

الأخيرة هي المقصودة بالتنبيه بنوع خاص ، لأن المصريين كانوا من قبل يؤدون الواجبات دون أن يعرفوا أن لهم في مقابلها حقوقاً . ولكن أصحاب هذه الدعوة لم يفكروا على كل حال في أن يستبدلوا هذه الرابطة بالرابطة الدينية أو يضعوها في مقابلها .

وشعر البارودي من أصلح الأمثلة لهذا اللون من التفكير الذي يستهدف رفع الظلم عن الشعب المستعبد الذي لا يقام لمصلحته وزن .

يقول من قصيدة يحض فيها الناس على المطالبة بحقوقهم والجهاد في سبيل الحصول عليها ، مذكراً بمجد مصر القديم ، وذلك في حكم إسماعيل <sup>(١)</sup> :

حلبتُ أشطُرَ هذا الدهر تجربة	وذقت ما فيه من صابٍ ومن عسل
فما وجدت على الأيام باقيةً	أشهى إلى النفس من حرية العمل
لكننا غرض للشر في زمن	أهلُ العقول به في طاعة الحَمَل <sup>(٢)</sup>
قامت به من رجال السوء طائفةٌ	أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه	بغضاً ويلفظه الديوان من ملل <sup>(٣)</sup>
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت	قواعدُ الملك حتى ظل في خلل
وأصبحت دولة الفسطاط خاضعة	بعد الإباء وكانت زهرة الدول
بئس العشير ، وبئس مصر من بلد	أضحت مناخاً لأهل الزور والخطل <sup>(٤)</sup>
أرض تأثّل فيها الظلم وانقذفت	صواعق الغدربين السهل والجبل <sup>(٥)</sup>
وأصبح الناس في عمياء مظلمة	لم يحطُ فيها امرؤ إلا على زلل <sup>(٦)</sup>

١ - الديوان ٢ : ٢٢٦ - ٢٥٠

٢ - الغرض : الهدف . الحمل : جمع حامل

٣ - الدست : صدر البيت والمجلس ، والمقصود به هنا الديوان ومجلس الوزارة والرياسة . وهي

كلمة فارسية الأصل .

٤ - الخطل : فساد الرأي .

٥ - تأثّل : أي تأصل وعظم .

٦ - أصبح الناس في عمياء ، أي في فتنة عمياء مظلمة .

لم أدر ما حلّ بالأبطال من خَوَرٍ  
أصوحت شجراتُ المجد أم نصبت  
لا يدفعون يداً عنهم ولو بلغت  
هيهات يلقى الفتى أمناً يلكد به  
فما لكم لا تعاف الضيم أنفسكم  
وتلك مصر التي أفنى الجلالدُ بها  
قوم أقرّوا عِمادَ الحق وامتلكوا  
جنوا ثمار العلا بالبيض واقتطفوا  
فأصبحت مصر ترهوب بعد كدّرتها  
لم تُنسب الأرض إلا بعد ما اختمرت  
حتى إذا أصبحت في معقل أشب  
أخنى الزمان على فرسانها فغدت  
فأي عار جلبتم بالحمول على

بعد المراس وبالأسياف من قلل<sup>(١)</sup>  
غُدُرُ الحمية حتى ليس من رجل<sup>(٢)</sup>  
مَسَّ العفافة من جبن ومن خزل  
ما لم يخض نحوه بحراً من الوهل<sup>(٣)</sup>  
ولا تزول غواشيكم من الكسل<sup>(٤)</sup>  
لفيف أسلافكم في الأعصر الأول  
أزمة الخلق من حاف ومُنتعل  
من بين شوك العوالي زهرة الأمل  
في يانع من أسايب النداء خضيل  
أقطارها بدم الأعناق والقلل<sup>(٥)</sup>  
يرد عنها يد العادي من الملل<sup>(٦)</sup>  
من بعد مننعتها مطروقة السبل<sup>(٧)</sup>  
ما شاده السيف من فخر على زحل

ويقول في قصيدة أخرى من قصائد المنفى<sup>(٨)</sup> :

أبى الدهر إلا أن يسود وضيعه  
تداعت لدركِ الثار فينا ثعالة

ويملك أعناق المطالب وغدّه  
ونامت على طول الوتيرة أسده<sup>(٩)</sup>

١ - الخور (بفتحين) الضعف . المراس « بكسر الميم » البأس والشدة . القلل « بفتحين » تثلم حد السيف .

٢ - صوحت : يبست . نصبت : جفت . الغدر : جمع غدير وهو ما يغادر السيل من ماء .

٣ - الوهل : الفزع .

٤ - الغواشي : جمع غاشية وهي الغطاء .

٥ - القلل : جمع قلة « بضم القاف » وهي الرأس .

٦ - أشب : حصين .

٧ - مطروقة السبل : أي أنها أصبحت تطأها الأقدام وانتهك الناس حرمتها بعد منعتها .

٨ - الديوان ١ : ٧٢

٩ - تداعى القوم : دعا بعضهم بعضاً . ثعالة : علم لأنثى الثعالب لا ينصرف . الوتيرة : الثار .

فحتامَ نسري في دياجير محنة  
إذا المرء لم يدفع يدَ الجور إن سبطت  
ومن ذلَّ خوف الموت كانت حياته  
وأقتلُ داءَ رويةُ العين ظالماً  
علام يعيش المرء في الدهر خاملاً؟!  
يرى الضيم يغشاه فيلتذ وقَّعه  
يضيق بها عن صحبة السيف غمده  
عليه فلا يأسفُ إذا ضاع مجده  
أضرَّ عليه من حِمَام يَوْدُهُ  
يسيء ويُسْتلى في المحافل حمده  
أيفرح في الدنيا ليوم يعده؟!  
كذي جرب يلتذ بالحلك جلده

كذلك نشأت فكرة الوطنية وقتذاك ، فكرة تحاول أن تجمع الناس حول المطالبة بحقوقهم ، ودعوة إلى الحرية وإلى هدم صرح الظلم والاستعباد . ثم تطورت الفكرة على أيدي أصحاب الثقافة الأوروبية ، وبدأت تهاجم الرابطة الدينية وتعتبرها مصدر شر وتفرقة بين أبناء الجنس الواحد . فدعا هذا الفهم الجديد للوطنية إلى أن يهاجمها المتمسكون بالرابطة الدينية ، ويعتبروها خطراً يهدد وحدة الأقطار الإسلامية ويفرق كلمتها ويهدم تعاطفها ويضعف تكتلها ، بما يعرضها للسقوط تحت أقدام الدول الأوروبية الطامعة ، واحدة تلو الأخرى . وربما كان صالح مجدي<sup>(١)</sup> من أسبق الشعراء في العصر الحديث إلى ترديد كلمات الوطن والوطنية في شعره ، بعد أستاذه رفاعه الطهطاوي . وله في آخر ديوانه خمس عشرة مزدوجة سماها «الوطنيات» ، امتدح فيها سعيد باشا والي مصر ، وعرضت عليه فأمر بتلحينها والتغني بها بمصاحبة الموسيقى العسكرية في المحافل والمواسم . وهو في هذه الوطنيات يشيد بالوطن محاولاً أن يغرس حبه في القلوب ، ويتغنى بأعجاد الأجداد ، ويفاخر بجيش البلاد ، مبرزاً قوته ، معتدلاً بشدة بأسه . ولكنه يربط كل ذلك بشخص سعيد ، ويجعله سبباً للتعظيم من شأنه ، وتجييبه إلى أبناء جنسه .

١ - السيد صالح مجدي : شاعر مصري المولد مكّي الأصل ولد سنة ١٨٢٥ م وتوفي ١٨٨١ م . تقلب في عدة مناصب بين عسكرية وتعليمية وهندسية وإدارية . وخلف كثيراً من الكتب بين مترجم ومؤلف في الرياضة والهندسة والميكانيكا والفنون العسكرية . وترجمته الكاملة في الخطط التوفيقية . ونستطيع أن نجد أمثلة لهذه النزعة الوطنية في كتابات رفاعه الطهطاوي الذي تلمذ السيد صالح مجدي عليه - الاسلام والحضارة الغربية ص ٢١ .

فمن ذلك قوله في الوطنية التاسعة :

بامتداح الصدر غنوا فهو للأوطان حصن  
وهو للإيمان ركن ولكم في الخوف أمن  
في ميادين الوقائع

في الوغى أنتم أسودُ يا بني الأوطان سودوا  
ولها بالروح جودوا وادخلوا الأحيا وصيدوا  
صيدها يوم الزعازع

واستعدوا للكفاح في مساها والصباح  
واطلقوا خيل الفلاح في ميادين النجاح  
وادفعوها في المعامع

وانشروا للغز بنسداً وانصروا الصدر المفدى  
واسلكوا الدرب الأسداء واقمعوا الخصم الألداء  
واقطعوا منه المطامع

يا بني الأوطان هيا خيموا فوق الثريا  
واهجروا النوم مليا واطعنوا الفصد الأييا  
واجدعوا أنف الممانع

ومن ذلك قوله في الوطنية الخامسة عشرة :

فالصارم في أثر المدفع لعدو مخذول يصدع  
وعن الأوطان به ندفع من جاء بلا عقل يطمع  
فيها لبلاء مقدور

لبلاء فيها يرصده بأليم عذاب يقصده  
وهوان هوان يحصده من طوبجي ترمي يده  
لعدو الله المفرور



من طويجي\* بالسدانات يفتال زعيم القادات (١)  
 أو خيال في الهيجات يستأصل غصن الهامات  
 بحسام ماض مشهور  
 أو زنجي بالمزراق لا يطعن غير الأحداق  
 أو أوجي سام راق ما يدفعه أبداً راق  
 عن مهجة خصم شرير  
 أو زوخ تهجم بالخليل للكبسة في جنح الليل  
 فترزع أركان القول وترد الصاغ إلى الصول  
 وتعود بنصر مأثور  
 أو قراب بين الصف يرمي برصاص للحتف  
 فيصيب الرأس مع الأنف ويشوش تنظيم الصف  
 في موقف هول منكور  
 أو ذي لغم بالصلقوم لا يطعم غير الزقوم  
 ويسد بوغاز الخلقوم من جيش باغ مذموم  
 مطرود عنا مدحور  
 أو كوبري\* فوق البحر لا ينصب إلا بالأمر  
 وإذا ما ساروا في البر حملوه كأثقال الجر  
 مطويماً طي المنشور  
 أو ذي علم عند الخطب بدقائق هندسة الحرب  
 يتصدى في يوم صعب لاستكشاف الوضع الحصب  
 في غفلة جيش محصور

١ - الشعر - كما هو ظاهر - مليء بالمصطلحات الأعجمية وبالكلمات الجارية على ألسن العامة .  
 وأكثرها يرجع إلى أصل تركي .

ومن الواضح أن الصياغة أو الألفاظ ليست هي التي تلفت النظر في شعر صالح مجدي . فهو قليل الحظ من هذه الناحية ، لا يقارن بشاعر كالبارودي . ولكن الذي يلفت النظر في شعره هو هذا الوضوح المبكر للفكرة الوطنية ، التي تعتر بمصر وبجيش مصر ، وتمتلىء حماساً للحرب وللقتال في سبيل مجد الوطن ورفعته . وذلك في وقت لم يكن للشعراء فيه همٌّ أو موضوع إلا التافه الرخيص من الأغراض .

\* \* \*

ثم انشغل الناس بما كان من فشل الثورة العراقية واحتلال مصر ، فقُفرت الحركة زمنياً وركدت ريجها ، وقد دهاها الناس ذلك الخطب الحديد ، فامتألت قلوبهم رهبة من السياسة ، وهيبة من الاشتغال بها ، ومن مثل مصير عرابي وصحبه ، وقد أصبح الأمر كله بيد الإنجليز .

ولم يزل الناس في دهشتهم حتى أفاقوا على صوت المنادين الذين ينبهونهم من غفلتهم في أوائل القرن العشرين . وكان قادة هذه الحركة الجديدة طائفة من الشباب المثقف ، اختلفوا في مناهجهم وأساليبهم . فمنهم من أسلفنا ذكرهم ممن يتخذون الدين والتعلق بالجامعة الإسلامية سبيلاً إلى ذلك . ومنهم من نهج نهجاً جديداً جريئاً فنادى بالجامعة المصرية ، محارباً فكرة الجامعة الدينية والرابطة العثمانية . وكان الفريق الأول - ممثلاً في الحزب الوطني ، وعلى رأسه زعيمه الشاب مصطفى كامل - يتحدث عن الوطن والوطنية حديثاً عاطفياً ، ويتغنى به كما يتغنى العاشق بمعشوقه ، محاولاً أن يغزو قلوب المصريين بهذا الحب الحديد ، ليُحِلَّ الوطن منها محل الدين كما يقول شوقي في قصيدته التي حيا بها الوطن بعد عودته من منفاه :

ولو أني دُعيتُ لكنتَ ديني      عليه أقابلُ الحثمَ المجاباً  
أديرُ إليك قبل البيت وجهي      إذا فُهِتْ الشهادة والمتاباً

وكان الفريق الآخر - ممثلاً في حزب الأمة ، أو في شبابه المثقف بتعبير

أدق - يتحدث عن الوطن حديث العقل والمصلحة . فهو لا يستهدف إثارة الناس ، ولكنه يحاول إقناعهم . وهو لا يتغنى بالوطن المحبوب ، ولكنه يتحدث عن النفع المادي والمصلحة المشتركة التي تجمع بين ساكنيه . وكلا الفريقين كان متأثراً تأثراً واضحاً بالتفكير الأوروبي وبالمدعوات القومية التي أصبحت بدع العصر في القرنين التاسع عشر والعشرين . بيد أن الفريق الأول قد حور ما نقل بما يلائم الظروف السائدة وقتذاك ، وأحسن تقديمه لجمهور الناس الذين كانوا يؤمنون بالجامعة الإسلامية إيماناً شديداً ، بينما نقل الفريق الآخر هذه الدعوة الأوروبية نقلاً أميناً - أو أعمى إن شئت - لا تحريف فيه ولا تبديل ، ففجأ به السامعين .

يقول مصطفى كامل ، من خطبة له في حديقة الأزبكية سنة ١٨٩٧ : (١) . « إن الوطنية هي أشرف الروابط للأفراد ، والأساس المتين الذي تُبنى عليه الدول القوية والممالك الشائخة . وكل ما ترونه في أوروبا من آثار العمران والمدنية ، ما هو إلا ثمار الوطنية . أصبح اليوم الوطن المصري ينظر منكم ومن بقية أبنائه عدلاً وإنصافاً . أصبحت مصر تؤمل منكم أن ترغعوها إلى منصة الحرية والاستقلال ، وأن تردوا إليها حقوقاً وهبها إياها الخالق عز وجل . ولا ريب أنكم معشر المتعلمين ، معشر النابغين في المعارف والآداب ، أول من يسأل عن خدمة مصر وتأييد مبدأ الوطنية الحقيقية . فإنكم قرأتم في التاريخ الأمثال الكثيرة للوطنية ، وعرفتُم سير أناس عديدين ماتوا محبة لبلادهم ، وإخلاصاً لأوطانهم فحيوا بموتهم . وأدركتم أن الحياة سريعة الزوال ، وأن لا شرف لها بغير الوطنية والعمل لإعلاء شأن الوطن وبنيه . »

ويقول من خطبة له في الإسكندرية ١٩٠٠ (٢) :

« قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية ، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء . ولكني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ،

١ - مصطفى كامل ص ٩٤

٢ - مصطفى كامل ص ٢٢ .

وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقاً ، وبفديه بروحه وما تملك يده . ولست فيما أقول معتمداً على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة ، ولكني أستشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة بسمارك أكبر ساسة هذا العصر ، وهو رجل خدم بلاده ورفع شأنها . فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته : « لو نزعتم العقيدة من فؤادي لزرعتم معها محبة الأوطان . »

من هذه المقتطفات يستطيع القارىء أن يتبين مدى التأثير الأوروبي في تفكير رائد الوطنية الحديثة في مصر من ناحية ، وربطه بين الوطنية والدين من ناحية أخرى . أما حديثه العاطفي عن الوطن ، الذي هو أشبه الأشياء بحديث العاشق عن معشوقه ، والذي يصور هياماً روحياً صادقاً هو أقرب الأشياء شبهاً بهيام المتصوفة ، فهو جلي واضح في خطبه وفي كثير من كتاباته ، ويكفي أن أقدم عليه مثلاً واحداً من خطبته في الإسكندرية سنة ١٩٠٧<sup>(١)</sup> ، وهي أكبر خطبه وأروعها على الإطلاق .

« تقولون يا أعداء مصر : إننا لو أفلحنا لما نلنا هذا الاستقلال إلا بعد حين طويل ، فنجيبيكم أنا لو سلمنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل ، لأننا لا نعمل لأنفسنا ، بل نعمل لوطننا ، وهو باق ونحن زائلون . وما قيمة السنين والأيام في حياة مصر ، وهي التي شهدت مولد الأمم كلها ، وابتكرت المدنية والحضارة للنوع الإنساني كله ؟ »

« إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع . ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصري ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون كذلك لا محالة . »

« فمهما تعددت الليالي وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق ، وأعقب الغروب غروب ، فإننا لا نمل ولا نقف في الطريق ، ولا نقول أبداً : لقد طال الإنتظار . »

١ - مصطفى كامل ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .

« إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضي البلاد وحاضرها ، وأعلى مطلب ترمى إليه في مستقبلها . فلا الدسائس تخيفنا ، ولا التهديدات تنقِفُنَا في طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات ترزعجنا . ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية . »

« نعم ! .. إنا لو تَخَطَّفْنَا الموتُ من هذه الديار واحداً بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا : كونوا أسعد حظاً منا ، وليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد ، للمطالبة بالحق الوطني والحرية الأهلية والاستقلال المقدس . »

« بلادي ! .. بلادي ! .. لك حبي وفؤادي .. لك حياتي ووجودي ... لك دمي ونفسي .. لك عقلي ولساني .. لك لُبي . وَجَنَانِي .. فأنت أنتِ الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر . »

« يقول الجهلاء والفقراء في الإدراك إنني متهور في حبها . وهل يستطيع مصري أن يتهور في حب مصر ؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التي يدعوه إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها . »

« ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها ، واقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض : هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً ، وأسمى شأنًا ، وأجملَ طبيعةً ، وأجلَ آثاراً ، وأغنى تربةً ، وأصفى سماءً ، وأعذب ماءً ، وأدعى للحب والشغف ، من هذا الوطن العزيز ؟ »

« اسألوا العالم كله يجيبكم بصوت واحد : إن مصر جنة الدنيا . وإن شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها وسلم أزمته للأجنبي . »

« إنني لو لم أُولدُ مصرياً ، لَوَدِدْتُ أن أكون مصرياً . »

« قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصري مما لا يليق بإنسان . ولكن أي شرف يطمع الحرفيه أكبر من العمل لإحياء الأمة

التي سبقت الأمم كافة في العلم والمدنية والأدب ؟ . . أي رفعة يسعى الشريف  
إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذاً لشعوب البشرية ومربياً للعالم كله ؟ . .  
أي سوّد ترمي النفوس الأبية إليه أعلى من إخراج الوطن المصري من الظلمات  
إلى النور ، وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التي كانت في الدجّة  
الحالكة يوم كانت بلادنا مشرقاً للعرفان ؟ . . »

« ليت شعري ، أي لذة وسعادة ومكافأة يطلبها الوطني المصري أكبر من  
اشتراكه في هذا العمل الخطير الذي هو أجلُّ عمل يراه العالم في القرن العشرين ؟  
إن المكسب الأدبي للوطني المصري من هذه الخدمة يُرسي على أُنعامه ومجهوراته  
بكثير . »

هذه كلمات تمثل لنا صدق تصوير شوقي له حين قال في رثائه :

يا صَبَّ مصر ويا شهيد غرامها هذا ثرى مصر فتم بأمان

\* \* \*

وسرعان ما سرى أثر مصطفى كامل في الشعر ، وظهر صداه في الشعراء  
المعاصرين ، وكان الغاياتي ومحرم في طليعة شعراء الوطنية الذين يصدرون في  
شعرهم عن الهيام بحب الوطن ، ويستهدفون بعث العاطفة الوطنية وإثارتها في  
قوة دفاقة ، بما يجعلهما أشبه الناس في شعرهما بمصطفى كامل في خطبه . أما  
الغاياتي فاسم ديوانه والضجة التي اقترن بها ظهوره يغنيان عن كل تعليق . سمى  
ديوانه « وطنيتي » . واشترك في تقديمه إلى القراء محمد فريد وعبد العزيز جاويش .  
وقد صودر الكتاب عند ظهوره في يوليو سنة ١٩١٠ (١) ، وأحيل مؤلفه وكاتبها  
مقدمته إلى محكمة الجنايات متهمين بتجديد الجرائم والتعريض على ارتكابها  
وإهانة هيئات الحكومة . وكان محمد فريد في أوروبا وقتذاك فأجلت محاكمته إلى  
ما بعد عودته . وأما الغاياتي فقد نجح في الهرب إلى سويسرا قبل المحاكمة ،  
وحوكم غيابياً فأدانت المحكمة وحكمت عليه بالسجن سنة مع الشغل .

وحكم على عبد العزيز جاويش بالحبس ثلاثة أشهر مع النفاذ ، ونفذ فيه الحكم فوراً (١) . وحوكم محمد فريد بعد عودته من أوروبا وحكم عليه بالحبس ستة أشهر مع النفاذ (٢) .

قدم الغاياتي لديوانه بمقدمة طويلة تقرب من ثلاثين صفحة ، تكلم فيها عن واجب الشعراء في بث روح الوطنية والغيرة القومية ومحاربة الظلم والاستبداد ، وعن حاجة مصر إلى نشيد وطني . وترجم بعض قطع من المارسيليز « نشيد الثورة الفرنسية » واختارها مما يناسب ظروف مصر في ذلك الحين . ثم قدم ترجمتين لنشيدين فرنسيين آخرين هما « فرنسا » و « الوطن » . واختتم المقدمة بقوله : « فحيا الله فرنسا ، فقد أفاضت على الأمم من معين الحرية عذباً زلالاً ، وجاهدت في سبيل الوطن جهاداً وعت القلوب ذكره ، وأشربت النفوس حبه ، فعسى أن نكون على آثارها مهتدين ، وعلى منوال شعرائها ناسجين ، حتى نغدو بنصر الله فائزين . والله مع الصابرين » . والمقدمة تدل على أثر الشعر الوطني الأوروبي ، والفرنسي منه خاصة ، في دعاة الوطنية الناشئين من شعراء مصر . أما الديوان فهو يفيض بالحماسة والثورة وحب الوطن وتقديسه . ويكفي في هذا المقام أن نقدم منه أمثلة ثلاثة . فمن ذلك قصيدته « طيف الوطنية » التي يقول فيها (٣) :

في سلام الليل حاربت المناما	فسلاماً أيها الطيف سلاما
مرحباً بالزائر الساري إلى	مضجع الحب يحبي المستهما
ليت شعري ، هل رأى في مضجعي	شبحاً يشكو إلى الله السقاما ؟
وهل الدمع الذي أغرقني	كان عند الطيف دمعاً أم ضراما ؟

- 
- ١ - كانت المحكمة مؤلفة برئاسة أ. د. مجدي وعضوية كل من علي ذو الفقار ومسيو سودان . وكان يمثل الاتهام محمد توفيق نسيم ، ومثلا الدفاع أحمد لطفي ومحمد علي علوبة .
  - ٢ - كانت المحكمة مؤلفة برئاسة المستر دوبروجلي وعضوية كل من أحمد ذي الفقار وأمين علي . ومثل النيابة محمد توفيق نسيم . ورفض محمد فريد أن يستصحب أحداً من المحامين للدفاع عنه .
  - ٣ - وطنيتي ص ٤٥ .

وهل النجم الذي أرصده  
لست أشكو الهجر من فاتنة  
نحن صنّوان قضينا حقبة  
نبصر الفيض بمصر جارياً  
ظماً قاض ونيل فائض  
وعِداة ملكوا الأمر ولم  
وولاة أقسموا أن يسجدوا  
إنما الشعب الذي يرجو العلا  
كتب النصر لشعب ناهض

أبصر الزائر في عيني فهاما  
تشتكي مثلي ولوعاً وهياماً  
في ربوع النيل نستدري الغماما  
يَبْدُ أن القوم يشكون الأواما  
ودموع جارت السحب انسجاما  
يحفظوا للشعب في حق زماما  
كلما رام العدا منهم مراما  
ليس يرضى من أعاديهِ اهتضاماً  
في سبيل المجد لا يخشى الحِماما

ومما يلفت النظر في هذه القصيدة كثرة كلامه عن الشعب، وهي كلمة برزت في قاموس الشعر، واقرن ظهورها بظهور الحركة الوطنية الجديدة، فأصبح شعراؤها يستعملونها في مقابل مرادفها القديم «الرعية».

ومن الشعر الذي يصور هذه الروح الجديدة في ديوانه قصيدته «آه مصري ينوح على مصر» وفيها يقول (١) :

آه !! كم أنّةٍ وكم حشرات  
طال ليل البلاد والشعب سار  
ظلمات من المظالم أودت  
يشتكي الشعب، والقضاة خصوم  
أوشك القلب أن يطير انتقاماً  
ليس للصبر موطن في فؤاد  
بين جنبيّ مُسَهَّد مستهام  
همّه مصر خير أرضٍ أَقَلَّتْ  
طلع النحس بالشقاء عليها

آه !! كم زفرةٍ وكم عبرات  
لا يرى غير هذه الظلمات  
بضياء الحياة بعد الحياة  
فلمن يُشتكى خصام القضاة  
يَبْدُ أن الصدور ذاتُ أناة  
أضرمت لواعج الزفرات  
ليس يشكو هوى فتى أو فتاة  
بعد خير الهداة شرّ البُغاة  
ودهاها الزمان بالويلات



قهرتها يد الطغاة وكانت مصر أولى بقطع أيدي الطغاة  
ومن هذا الشعر في ديوانه « النشيد الوطني » الذي يقول فيه (١) :

نحن للمجد نسير ولنا الله نصير  
ليس يثنينا نذير عن بلاد تستجير  
وعبياد في حداد  
كيف نرضى بالممات وزمان الموت فسات  
إنما الدستور آت فعلينا بالثبات  
عند آمال البلاد

نحن للمجد نسير . . الخ  
نحن شعب لا نضام قبل أن نلقي الحمام  
فعلى النيل السلام من فتاه المستهام  
يوم يقضي في الجهاد

نحن للمجد نسير . . الخ  
في هوى النيل السعيد ميّت القوم شهيد  
ذكره حيّ جديد يومه نلشعب عيد  
فيه ذكرى للرشاد

نحن للمجد نسير . . الخ  
مرحباً بالفوز لاح وانجلي ليل الكفاح  
وشدا طير الصباح : أدرك الشعب الفلاح  
وقضت مصر المراد

نحن للمجد نسير . . الخ .

أما محرّم ، فشعره في حب مصر والهيام بها ، لا يَعدُّله في صدقه وفي حرارته

إلا خطب مصطفى كامل . يقول في قصيدته « إيمان المخلصين » (١) :

ألي في الهوى مالي ؟ . . . وللاّ ثم العذر  
فإن يسألوا : ما حب مصر ؟ . . فإنه  
لنفسى وفائي إن وفيتُ بعهدّها  
أخاف وأرجو ، وهي جهد مخافتي  
هي العيش والموت المبعّض والغنى  
هي القدر الجاري ، هي السخط والرضى  
بذلك آمنّا . فيامن يلومنا  
تدّفقَ فيها الوحي شعراً ، وإنما  
تخير فيه الواصفون نفّاسةً  
رئيس ، وذو تاج ، وشاعرُ أمة  
إذا جال ماء النيل في جوف شارب

أما يعلم الثلّوام أن الهوى « مصر » ؟  
دمي وفؤادي وإخواني والصدر  
وبي - لا بها - إن خنت حرمتها الغدر  
ومرمي رجائي ، لا خفّاء ولا نُكرُ  
لأبنائها والفقر والأمن والذعر  
هي الدين والدنيا ، هي الناس والدهر  
لنا في الهوى إيماننا ، ولك الكفر  
سقانا بها النيل الذي كله شعر  
فأوصافه شتى وألقابه كُشُرُ  
ونابغة غمر ، وداهية نُكر  
فليس له إن خان أبناءه عذر

ويقول في قصيدته « مصر في تاجها الحديد » (٢) :

وهبتُ الصبّ والشيب والشوق والهوى  
بلادٌ حبّستني أرضها وسماؤها  
وما حادثٌ يوماً وإن راع وقعه  
هي الدهر ، أو شيء يشابه صرّفه  
تمر بها الدولات شتى ، وترتمي  
كأنني بها صحف الخلود . وكلّها  
كأن رباها للممالك منبر  
كأن ثراها للشعوب تيممة

لمصر وإن لم أقض حقّ الهوى مصرا  
حياتي ، وأجرى نيلها في فمي الدُرّ  
بماح هواها أو يطاولها ذكرا  
وإبرامه والنقض والطي والنشرا  
عظّات الليالي حول أهرامها ترى  
يخط عليها من أحاديثه سطرا  
يقوم عليه الدهر يوسعها زجرا  
تقي من جنون الجهل أن تبطل السحرا

١ - ديوان محرم ٢ : ١١٦

٢ - ديوان محرم ٢ : ١٣١

كأن بماء النيل سراً محجّباً يرد إلى حكم الأناة من اغترا  
خذي من عظمات الدهر يا مصرُ ، واشهدي  
عليه وزيدي في أعاجيبه صبرا

ويقول في قصيدته « تفرق المذاهب »<sup>(١)</sup> :

رويد كما يالائمي فإن بي	على مصرَ وجداً جل أن يتلما
بلاد سقتني الحبّ عذباً ووكلت	بصافيه قلباً بين جنبي أهيماً
يزيد هواها كلما زاد بوئسها	وتنمو تباريح الجوى كلما نما
حفظت لها عهدين : عهد شبية	تصرمت اللذات لما تصرما
وآخر يكسوني المشيب مفوّفاً	ويلبسي منه الرداء المسهما
وما المرء إلا قومُه وبلاده	فإن يذهبا يلقي الأذى حيث يما

\* \* \*

أما الفريق الآخر من دعاة الوطنية ، الذي كان يحارب فكرة الجامعة الإسلامية، ويدعو إلى أن يقصر المصريون اهتمامهم على مصالح مصر ويحصرُوا تفكيرهم فيما يعود عليها بالنفع\* ، والذي كان يصور الوطنية على أنها المصلحة المشتركة التي تجمع بين المواطنين ، فقد كان مشتملاً على قسمين : قسم تمثله صحيفة « المقطم » التي تعمل لحساب الإنجليز ، وقسم آخر تمثله صحيفة « الجريدة » التي تنطق بلسان حزب الأمة .

أما صحيفة « المقطم » فقد كانت صريحة في تأييد المحتل وتصويره في صورة إنسانية رفيعة . فالإنجليز - في زعمهم - لم يحشوا أنفسهم مشقة الإقامة في مصر إلا لرفع الظلم وإحياء العدل . وإليهم وحدهم يرجع الفضل في إنقاذ مصر من الإفلاس ، وإقامة اقتصادها على أساس سليم متين<sup>(٢)</sup> . وإليهم وحدهم

١ - الديوان ٢ : ٩٠

٢ - كان هذا هو زعم كرومر ، الذي لم ينهض أحد لتفنيده على أساس اقتصادي علمي يستند إلى الإحصائيات والأرقام. فكان الذين يهاجمونه ينددون باستبداده وسياسته الاستعمارية ويسلمون=

يرجع الفضل في رفع الظلم عن الفلاح المصري المسكين ، الذي كان مستعبداً لطائفة الباشوات من الترك . وهم الذين يحدّون من شره الحاكم التركي « الخديوي » ويحولون بينه وبين ابتلاع أرزاق الناس وأقواتهم .

كان كل ما تكتبه صحيفة « المقطم » وكثير مما تكتبه مجلّتهم العلمية « المقتطف » يدور حول هذه الآراء ، ويحاول إقرارها في أوهام الناس ، وجمع أكبر عدد حولها من المصريين ، أو المقيمين في أرض مصر بتعبير أدق ، من وطنيين ودخلاء ، زاعمين أن هذا هو الاتجاه الوطني الحق الذي لا ينظر إلا إلى خير مصر ومصلحتها المادية ، وأن المخالف له إنما هو رجل يفكر بعقول الترك ، ويقدم مصالحهم على مصلحة وطنه مصر . وقد نجحت الصحيفة في أن تغوي قلة من أعيان البلاد استهوتهم المصالح الشخصية فانضموا إلى دعوة « المقطم » تقرباً من ساكن قصر الدوّارة الذي يمثل الدولة المحتلة . وسمت هذه القلة نفسها بـ « الحزب الوطني الحر » ، وأعلنت الحرب على « الحزب الوطني » الذي كان يتزعمه مصطفى كامل ، متهمه إياه بالتدليس وبالتهريج وبالزج بالبلاد إلى هاوية الخراب ، مرجعة إليه وحده ما كانت تعانيه مصر من أزمة اقتصادية ، مرّدها في رأيهم إلى حالة القلق التي أوجدها هؤلاء المهيجون ،

---

= بفضل على الاقتصاد المصري . وغاية ما يبلغون أن يحقروا من شأن هذه الناحية قائلين إن المال ليس كل شيء في حياة الأمم . كما يقول حافظ :

تشعبت الآراء فيك فقائل	أفاد الغنى أهل البلاد وأسعدا
رأى الغز كل الغز في بسطة الغنى	فحارب جيش الفقر حتى تبددا
... وآخر لم يقصر على المال همه	يرى أن ذاك المال لا يكفل الهدى
يناديك قد أزريت بالعلم والحجا	ولم تبق للتعليم يالورد معدا
وأفك أخصبت البلاد تعمداً	وأجدبت في مصر العقول تعمداً

ولم يزل الأمر كذلك ، حتى نهض روتشتين للرد على ما يدعيه كرومر لنفسه من فضل على الاقتصاد المصري ، مفنداً مزاعمه بالإحصائيات والأرقام . وجعل ذلك محور كتابه Egypt's Ruin الذي نشره في إنجلترا سنة ١٩١٠ ، والذي ترجم إلى العربية ونشرته لجنة التأليف في مصر سنة ١٩٢٣ بعنوان « تاريخ المسألة المصرية » كما ترجمه بعد ذلك علي أحمد شكري سنة ١٩٢٧ بعنوان « تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده » .

فكانت سبباً في أن يكف أصحاب رؤوس الأموال من الأجانب عن استثمار أموالهم في مصر ، وأن ترفض البيوت المالية تقديم القروض . ولم يكن هذا « الحزب الوطني الحر » في حقيقة أمره شيئاً غير « محمد وحيد » الذي كان ينشر بعض مقالات باسمه ، ابتداءً من سنة ١٩٠٧ بامضاء « رئيس الحزب الوطني الحر » ، ونفر قليل لا يكاد يتجاوز عدده أصابع اليد ، ممن يدعون أنهم « أصحاب المصالح الحقيقية » في مصر .

ومن أمثلة ما كان يكتب هذا نفر من الناس كلمة لمن يُدعى « مصطفى عمار » عنوانها « أصحاب المصالح الحقيقية » جاء فيها : (١)

« يظهر أن اللواء يقصد بتكراره ذكر « دنشواي » اتخاذ ذلك وسيلة للتعريض بسعادة الفاضل فتحي باشا زغلول وحك حزازات في الصدور ، مع أن فضل سعادة باشا وفضل أخيه سعادة الفاضل سعد باشا مشهور ومعلوم عند الأمة المصرية كلها وعند غيرها أيضاً . فجدير بصاحب اللواء أن يترك هذه الخطة الممقوته وينضم إلى الحزب الوطني الحر ، ويسعى في تفريغ هذه الأزمة التي كادت تخرب البلاد . وما شدّد وطأتها علينا إلا هو وأمثاله الهجّاصون ، كما أوضح ذلك حزب أصحاب المصالح الحقيقية في المقطم الأغر . وإلا فالواجب على كل مؤمن أن يقاتل فئة اللواء الباغية بقلمه ولسانه حتى تفنيء إلى أمر الله . ويلتمس العقلاء من جناب عميد الإصلاح (٢) وضع حد لهذه الفوضى لإنقاذ مصر من الخراب فيشكرونها . كما نشكر المقطم الصادق لنشره أفكار أصحاب المصالح الحقيقية خدمة للأمة » .

وفي مقال آخر لمحمد وحيد عنوانه « سلامة المصريين في سلامة المحتلين » يتكلم عن الأزمة الاقتصادية . ويرد أسبابها إلى أن أصحاب الأعمال المالية قد امتنعوا عن توظيف أموالهم في مصر بسبب تهيج المهيجين على الاحتلال ، مما زعزع ثقتهم في مصر . ويحض المصريين على مسالمة المحتلين ، ويزعم أن

١ - المقطم ٢٥ يونيه سنة ١٩٠٧

٢ - المقصود بجناب عميد الإصلاح هو اللورد كرومر

بعض المالين يفكرون في العودة إلى توظيف أموالهم بعد أن سمعوا عن حركة الحزب الوطني الحر (١).

وقد نشر محمد وحيد هذا سلسلة من المقالات تحت عنوان « أصحاب المصالح الحقيقية » هاجم في أحدها مصطفى كامل وصحيفته « اللواء »، ثم قال : « فواجباتنا الوطنية ومصالح أمتنا تقضي علينا في هذا المقام أن نتقدم إلى جميع الأجانب على اختلاف نزعاتهم وأجناسهم بلسان الحزب الوطني الحر ، الذي يمثل أصحاب المصالح الحقيقية في البلاد ، ولسان سائر عقلاء الأمة الأحرار ، ونقول لهم : إن الأمة ضربت بتلك الصحيفة الساقطة أمس عُرضَ الحائط ، فلم يقع عدد من أعدادها في يد عاقل أو ذي شأن إلا استاء من قراءتها وصب عليها جام غضبه واشتد سخطه على صاحبها . ثم يورد صوراً من رسائل تأييد من طالب رجا أن لا يذكر اسمه ، ثم من حضرة الوطني الغيور السري الوجيه حافظ بك ذهني ، ومن فلان من أبناء ذوات مصر ، ومن فلان من أصحاب الأملاك في العاصمة ، ومن فلان من أرباب الأتليان في المنوفية (٢) .

كان « المقطم » إذن صريحاً في ولائه للإنجليز ، لا يستخفي ولا يداري . فهو يهاجم الحديوي عدو كرومر في صراحة . وهو يمجّد الإنجليز في صراحة أيضاً . ويكتب في ذلك المقالات الصارخة العازية من كل حياء ، لا يكلف نفسه مشقة إخفائها تحت ثوب من الرياء أو النفاق أو المجاملة للشعور الوطني . وكان الموالون له من المصريين الذين قدمنا أمثلة من كتاباتهم في مثل صراحته أيضاً . وهم حين يتحدثون عن الجامعة المصرية لا يرون مصر التي يريدون أن يجمعوا عليها الناس إلا سوقاً ، ولا يرون الوطنية إلا العمل على ملء البطون وتوفير المال من كل طريق وبأي وسيلة . ثم هم لا يقيمون للعواطف وللقيم الخلقية أو الوطنية وزناً . فليست الوطنية عندهم كرامة ، وليست غيرة على عرض . وإنما الوطنية عندهم هي المصالح ، وهي المال . ولذلك

١ - افتتاحية المقطم ٢١ يونيه سنة ١٩٠٧

٢ - المقطم ١٨ يونيه سنة ١٩٠٧

فقد كان حديثهم عن « أصحاب المصالح الحقيقية » لا يتقضي . وهم حين يتحدثون عن أصحاب المصالح الحقيقية هؤلاء ، إنما يعنون بهم أصحاب رؤوس الأموال من ملاك الأراضي الزراعية ومن الأعيان . ولم يكن هؤلاء الكتاب على شيء من الثقافة أو عمق التفكير أو سمو الأسلوب . ولم تكن بضاعتهم إلا سباباً رخيصاً يكفي أن نقدم منه صورة من خطابين نشرهما المقطم <sup>(١)</sup> :

وقد جاء في أولهما « ومما يضحك الحزب الوطني الحر ، حزب أصحاب المصالح الحقيقية في مصر ، ما يكتبه غراب أولئك الهجّاصين من الآراء المالية عن الأزمة الحالية . فإنها آراء تدل على أن ذلك الغراب الذي شاب وما تاب ، يحسب هذه الأزمة مثل أزمته الخصوصية التي نفت ريشه ، وقضت عليه قضاء مبرماً في آخر أيامه . »

وجاء في تقديم « المقطم » للخطاب الثاني « ورد الكتاب التالي على حضرة الوجيه الهمام محمد بك وحيد بقلم وطنيين من أرباب الأطيان في المنوفية . وهاك صورته بعد الديباجة » . ثم أتت على نص الخطاب . وهو :

« أعجبنا خطة الحزب الوطني الحر كثيراً . ووافقت تصريحاته آراءنا وأميلنا . وتأكدنا من إخلاصه في أقواله أنه يقصد خير الوطن وأبنائه ، فملنا إليه قلباً وقالباً ، وجئنا سعادتك بكتابنا هذا راجين قبولنا ضمن رجاله . ونحن مستعدون لكل خدمة ترقى بها مقاصد الحزب الشريف حباً لوطننا وأمتنا . فليحيا أحرار مصر الصادقون وأصحاب المصالح الحقيقية فيها . وليسقط الهجاصون والخناسون والحشاشون الذين يضررون بوطنهم لقضاء مصلحتهم ويقولون كذباً إنهم ينوبون ويتكلمون بلساننا . »

أما حزب الأمة فقد كان قوامه جماعة من الباشوات أو كبار ملاك الأرض ، مثل : محمود سليمان ، وحسن عبد الرزاق ، وحمد الباسل ، وفخري عبد النور ، وسليمان أباطه وعبد الرحيم الدمرداش وعلي شعراوي ومحمد

الحفني الطرزي ومحمد الشريعي<sup>(١)</sup> . وقد رأى هؤلاء أن السلطة الفعلية قد آلت كلها إلى كرومر الذي يمثل سلطة الاحتلال ، وأن مصالحهم الشخصية تقضي عليهم أن يكونوا على وفاق معه . فألفوا حزبهم بصفة رسمية في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٧ برئاسة محمود سليمان باشا<sup>(٢)</sup> . ولم يكن تفكيرهم السياسي وقتذاك يتجاوز مصالحهم الشخصية . ولكنهم لم يجدوا بداً من أن يضموا إليهم جماعة من المثقفين على رأسهم لطفي السيد ، ليكونوا لسانهم في صحيفة « الجريدة » ، التي اكتبوا لإنشائها بمبلغ عشرين ألف جنيه ، والتي ظهر العدد الأول منها في ٩ مارس سنة ١٩٠٧<sup>(٣)</sup> . وبذلك كان الحزب منذ نشأته مكوناً من فريقين تختلف أهدافهما ومراميها اختلاف تكوينيهما العقلي . أما الأعيان فقد انحصر تفكيرهم في مصالحهم ، ولم يرتفع هدفهم عن هذه المصالح الشخصية . وأما المثقفون من محرري الجريدة فقد كانوا أصحاب مذهب سياسي واجتماعي ، حاولوا جهد استطاعتهم أن يوفقوا بينه وبين رغبات فريق الأعيان الذي أنشئت الصحيفة بأمواله .

أما مذهبهم ذاك فهو يتلخص في الدعوة إلى التحرر الفكري ، وإلى التعاون مع الأوروبيين في كل ميادين الحياة ومجالات النشاط : ثقافياً واقتصادياً وسياسياً . وكان اللورد كرومر يسميهم « حزب الشيخ محمد عبده » ويعقد عليهم الآمال في مستقبل مصر السياسي ، ويوصي ممثلي الاحتلال بأن يمنحوهم كل عون وتشجيع<sup>(٤)</sup> .

كانت الجريدة تصور الاحتلال على أنه حقيقة واقعة ، وترى أن عدم الاعتراف بشرعيته لا يعني عدم وجوده ، ولا يقلل من سلطته أو نفوذه ،

١ - راجع افتتاحية العدد الأول من صحيفة الجريدة ٩ مارس سنة ١٩٠٧

٢ - مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٢٩

٣ - الدولة العربية المتحدة ٣ : ١٠٣

٤ - راجع الفقرة ٣ من تقرير كرومر السنوي عن سنة ١٩٠٦ ص ٨ تحت عنوان Egyptian Nationalism ويؤيد رشيد رضا ما ذهب إليه اللورد كرومر « تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩١ »



وكانت ترى أن هؤلاء المحتلين ماضون في طريقهم ، مستقلون بتصريف الأمور رَضِيَّيَ المصريون بذلك أم كرهوه. ومن الواضح - في نظرهم - أن التخلص من الاحتلال يحتاج إلى قوة لم تتوافر للمصريين . فالذين يهيجون الناس عليه إنما ينفقون الوقت فيما لا طائل تحته ، ويصرفون الجهد إلى ما لا ينفع . فهم أصحاب خيال أو تهريج - حسب زعمهم - ، والأولىَ عندهم أن تنفق هذه الجهود فيما يعود على الأمة بالنفع ، وفيما يرفع مستواها الاجتماعي والاقتصادي . وما دام الإنجليز هم المستقلون دون غيرهم بتصريف الأمور فلا سبيل إلى العمل على الإصلاح أو تنفيذ أي مشروع يرمي إلى النهضة بمصر إلا بالاتفاق معهم . فالحير إذن - في رأيهم - هو أن ينصرف المصريون عن حربهم إلى إقناعهم بالإصلاح . هؤلاء قوم يتحدثون إلى العقول ولا يناجون القلوب . ويُسِفُون إلى الواقع ولا يُحَلِّقُونَ مع الخيال . فهم - كما يسمون أنفسهم ، وكما يسميهم خصومهم حين يتحكمون بهم - « عقلاء الأمة » . وخصومهم الذين يحاربون الاحتلال دون أن يملكوا من أدوات الحرب إلا الكلام هم المتهوسون أو المهرجون أو المتطرفون كما كان يحلو لهم أن يسموهم . فالوطن عندهم ليس شيئاً يُعشَقُ ، ولكنه مصلحة مادية مشتركة ، أو هو مركز المصلحة العامة أو آلتها كما يقول كاتبهم الأول أحمد لطفي السيد في مقال له عنوانه « الوطنية في مصر » (١) . ولذلك فهم يشتركون مع « المقطم » في كثرة الكلام عن « أصحاب المصالح الحقيقية في مصر » . وهم يطلبون أن يكون هؤلاء هم الممثلين للمصريين في إدارة شؤون البلاد (٢) . وهم يهاجمون الحزب الوطني القديم « حزب عرابي » الذي أدى تطرفه - كما يقولون - إلى نكبة مصر بالاحتلال الذي لا يزال باقياً . ويقولون إن عرابي هذا لم يكن له في مصر « ناقة ولا جمل » ، فمصلحة مصر لا تتم ولا تعنيه ، لأن النفع لا يصيبه ولأن الضرر لا يقع عليه . وقد كان

١ - افتتاحية العدد الثاني من الجريدة ١٠ مارس سنة ١٩٠٧

٢ - راجع افتتاحية الجريدة عدد ١٣ يونية سنة ١٩٠٧ « أعيان الأمة هم أجدر الناس بالنيابة عنها » .

عليه - في رأيهم - أن يدع تصريف الأمور لأصحاب النوق والجمال ، أو من يسمونهم « أصحاب المصالح الحقيقية » (١)

وربما كانت بعض المقالات التي أشرنا إليها في « الجريدة » قد كتبت لإرضاء أصحاب رأس المال في شركة الجريدة من أعيان حزب الأمة . أما لب مذهب هذا الفريق من مثقفي حزب الأمة ومفكره فخلاصة آرائهم فيه هي « أن الوطنية لا ينبغي أن تكون اندفاعاً عاطفياً أعمى ، يتخبط على غير هدى من المنطق السليم والتفكير الهادئ المتزن . ولا ينبغي أن تقام على أساس من الأوهام التي لا سبيل إلى تحقيقها ، من مثل التعلق بالجامعة الإسلامية أو الرابطة العثمانية . والأحرى بالمصري أن يفكر في نفسه أولاً ، وفي مصلحته قبل كل شيء ، وهي مصلحة يتفق فيها سائر المصريين - وهم يعنون بهم المقيمين في مصر ممن استوطنوها (٢) - على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ، ولا يشاركهم فيها غيرهم من المسلمين .

وربما كانت افتتاحية العدد الأول من « الجريدة » التي كتبها لطفي السيد مصورة لأهم اتجاهاتها . وإليك نصها :

« ما الجريدة إلا صحيفة مصرية ، شعارها الاعتدال الصريح ، ومراميتها إرشاد الأمة المصرية إلى أسباب الرقي الصحيح ، والحض على الأخذ بها ، وإخلاص النصح للحكومة والأمة ، بتبيين ما هو خير وأولى . تنقد أعمال الأفراد وأعمال الحكومة بحرية تامة أساسها حسن الظن ، من غير تعرض للموظفين والأفراد في أشخاصهم أو أعمالهم التي لا مساس لها بجسم الكل الذي لا ينقسم ، وهو الأمة » .

« ولقد اختلف القوم في أمر الجريدة منذ وضع مشروعها ، وقدر بعضهم لها مذهباً ، ملهم به من علم إلا اتباع الظن . ولو أنهم صبروا حتى تخرج

١ - الجريدة ٢٣ مارس سنة ١٩٠٧

٢ - راجع مقالين لطفي السيد عن « الجامعة المصرية » نشر في الجريدة في ٥ أكتوبر ، ٩ أكتوبر سنة ١٩٠٩ ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٣ من «المنتخبات لطفي السيد»

إليهم لكان خيراً لهم وأجدر بحفظ الكرامة لكبراء رجال وطنهم ، وأدنى إلى عدم الفتّ في أعضاء الجامعة الوطنية . ولكنهم لا يصبرون . »

« ولو وقف الأمر عند غير العالمين لكان . ولكن بعض الكتّاب أبى إلا أن ينتقص الجريدة قبل ظهورها . فخلق لها نسباً لا تعرفه ، إذ يقول : إنها أنشئت بوحى من جناب اللورد كرومر ، أو أنها متحيزة إلى طرف دون آخر . على أنها من كل ذلك براء . »

« ومهما يكن من الأمر فإننا نمر بتلك المغامر مرأ ، إذ لا نقصد درء شبهة ، ولا أن نقف بأحد موقفاً أظهرنا فيه على صاحبه أخسره لوقته . وكلّ في حلٍّ مما قال . »

« هنيئاً مريئاً غير داءٍ مُخَامِرٍ »

« لا يكون أهل الوطن الواحد أمة إلا إذا ضاقت دائرة الفروق بين أفرادها واتسعت دائرة المشابهات بينهم . وإن أظهر المشابهات في حال الأمة السياسي هو التشابه في الرأي بين الأفراد . وهذا ما يسمونه بالرأي العام . »

« والناس بطبائعهم أشتات في الرأي ، كما قيل : ( للناس عددٌ رؤوسهم آراء ) . وهم في البلاد الحديثة العهد بالرقى ينصرف كل منهم غالباً عن التفكير في الأمور العامة إلى تدبير حياتهم الخاصة ، حتى ترشدهم الصحف كل يوم أن لهم فوق وجودهم الخاص وجوداً عاماً هو غير الأول ، وأن لهذا الوجود العام كمالاً يجب أن يرقى إليه بعمل الأفراد . »

« وإن أثر هذا الإرشاد في النفوس مدعاة إلى تقريب الآراء المتباينة بعضها من بعض ، فيحصل بها الرأي العام . وعلى هذا تكون الصحافة هي الآلة الأولى للإرشاد والرقابة ، تتبعها في طورها الاجتماعي ، وترقى برقي الأمة ، حتى تنتقل كغالب الأعمال العامة من يد الفرد الذي قد يعرض له الميل أو الهوى إلى أيدي الجماعات ، لأن الجمع المتضامنين أحكم من الفرد أمراً ، وأثبت رأياً ، وآمن هوى ، وأعسر على عواصف الحوادث منقلباً . »

« وإن أولى الجماعات بواجبات الخدمة القومية ومراجعة الأحوال العامة وأقدرها على العمل لتكوين الرأي العام جماعة أولي الرأي ، وهم الذين نبهوا ذكراً بعلو النسب أو بالعلم والفضل . كل أولئك إذا انصرفوا عن الاشتغال بحاجات الأمة ، من نشر التعليم العام ، والعمل لترقية الصناعة والزراعة والتجارة ، والأخذ بنصيب من الرقابة العامة ، وقفت الأمة عن التدرج في مراقي المدنية الصحيحة ، خصوصاً في حالها النظامي ، وصار الأمر فيها مفوضاً إلى رغائب الحكام ، يميلون بها إلى حيث يشاؤون . »

« وما كان أعضاء شركة « الجريدة » المصرية لينشئوها إلا لتحقيق هذه المبادئ الراسخة . »

« ولما أنهم كثروا العلاقات بالحكومة بسبب مراكزهم ، واشتراكهم معها في كثير من الأعمال العامة ، وأن أمثالهم لا يجتمعون لعمل ذي أثر سياسي إلا أحاطت به الشكوك ، رأوا أن يكشفوا الحكومة في أمر المشروع ، دفعاً لتلك الشكوك المحتملة وأخذوا بأقوم الطرق إلى نيل ما عساهم يطلبونه من تقويم معوج أو إصلاح خطأ ، لأن الحكومة قد تجيب الطلب مما يهون عليها إذا اقتنعت بأنه لمصلحة الأمة . »

« وإن أسهل سبل الإقناع وآكدها في الوصول إلى الغرض هو سبيل المحاسنة التي لا تجر إلى ترك حق أو تزوين باطل . وهي أجلى مظاهر الاعتدال الذي يجب أن يكون دعامة العلاقات بين أمة وبين حكومة ، كلتاهما في طور التكوين ، لثلا يقع بينهما من الخفاء ما يحجب الحكومة عن الوقوف على مواطن المصلحة وآمال الأمة ، ويحجب الأمة عن الاطلاع على مقاصد الحكومة ، فتعطل بذلك أسباب الرقي التي يتوقف حلها على اشتراك الطرفين . »

ثم ختم المقال بذكر أسماء أعضاء شركة الجريدة وهم من أعيان البلاد وكبار الملاك .

وقد عالج هذا المقال موضوعات شتى :

أولها : رد الصحيفة على من يتهمونها بأنها إنجليزية الميول ، أنشئت بوحي

من اللورد كرومر ، وهو رد يثبت وجود التهمة وذبوعها . ويبدو اعتراف  
الجريدة بسلطة الاستعمار وحرصها على حسن الصلة به بشكل واضح في مقال  
آخر عنوانه « حالتنا السياسية » جاء في آخره (١) : « الأمة المصرية أمة تحب  
السلام والطاعة ، كما تحب الإخلاص لحكومتها . وهي تحترم السلطة الشرعية  
ولا تنكر السلطة الفعلية . فنظن أنه قد حان الوقت لأن تسمح لها السلطان  
جميعاً بأن يكون لها حياة مستقلة بالذات ، لكي لا تبقى ضائعة المركز بين  
السلطين ، ولتفكر حقيقة فيما ينفعها من حيث هي أمة مستعدة لأن توهم  
لحكم نفسها بنفسها ، ولتقوم بواجبات الأمم في السعي في تحسين أحوالها  
الزراعية والصناعية والتجارية » .

والأمر الثاني الذي نلاحظه في هذا المقال هو دعوة الصحيفة إلى تقريب  
الفروق بين المواطنين حتى يوجد رأي مصري عام ، وهي فكرة جديدة على مصر  
وقتها متأثرة بالتفكير الأوروبي والنظم السياسية الغربية . وإن كنا قد  
رأيناها من قبل في مقال محمد عبده عن « الحياة السياسية » الذي نشر في  
الوقائع المصرية سنة ١٨٨١ قبل الثورة العربية ، والذي أشرنا إليه في صدر  
هذا الفصل .

والشيء الثالث الذي نلاحظه هو اعتراف الصحيفة بصلات كبار رجال  
الحزب بالحكومة ، لاشتباك مصالحهم معها ، والدعوة إلى محاسنتها ، لأن هذا الطريق  
هو خير السبل المؤدية للإصلاح . وهذه الحكومة التي تدعو الصحيفة إلى  
محاسنتها وتعترف بحسن صلاتها بها هي حكومة مصطفى باشا فهمي الذي عرف  
بولائه التام للإنجليز ، والذي وصفه كرومر بأنه كان مؤمناً بأن مصلحة وطنه  
في الولاء للإدارة الإنجليزية لا في معارضتها (٢) .

أما الشيء الرابع والأخير فهو تعريفه أولي الرأي في الأمة بأنهم هم الذين  
نبهوا ذكراً بعلو النسب أو العلم والفضل . وهو تفكير تبدو فيه المجاملة

١ - الجريدة ٢٣ مارس سنة ١٩٠٧

٢ - Modern Egypt ٢ : ٣٤٦

لأعيان حزب الأمة . وهو يصور أن الحزب قام أولاً على أساس المصالح الشخصية بما يجعله أشبه بالنقابات التي ينحصر تفكيرها في المصالح الطائفية أو المهنية .  
ومما يصور مذهب الجريدة في الوطنية مقال عنوانه « الوطنية في مصر »<sup>(١)</sup> جاء فيه :

« الوطن في لغة العامة مقر المرء أو مسقط رأسه . وليس في مثل هذا الحد يخوض المتكلمون في الوطن والوطنية بلغة السياسة وعلم الاجتماع . وإنما يخوضون في حد الوطن الجامع الذي يجمع بين المختلفين . وفي هذا اختلف العلماء لاختلاف الجهات التي نظر كل منهم إليها . »

ثم يورد رأي الاشتراكيين في أن الأرض كلها وطن واحد ، ورأي علماء الأديان الذين يطلقونه على مساكن الذين يدينون بدينهم ، ورأي بعض علماء الاجتماع الذين يرون لكل شعب وطناً قديماً ويعتبرونه أحق به . وينتهي إلى إيراد رأيه في أن الوطن هو مركز المصلحة العامة للجماعة فيقول :

« لكلٍّ من ذكرنا جهة في تعريفهم للوطن الجامع . والحقيقة تجمع الجهات كلها وترجع لها . فترى الوطن عندها عبارة عن مركز المصلحة العامة للجماعة متضامين يشعرون بحاجتهم إلى التعاون في دفع المضار وجلب المنافع . ومتى تعطلت الوظيفة في هذا المركز أو هذه الآلة فُقدَ هذا الاسم وبطل التشبث بذكراه . »

« فمسقط الرأس ليس لأحد بوطن إذا صار بلقاً وخوى ، أو استحوذ عليه العدو وبغى ، ولم يبق للمرء فيه أهل ولا مُلْكٌ ولا جدوى ، ولحق بما هو خير منه وأولى . مثال ذلك البراري التي هاجر منها أسلاف آل عثمان ، فإنها لم تعد لهم وطناً بعد أن ظهر فيها العدو ولحقوا بغيرها ، فكان ما كان من تأسيسهم هذا الملك . أرأيت أحداً سمعهم من بعد يذكرون تلك البراري ويتغنون بها كما يتغنى الواحد بذكر وطنه الذي لا يزال متعلقاً به ؟ »  
« والبلادُ المملوكة إذا تمادى فيها التمرد لا تصير وطناً للحكومات المالكة . »

بل قد تكون مُناخاً وبيلا لسلطتهم القاهرة يضرها أكثر مما ينفعها . ولذلك تتخلى الدول طوعاً أو كرهاً عن البلاد التي هذا شأنها ، كما تخلت حكومة آل عثمان كرها عن بلاد الصرب والجبل الأسود واليونان والبغار ورومانيا ، ثم عن جزيرة كريت . وكما تخلت إنجلترا طوعاً عن كورفو ( من جزر اليونان ) التي صرفت فيها خمسين سنة في تهذيب أهلها وتهذئة خواطرهم وكبح جماحهم . »

وواضح من هذه الفقرة التي قدمتها من المقال أنه يقيم الوطنية على أساس النفع والمصلحة . فصاحب المقال يفكر بعقول أعيان حزب الأمة الذين لا يهتمون إلا بمصالحهم وبالمشاريع التي تتصل بأراضيهم وأملأهم . فهو يفلسف لهم آراءهم النفعية ، ويكسبها وجوداً قانونياً مشروعاً بإقامتها على أساس من المبادئ السياسية العامة . وواضح فيه كذلك تحامله على تركيا حين وصفها بأنها تخلت كرهاً عن بعض أملاكها ، ومجاملته لإنجلترا حين وصفها بأنها تخلت عن بعض هذه الأملاك طوعاً ، بعد أن بذلت الجهد في تهذيب أهلها .

ومما يصور مهاجمة « الجريدة » لفكرة الجامعة الدينية ، وتسفيه الداعين إلى هذا الوهم الذي لا يقوم على أساس من الواقع - حسب زعمها - والذي لا سبيل إلى تحقيقه ، مقالٌ في الرد على تقرير كرومر ، بدأه كاتبه بتنفيذ ما جاء فيه عن الجامعة الإسلامية فقال (١) :

« إن فكرة الجامعة الإسلامية قد تجول أحياناً بخواطر بعض الناس الذين لا يزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر في الأمور العامة بشيء من التدقيق . ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز الخواطر ، تظهر وتختفي تبعاً للحوادث . فكلما رأى المصريون اتفاق رجال السياسة الأوروبية على شيء يضر بمصلحة مصر أو يبعد ميعاد استقلالها أو يفيد استمرار الاحتلال إلى الأبد ، قارنوا بين مصر وغيرها من ولايات البلقان التي استقلت ، واستنتجوا من ذلك أن ذنب مصر أنها أمة إسلامية ، وأن أوروبا لا تساعد في الشرق إلا

الأمم المسيحية، فتمنى بعضهم أن لو كان للمسلمين وحدة، كما للمسيحيين في أوروبا هذه الوحدة التي يتخللون وجودها، وأنها كانت الحامل لأوروبا على التداخل في أمر ولايات البلقان وأرمينية. نقول هذا ونحن لا نعرف أنه يوجد في اللغة كلمة جامعة مسيحية «بانيكُرِيسْتِيَانِيزْم» كما خلقت كلمة جامعة إسلامية «بَانِيسْلَامِيزْم». على أن عقلاء المصريين لا يرون لكلتيهما وجوداً في العالم، ولكن السياسة تخلق ما تشاء. فليس لأوروبا أن تتوجس خيفة من فكرة ساذجة كهذه، بعيدة عن أن تؤدي إلى اعتداء من جهة المصريين، ولا أن تسبب قلق المستعمرين من الأوروبيين. بل يرى هؤلاء العقلاء أن الذي خلق هذا الخاطر الساذج هو مظاهر السياسة الأوروبية في الشرق.»

«أما كون الجامعة الإسلامية موجودة وجوداً حقيقياً، أو أنها مقصد من المقاصد التي يسعى المسلمون لتحقيقها، فهذا لا دليل عليه مطلقاً. كما أنه لو حاول إيجادها لاستحال ذلك بالمرّة على طلابه. فقد علمنا التاريخ وطباع البشر أنه لا شيء يجمع بين الناس إلا المنافع. فإذا تناقضت بين قبيلتين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد قرابة في الجنسية أو وحدة في الدين.»

ومما يصور هذه المهاجمة لفكرة الجامعة الإسلامية مقال آخر لعبد الحميد الزهراوي<sup>(١)</sup> عن السنوسية والجامعة الإسلامية جاء فيه (٢):

---

١ - عبد الحميد الزهراوي سوري من دعاة الثورة العربية السابقين. هاجر إلى مصر سنة ١٩٠٠ وهو وقتذاك في الثانية والثلاثين من عمره. فساهم في تحرير «المؤيد». ثم تولى رئاسة تحرير «الحريّة». ثم عاد إلى سوريا بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨، واشترك في تأسيس «الجمعية القحطانية» وهي جمعية سرية تهدف إلى جمع كلمة العرب. ورأس المؤتمر العربي الذي عقد في باريس سنة ١٩١٣ م. ثم عين مع بعض رجالات العرب سنة ١٩١٤ في مجلس الأعيان العثماني، للإشراف على تطبيق الإصلاحات التي وعدت الحكومة التركية بتنفيذها. وعاد إلى دمشق عند إعلان الحرب العالمية الأولى، فأعدمه جمال باشا مع من أعدموا سنقاً من الثوار في ٦ مايو سنة ١٩١٦.

٢ - الحريّة ١٠ سبتمبر سنة ١٩٠٧.



« ما الجامعة الإسلامية إلا اتفاق في كلمة واحدة ، وهي أن القرآن كتاب الله جاء به محمد رسول الله . ولكن المطلع على تاريخ المتفقيين هذا الاتفاق ، يعلم أنه لم يدفع عنهم الاختلاف الذي لا اتفاق معه بعد . فمنذ اختلف المسلمون ثلست جامعتهم ، ولم يتفقوا اتفاقاً سياسياً بعد عهد عمر ، ولا اتفاقاً دينياً بعد عهد علي . فما هي جامعة قوم مختلفين منذ ثلاثة عشر قرناً اختلافاً سياسياً واختلافاً دينياً ، يقتل بعضهم بعضاً ، ويستعين بعضهم على بعض بأهل الملل المخالفة من الأساس ؟ ما هي جامعة قوم لم يخل يوم من أيامهم من قتال فئة منهم فئة أخرى منذ مقتل خليفتهم الثاني إلى يومنا هذا ؟ . . ما هي جامعة قوم يُسَرّ ملوكهم المختلفون بذهاب ممالك ملوك آخرين منهم ؟ . . ما هي جامعة قوم حدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبياً شرقياً « هولاءكو » اكتسح بلادهم وهم في عزهم ، فلم تتصام أيديهم على مقاتلته ، وكانت لا تزال قوية على قتال بعضها بعضاً ؟ . . وحدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبياً غربياً « الصليبيين » هاجم بلادهم ، فلم يجتمعوا كلهم على طرده ، حتى حركت الهمة طائفة منهم قويت وحدها على صده ؟ »

\* \* \*

كان حديث مصطفى كامل عاطفياً مثيراً . وكان حديث هؤلاء هادئاً عاقلاً . فهم يتزعون عن الوطن صفة القداسة التي يحاول مصطفى كامل أن يغرسها في قلوب الناشئة والمواطنين . هم يتزعون عن المواطنين صفة الأخوة في الدم أو الدين ، وينظرون إلى الوطن نظرة مادية خالصة . فالمواطنون مجموعة من الناس جمعتهم هذه السوق التي تسمى « وطناً » ، وعليهم أن يحرصوا على أن تظل هذه السوق قائمة لا تركد ولا تكسد ، وعليهم أن يتجنبوا النزاع العنيف ، حتى لا يفزعوا البائع والمشتري على السواء ، فتقف سوقهم ، وتبور تجارتهم ، ويقل ربحهم .

فدعوة الحزب الوطني تستمد قوتها من الاندفاع العاطفي الذي تولده في النفس فيحفز صاحبه إلى الثورة من ناحية ، ومن ارتباطها بالدين الذي يدعو

المؤمنين إلى كفاح يفوزون فيه بإحدى الحسينين : النصر أو الشهادة ، من ناحية أخرى .

أما دعوة حزب الأمة فهي لا تقيم وزناً للعاطفة ولا تخاطب ضمائر المتدينين ، بل لا يبدو أن المتكلمين باسمها يصدر عن إيمان مستقر في ضمائرهم يدعوهم إلى تدبر عاقبة أمرهم فيما وراء الموت ، بحيث يكون ذلك موجهاً لسلوكهم أو مؤثراً في تفكيرهم . فهم يدعون إلى توفير أسباب المتعة في هذه الحياة الدنيا . ومن كان هذا مذهبه كان خليقاً أن يتسم بالهدوء الذي يعتبر تعريض النفس للهلاك ضرباً من الحماسة .

فالوطنية بالمعنى الذي يدعو إليه كتاب حزب الأمة ومفكره واضحة التأثير بمذهب التحرر Liberalism من ناحية ، وبالمادية Materialism من ناحية أخرى . وكلا المذهبين كان له دعاة أقوياء من المتفرنجين ، يروجون له في العالم الإسلامي .

فكتاب حزب الأمة ومفكره يحصرون جهودهم ومساعدتهم فيما يحقق للناس وسائل المتع الجسدية . ولا تستهدف حضارتهم الفكرية إلا توفير هذه المتع . وهم إن اعترفوا ببعض القوانين الأخلاقية لا يعترفون بها إلا باعتبارها لازمة لتنظيم توزيع هذه المتع بين الناس في هذه الحياة الدنيا .

\* \* \*

كان المقطم والجريدة يشتركان في مبدأين أساسيين ، أولهما مهادنة الاستعمار والاقتصار على المطالبة بالتدرج في الإصلاح . وثانيهما محاربة فكرة الجامعة الإسلامية والدعوة إلى الانفصال التام عن تركيا ، وإنشاء دولة مصرية موالية للإنجليز . واشتراكهما في هذين المبدأين قد دعا إلى الخلط بينهما عند أوليائهما وأعدائهما على السواء . فقد توهمت صحيفة «المقطم» أن «الجريدة» تتفق معها في المبادئ ، فدعتها إلى الاتحاد معها بانضمام حزب الأمة إلى الحزب الوطني الحر . وردت «الجريدة» على هذه الدعوة بمقال عنوانه «تعالوا نتفق أو

مختلف » (١) عرضت فيه مبادئ صحيفتي « اللواء » و « المقطم » ثم قالت رداً على « المقطم » :

« ... وأما المقطم فإنه يتحيز إلى سلطة قصر الدوبارة ، ويزين أعمال المحتلين ولو كان ملؤها الخطل ، ويقول بالرضى عن الاحتلال . أما الجريدة فإنها لا تقول بالرضى عن الاحتلال مطلقاً . وإنما لاتناقش الآن في أصل الاحتلال لأن الوقت لم يحن بعد . ولا تتحيز لجهة ، لأنها تنقد أعمال الحكومة والمحتلين بالحرية الكاملة ، وتبين صالحها من طالحها ، وتقول الحق في الحالتين من غير محاباة . وبهذا لا يمكن أن تكون الجريدة والمقطم متفقين المذهب . نعم إنا نشكره على أنه شرفنا باعتبار خطتنا خطته ومطالبنا مطالبه أو مطالب حزبه ، كما أسدى لنا العُرف في تنبيه حزبنا بلطف إلى أن ينضم لحزبه حتى لا تتفرق الأحزاب . ولكننا نأسف أنه لا يمكننا أن نوفق بين رُوحِ الحطتين ، كما لا يمكننا أن نعد الجريدتين متفقتين في شيء من مذهبهما . »

وكان الحزب الوطني يختلف عن حزب الأمة في مبدئين أساسيين : أولهما هو عنفه في مهاجمة الاستعمار وتكريسه حياته لغرس بغضه وكراهيته في نفوس المصريين ، وثانيهما هو إقامة دعوته الجديدة إلى الوطنية وإلى القومية المصرية على أساس من الدين ومن الدعوة إلى التضامن بين الأمم الإسلامية ، والتمسك بمعاهدة سنة ١٨٤٠ ، التي تمنح مصر استقلالاً داخلياً وتعترف بالسيادة التركية .

أما المبدأ الأول فهو الذي دعا خصوم مصطفى كامل إلى وصفه بأنه متطرف أو مجنون . وأما المبدأ الثاني فقد كان داعياً إلى اتهامه بأنه يعمل لاستبدال الاستعمار التركي بالاستعمار الإنجليزي . ولذلك كان همّ « المقطم » أن يوازن بين ظلم الترك وعدل الإنجليز . وقد ظل مصطفى كامل ينفي عن نفسه هذه التهمة طول حياته السياسية ويوضح وجهة نظره بأنه إنما يتمسك بالسيادة التركية ، لأنه إن جحدتها فقد جحد معاهدة سنة ١٨٤٠ ، وهي حجته الوحيدة

في عدم شرعية الاحتلال . على أن السيادة التركية لم تكن إلا سيادة اسمية .  
ينحصر مظهرها في أداء الخراج للحكومة المركزية في مقر الخلافة بالآستانة ،  
وفي تعيين قاضي القضاة التركي . فهو يطلب لمصر الاستقلال . وهو إن  
أخلص الود لأمة أو لدولة فإنما يجري على السياسة التي تجري عليها كل الدول ،  
القاضية بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون . ودافع عن دعوته إلى  
الجامعة الإسلامية والربط بين الوطنية والإسلام بأن الدين والوطنية توأمان  
لا يفترقان ، وبأن من الخطأ أن يتصور إنسان أنه لا يكون وطنياً إلا إذا  
تخلّى عن الدين ، متسائلاً: « لماذا يكون الإنجليزي وطنياً وبروتستانتياً في آن  
واحد ، ولا يكون المصري المسلم وطنياً ومسلماً ؟ »

كان الداعون إلى الجامعة المصرية إذن قسمين : قسماً يدعو إليها وإلى  
الجامعة الإسلامية في آن واحد ، ولا يرى تعارضاً بينهما ، فاهتمام الفرد  
بمصالح أخيه وابن عمه لا يعني تفريطه في مصالحه <sup>(١)</sup> . وقسماً ينكر الجامعة  
الإسلامية والرابطة العثمانية ويهاجمهما في عنف ، ويقيم الجامعة القومية على  
أساس من المصلحة المشتركة وحدها . وهؤلاء يعنون بالمصريين القاطنين في  
مصر ، كما يقول « المقطم » في مقال له عن « الجنسية المصرية » <sup>(٢)</sup> وكما يقول  
لطفى السيد في مقال له عن « الجامعة المصرية » <sup>(٣)</sup>

وقد كان هذا الفريق الأخير موضع رضا الاحتلال وتأييده . فقد كان  
الاحتلال يتحدث عن الوطنية بهذا المعنى . ومن ذلك ما جاء في خطبة اللورد  
كرومر في حفلة توديع إلدون غورست سنة ١٩٠٤ ، حين قال مثنياً عليه :  
« إن السير إلدون غورست من الفئة الصغرى من أولئك الأوروبيين الذين

---

١ - راجع مجموعة مقالات مصطفى كامل وخطبه في سنة ١٩٠٦ « دفاع المصري عن بلاده -

مصطفى كامل باشا والإنجليز » وخصوصاً مقاله « وطنية وجامعة إسلامية - مصر للمصريين »

الذي نشرته الطان الباريسية في ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ ( ص ٦٦ - ٨٠ من هذه المجموعة )

٢ - افتتاحية المقطم ٢٩ أبريل سنة ١٩٠٧

٣ - الجريدة ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٩ ( الانتخابات ١ : ١٧٠ )

قضوا الأعوام والسنين وهم ينفذون السياسة التي شعار أهلها « مصر للمصريين »<sup>(١)</sup> . ولكن اللورد كرومر لم يكن يعنى بالمصريين إلا القاطنين في مصر . وقد وضع ما يعنى بسياسة « مصر للمصريين » بقوله : « وهذه السياسة ليس مضمونها أن يحكام مصر لا يكونون إلا من المصريين الوطنيين ، بل مضمونها أن المحك الذي تحك به كل مسألة مصرية للكشف عن جوهرها ومعرفة كنهها ، هي البحث والاستعلام لمعرفة قدر ما فيها من الموافقة لمصالح السكان في مصر على اختلاف أجناسهم وأديانهم ونحلهم وملكهم » . وهو كما ترى كلام يقرب جداً مما يدعو إليه « المقطم » و « الجريدة » ، فالوطنية عنده هي المصالح .

كان من أهداف الإنجليز وقتذاك إضعاف النفوذ التركي وإذبال شوكة العصبية الدينية ، التي كانوا يتصورون أنها أكبر العقبات التي تقف في طريقهم ، والتي تحول دون اطمئنان الشعب إليهم وتغلغلهم فيه وإنشاء صلة مطمئنة مستقرة بينهم وبينه . ومن الأمثلة على ذلك أن الإنجليز حين أعادوا في مصر تجربتهم التي نجحت في الهند ، وهي نشر اللغة الإنجليزية حتى تكون لغة تخاطب ، ففرضوا التدريس بها ، لم يقف في طريقهم إلا الإسلام الذي يقدر اللغة العربية ، في حين أن الطريق كان ممهداً في الهند التي لم يكن لها لغة مقدسة<sup>(٢)</sup> . كانت دعوة العقلاء من المنادين بالجامعة المصرية إذن تتفق مع مصالح الإنجليز الذين كانوا يحتضنون كل مناهض للسلطان التركي ، خليفة المسلمين ، وكل معارض للخديوي الذي يستمد وجوده الشرعي من ذلك السلطان ، وكل داع إلى الإصلاح الداخلي . كان الإنجليز يحتضنون مثل هذه الآراء لأنهم يريدون أن يضعفوا أثر العصبية الإسلامية في مستعمراتهم من ناحية ، ولأنهم

---

١ - المقتطف سنة ١٩٠٤ ص ٤٥٣ . وراجع كذلك ص ٧ من الفقرة ٣ من تقرير كرومر

السني عن سنة ١٩٠٦ ، وهي الفقرة التي جاءت تحت عنوان Egyptian Nationalism

٢ - راجع تقرير أحمد شفيق عن حالة التعليم في مصر سنة ١٨٩٣ في كتابه : مذكراتي في

نصف قرن ٢ : ٨٨ - ٩١

من ناحية أخرى يريدون أن يشغلوا الناس عن التفكير في المسألة الأساسية التي كان ينادي بها الحزب الذي يترعمه مصطفى كامل ، وهي الجلاء .

كانوا يحتضنون الدعوة إلى الخلافة العربية التي يترعها شريف مكة الهاشمي<sup>(١)</sup> وقد اتهم محمد فريد الحديوي عباسا في مقالات نشرت بجريدة السيكل الفرنسية سنة ١٩١٢ بالتآمر على الخلافة العثمانية والطمع في أن يكون خليفة للمسلمين تحت الحماية البريطانية<sup>(٢)</sup> . وكانت صحيفتا الاستعمار « المقطم » و « المقتطف » تهاجمان الحديوي والدولة العثمانية<sup>(٣)</sup> ، وتشجعان الثوار والمطالبين بالإصلاح في تركيا على نشر المقالات العنيفة في مهاجمتها والتشهير بها ونشر سيئاتها وبيان انحلالها وفساد الحكم فيها<sup>(٤)</sup> . وقد أيد كرومر أعضاء حزب « تركيا الفتاة » من الاتحاديين الذين لجأوا إلى مصر وأصدروا فيها صحفاً تهاجم السلطان عبد الحميد ، وتدخل لحمايتهم حين طلب السلطان من الحديوي عباس تسليمهم ، فمنع ذلك<sup>(٥)</sup> . كما تدخل لحمايتهم حين ضُبطت المطبعة السرية التي تطبع فيها منشوراتهم ، فأمر بكسر الأختام وأخذ ما فيها من أوراق ، منتهكاً بذلك حرمة القضاء ، معتدياً على سلطته<sup>(٦)</sup> . بل لقد تدخل الإنجليز لحماية رجال هذا الحزب المناوئ للسلطان ، ضد الحديوي عباس نفسه ،

---

١ - المرجع نفسه ٣ : ٦٥ وسنعود إلى مناقشة هذه المسألة في شيء من التوسع في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

٢ - المرجع نفسه ٢ ب : ٢٦٩

٣ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٨٣ ، ٩١١ والأمثلة كثيرة على ذلك في الصحيفتين المذكورتين لاحتاج للإشارة إليها .

٤ - راجع المقالات التي نشرها ولي الدين يكن في المقطم ، ثم جمعها في كتاب « الصحائف السود » ص ٥٧ ، ٧٢ ، ٨٦ .

و كان ولي الدين يكن أحد أعضاء « تركيا الفتاة » المناوئة للسلطان عبد الحميد . وكان هذا سبب ولائه للإنجليز .

٥ - مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢٣٣

٦ - المرجع نفسه ٢ : ٣٩٤ - ٣٩٥

حين بدا له في بعض فترات حياته أن يجامل السلطان ويتقرب إليه باضطهادهم<sup>(١)</sup>. وكان ساسة الإنجليز يحاولون دائماً صرف الخديوي عن زيارة الآستانة<sup>(٢)</sup>. كما حاولوا قطع هذه الصلات باستبدال قاض مصري من علماء الأزهر بقاضي القضاة التركي الذي كانت تعيينه الآستانة من بين علماء الترك<sup>(٣)</sup>. وكان الإنجليز يعارضون اكتتاب المصريين للمعاونة في حروب تركيا ، في الوقت الذي يؤيدون فيه الدعوة إلى الاكتتاب في حرب السودان وفي المشروعات الخيرية<sup>(٤)</sup>. ومن الأمثلة الحية على ما كان يبذل الإنجليز من جهد في سبيل نحو اسم تركيا من أذهان المصريين ما يروي الكاشف عن نفسه في مقدمة الجزء الأول من ديوانه، حين تقدم لامتحان الشهادة الابتدائية، فألقى رئيس الامتحان على الطلبة هذا السؤال : « اذكروا دول أوروبا العظمى وعواصمها وثغورها ومستعمراتها ، وإن زاد أحدكم دولة أخرى سقط وضاع » . وكان واضحاً أن المقصود بالفقرة الأخيرة هو أن لا تدخل تركيا بين دول أوروبا العظمى المقصودة بالسؤال . ولكن هذا التحذير لم يمنع الكاشف من إدخال تركيا بين الدول العظمى ، فكان جزاؤه أن رسب في الامتحان . وقد شكوا وزارة المعارف وقتذاك وهاجمها في جريدة المؤيد فلم يجده ذلك نفعاً .

أما تأييد الإنجليز للمعارضين للخديوي فالأمثلة عليه كثيرة. منها تأييدهم لمحمد عبده الذي وصفه كرومر بأنه كان - لبغض عباس له - لا يستطيع أن يباشر سلطاته بوصفه مفتياً إلا بتأييده<sup>(٥)</sup>. وتأييدهم كذلك لأصدقائه أمثال مصطفى فهمي ورياض

١ - المرجع نفسه ٢ : ٣٦٨

٢ - المرجع نفسه ٢ : ١٤١

٣ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٨٣٤ . وقد أعادوا ذلك وكروره بعد ذلك في السودان ، توسلاً إلى قطع العلاقات بينه وبين مصر .

٤ - المرجع نفسه ١ : ٨٣٣ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢٤٣ « في حرب اليونان » و ٢ ب : ٢٦٦ « في حرب طرابلس » .

٥ - راجع الفقرة ٧ من تقرير كرومر سنة ١٩٠٥ تحت عنوان Sheikh Mohamed Abdou

وراجع كذلك Modern Egypt ٢ : ١٧٩ - ١٨١ .

وسعد زغلول وفتحي زغلول وقاسم أمين ، لأنهم كانوا يهاجمون الخديوي ،  
ولأنهم كانوا يدعون إلى إصلاح داخلي في حدود ضيقة لا تتعارض مع مصالح  
الإنجليز ، بل إنها تؤيد دعواهم فيما يزعمون من أنهم يعملون لخير المصريين ،  
ويناصرون كل صاحب حق وكل مصلح مخلص (١) . ومنها تعضيد كرومر  
لحزب الأمة عند إنشائه سنة ١٩٠٧ ، لما كان يتوسم فيه من مناهضة الخديوي  
عباس - وكان كثير من رجاله البارزين أصدقاء لمحمد عبده (٢) . ومنها  
تدخل كرومر لحماية السيد محمد توفيق البكري حين قدم للمحاكمة سنة  
١٨٩٧ بتهمة العيب في الخديوي (٣) .

\* \* \*

كان للإنجليز من وراء كل ذلك هدف واحد ، هو إضعاف العصبية  
الدينية وتقطيع أوصال المسلمين في مستعمراتهم حتى يستطيعوا أن يواجهوهم  
واحدًا واحدًا . فالمصريون أحفاد الفراعنة ، واللبنانيون أحفاد الفينيقيين ،  
والعراقيون أحفاد البابليين والآشوريين ، والحجازيون أحفاد العرب الأجداد  
وأحق الناس بالقيام على خلافة الإسلام الذي نبع من أرضهم المقدسة . وكانت  
العثمانية قوة روحية عظيمة . مع كل ما ابتليت به من انحلال ومن فساد . فقد  
كانت قادرة على جمع كلمة هذه الشعوب باسم الدين ضد بريطانيا وضد  
الدول الاستعمارية .

وكان كرومر يدرك ما تنطوي عليه تعاليم الإسلام من الحث على الجهاد،  
وإعلاء مرتبة المجاهدين في سبيل الله ، والخط من شأن القاعددين عن القتال ،

---

١ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥١٦ ، ٥٩١ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٧٩ و ٢ ب :

٣٩ ، ١١٢ - ١١٣ ، Modern Egypt ٢ : ١٧٩ وهامش ١٨٠ ، ١٨١

٢ - مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٢٩ ، ١٤٣ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩١ وتراجع

كذلك الفقرة ٣ ص ٨ من تقرير كرومر السنوي عن سنة ١٩٠٦ تحت عنوان :

« Egyptian Nationalism »

٣ - مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢٤٨



والدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة . حتى لقد وصف المسلمين بأنهم من أنصاف  
 الهمج المحبين للحروب ، الذين لا تتسع صدورهم لأي تسامح . ووصف  
 الإسلام بأنه قد جعل فكرة الانتقام والبغض أساساً لعلاقة الإنسان بالإنسان ،  
 مستشهداً على ذلك بدعاء خطباء المساجد في ظهر كل جمعة على الكفار بخراب  
 الديار، وبالآية : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ . حَتَّى إِذَا  
 أَتَخَسَّنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ، فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ  
 أَوْزَارَهَا . ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا نَتَصَّرَ مِنْهُمْ . وَلَكِنْ لِيَبْئَلُوَ بِبَعْضِ  
 الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ،  
 وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ  
 وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (١) .

لذلك عمل الإنجليز على إخماد جذوة العاطفة الدينية الإسلامية ، حين  
 أيقنوا أنها مصدر خطر محقق ، وأنها المعين الذي لا ينضب ، الفياض ببغضهم  
 والدعوة إلى قتالهم . وظلوا يتهمون المصريين بالتعصب الديني ، ويكررون  
 هذه التهمة في كل مناسبة ، وفي غير مناسبة ، حتى توهم المصريون أن التعلق بالدين  
 عيب ذميم يجب أن يبرأوا منه . وظلت صحفهم وكتابهم يتحدثون عن  
 التسامح وعن الإنسانية ، حتى توهم بعض السذج أن من سمو الخلق وسعة  
 الأفق ورحابة الصدر أن تحب الناس جميعاً ، حتى المعتدين منهم ، وحتى  
 المغتصبين الذين يحتلون ديارهم بغير حق . ولم يزالوا يتحدثون المصريين عن  
 المصلحة ليتزلوا بالوطنية عن مرتبة العقيدة إلى درجة مادية تزيل عنها كل  
 قداسة ، وتجعلها سعيًا وراء القوت ، ومحاولة لتحسين الحال .

وكان عباس — على كل ما فيه من عيوب — قوة لا يستهان بها ، وقد  
 وصفه كرومر بأنه قد أثبت على توالي الأيام — رغم ما آل إليه من فساد —

١ - Modern Egypt ٢ : ١٣٧ - ١٤٠ وقد أورد كرومر ترجمة الآيات في سورة

« محمد » من ٤ إلى ١٢ بعد أن أسقط بعضها .

٢ - Modern Egypt ٢ : ١٩٣

قدرته على جمع الشعب المصري وتكتله . فعمل على إذلاله وإسقاط هيئته وتصويره في صورة العاجز الذي لا يملك من الأمر شيئاً . وأوجد من المصريين من ينبش عيوبه وينشر سيئاته ، بعد أن أُملى له فيها وأرعى له العنان ليتورط في المزيد منها .

كانت سياسة الإنجليز تدور حول خطتهم السياسية المشهورة « فرّق تسد » . « Devide in order to conquer »

\* \* \*

كان هذا الاتجاه الأخير الذي يمثله حزب الأمة ضعيف الأثر في الشعر . فلا نكاد نجد بين المتقدمين من الشعراء المعاصرين من شايعه غير « نسيم » و « يكن » . وقد كان كل منهما مشايحاً للإنجليز ولمثلهم في مصر « كرومر » ، يتغنى بعدله وإصلاحه ، ويهاجم الحديوي عباساً ، ويسفه مبادئ الحزب الوطني التي يدعو أصحابها إلى الفتنة حسب زعمهما . وذلك نفسه هو ما كان يزعمه « كرومر » وصحيفته « المقطم » . أما نسيم فقد شابع الإنجليز رغبة في ما لهم ، ولم يعدل عن مذهبه هذا إلا بعد أن رحل كرومر عن مصر وأصدر كتابه المشهور عن مصر الحديثة فهاجمه نسيم حميةً لدينه كما يقول . وأما ولي الدين الدين يكن فقد أُلحاه إلى الإنجليز بغضه الشديد للسلطان عبد الحميد ، وحماية كرومر له مع من حماهم من أعضاء حزب « تركيا الفتاة » القارين من عبد الحميد إلى مصر . هذا إلى أنه أحد أعضاء حزب الاتحاد الذي كان يضم متفرنجي الترك ، والذي كان واقعاً تحت سيطرة اليهودية العالمية عن طريق الماسون و « الدونمة » من يهود سلانيك المتسترين بالإسلام والمتظاهرين باعتناقه .

وليس بمستغرب أن يكون أثر هذا الاتجاه العقلي — أو المادي النفعي إن شئت — ضعيفاً في الشعر . فالشعر تعبير عن عاطفة . وقلما يتخذ وسيلة للتعبير عن التفكير المنطقي الذي يجد النثر أكثر مطاوعة وملاءمة . هذا إلى أن أسلوب

مصطفى كامل في الدعوة الوطنية كان أكثر موافقة لطبائع الشعراء والجماهر  
لذين كانت كثرتهم وقتذاك من أنصار الجامعة الإسلامية .

ولا نريد في هذا المقام أن نطيل في الاستشهاد بشعر نسيم ويكن ، لأننا  
سنعود إليهما عند الكلام عن التيارات السياسية في الفصل الرابع من هذا الكتاب .  
ولذلك فنحن نكتفي بتقديم مثالين من شعر نسيم ومثال ثالث من شعر يكن .  
يتغنى نسيم في قصيدته « نور العدل » بعدالة الإنجليز ، وينسب إليهم الفضل  
في إنقاذ مصر من ظلم الترك ، ثم يهاجم المهيجين من رجال الحزب الوطني  
فيقول : (١)

وما غرّ قوم الغرب إلا صحائف	لها الغي والبهتان دين ومذهب
أبرىء منها بعضها غير جاهل	ففيها - ولم أكذب - خبيث وطيب
وشيخ مُسنٌ رام إشعال ثورة	يخوض لظآها والأسنة مُركب (٢)
وكيف يقود الآمنين لفتنة	لها وجه مصر يكفهر ويقطب
صغائر فيها للغبي دعاية	يُسَرَّ بها من شاء يلهو ويلعب
ولو كان يدري ما عواقب أمرها	لبات حسير الطرف يبكي ويندب
بني مصر !! إياكم وكيد عدوها	فما هو إلا الأرقم المتقلب
خذوا مصر من أيدي العدو لترتقي	ويعنو لها بالعلم شرق ومغرب
فلو حلها أهل الفساد لأصبحت	بلاداً يُعفّيها الفساد فتخرب

١ - الديوان ١ : ٦

٢ - لعل المقصود بهذا الشيخ المسن هو السيد حسن موسى العقاد الذي كان من أعيان القاهرة ،  
والذي ناصر الثورة العراقية منذ بدايتها وحكم عليه بالنفي إلى «مصوع» عشرين سنة . وقد عاد  
بعد الإفراج عنه إلى الاشتغال بالسياسة ومناصرة القضية الوطنية . وقد نشرت صحيفة  
« مصر » القبطية في عدد يوليو سنة ١٩١٠ مقالا في مهاجمته عنوانه ( اقرأ وتعجب . أهكذا  
تكون الوطنية ؟ قلب الحركة الوطنية إلى دينية وآثام هذا الزعيم في مذبحه الاسكندرية ) .  
والمقال يهاجم العقاد ويتهمة بتحييد مبادئ الحزب الوطني الذي هو في نظر الصحيفة امتداد  
للثورة العراقية - يراجع نص محضر استجواب حسن موسى العقاد في « مصر للمصريين  
ج ٧ ص ١٧٩ - ٢٠٠ )

وتسمي كما كانت ربوعاً هضيمة  
هنالك نحسُّو المرَّ من كفِّ ظالم  
وفيما مضى من غابر الظلم عبرة  
نكالٌ وجورٌ وانتقام وسخرة  
عليها وفيها أبقَعَ اللون ينعب<sup>(١)</sup>  
يدور بكاسات الهوان فنشرب  
لقوم أذلتهم عُصور وأحقَّب  
وهضم حقوق من يد الشعب تغصب<sup>(٢)</sup>

ويختتم القصيدة بقوله :

أحبَّ لقومي كل خير ونعمة  
فإن عشقوا هجوي عشقت مديحهم  
ومن يجفني منهم جزيتُ جفائه  
على كل حال أحسنَ الله حالهم  
إذا قيل لي من أنت؟ قلتُ أخو نهى<sup>(٣)</sup>  
وأرجو لهم أسمى الذي يُتطلَّب  
ورحت ولي أيٍّ من الحمد تُكتب  
بود وهمتي قُربُه لا التجنَّب  
وجاد مغانيهم من الخيز صيَّب  
إلى النيل يعزى أو إلى مصر ينسب

ويبدأ الشاعر قصيدته « اختلاف الأحزاب »<sup>(٤)</sup> بمهاجمة من يسميهم « المغالين »  
من رجال الحزب الوطني فيقول :

لا توقدوا جمرات البغض إيقادا  
حزبَ المغالين إن الدار آمنة  
هذي هي الدارُ دار الأمن زاهرة  
من الهموم بنا ما جلَّ تعدادا  
فلا تثيروا بها للشر أحقادا  
تجني من العدل نعاءً وإسعادا

ثم يعرض أسباب تفوق الغربيين فيقول :

هم معشر أبدعوا في سيرهم طرقاً  
للمجد صاروا بها غُرّاً وأمجادا

١ - أبقع اللون : الغراب ، يقصد به الذين يدعون إلى الثورة . نعب الغراب : صاح .  
٢ - يشير إلى حال مصر قبل الاحتلال الذي رفع هذه المظالم حسب زعمه .  
٣ - النهى : جمع نهي « بضم النون » وهي العقل . أخو نهى : أي عاقل . وكذلك كانت هذه  
الطائفة تسمي نفسها . وكذلك كان يسميهم خصومهم متهمكين « العقلاء »  
٤ - الديوان ١ : ٨٥

شقوا البحار وخاضوها على سفن  
جأبوا الفيافي حتى ملتهم قتب  
كهبوا إلى العلم والدنيا تراودهم  
إن صوب الدهر فيهم سهم كارثة  
أو قيل سيروا فما في الجدد من وصب  
حتى إذا بلغوا القطبين ما وقفوا  
ولا رأيت سوى ماض يشقهما  
هم معشر رغبوا في الدأب عن كسل  
تزجى كما حاولوا في الجوا إصعادا  
من كل جائلة تجتاب أنجاد  
عنها ! وما أخلفوا للدأب ميعادا  
كانوا على الدهر أجبالا وأطوادا  
ساروا ، ولو أجهدوا ، للقطب إجهادا  
ولا أبى عزمهم في السعي إسآدا  
حتى يحوب جميع الأرض مرتادا  
وفككوا فيه أغلالا وأصفادا

ثم يتجه إلى بني وطنه في آخر القصيدة بالنصح طالباً إليهم أن يحتذوا بالغرب  
ويتجنبوا الخلاف . وهو يقصد بتجنب الخلاف أن يكف المهيجون عن التهيج ،  
وينصرفوا عن محاصمة الإنجليز إلى التعاون مع الذين يعملون للإصلاح فيقول :

هذي فضائلهم يا قوم فانتجعوا  
خير النصيحة أسديها إلى وطني  
كونوا أحبباء خيراً من تنافركم  
مناهل المجد إصداراً وإيراداً  
لعلني مرشداً من رام إرشاداً  
ولا تكونوا عباداً الله أضداداً

ويقول ولي الدين يكن من قصيدة استقبل بها الحديوي عباساً عند عودته  
من إحدى رحلاته إلى أوروبا سنة ١٩١٢ ، معرّضاً برجال الحزب الوطني الذين  
كانوا يخاصمون عباساً وقتذاك (١) ، مؤيداً مذهب الذين ينادون بأن ينصرف  
الناس إلى نشر التعليم وتنمية الثروة (٢) .

١ - كان الحزب الوطني يخاصم عباساً وقتذاك لميله إلى مهادنة الإنجليز أو إلى سياسة الوفاق كما  
كانوا يسمونها . وقد انتهى عهد الوفاق بين عباس والإنجليز بوفاة إلدون غورست في ١٢  
يوليو سنة ١٩١١ ، وتعيين خلف عفيف له جمع في يده السلطة كلها ، وهو اللورد كتشير ،  
الذي وصل إلى مصر على بارجة حربية بريطانية في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١ .

تَسَامَ بِمَصْرِ رَبِّ مَصْرٍ إِلَى الْعُلَا  
أَحَاطَتْ بِأَمَالٍ لَدَيْكَ فَتِيَّةٌ  
وَمَا مَصْرُ إِلَّا دَوْلَةٌ فِي شَبَابِهَا  
وَلَنْ لَمْ تَفِيقَ فِي نَوْمِهَا يَبْقَى نَوْمُهَا  
وَلَنْ لَمْ يَقْوَمُهَا إِذَا اعْوَجَّ عَوْدُهَا  
وَلَنْ لَمْ يُنْزَها بِالْمَعَارِفِ أَهْلُهَا  
وَلَنْ لَمْ يُفِيدُوا الثَّرَاءَ بِجَدِّهِمْ  
وَعُصْبَةٌ شَرٌّ قَدْ أَتَتْ بَعْدَ مِثْلِهَا  
تَشَاهِدُ أَفْرَاحَ الْبِلَادِ عَمِيقَةً  
وَلَنْ تَبْتَسِمَ مَصْرٌ تَبْكِي مِنَ الْأَسَى  
فَوَيْلٌ لَزُورٍ عِنْدَهَا مَتَكَشَّفٍ  
لَحَا اللَّهَ هَاتِيكَ الْنفُوسَ فَإِنَّهَا  
فَمَا بَيْنَهَا مِنْ نَازِلٍ مَتَأَمَّلٍ

وَلَنْ وَقَفَتْ فِي سِرِّهَا فَتَقَدَّمَ  
فَلَنْ تَنْتَهَزُهَا مَصْرٌ بِالرَّأْيِ تَغْنَمُ  
فَلَنْ تَبْتَذِلُهُ فِي الْغَوَايَةِ تَهْرُمُ  
وَلَنْ لَمْ تُكْرِمَ نَفْسَهَا لَا تُكْرِمُ  
فَتَى صَادِقٌ فِي نَصْحِهِ لَمْ تَقْوَمُ  
إِذَا حَلَكْتَ فِيهَا الْجِهَالَةَ تُظْلِمُ  
وَلَنْ كَثُرَتْ فِيهَا الْفَنَائِسُ تُعْدِمُ  
كَذَلِكَ يَأْتِي أَشْأَمٌ بَعْدَ أَشْأَمٍ  
فَتَغْدُو لِأَفْرَاحِ الْبِلَادِ بِمَأْتَمٍ  
وَلَنْ تَبْكُ مَصْرٌ مِنْ أَسَى تَبْتَسِمُ  
وَوَيْلٌ لِحَقٍّ عِنْدَهَا مَتَلْتَمُ  
وَلَنْ تَتَجَبَّرُ عُرْضَةً الْمُتَهَضِّمِ  
وَلَا بَيْنَهَا مِنْ سَامِعٍ مَتَفَهِّمِ

\* \* \*

وصاحب هذه الحركة التي تستهدف الجامعة المصرية اتجاه "قوي خصب نحو استخراج صور البطولة من تاريخ مصر القديم ، وبعث الشعور بالعزة ، بإحياء المجد الفرعوني ، بينما صاحب الحركة الأولى التي تدعو إلى الجامعة الإسلامية بعث التاريخ الإسلامي وعرض صور من بطولات العرب وأمجادهم . وجمع كثير من الشعراء بين الاتجاهين ، بمثل ما ألف الحزب الوطني بين التزعتين ولم ير فيهما تعارضاً . وكان هذا الأدب المعتمد على التاريخ - شعره ونثره - من أقوى الأدوات في استنهاض الهمم ، وبعث الأمل ، ومحاربة اليأس ، ورد الثقة إلى نفوس تمكن منها سوء الظن بنفسها حتى قتل فيها روح الأمل والطموح .

وبدت طلائع هذا الاتجاه في شعر البارودي الذي يقول : (١)

سل الجيزة الفيحاء عن هَرَمِيْ مصر  
 بناءً أن رَدَا صَوْلَةَ الدَّهْرِ عنهما  
 أقاما على رغم الخطوب ليشهدا  
 فكم أَمَمَ في الدهر بادت وأعصر  
 تلوح لآثار العقول عليهما

لعلك تَدْرِي غَيْبَ ما لم تكن تدري  
 ومن عجب أن يَغْلِبَا صَوْلَةَ الدهر!  
 لبانيهما بين البرية بالفخر  
 خلت، وهما أعجوبة العين والفكر  
 أساطيرُ لا تنفك تُتلى إلى الحشر

ثم جاء شوقي من بعده فتوسع في هذا الاتجاه الجديد حتى أصبح شاعره  
 الفذ ، فحق له أن يقول في القصيدة التي وجهها إلى روزفلت عقب زيارته لمصر  
 سنة ١٩١٠ (١) :

وأنا المحتفّي بتاريخِ مصرٍ مَنْ يَصْنُ تَجْدَ قَوْمِهِ صَانِ عِرْضِها  
 وأن يقول بعد ذلك في قصيدته في توت عنخ آمون سنة ١٩٢٤ : (٢)

هذا المقامُ عرفتهُ وسبقتُ فيه القائلين  
 ووقفتُ في آثاركم أزنُ الجلالِ وأستبين  
 وبنيْتُ في العشرين من أحجارها شعري الرصين  
 كنتم خيالَ المجد بُرُ فَعُ للشباب الطامحين

وشوقي هو صاحب الحمزية الطويلة المشهورة التي تبلغ مائتين وسبعة وستين  
 بيتاً : (٣)

هَمَّتِ الفُلُكُ واحتواها الماءُ وحدّاها بمن تُقِلُّ الرجاءُ

وقد ألقاها في مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٤ ، وسنه لم تتجاوز السادسة  
 والعشرين . وعرض فيها تاريخ مصر منذ أقدم العصور . يقول فيها مستنهضاً  
 هم الشباب :

١ - الديوان ٢ : ٦٦

٢ - الديوان ٢ : ١١٦

٣ - الديوان ١ : ١

وانتهت إمرة البحار إلى الشر  
وبينا فلم نخل لبسان  
وملكننا فالمالكون عبيد  
قل لبان بتي فشاد فغالى  
ق وقام الوجود فيما يشاء  
وعلونا فلم يجزنا علاء  
والبرايا بأسرهم أسراء  
لم يجز مصر في الزمان بناء

فإذا وصل إلى غزو الرعاة لمصر عام ١٦٧٥ قبل الميلاد ، توقف قليلا ليصور  
تجبر المحتل واستدلاله أهل البلاد ، وتقريبه طائفة من المنافقين الذين يوثرون  
النفع القريب ، يغدق عليهم خيره ويغمرهم بنعمه . ثم يحذر المحتلين من عاقبة  
البحور ومن ثورة الضعيف :

وإذا مصر شاة خير لراعي السو  
قد أذل الرجال فهي عبيد  
فإذا شاء فالرقاب فداه  
وليقوم نواله ورضاه  
ففرق ممتعون بمصر  
إن ملكت النفوس فابغ رضاها  
يسكن الوحش للوثوب من الأسد  
يحسب الظالمون أن سيسودو  
والليالي جوائر مثلما جا  
ع تؤذى في نسلها وتساء  
ونفوس الرجال فهي إماء  
ويسر إذا أراد الدماء  
ولأقوام القلى والحفاء  
وفريق في أرضهم غرباء  
فلها ثورة وفيها مضاء  
بر ، فكيف الخلائق العفلاء ؟  
ن وأن لن يؤيد الضعفاء  
روا ، وللدهر مثلهم أهواء

وإذا بلغ غزو قمبيز ملك الفرس لمصر سنة ٥٢٥ ق . م ، وأسر ملكها  
أبسمتيك آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين بعد أن انهزمت جيوشه ، لم  
يفته الوقوف ليصور موقف فرعون الأسير وأبنته في إياهما العصي وكبرياءهما  
المرتفع ، إذ يقول :

جىء بالمالك العزيز ذليلا  
يبصر الآل إذ يراح بهم في  
بنت فرعون في السلاسل تمشي  
لم تزلزل فؤاده البأساء  
موقف الذل عنوة ووجاء  
أزعج الدهر عريها والحفاء



فَكَأَنَّ لَمْ يَنْهَضْ بِهَوْدَجِهَا الدَّهْرُ وَلَا سَارَ خَلْفَهَا الْأَمْرَاءُ  
 وَأَبُوهَا الْعَظِيمُ يَنْظُرُ لَمَّا رُدِّيَتْ مِثْلَمَا تُرَدِّي الْإِمَاءُ  
 أُعْطِيَتْ جِرَّةٌ وَقِيلَ : إِلَيْكَ النَّهْرُ قُومِي كَمَا تَقُومُ النِّسَاءُ  
 فَمَشَتْ تُظْهِرُ الْإِبَاءَ وَتَحْمِي الدَّهْرَ مَعَ أَنْ تَسْرِقَهُ الضَّرَاءُ  
 وَالْأَعَادِي شَوَاحِصٌ ، وَأَبُوهَا بِيَدِ الْخَطْبِ صَخْرَةٌ صَمَاءُ

فإذا بلغ فتح العرب مصر قال :

مَنْ كَعَمَّرُوا الْبِلَادَ ، وَالضَّادُ مِمَّا

شَادَ فِيهَا ، وَالْمَلَّةُ الْغُرَاءُ (١)  
 شَادَ لِلْمُسْلِمِينَ رُكْنًا جُسَامًا ضَافِي الظِّلِّ دَابَّةُ الْإِبَاءِ  
 طَالَمَا قَامَتِ الْخِلَافَةُ فِيهِ فَاطِمَاتٌ وَقَامَتِ الْخُلَفَاءُ  
 وَانْتَهَى الدِّينَ بِالرَّجَاءِ إِلَيْهِ وَبَنُو الدِّينِ إِذْ هُمْ ضَعَفَاءُ

ويقفز بعد ذلك إلى تمجيد بطولة صلاح الدين الأيوبي في الحروب الصليبية  
 فيقول :

وَإِذْ كُرَّ الْغُرَّ آلَ أَيُّوبَ وَامْدَحْ فَمَنْ الْمَدْحُ لِلرِّجَالِ جَزَاءُ  
 هُمْ حُمَاةُ الْإِسْلَامِ وَالنَّفَرِ الْبِيضِ ضُحَى الْمُلُوكِ الْأَعَزَّةِ الصُّلَحَاءُ  
 كُلَّ يَوْمٍ بِالصَّالِحِيَّةِ حِصْنٍ وَبِالْبَيْسِ قَلْعَةٍ شَمَاءُ  
 وَبِمَصْرِ الْعِلْمِ دَارٍ وَلِلضَّيْفِ بَنَانُ نَارٍ عَظِيمَةٍ حَمْرَاءُ  
 وَلِأَعْدَاءِ آلِ أَيُّوبَ قَتْلٌ وَلِأَسْرَاهُمُ قِرَى وَثَوَاءُ  
 يَوْمَ سَارَ الصَّلِيبَ وَالْحَامِلُوهُ وَمَشَى الْغَرْبَ : قَوْمُهُ وَالنِّسَاءُ  
 بِنَفُوسٍ تَجُولُ فِيهَا الْأَمَانِي وَقُلُوبٌ تَثُورُ فِيهَا الدَّمَاءُ  
 يَضْمُرُونَ الدَّمَارَ لِلْحَقِّ وَالنَّاسِ سِوَيْهِ الَّذِينَ بِالْحَقِّ جَاءُوا  
 وَيَهْدُونَ بِالتَّلَاوَةِ وَالصُّلْبَانِ مَا شَادَ بِالْقَنَا الْبَنَاءُ

١ - يشير بالضاد إلى اللغة العربية . يقول : إن العربية التي تتكلمها مصر ، والإسلام الذي  
 تدين به ، هما من آثار ذلك الفتح الأغر .

ففلقتهمو عزائم صِدْقٍ      نُصٌّ للدين بينهنَّ خِيَاءُ  
مَزَقَتْ جمعَهم على كل أرض      مثلما مَزَقَ الظلامَ الضيَاءُ  
هكذا المسلمون والعرب الحَا      لُونٌ ، لا ما يقوله الأعداءُ  
فبهم في الزمان نلنا الليالي      وبهم في الورى لنا أنباءُ  
ليس للذل حيلة في نفوس      يستوي الموت عندها والبقاءُ

وشوقي بعد هذا هو صاحب قصيدة «أنس الوجود» التي خاطب بها روزفلت  
عندما زار مصر في مارس سنة ١٩١٠ (١) :

أيها المُنْتَحِي بأسوان داراً      كالتريسا تريد أن تنقِضاً (٢)  
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع      لا تحاول من آية الدهر غَضّاً  
قِف بتلك القصور في اليم غرقى      مُسِكاً بعضها من الذعر بعضاً  
مَشْرِفاتٍ على الزوال وكانت      مشرفات على الكواكب تنهضاً

فإذا بلغ من تصوير الفن القديم وبراعته المعجزة ما أراد، قال يرثي مجد مصر

١ - زار «تيودور روزفلت» مصر عائداً من السودان . وألقى فيها خطابين، مجد في أولهما  
الاحتلال ، وعارض في الآخر حركة المطالبة بالدستور التي كانت على أشدها في ذلك الوقت  
فكان لخطابه دوي قوي . وقد أثاراً شعور السخط والاستنكار ، فتوالت عليه برقيات  
الاحتجاج ، ونادى المتظاهرون بسقوطه أمام فندق شبرد حيث كان ينزل ، وفي الإسكندرية  
عند سفره إليها ليستقل الباخرة عائداً . و «تيودور روزفلت» هذا هو رئيس جمهورية  
الولايات المتحدة من سنة ١٩٠١ - سنة ١٩٠٨ . وقد توفي سنة ١٩١٩ . وهو من أسرة «فرانكلين  
روزفلت» رئيس أمريكا في الحرب العالمية الثانية .

٢ - الديوان ٢ : ٦٨ والخطاب هنا لروزفلت . وقد نشرت القصيدة في مجلة الهداية بعدد أكتوبر  
سنة ١٩١٤ أي أنها نشرت بعد زيارة روزفلت بنحو من ستة شهور . بينما نشرت قصيدة  
لحافظ عقب إلقاء خطبة روزفلت الأولى في الخرطوم، وقبل خطبة الجامعة في القاهرة ، وهي :  
أي خطيب الدنيا الجديدة شنف      سمع مصر بقولك الماثور

وقد جاءت القصيدة في كتاب محمد فريد ص ١٦٤ ولم ترد في الديوان . وهي أكثر  
صراحة في مهاجمة روزفلت من قصيدة شوقي . ومن المعروف أن وظيفة شوقي في القصر كانت  
تقيده . بينما كان حافظ في ذلك الوقت حراً من كل قيد .

الزائل ، داعياً الله أن يرد على الوطن عزته ورفعته :

يا قصوراً نظرتها وهي تقضي  
فسكبتُ الدموعَ والحقَّ يُقضي  
أنتِ مجدٌ وسطرٌ مصرَ كتابٍ  
كيف سام السبلى كتابك فضاً ؟ !  
قل لها في الدعاء - لو كان يُجدي -  
يا سماءَ الجلال لا صيرتِ أرضاً

وشوقي هو صاحب المطولة المشهورة في النيل التي تزيد على مائة وخمسين بيتاً : (١)

من أي عهد في القرى تندفق ؟ وبأي كف في المدائن تُغديق ؟  
ومن السماء نزلت ؟ أم فجرت من عليا الجنان ، جداولاً تترقق ؟  
وبأي عين ، أم بأية مُزنة أم أي طوفان ، تفيض وتفهق (٢)  
وبأي نول أنت ناسجُ بردة للصفتين جديدُها لا يخلقُ

وقد وجه قصيدته هذه إلى الأستاذ « مَرْجوليوت » أستاذ اللغة العربية في جامعة أكسفورد أثناء الحرب العالمية الأولى وقال في ديباجتها : « . . وهذه أيها الأستاذ الكريم كلمة قلت والهموم سارية ، والأقدار بالمخاوف جارية ، والدماء والدموع متبارية ، وذئاب البشر يقتلون على الفانية . نظمتها اتغنياً بمحاسن الماضي ، وتقيداً لآثار الآباء ، وقضاء لحق النيل الأسعد الأجد . ونسبتها إليك عرفاناً لفضلك على لغة العرب ، وما أنفقت من شباب وكهولة في إحياء علومها ونشر آدابها » . وفيها يقول :

أين الفراعنة الأولى استندى بهم عيسى ويوسف والكليم المصعق (٣)

١ - الديوان ٢ : ٧٧ .

٢ - فهق الإناء : امتلاً وفاض .

٣ - استندى بهم : أي لجأ إليهم واستظل بظلهم . الكليم هو موسى عليه السلام الذي كلمه الله . المصعق : الذي صعق حين طلب من الله سبحانه وتعالى أن يراه . وهو يشير إلى قوله تعالى « فلما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك . قال لن تراني . ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني . فلما تجل ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً . فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » - الأعراف ١٤٣ .

أَفْضَىٰ إِلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ لِيَسْتَقُوا  
فَالشَّمْسُ أَصْلَهُمُ الْوُضْيَاءُ الْمُعْرِقُ  
عَهْدٌ عَلَى أَنْ لَا مَسَاسَ وَمَوْتُ  
كَحْجَابِهِمْ فَوْقَ الثَّرَى لَا يُخْرِقُ  
يُجَلِّي كَمَا تَجَلَّى النُّجُومُ وَيُنْشَقُ  
كَالسَّحَابِ قَرْنُ الشَّمْسِ مِنْهَا مُفْتَقِ  
لِلشَّمْسِ فِي الْآفَاقِ عَانَ مُطَرِّقُ  
وَأَتَتْهُ بِالْفَتْحِ السَّعِيدِ الْفَيْلَقُ  
نَعْلٌ لِفِرْعَوْنَ الْعَظِيمِ وَنُحْرُقُ  
يَأْبَى فَيَضْرِبُ أَوْ يَمْنُ فَيَعْتِقُ

الموردون الناس منهل حكمة  
الرافعون إلى الضحى آباءهم  
وكانما بين البلى وقبورهم  
فحجابهم تحت الثرى في هبة  
كم موكب تتخايل الدنيا به  
فرعون فيه من الكتائب مقبل  
تعنو لغزته الوجوه ووجهه  
آبت من السفر البعيد جنوده  
ومشى الملوك مصفدين، خدودهم  
مملوكة أعناقهم ليمينه

ويعدد الأديان التي شهدها هذا النهر العجوز فيقول :

تَبْدُو عَلَيْكَ لَهُ وَرِيًّا تُنْشَقُ  
حَوَّلِكَ فِي أَفْقِ الْجَلَالِ يَرْنُقُ  
مَسْطُورَهْنَ بِشَاطِئِكَ مَنَمَقُ  
يَزْكُو لَذِكْرَاهَا النَّبَاتِ وَيَسْمُقُ  
بِرَكَاتُ رَبِّكَ وَالنَّعِيمُ الْغَيْدَقُ  
وَلَوْأُوهُ وَبَيَانُهُ وَالْمَنْطِقُ (١)  
وَالْحَقُّ مَا يُحْيِي الْعُقُولَ وَيُفْتِقُ  
وَاللَّهُ مِنْ حَوْلِ الْبِنَاءِ مَوْفَقُ  
سَيْفُ الْكَرِيمِ مِنَ الْجَهَالَةِ يَفْرَقُ

تابوت موسى لا تزال جلاله  
وجمال يوسف لا يزال لواؤه  
ودموع إخوته رسائل توبة  
وصلاة مريم فوق زرعك لم يزل  
وخطى المسيح عليك روحاً طاهراً  
وودائع الفاروق عندك دينه  
بعث الصحابة يحملون من الهدى  
بينون لله الكنانة بالقنا  
في الحق سُلِّ وفيه أغمد سيفهم

ويختتم قصيدته الرائعة متوجهاً إلى النيل بخطابه فيقول :

لِي فِيكَ مَدْحٌ لَيْسَ فِيهِ تَكْلَفُ أَمْلَاهُ حَبٌّ لَيْسَ فِيهِ تَمَلُّقُ

١ - الفاروق هو الخليفة عمر رضي الله عنه . أودع مصر دين الإسلام ، وأودعها جيشه ،  
وأودعها لغة العرب التي أصبحت لسان المصريين .

مما يَحْمِلُنَا الهَوَى لَكَ أَفْرَحُ      سنطير عنها وهي عندك تُرْزَقُ (١)  
 تَهْفُو اليهم في التراب قلوبنا      وتكاد فيه بغير عرق تَخْفُقُ  
 تُرْجَى لهم ، والله جلّ جلاله      منا ومنك بهم أبرّ وأرفق  
 فاحفظ ودائعك التي استودعتها      أنت الوفي إذا أوّمت الأصدق  
 للأرض يومُ والسماءِ قيامةُ      وقيامه الوادي غداة تُحَلِّقُ (٢)

ومع ذلك كله فشوقي هو صاحب المدائح النبوية المشهورة «الهمزية» و«البائية»  
 و«الميمية». وهو صاحب الأرجوزة الكبرى التي نظمها في منفاه « دول العرب  
 وعظماء الإسلام ». وهو أيضاً صاحب الشعر الإسلامي الغزير الذي قدمنا  
 نماذج عديدة منه في الفصل السابق .



١ - يقصد بالأفراح : الأولاد والذرية . نمضي ونتركهم من بعدنا في كنف النيل .  
 ٢ - تحلق ، أي تجف . حلق ضرع الناقة ارتفع لبنها . يقول : إن الوادي باق ما بقيت أيها  
 النيل وما جرى ماؤك الذي يحيه .

# الفصل الثالث

## محنة الجامعة المصرية

(المؤتمر القبطي والمؤتمر المصري)

في سنة ١٩١١ ظهرت أزمة فادحة كادت تؤدي بفكرة الجامعة المصرية ، وتهدم الوحدة الوطنية ، وهي تفاقم الخلاف بين عنصري الأمة : المسلمين والمسيحيين ، واتخاذ هذا الخلاف الخفي شكلاً صريحاً سافراً عنيفاً في المؤتمر الذي انعقد بأسسيوط في مارس سنة ١٩١١ (١) .

وليس من السهل تتبع هذا التصدع لرده إلى أسبابه الأولى ، وليس من موضوع هذا البحث أن يتبعه . ولكن المتتبع لهذه الكارثة منذ نشأت الدعوة إليها في الصحف القبطية سنة ١٩٠٩ ، ولما سبق ذلك من أحداث ، يستطيع أن يدرك في يسر أن الأزمة ترجع في جوهرها إلى سوء الظن وفقدان الثقة . فقد كان المسلمون يسيئون الظن بالأقباط ، ويتهمونهم بموالاتة الإنجليز المستعمرين لما يجمع بينهما من رابطة المسيحية . وكان المسيحيون يسيئون الظن بالمسلمين ، ويتوهمون أنهم يتحينون الفرص للانتقام منهم ، ولا يحول بينهم وبين ذلك إلا الإنجليز . وقد لعب الجهل الذي يقود إلى عصبية عمياء لا تقوم على أساس من منطق أو دين دوراً خطيراً في هذا الانشقاق .

١ - راجع تفاصيل المؤتمر القبطي وما ألقى فيه من خطب في إعداد صحيفة « مصر » من الأحاد ٥ مارس إلى الأربعاء ٨ مارس سنة ١٩١١ .

كان كثير من المسلمين ينزلون أنفسهم منزلة خاصة من القبطي وينظرون إليه نظر السيد إلى المولى ، حتى انتهى الأمر بالقبط إلى أن يوزعوا أنفسهم بين الأسر الإسلامية الكبيرة في قرى الصعيد ، يضعون أنفسهم تحت حمايتهم <sup>(١)</sup> . وليس يعنينا هنا أن نرد هذه الحالة إلى أصولها الأولى ونتبعها في تاريخها الطويل ، ولكن الواقع هو أن هذه التقاليد كانت ثابتة مقررة في العصر الذي نورخ له ، وأنها كانت تجد تشجيعاً من بعض الحكام الذين أساءوا فهم تعاليم الإسلام السمحة العادلة . ونسي هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز : ( ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم . وقولوا آمناً بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » <sup>(٢)</sup> ) ويقول جل شأنه : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » <sup>(٣)</sup> . . . ويقول : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم . إن الله سريع الحساب » <sup>(٤)</sup> . . . ويقول : « ليسوا سواهم » . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يستجدون » <sup>(٥)</sup> . وقد سبق في علم الله أن يكون الناس طوائف وشيعاً لحكمة تراد : « ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة . ولكن ليبلواكم فيما آتاكم . فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » <sup>(٦)</sup> . « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً . أفأنت تكثره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » <sup>(٧)</sup> .

ذلك هو الإسلام في عدله وسماحته ، وإنصافه وإنسانيته ، ولكن الكثرة

١ - مجموعة أعمال المؤتمر المصري الأول ص ٤٨

٢ - المنكوت ٤٦  
٣ - البقرة ٦٢  
٤ - آل عمران ١٩٩  
٥ - آل عمران ١١٣  
٦ - المائدة ٤٨  
٧ - يونس ٩٩

الجاهلة - من المسلمين والقبط على السواء - كانت قد نشأت على تقاليد فاسدة اعتبرها الأولون حقاً لهم ، وأذعن لها الآخرون على أنها أمر واقع ، يتحنيون الفرص للخلاص منه . وكانت الجامعة الوطنية فكرة ناشئة لم تستقر كما رأينا في الفصل السابق ، وكانت الجامعة الغالبة على تفكير العصر هي الجامعة الدينية . لذلك كان من الطبيعي أن يختلف موقف القبط من الاحتلال الإنجليزي المسيحي عن موقف المسلمين من المصريين ، فهم إن لم يطمثوا إليه لا يتحمسون لمحاربتة تحمس المسلمين . فقد كانوا يتوقعون أن ترتفع مكانتهم في ذلك العهد الجديد كما يقول اللورد كرومر (١) . من أجل ذلك استشعر المسيحيون القوة ، وانفتح أمامهم باب الأمل في تحسين حالتهم . وبدأ كثير منهم يضيق بالأوضاع السائدة التي قبلوها من قبل على أنها أمر مقرر وحقيقة واقعة . ونظر المسلمون من ناحيتهم إلى هذه الروح الجديدة على أنها تمرد وانتهاز للفرص وخيانة للبلد الذي يطعمهم ويكسوهم ، والذي تتكون كثرته من المسلمين . واتجه القبط إلى استمداد القوة من مصدر جديد ، فأقبلوا على التعليم ، وحرصوا على جمع المال حرصاً شديداً (٢) . وكان إقبالهم على التعليم - وعلى الأجنبي منه بنوع خاص - بالإضافة إلى ما عرف من تهافتهم على بعض الوظائف التي زهد فيها المسلمون ، وتوارثهم الوظائف المتصلة بالأعمال المالية والحسابية منذ زمن طويل ، كان كل ذلك سبباً في أن تجاوز نسبتهم في الوظائف الحكومية نسبتهم العددية في السكان بمقدار كبير (٣) . وكان حرصهم على جمع المال سبباً في اضطراد الازدياد في ثرواتهم . وكان نجاحهم هذا يغريهم بالمثابرة ، ويزيدهم أملاً وطموحاً . بينما كان في الوقت نفسه يزيد من سوء ظن المسلمين بهم ويقوي الشبهة القائمة في نفوسهم من أنهم لم يبلغوا ما بلغوا إلا بتحيزهم

١ - Modern Egypt ٢ : ٢٠٩

٢ - مجموعة أعمال المؤتمر المصري الأول ص ٨٤ - ٨٧

٣ - راجع جداول الإحصاء في المصدر السابق في صفحات ٣٤ و ٩٢ و ٩٣ و ٩٤ و ١٩٦ - ٢٠٤

وراجع كذلك Modern Egypt ٢ : ٢٠٨ و ٢١٠ و ٢١١



للمستعمر واحتضانه لهم . ولما زاد عدد المتعلمين من القبط وارتفعت نسبة ما يدفعه أغنياؤهم من ضرائب ، بدأوا يحسون أنهم مظلومون ، وأن من حقهم أن يكون لهم من الوظائف والمرافق بمقدار من فيهم من المتعلمين وبمقدار ما يدفعون من الضرائب . ونظر المسلمون فإذا عدد القبط في الوظائف يتجاوز نسبتهم العددية بكثير ، بل لقد وجدوا أنهم يكونون الكثرة الغالبة في بعض المصالح والوزارات . فرأوا أن تدمرهم هذا ينطوي على الشطط والجشع وتجاوز الحد في الإنصاف ، وأنهم إنما يريدون أن تتحكم القلة القليلة في مصائر الكثرة الكثيرة ، اعتماداً على حماية المستعمر المسيحي ، وعلى خوف المسلمين من أن يتهموا بالتعصب الديني . وزاد في سعة الهوة بين الفريقين أن العصية سرت بين القبط ، وصار بعضهم يؤثر البعض الآخر بالخير ، وصار الموظف منهم يسعى إلى زيادة عدد الموظفين من طائفته ما وسعه ذلك .

ولم يكن من المستغرب أن يكره المسيحيون الحكم التركي الذي لم ينالوا منه خيراً ، ولم يذوقوا على يديه إلا الدل . وكان طبعياً أن يكرهوا كل دعوة إلى الجامعة الإسلامية أو الرابطة العثمانية ، وأن لا يتحمسوا للدعوة الوطنية الدينية الموالية للترك ، والتي كان يمثلها الحزب الوطني وقتذاك .

فانطوا على أنفسهم متوهمين أن مصلحتهم تختلف عن مصلحة الكثرة الكبيرة من المسلمين الذين يحيطون بهم من كل جانب ، وأنشأوا لهم صحافة تعبر عن مصالحهم ورغباتهم . فصدرت جريدة الوطن سنة ١٨٧٧<sup>(١)</sup> ، ثم صدرت صحيفة مصر سنة ١٨٩٥<sup>(٢)</sup> ، وصدرت صحف أخرى اختفت بعد ظهورها بمدد قصيرة ولم يكن لها أثر كبير .

وأخذت هذه الصحف اليومية تقصر اهتمامها على معالجة مشاكل القبط ، وتطالب برفع ما توهمته من ظلم . ولم تزل تسير في طريقها هذا حتى انتهى

١ - أصدرها ميخائيل عبد السيد . وهي أقدم الصحف القبطية . توقفت حيناً بعد الاحتلال ، ثم

عادت إلى الظهور سنة ١٩٠٠ « تاريخ أدب اللغة العربية لجورجي زيدان ٤ : ٦٦ »

٢ - أصدرها تادرس بك شنودة المنقبادي .

بها الأمر إلى أن تتحدث عن القبط وكأنهم أمة مستقلة لها كيان منفصل عن مصر ، وتقول إنهم سلالة الفراعنة وأصحاب البلاد ، وأنهم هم المصريون الخالص الذين لا تشوب دمهم شائبة أجنبية <sup>(١)</sup> . وبدأت هذه الصحف تتحدى الرأي العام باستحسان ما أجمع المصريون على استنكاره . تصدر وزارة بطرس غالي في ٢٥ مارس سنة ١٩٠٩ قراراً بإعادة العمل بقانون المطبوعات القديم الصادر في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ إبان الثورة العرابية ، وكان قد بطل العمل به منذ زمن بعيد ، فتستنكره الأمة ، وتقوم مظاهرات الاحتجاج من مختلف الطوائف ، وتضطرم للمرة الأولى رجال الشرطة تحت قيادة « حكمدار » العاصمة الإنجليزي هارفي باشا <sup>(٢)</sup> . ولكن صحيفة مصر تنشر مقالا في تأييد القانون الجديد الذي يحد - حسب زعمها - من سفه السفهاء الذين يدعون إلى الفتنة <sup>(٣)</sup> . ويقدم تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة السابق إلى مصر في مارس سنة ١٩١٠ عن طريق السودان ، بعد أن ألقى بالخرطوم خطبة سياسية مجد فيها الاحتلال ، فيلقي في الجامعة المصرية بالقاهرة خطبة يعارض فيها حركة المطالبة بالدستور التي كانت على أشدها ، ويقول : إن تربية الشعب لكي يصبح صالحاً لحكم نفسه هي مسألة أجيال متتابعة ، وأن سبيل ذلك لا يمكن أن يكون بإصدار دستور يصبح حبراً على ورق . ويقابل المصريون خطبته بالاستنكار الشديد . وترسل الاحتجاجات على إدارة الجامعة لسماحها بإلقاء

١- راجع أمثلة لذلك في صحيفة « مصر » عدد ١ فبراير سنة ١٩٠٩ في مقال « إلى الأمة القبطية » وعدد ٣ فبراير سنة ١٩١٠ في مقال « طريق التقدم في الهيئة الاجتماعية القبطية » وعدد ١٩ فبراير سنة ١٩١٠ في الدعوة باسم بشرى حنا إلى عقد مؤتمر قبطي عام في مدينة أسيوط ، وعدد ٢٨ فبراير في مقال « إلى أي طريق نحن ذاهبون » ، ومرثية وهبي بك ناظر المدارس القبطية لبطرس غالي في عدد ٢ إبريل سنة ١٩١٠ التي يؤرخ فيها وفاته بالتاريخ القبطي ( ١٦٢٦ قبطية ) :

ثم أنشد بين القبور وأرخ مات وامصر بطرس مقتولا

وراجع كذلك صحيفة « العلم » عدد ٧ أغسطس سنة ١٩١٠ في مقال ( آلام القبط ) .

٢- محمد فريد ص ١٠٠

٣- راجع صحيفة « مصر » عدد ٢٦ مارس سنة ١٩٠٩ في مقال ( لماذا قيدت الصحافة )

هذه الخطبة في دارها ومنحها الخطيب لقب الدكتوراه الفخرية بعد إلقائها ،  
وينادي المتظاهرون بسقوطه أمام فندق « شبرد » في القاهرة حيث كان يتزل ، وفي  
الإسكندرية عند سفره إليها ليستقل الباخرة عائداً <sup>(١)</sup> . ولكن صحيفة مصر  
تكتب في تأييده وفي الرد على من يهاجمه فتطالع القراء بافتتاحية عنوانها  
« الخطاب العظيم - المستر روزفلت في الجامعة المصرية » <sup>(٢)</sup> تبدأها بقولها :  
« لم يدوّ في جو مصر خطاب أبلغ من الخطاب الذي ألقاه جناب المستر  
روزفلت رئيس جمهورية أمريكا سابقاً في الجامعة المصرية أمس ، ولا أصرح  
منه عبارة ، ولا أنفع لها في الحال والاستقبال . وقد قبل من جميع الطبقات  
بالإعجاب التام ، لأنه كان صادراً عن إخلاص صحيح ، ورغبة تامة في  
خير البلاد » . وتتمادى الصحيفة في التحدي فتعود إلى الحديث عن خطاب  
روزفلت بعد أيام في مقال عنوانه ( فلنصف الحساب ) <sup>(٣)</sup> تبدأها بقولها : « كثير  
الخدس والتخمين ، وزادت الشكوك وقل اليقين ، وترك روزفلت الناس  
حيارى لا يدرون من الذي نبهه إلى سياسة مصر ودخيلتها ، وأعلمه أسرارها ،  
وكشف له عن عوراتها . قال روزفلت حكمته وخطب خطبته ، فلم يهتم  
القوم لموضوع الخطاب اهتمامهم بالبحث عن مصدر علم الرئيس بمجاري  
الأحوال . ومن هم الواشون على البلد ، ومن ذا الذي أوصل إليه  
الأخبار حتى قال ما قال . بحثوا ليعلموا بلا تأن ولا اعتدال ، فنسبوا القول  
لأكبر الأعداء الماكرين ، وهم في عرفهم الإنجليز البريطانيون ، وتلاههم في  
شرعهم مبعوثو الأمريكان ، مكدرّو صفاء الأديان ببلاد السلطان . ثم عطفوا  
على أولاد سوريا وسكان الشام ، وأشبعوهم سفاهة وتأنيباً ، ووصفوهم  
بالخائنين اللئام . وأخيراً ساحوا إلى أبناء وطنهم وأساءوا الظن بالقبط إخوانهم » .  
ثم تدافع الصحيفة عن خطاب روزفلت قائلة : « ومع ذلك لو سلمنا جدلاً

١ - محمد فريد ص ١٦٠

٢ - عدد ٢٩ مارس سنة ١٩١٠

٣ - عدد ٧ إبريل سنة ١٩١٠

وافترضنا أن الرجل استقى المعلومات من الإنجليز والأمريكان والسوريين والأقباط ، فما الذي أناه بخطبته يخالف واجب الضيافة ؟ . . وما هي الإهانة التي أهان بها المصريين حتى تقوم الجرائد بهذه القيامة ؟ . . إن هذا الرئيس العظيم والرجل المهاب <sup>(١)</sup> الذي تنازل أن يلقي علينا الخطاب لم يرم المصري بخسة أو دناءة ، ولم يحكم علينا بعدم الأهلية ولا بقلة الكفاءة ؛ بل خطب خطاباً كله مواعظ وحكم وإرشاد ، وبين لنا ما هي السبيل المؤدية إلى إسعاد البلاد . . . » وتمضى الصحيفة إلى آخر المقال في بيان أن الرجل قد دل مصر على ما فيه خيرها مخلصاً لها النصيح .

\* \* \*

كان كل ذلك داعياً إلى تنمية سوء ظن كل من الفريقين بصاحبه ، وتوسيع الهوة التي تفصل بينهما ، حتى دفع العناد والمكابرة والشعور بالعزلة والانسلاخ من الجامعة المصرية بعض القبط إلى التخلي عن جنسيتهم ، والتماس العزة في ظل بعض الجنسيات الأوروبية ، التي كانت تكسبها الامتيازات الأجنبية حصانة خاصة ، وتضعها في مركز ممتاز لا تمتد إليه يد القانون. <sup>(٢)</sup> وأخذ بعض أعيان القبط في الصعيد يدعون سراً لعقد مؤتمر يبحث حالتهم ويؤيد مطالبهم ، ويبثون روح السخط بين المواطنين الأقباط ، ويصورون أنهم مغبونون في الوظائف وفي الحقوق العامة . وكانت الصحيفتان القبطيتان « مصر » و « الوطن » تنفخان في هذه الروح . وأوجس الناس خيفة من عواقب هذه الحركة الوخيمة . ولكن

١ - كذلك جاء في المقال وهو خطأ . وصوابه « المهيب » بفتح الميم .

٢ - راجع صحيفة « العلم » عدد ٧ مارس سنة ١٩١١ في مقال « وطنيون أم أجنبيون ؟ . . والسياسة أم الدين ؟ » وفي ختامها أن فخري عبد النور كان متجنساً بالجنسية الألمانية ، وأن بشرى حنا بك كان وكيل قنصل روسيا في أسبوط ، وكان سينوت حنا بك وكيل قنصل روسيا في المنيا . وكان جورجى ويصا بك وكيل قنصل أمريكا في أسبوط . وكان الخواجة نادرى مقار وكيل قنصل فرنسا بأسيوط . وكان يسى اندراوس بك وكيل قنصل إيطاليا في الأقصر . وقد أصبح هؤلاء فيما بعد من أساطين حزب الوفد .

بطرس غالي - وكان رئيساً للوزارة وقتذاك - كان يطمئنهم بأنه مالك لرمام الموقف . وقد أُنذر صحيفة « الوطن » وهددها بتعطيلها إذا لم تكف عن المضي في التهييج .

وفوجيء الناس بقتل بطرس غالي في ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ فتفاقم الخلاف وصرح الشر ، وبرزت الفتنة عارية عمياء . تخبط خبط عشواء . كان قاتله ، إبراهيم ناصف الورداني ، شاباً في الرابعة والعشرين من عمره ، تلقى علوم الصيدلة في لوزان وفتح بعد عودته صيدلية . وكان من المتحمسين لمبادئ الحزب الوطني المناوئ للخديوي عباس وقتذاك ، بعد أن مال إلى مهادنة المستعمرين والاتفاق مع ممثلهم الذي خلف كرومر في مصر ، إلدون جورست . وكان الحزب الوطني يرى أن بطرس غالي هو عضد الخديوي الأيمن في سياسته الجديدة . فهو الذي سافر معه إلى لندن في صيف سنة ١٩٠٨ حين كان وزيراً للخارجية في وزارة مصطفى فهمي ، وتفاهم مع الإنجليز على السياسة الجديدة . وقد كان من قبل مستشاره وسفيره فيما كان ينشأ بينه وبين كرومر من خلاف (١) . وقد رشحه الخديوي عباس لرياسة الوزارة ، وضمنه عند جورست عندما سأله : ألا يحصل انتقاد من الأهالي بتعيين رئيس قبضي ؟ فرد عليه عباس قائلاً : إنه قبضي ولكنه مصري ، أما نوبار فلم يكن مصرياً (٢) . ثم إن تاريخ الرجل السياسي فيه من الأخطاء ما ينزل إلى درجة الخيانة الوطنية . فهو الذي وقع اتفاقية السودان في سنة ١٨٩٩ بالنيابة عن الحكومة المصرية بوصفه وزير خارجيتها (٣) . وقد فوجيء الناس وقتذاك بتوقيعها ، ولم يذع أمرها إلا بعد إبرامها . وكانت الصحف تجهل الخطوات التي سبقتها فلم تنشر شيئاً عن مقدماتها أو المفاوضات

١ - راجع أمثلة مختلفة لذلك في مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٤٤ ، ٥٦ - ٥٧ ، ٥٨ ،

٦٢ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ١٠٢ ، ١١٠

٢ - مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٥٩

٣ - وهي الاتفاقية التي حولت لاجتراء رسمياً حق الاشتراك في إدارة شؤون الحكم في السودان ، ورفع العلم الإنجليزي إلى جانب العلم المصري في أرجائه كافة ، وتعيين حاكم عام للسودان بناء على طلب الحكومة الإنجليزية .

بشأنها<sup>(١)</sup>. ثم إن بطرس غالي هو الذي أصدر قراراً بتشكيل المحكمة المخصصة في حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦ حين كان وزيراً للعدل بالنيابة، ورأس هذه المحكمة بنفسه<sup>(٢)</sup>. وقد استهل عمله في الوزارة التي رأسها بكبت الحريات ، فأعاد العمل بقانون المطبوعات القديم في مارس سنة ١٩٠٩<sup>(٣)</sup> . وأصدر قانون النفي الإداري الذي يضع في يد السلطة الإدارية حق نفي الأشخاص الذين ترى أنهم خطرون على الأمن العام إلى جهة نائية بالقطر المصري<sup>(٤)</sup> . وختم حياته السياسية بدخوله مع شركة قناة السويس في مفاوضات لمد امتيازها أربعين سنة مقابل أربعة ملايين من الجنيهات<sup>(٥)</sup> .

كان الحزب الوطني إذن يرى أن الرجل قد خان وطنه وآذاه . ولكن الصحف القبطية ، ومعها كثير من القبط ، كانوا يرون أن هذه الجريمة الفذة التي لم يسبقها نظير في تاريخ مصر الحديث لم ترتكب إلا بدافع من التعصب

١ - مصطفى كامل ص ١٠٩

٢ - مصطفى كامل ص ١٦٨

٣ - صدر قانون المطبوعات القديم في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ إبان الثورة العرابية . وهو يخول وزير الداخلية حق إنذار الصحف وتمثيلها دون محاكمة . وقد حوكم بمقتضى هذا القانون كثير من الصحفيين وحكم عليهم بالسجن . فسجن الشيخ عبد العزيز جاويش ثلاثة شهور لكتابته مقالا عن ذكرى دنشواي في صحيفة اللواء ، هاجم فيه بطرس غالي وفتحى زغلول في يونيو سنة ١٩٠٩ . وسجن في هذا العام أحمد حلمي صاحب جريدة « القطر المصري » ستة شهور مع الشغل ، وعطلت صحيفته ستة شهور ، أترجمته مقالا نشر في إحدى الصحف التركية وتعليقه عليه . ثم توالى العقوبات بعد ذلك على كل مناوئ للاستعمار أو الحكومة .

٤ - كان المبعدون ينقلون عادة الى الواحات الداخلة .

٥ - فعل ذلك اتباعاً لرأي المستشار المالي الإنجليزي ، الذي اقترح هذه الوسيلة لسد حاجة الخزنة الحكومية للمال . وقد بدأ امتياز القناة منذ افتتاحها في سنة ١٨٦٩ لمدة ٩٩ سنة تنتهي في سنة ١٩٦٨ وكان المشروع يهدف إلى مد مدة الامتياز أربعين سنة أخرى تنتهي في سنة ٢٠٠٨ وقد ظل مشروع المد في طي الخفاء زهاء سنة ، وكان في عزم الوزارة مفاجأة الرأي العام بإنفاذه ، لولا تسرب أنبائه وهياج الشعب ومطالبته بعرضه على الجمعية العمومية . وقد رفضته الجمعية العمومية بعد مناقشات طويلة رغم تأييد ممثل الحكومة له « سعد زغلول » . وقتل بطرس غالي أثناء نظر الجمعية لمشروع المد ( راجع محمد فريد ص ١٣١ - ١٥٤ )

الديني ، وأن بطرس غالي لم يقتل إلا لأنه قبطي . واتهموا الحزب الوطني بأنه هو الذي هيج الرأي العام عليه بكتابات واحتجاجاته على معاهدة ١٨٩٩ و دنشواي وقانون المطبوعات وقانون النفي الإداري .

وعند ذاك انحرفت حركة القبط انحرفاً خطيراً ، فزادوا على الكتابة في الصحف القبطية الشكوى إلى الصحافة الإنجليزية والنقل عنها في صحفهم ، وسافر بعض رجالهم إلى إنجلترا شاكين مستنجدين . فهذه هي صحيفة « العَلَم » تروي ما نشرته جريدة « الديلي نيوز » من شكوى أحد الأقباط الموجودين في إنجلترا من سوء وضع القبط في مصر . ويعرف الزائر القبطي القبط بأنهم سلالة قدماء المصريين ، ويقول : إنهم كانوا يتمتعون بمراكز مهمة نزلت منهم شيئاً فشيئاً . ويرد « العَلَم » على ذلك بمناشدة أمثال هذا الرجل أن يتقوا الله في وطنهم <sup>(١)</sup> . وهذه هي صحيفة « مصر » تنشر سيلاً من البرقيات بعنوان « قلق الأقباط العظيم » و « ما يجب على الأقباط » ، منها ما يطالب « بالالتجاء إلى دولة قوية لتكون عضداً لهم في المستقبل » ومنها ما يطالب بعدم منح المصريين الدستور « والالتجاء إلى عموم الدول الأوروبية للنظر فيما آلت إليه حالتهم » ، ومنها ما يلجأ إلى وزير خارجية إنجلترا وإلى « جناب المعتمد البريطاني بمصر » <sup>(٢)</sup> وتنقل هذه الصحيفة عن « الإيجيشيان كازيت » افتتاحيتها التي هاجمت فيها مدارس الشعب التي كان يديرها الحزب الوطني وقتذاك ، متهمة إياه ببث روح التعصب الديني ، وإثارة الفتنة « وإيغار صدور العامة ضد الحكم الحالي وضد المحتلين والنصارى » <sup>(٣)</sup> . وتدعو الصحيفة إلى إرسال وفد قبطي لوزارة الخارجية الإنجليزية للدفاع عن حقوقهم <sup>(٤)</sup> .

١ - صحيفة « العلم » عدد ٧ أغسطس سنة ١٩١٠ مقال « آلام القبط » .

٢ - صحيفة « مصر » عدد ٢٥ فبراير سنة ١٩١٠ .

٣ - صحيفة « مصر » عدد ٤ مايو سنة ١٩١٠ مقال « معاهد الفتنة أو مدارس الشعب » ..

٤ - صحيفة « مصر » عدد ٢ يوليو سنة ١٩١٠ مقال « تخرصات جريدة العلم واستهانتها بكرامة الأقباط » .

على هذا النحو راحت الصحف القبطية تكيل التهم للحزب الوطني ورجاله وصحافته في عنف بالغ ، وراح هؤلاء يردون على هذا العنف بعنف مثله (١) ونشطت الدعوة لعقد المؤتمر القبطي في أسيوط بعد أن ضاعت مساعي العقلاء من الفريقين ، مثل إسماعيل أباطة وواصف غالي ، في الحد من عنف الثائرين وكبح جماحهم . وترددت الحكومة في التصريح به خشية الفتنة واضطراب الأمن ، طالبة أن يعقد في العاصمة حتى يمكن تلافي ما قد ينجم عنه . ثم أذنت آخر الأمر بعقده في أسيوط ، فتم انعقاده في يوم الأحد ٥ مارس سنة ١٩١٠ ، بدعوة من مطران أسيوط وبرياسة بشرى حنا بك . واستمرت جلساته إلى يوم الأربعاء ٨ مارس سنة ١٩١٠ (٢) . وانحصرت مطالبه في :

- ١ - طلب العطلة يوم الأحد بجانب الجمعة .
- ٢ - أن تكون قاعدة التوظيف هي الكفاءة وحدها دون نظر إلى نسبة الأقباط العددية في السكان .
- ٣ - وضع نظام لمجالس المديرية يكفل للأقباط تمتعهم بالتعليم حتى لا يقتصر التعليم على الدين الإسلامي وحده في المدارس الأولية .

---

١ - راجع أمثلة ذلك في مقالات عبد العزيز جاويش (الإسلام غريب في دياره) و (علام هذه الضجة؟) مجلة (الهداية) عدد مارس سنة ١٩١١ وصحيفة (العلم) عدد ٧ مارس سنة ١٩١١ في مقال (وطنيون أم أجنب؟! وللسياسة أم للدين؟! ) وعدد ١١ أبريل سنة ١٩١١ (على من تبعة هذه الارتباكات؟) وعدد ٥ إبريل سنة ١٩١١ في مقال (فلنحاسبكم فقد انقضى زمن المجاملة) وصحيفة مصر عدد ٧ إبريل سنة ١٩١٠ في مقال (سهم آخر من كنانة الحزب الوطني) . وعدد ٣ مايو سنة ١٩١٠ (حزب الثورة والأقباط) ، ٤ مايو سنة ١٩١٠ (معاهد الفتنة أو مدارس الشعب) وعدد ٢ يوليو سنة ١٩١٠ (تخرصات جريدة العلم واستهانتها بكرامة الأقباط) وراجع كذلك ديوان علي الغاياتي (وطنيي) ص ١٠٨ (الحادث الخطير - قتل رئيس النظار السابق) ، ص ١١٥ (يوم القضاء على إبراهيم ناصف الورداني) .

٢ - راجع قرارات المؤتمر وما أُلقي فيه من كلمات في أعداد صحيفة مصر من الإثنين ٦ مارس إلى الخميس ٩ مارس سنة ١٩١٠ . وراجع كذلك افتتاحية (العلم) عدد ٣ إبريل سنة ١٩١١ (المؤتمر القبطي) .



٤ - وضع نظام يكفل تمثيل كل عنصر مصري في المجالس النيابية .

٥ - جعل الخزينة العمومية مصدراً للإنفاق على جميع المرافق المصرية (١) .

وتولى مصطفى رياض باشا الدعوة إلى مؤتمر مصري ينظر في شؤون المصريين جميعاً - أقباطاً ومسلمين - وسماه « المؤتمر المصري » ، ولم يسمه « المؤتمر الإسلامي » توكيداً لوحدة الأمة ، وتجاهلاً للأساس الطائفي الذي قام عليه « المؤتمر القبطي » . وتم انعقاد المؤتمر برئاسة مصطفى رياض في يوم السبت ٢٩ أبريل سنة ١٩١١ ، وظل منعقداً إلى يوم الأربعاء ٤ مايو سنة ١٩١١ (٢) . وقد رجا الرئيس المجتمعين في مفتح المؤتمر أن يحكموا روح العدل وتأييد الروابط الوطنية في مداولاتهم ، وأن يكون التسامح الذي عرف عن الإسلام رائدهم فيما يقولون . وتلاه لطفي السيد بتلاوة تقرير اللجنة التحضيرية ، فأكد أن المؤتمر يبحث في المصلحة العامة ، وينظر في التوفيق بين العنصر المؤلف للوحدة المصرية التي كاد يتصدع بناؤها من جراء المؤتمر القبطي ، وأكد أن الأقلية والأكثرية في الأمم لا تقوم على أساس الدين ، ولكنها تقوم على أساس المذاهب السياسية ، وأن الأمة باعتبارها كائناً سياسياً أو نظاماً سياسياً إنما تتألف من عناصر سياسية كذلك . فأتمم مذهب من المذاهب السياسية اعتنقه أفراد أكثر عدداً وأثراً كان أكثرية ، وكان الآخر أقلية . وعلى هذا يمكن فهم الأكثرية والأقلية في كل أمة ، وليس للدين في ذلك دخل . وبين ما تنطوي عليه الاستعانة بالإنجليز من خطر على الوطن وعلى الجامعة القومية ، مما يدعو إلى الاسترابة في حسن نية القائمين به ، الذين أرادوا أن يصلوا بمعونة إنجلترا المسيحية إلى أن يكون لهم في مصر - وهم أقلية - حق السيادة على الأكثرية ، اعتماداً على الاحتلال المسيحي ، وعلى أن المصريين أخوف ما يكونون من أن

١ - مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٢٤٤ - ٢٤٥ ، صحيفة (مصر) عدد ٢٢ مارس سنة

١٩١١ (الأقباط في مصر - الجمعية العمومية في أسبوط) ، مجموعة أعمال المؤتمر المصري الأول

٢ - توفي مصطفى رياض بعد المؤتمر بقليل في ١٧ يونيو سنة ١٩١١ (مذكراتي في نصف

قرن ٢ ب : ٢٤٩) .

يرموا بالتعصب الديني . وأعلن أن المؤتمر سيبحث في عمل الأقباط وتقديره ،  
ليزن مطالبهم بميزان العدل ، وليبين النافع من الضار ، والممكن وغير الممكن ،  
ويقرر لهم ما يراه حقاً من غير أن يحوجهم إلى السعي بإخوانهم وشكايتهم  
إلى غيرهم . كما أعلن أن اللجنة التحضيرية رأت أن يتناول المؤتمر البحث أيضاً  
في المسائل الاجتماعية والاقتصادية وكل ماله علاقة بسعادة الأمة ، ما عدا  
المسائل السياسية، داخلية كانت أو خارجية ، لأن ظروف مصر لا تسمح  
بدخول المؤتمر في السياسة . ثم تتبع مطالب المؤتمر القبطي بالرد واحداً  
واحداً ، مدعماً رده بإحصائيات تبين أن نسبة القبط في الوظائف الحكومية ،  
وفي مجالس المديریات التي تدل نتائج انتخاباتها على تسامح المسلمين ، تفوق  
نسبتهم العددية بمقدار كبير ، وأن الموظفين منهم كثرة في بعض الوزارات .

وبعد أن انتهى لطفي السيد من تلاوة تقرير اللجنة التحضيرية تتابعت  
البحوث في شتى النواحي الاجتماعية والاقتصادية موزعة بين أيام انعقاد المؤتمر ،  
ابتداءً من الجلسة الثانية في مساء اليوم الأول لانعقاده .

\* \* \*

لم تكن هذه المحنة شراً خالصاً كما يبدو من هذا العرض . فقد وضعت  
هذه الخصومة السافرة حداً لسوء الظن المتبادل بين الفريقين ، وكانت تنفيساً  
شفى النفوس من الكره الكامن الدفين ، وفرصة لتصفية ما بين جيران الوطن  
من خصومة وعلاجه بطريقة صريحة . وقد بث كل منهما شكواه ، وعبر عما  
يجد ، وعاتب صاحبه عتاباً ، إن يكن عنيفاً قاسياً خشناً في بعض الأحيان ، فقد  
انتهى باعتذار كل منهما لصاحبه على كل حال . ونهض عقلاء كل من  
الطائفتين لتخفيف حدته وإقامة الأدلة على أنه لا يقوم إلا على أساس من  
الوهم وسوء الظن ، وأنه لا يفيد أحداً من المتخاصمين ، وأنه لا يعود إلا بالشر  
عليهما جميعاً ، ولا يستفيد منه إلا المحتل الدخيل الذي يمتص دماء الفريقين  
دون تمييز بين مسلم وقبطي . فقد أفاض كل من الفريقين المتخاصمين في

الكلام عن الجامعة المصرية وعن خطر تفاقم الخلاف بين عنصرها<sup>(١)</sup>. وصرح القبط بهواجسهم التي انطوت عليها نفوسهم خلال قرون طويلة، ودلوا المسلمين في صراحة على موطن الداء، فاتجهوا إلى علاجه في صراحة أيضاً، واستطاعوا أن يقيموا الدليل المادي الواضح على أن ما ذاع بين القبط من الشعور بالظلم والحرمان ليس إلا وهمماً روجته طائفة من المغالطين سيئي النية، الذين امتلأت جيوبهم وضعفت فيهم العاطفة الوطنية بانتمائهم إلى دول أجنبية، فلم يبالوا حين أيقظوا هذه الفتنة ليستفيدوا منها أن تقع أوزارها على الوطن الذي برئت قلوبهم من حبه والوفاء له. كما استطاعوا أن يقيموا الدليل على أن ما يطلبه القبط تحت ضغط المضللين المغررين ممن تزعموا حركتهم، يتعارض مع مصلحتهم هم أنفسهم ويناقضها أشد المناقضة<sup>(٢)</sup>.

ولذلك نستطيع أن نقول إن هذا الشر المستطير كان نقطة تحول في تاريخ الفكرة القومية. وإذا كان من الحق أن هذه الحصومة كانت قمة العنف في النزاع الذي ينذر بتصدع الجامعة المصرية، فمن الحق أيضاً أنها كانت في الوقت نفسه الميلاد الحقيقي لفكرة الوطنية المصرية، ونقطة البداية الصحيحة في الجامعة القومية، التي بدت بعد ذلك في أكمل مظاهرها في ثورة سنة ١٩١٩. ذلك بأن تفاقم الحصومة قد أفزع الفريقين كليهما، ونبههما إلى ما ينطوي تحته من خطر داهم، فتولدت من ذلك رغبة صادقة في جمع الكلمة، ساهم فيها المصريون من قبط ومسلمين. فهذا هو مرقص فهمي يلقي خطبة في اجتماع عقده القبط

---

١ - راجع أعداد صحيفة مصر في ١٥ فبراير سنة ١٩١٠ (تضامن العنصرين العظيمين في مصر)، ٧ فبراير سنة ١٩١٠ «الاتحاد قوة - توحيد عناصر الوطن الواحد لخدمة الوطن». وراجع كذلك في أعمال المؤتمر المصري الأول كلمات: حافظ رمضان وصالح حمدي حماد «الجلسة الثانية» وأحمد عبد اللطيف «الجلسة الثالثة».

٢ - راجع في أعمال المؤتمر المصري الأول كلمات: صالح حمدي حماد في الجلسة الثانية «تمحيص مطالب الأقباط وإزالة موجبات الشقاق» وأحمد عبد اللطيف في الجلسة الثانية «الأقلية الدينية ومجالسنا النيابية» والشيخ علي يوسف في الجلسة الرابعة «التعليم العام وحظ المسلمين والأقباط منه». وراجع كذلك جداول الإحصاء المختلفة الملحقه بأعمال المؤتمر.

بحديقة الأزبكية ، ينفي فيها عن المسلمين تهمة التعصب ، مسفهاً أقوال الذين  
يتهمون طائفة من الأمة بالاشتراك في اغتيال بطرس غالي «جُمْلَةً» ، ويحصر عمل  
الورداني في شخصه ، مؤكداً أن الجريمة التي راح ضحيتها رئيس الحكومة  
يأسف لها كل مصري مسلماً كان أو قبطياً . فيجيبه الغاياتي بقصيدته « إلى  
خطيب السلام » (١) :

خطبتَ فلم تجنح إلى شرعة الهوى	ولم تتخذ نهج الخلاف سبيلا
وأنصفتَ قوماً أنت منهم ، وإن عدا	عليهم جهول أو أعان جهولا
فما أنت قبطي يبيع بلاده	ويرضى بذن الجاهلين بديلا
وما أمة القرآن في مصر أمة	ترى أمة الإنجيل أبغض جيلا
فإننا وأنتم إخوة في بلادنا	أقمنا على دين السلام طويلا
ندود عن الأوطان إن طمَّ حادث	ونحني حماها بكرةً وأصيلا

ويختم قصيدته بتحية مرقص فهمي قائلا :

فسر في سبيل الصدق يا خير قائل	أقام على صدق الولاء دليلا
ففي ذمة الأهرام موقفك الذي	روى النيل والأهرام منه غليلا

وهذا هو واصف غالي - والقتيل أبوه - يكتب إلى إسماعيل صبري ،  
يرجوه التوسط في الصلح بين الطائفتين ، فيقول (٢) :

سعادة سيدي المفضل إسماعيل باشا صبري :

قيل إن الشعراء أنبياء ، إذ هم ساسة الأفكار وقادة الشعوب . فعسى أن  
يتبعك شعب مصر فتسلك به مسلك الحق والشرف .

والآن يجب على كل عضو من أعضاء هذه العائلة المصرية أن يعمل لما فيه  
التوفيق بين جميع العناصر ، وقد رفعت صوتي الضعيف منادياً بالاتحاد والوئام .  
على أنني لست ذلك الرجل الذي في استطاعته أن يحرك عواطف الأمة . فهل لك

١ - ديوان الغاياتي « وطني » ص ١١٣

٢ - ديوان إسماعيل صبري هامش ص ١٨٠

يا سيدي أن تبذر بذور السكينة والوفاق ، لتثبت شجرة المحبة والصفاء ، فتثمر ثمار العز والمجد للبلاد . لعمرى إن صوتك هو المسموع المجاب ، فنظمتك سحر يجمع القلوب المتنافرة . وها نحن على مقربة من تاريخ ذكرى وفاة صديقك الحميم ( ٢١ فبراير ) (١) . فهل تتفضل بنظم قصيدة تضمنها ما كنت ذكرته لي في كتابك الكريم ( مثل الأقباط والمسلمين في مصر - وهما العنصران المكونان للأمة - كمثل العينين في الوجه ، يولم اليمنى ما يولم اليسرى » . وتكملها بالدعوة إلى أن يكون حدث الفقيه العظيم كعبة يقصدها الوطنيون الصادقون ، وصلة الارتباط المتين بين الأقباط والمسلمين . وإني أشكرك من أجل ذلك باسم والدي ؛ بل بصفتي ابن (٢) حنون على وطنه وأمه ، وتفضل بقبول احترام أخيك الحافظ لك ودّ أبيه » .

٨ فبراير ١٩١١ واصف بطرس غالي

ويلبي إسماعيل صبري الدعوة فيكتب قصيدة يتحدث فيها عن مصاب المسلمين والقبط في بطرس غالي ، قائلا :

معشر القبط يا بني مصر في السّـ	رأء قد كنتُم وفي الضراء
قد فقدنا منا ومنكم كبيراً	كان بالأمس زينة الكبراء
فأقمنا عليه في كلّ نادٍ	مأتماً داوياً بصوت البكاء
ومزجنا دموعنا بدموع	بذلتها عيونكم في سخاء
ورأينا فتك الرّزيئة بالعقد	ل وفعل المصاب بالعقلاء
بارك الله فيكم أنتم النّا	س وفاء إن عُدّ أهلُ الوفاء

ثم يقول : إن الإسلام والمسيحية كليهما يأمران بالإحسان ، وينهيان عن البغي والعدوان ، وأن مصر هي أم المسلم والقبطي على السواء ، خيرها لهما إن اتحدا وتماسكا ، فإن تفرقا فكلها للأجنبي الغريب .

١ - يقصد بصديقه الحميم : والده بطرس غالي .

٢ - كذلك جاءت في النص وهي خطأ . والصواب « بصفتي ابناً حنوناً »

دينُ « عيسى » فيكم ودينُ أخيه « أحمدُ » يأمراننا بالإخاء  
وتحكمكم ما كذا تكون النصارى راقبوا اللهَ باريء « العذراء »  
مصر أنتم ونحن ، إلا إذا قا مت بتفريقنا دواعي الشقاء  
مصر ملكٌ لنا إذا تماسكنا ، وإلا فمصر للغرباء

ثم يطلب إلى المسيحيين أن يصموا آذانهم عن دعاة الشقاق الذين يبذرون  
بذور الجفاء ، فيقول :

لا تطيعوا منا ومنكم أناساً بذروا بيننا بذور الجفاء  
لا تولوا وجوهكم شطر من عكّ رَ ما في قلوبنا من صفاء  
إن دين « المسيح » يأمر بالعرُّ ف (١) وينهى عن خُطة الجهلاء  
لا يَكُنْ بعضنا لبعض عدواً لعنَ اللهُ مستيحي العداء

وتواتر شعر الشعراء ، كلما سمحت مناسبة من المناسبات ، مؤكدين صلة  
المودة والحوار التي تقوم بين المسلم والقبطي ، مذكّرين بما كان بينهم من ود  
قديم أكيد في مختلف عصور التاريخ ، مبينين أن الإسلام بريء من الذين يسيئون  
فهمه ويخرجون على تعاليمه السمحة ، فيسيئون إلى أنفسهم وإلى دينهم وإلى  
وطنهم جميعاً .

قتل بطرس غالي ، فرثاه شوقي بقصيدته :

قبرَ الوزير تحية وسلاماً الحلمُ والمعروفُ فيك أقاما (٢)

وفيهما يقول :

قد عشتُ تحدث للنصارى ألفةً وتُجِدُّ بين المسلمين وثاماً  
واليومَ فوقَ مشيدِ قبرِكَ ميّتاً وجَدَ الموفقُ للمقالِ مقاماً  
الحقَّ أبلج كالصباح لناظرٍ لو أن قوماً حكّموا الأحلاماً

١ - العرف « بضم العين » : المعروف

٢ - الديوان ٣ : ١٤٤

أَعْهَدْتَنَا وَالْقَبْطَ إِلَّا أُمَّةً  
نُعَلِّي تَعَالِيمَ الْمَسِيحِ لِأَجْلِهِمْ  
الَّذِينَ لِلدِّيَّانِ جَلَّ جَلَالُهُ  
يَاقُومُ بَانَ الرُّشْدَ فَاقْصُوا مَا جَرَى  
هَذَا رَبُّوعُكُمْ وَتِلْكَ رُبُوعُنَا  
هَذَا قُبُورُكُمْ وَتِلْكَ قُبُورُنَا  
فَبِحَرَمَةِ الْمَوْتَى وَوَجِبِ حَقِّهِمْ  
وَتَوَجَّهْ إِلَى الْقَبْطِ بِقَصِيدَتِهِ :

بَنِي مِصْرَ إِخْوَانِ الدُّهْرِ رُؤُوسُكُمْ  
وَفِيهَا يَقُولُ :

تَعَالَوْا عَسَى نَطْوِي الْخِطَاءَ وَعَهْدَهُ  
أَلَمْ تَكُ (مِصْرُ) مَهْدُنَا ثُمَّ تَلَحُّدُنَا  
أَلَمْ نَكُ مِنْ قَبْلِ الْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمَ  
فَهَلَّا تَسَاقِينَا عَلَى حَبَّةِ الْهَوَى  
وَمَا زَالَ مِنْكُمْ أَهْلُ وُدٍّ وَرَحْمَةٍ  
فَلَا يَشْنِكُمْ عَنْ ذِمَّةٍ قَتْلُ بَطْرُسَ  
وَرِثَاهُ إِسْمَاعِيلُ صَبْرِي بِقَصِيدَتِهِ :

لَهْفَ الرِّيَاسَاتِ عَلَى رَاحِلِ  
وَفِيهَا يَقُولُ :

عَيْتِي فَيْكَ الْيَوْمَ قَبْطِيَّةَ  
يَهِيمٍ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ لَوْعَةٍ

لِلْأَرْضِ وَاحِدَةً تَرُومُ مَرَامَا  
وَيُوقَرُونَ لِأَجْلِنَا الْإِسْلَامَا  
لَوْ شَاءَ رَبُّكَ وَحَدَّ الْأَقْوَامَا  
وَخَذُوا الْحَقِيقَةَ وَانْبَذُوا الْأَوْهَامَا  
مُتَقَابِلِينَ نَعَالِجُ الْآيَامَا  
مُتَجَاوِرِينَ جَمَاجِمَا وَعِظَامَا  
عَبَسُوا كَمَا يَقْضِي الْجَوَارُ كِرَامَا

هَبْوه يَسُوعَا فِي الْبَرِيَّةِ ثَانِيَا (١)

وَنَنْبُذُ أَسْبَابَ الشَّقَاقِ نَوَاحِيَا  
وَبَيْنَهُمَا كَانَتْ لِكُلِّ مَغَانِيَا (٢)  
وَمُوسَى وَطَهَ نَعْبُدُ النَّيْلَ جَارِيَا  
وَهَلَّا فَدَيْتَنَاهُ ضَفَافَا وَوَادِيَا  
وَفِي الْمُسْلِمِينَ الْخَيْرُ مَا زَالَ بَاقِيَا  
فَقِدْمَا عَرَفْنَا الْقَتْلَ فِي النَّاسِ فَاشِيَا (٣)

قَدْ كَانَ مِلءُ الْعَيْنِ وَالْمُسْمَعِ (٤)

تَرُوي الْأَسَى عَنْ مُسْلِمٍ مُوَجَّعٍ  
فِي الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ مِنْ أَضْلَعِي

١ - الديوان ٤ : ٣٩

٢ - غني القوم بالمكان « على وزن علم » : أقاموا . والمفنى « بوزن اسم المكان » مكان الإقامة ، والجمع مغاني :

٣ - الذمة : العهد . يقول لهم : لا يحملنكم قتل بطرس على العدول عما كان بينكم وبين المسلمين من تواصل وتراحم .

٤ - الديوان ص ٢١٨

وَيَأْخُذُ الْبِرَّ وَآيَ الْوَفَا  
عَنِ الْكِتَابِ الطَّيِّبِ الْمَشْرِعِ (١)  
ورثاه نسيم بقصيدته : (٢)

إجعل عزاءك في الوزير جميلاً  
أودى فغادر للطوائف مقبلاً  
أجرت يد القدر الرهيب دماءه  
لو كان في شعري أزهير نُجَّتَنِي  
والله لولا داء قلبي ما غدا  
لقطفتها وجعلتها إكليلاً  
أعزُّ علينا أن يموت قتيلاً  
تبكي الوزارة والدم المظلوماً  
حمراء تحكي العسجد المحلولا  
قلمي بغير رثائه مشغولاً

وقد تجاهل فيها الخلاف بين عنصري الأمة فلم يشر إليه ، وانصرف في  
معظم القصيدة إلى تهنئة محمد سعيد بالوزارة والإشادة بفضله وما يعلق عليه  
المصريون من آمال .

ورثاه ولي الدين يكن بقصيدة تزيد عن ستين بيتاً بدأها بقوله :

أبدأ ترامي غيرها وتُرَادِي أَكْذَا أَعَادِي الْأَكْرَمِينَ تُعَادِي (٣)

ولم يشر في قصيدته إلى خلاف المسلمين والقبط ، ولكنه هاجم بعض رجال  
الحزب الوطني في قسوة ، واتهمهم بإثارة الفتنة وبسوء القصد . ورثاه من قبل  
ذلك في مقال عنيف نشر في صحيفة « المقطم » عنوانه « بطرس غالي في موكبه  
الآخر » (٤) .

يقول فيه مهاجماً الحزب الوطني وصحفه :

« حَسْبُهُمُ اللَّهُ . أَقْلَقُوا النَّيَامَ فِي مَضَاجِعِهِمْ ، وَأَتَعَبُوا الرَّائِحِينَ وَالْغَادِينَ فِي  
طَرَقَاتِهِمْ ؛ وَدَوَّتْ صِيحَاتُهُمْ فِي الْأَذَانِ حَتَّى كَادَتْ تُصِمُّهَا . أَعْوَلُوا ثُمَّ أَعْوَلُوا :  
لِيَحْيَ الدِّسْتُور ! لِيَحْيَ الدِّسْتُور ! لِيَحْيَ فَلَان ! .. وَيَسْقُطُ فَلَان !

١ - المشرع : المنهل . ويقصد بالكتاب الطيب المشرع القرآن الكريم .

٢ - الديوان ٢ : ٣٤

٢ - الديوان ص ٦٦

٤ - الصحائف السود ص ١٠١



أمن أجل هذا كانوا يريدون الدستور؟<sup>(١)</sup>

قام بالأمس أحد قراء سورة يوسف ، فأصدر جريدة دينية جديدة ليجعلها إحدى البلايا على الدين وبنيه<sup>(٢)</sup>. ماذا تريد بطبلك يا هذا المطبل ؟ . . . أنبي أنت أم إمام أم فقيه أم سياسي أم أديب ؟ ! . . . أم ثرثرة تريد النعيق على أطلال بلد لست من أهله<sup>(٣)</sup> ؟ . حسبك واحدة أرثنا نفثاتك. تلك نفثات ستفـير غداً منها ، وستظل هي على أثرك ، وإن الله لبالمرصاد .

ودافع في آخر المقال عن بطرس غالي فيما اتهمه به الحزب الوطني فقال : « ماذا جنى هذا الفقيد المظلوم ؟ . . صاح أكثرهم مذكراً بجادث دنشواي . وتشدق آخرون باتفاق إنكلترا ومصر على السودان . وشكا غيرهم من قانون المطبوعات . وهل كان للوزير هذا القدر من التفرد بالإدارة والخيـار في الفعل ؟ . . ومن أهاج أهل دنشواي ؟ . . ومن أتى بقانون المطبوعات ؟ . . سائلوا تلك الجرائد التي تود أن توقع البلد في الهلاك ، عسى أن توافيكم بجواب سديد . »

ثم دافع عن القبط قائلاً :

الأقباط هم أولو مصر قبل كل مصري . ما زال الجور يتصيدهم حتى قتلوا عدداً ووفرتم ، وخسروا وكسبتم . ثم من الله بعدله ، فقالوا « نحن إخوان » أفلا تريدون أن تكونوا لهم إخواناً ؟ . . فما لهذه البرائن إذن داميات ! وقصيدة الشاعر ومقاله ليسا علاجاً للموقف كما ترى . وربما خفف من وقعهما أنهما صدرا من شاعر مسلم . ولكن الرجل كان معروفاً بتحيزه للإنجليز كما سيجي .

١ - كانت المطالبة بالدستور وقتذاك على أشدها . وكان الحزب الوطني هو المتزعم لهذه الحركة .

٢ - يعرض بالشيخ عبد العزيز جاويش ، ويقصد بصحيفته مجلة « الهداية » ، التي صدر العدد الأول منها في فبراير سنة ١٩١٠ ، فوافق قتل بطرس غالي .

٣ - يشير إلى أن عبد العزيز جاويش من أصل مغربي . والمجيب أن ولي الدين يكن تركي وليس مصرياً خالصاً ، وقد كان صديقاً للإنجليز كما بينا في الفصل السابق . وصحيفة « المقطم » التي نشر فيها المقال صحيفة استعمارية كما هو معروف .

وأحجم كثير من الشعراء وقتذاك عن رثاء الرجل لما أحاط بموته من شبه  
ومااتهم به من مشايعة الإنجليز ضد مصلحة الوطن. فسكت حافظ ومحرم والكاشف  
وعبد المطلب . ولكن بعضهم شارك بعد ذلك في مناسبات أخرى فساهم  
في رأب الصدع وجمع الصفوف .

وكان محرم أكثر الشعراء شعراً في هذه المناسبات ، وأشدهم تحمساً في  
الدعوة إلى التوفيق ، والتحذير من الكارثة التي توشك أن تحل بالمسلم والقبطي  
فتعمهما على السواء .

يقول في قصيدته « تفرق المذاهب » مخاطباً القبط (١) :

بني وطني ، مَنْ يَرْتَدِ الشَّرَّ يُلْقِهِ	وإن راقه يوماً رداءً مسمماً
بني وطني ، إن الأمور سيماتها	تَبِينُ . وإن الرأي أن نتوسمًا
بني وطني ، مالي أراكم كأنما	تَرُونَ السَّبِيلَ الوَعْرَ أَهْدَى وَأَقْوَمًا
أَئِنَّ قَامَ يَنْهَاكُم عَنِ الْغَيِّ رَاشِدٌ .	غَضِبْتُمْ وَقَلْتُمْ خَائِنٌ رَامَ مَغْنَمًا ؟
تعالوا إلينا ، إنما نحن إخوة	وإن انبثات الحبل أن يتفصمًا
تعالوا إلينا ، إنما نحن إخوة	وإني رأيتُ الأخذَ بالرفق أحزمًا
وإن سبيلنا سواء ، وكلنا	بنو مصر نأبى أن تضام وتَهْضَمَا
وما العارُ إلا أن تَظَلَّ أَخِيذَةً	وتبقى مدى الأيام تنهباً مُقَسَمَا

ويختم القصيدة بقوله :

تُفَرِّقُنَا الأديانُ واللهُ واحدٌ	وكل بني الدنيا إلى آدم انتمى
وَسَاوِسُ ظِلِّ الشَّرْقِ فِيهَا مَصْفَدًا	فما مملكُ الشرقي أن يتقدما
بني الشرق لا يَصْرَعُكُمُ الدينُ إنني	أرى الغرب لولا الجُدُ والعلم ما سَمَا
سَلُوهُ إِذَا رَامَ الْفَرِيسَةَ فَاثْتَحَى	أَبْرَعَى مَسِيحِيًّا وَيَرْحَمَ مُسْلِمًا ؟ !
هو الموتُ أَوْ تَسْتَجْفِلُ الشَّرْقَ رَجْفَةً	تَزْلُزِلُ صَرْعَى مِنْ بَنِيهِ وَنُومًا

ويقول في قصيدته « الحلفُ واللجاج » (٢) :

١ - الديوان ٢ : ٨٩ - ٩٤

٢ - الديوان ٢ : ١١٤

يا أمة القبط - والأجيالُ شاهدةٌ  
هذي موافقنا في الدهرِ ناطقةٌ  
لا تظلموا الدينَ . إن الدينَ يأمرُنا  
منّا ومنكم رجالٌ لا حلومَ لهم  
أنتم لنا إخوةٌ لا شيءٌ يبعدنا  
ليس اللجاجُ يمدُّن من رغائبنا  
يا ويح مصر الخلف لا ركود له  
ولو تآلف أهلُوها لما بقيت  
يا قومُ ماذا يفيد الخلفُ ؟ فاتفقوا  
صونوا العهود وكونوا أمة عرفت  
يا قوم لا تغفلوا إن العدو له

بما لنا ولكم من صادق الذم  
فاستنبثوها تريحونا من التهم  
بما علمتم من الأخلاق والشيم  
ولا يفيشون للأديان والحرم  
عنكم ، على عنت الأقدار والقسم  
ولا الشقاق بمجدينا سوى الندم  
إلا ليغصيف بالأقطار والأمم  
من حاجة في ضمير النيل والهرم  
وقوموا أمركم بالحزم يستقيم  
معنى الحياة فلم تعسف ولم تهم  
عين تراقب منكم زلة القدم

ويقول في قصيدته « بين المأربين » (١) :

كذب الوشاة وأخطأ اللوامُ  
حبٌ تجدد الحادثات عهوده  
وصل الملقوقس بالنبي حباله  
وجرى عليه خليفة فخليفة  
لا تنشدوا العهد المؤكد بيننا  
الدينُ لله العلي وإنما  
إن كان للواشي المفرق مأرب  
أنظّل صرعى والشعوب حشيثة ؟

أنتم أولوا عهد ونحن كرامُ  
وتزيد في حرّماته الأيامُ  
فإذا الحبال كأنها أرحام (٢)  
وإمامٌ عدلٌ بعده فإمامُ  
النيل عهدٌ دائمٌ وذمامُ  
دينُ الحياة تودّدٌ ووثامُ  
فلنا كذلك مأربٌ ومرامُ  
ونعيش فوضى والحياة نظامُ ؟

١ - الديوان ٢ : ١١٩

٢ - يشير إلى هدية المقوقس للرسول صلوات الله عليه ، حين دعاه إلى الإسلام ، فرد عليه بإهدائه مارية القبطية التي تزوجها النبي وولدت له ولده إبراهيم .

ويقول في قصيدته «دنيا الممالك» (١) :

يا أمة الإنجيل آمنا به      ما بالنبي ولا يسوع جُحودُ  
الدين في أمرٍ ونهيٍ واحدٍ      والله جلّ جلاله المعبودُ  
دنيا الممالك لا تُحدّ . ودينها      وقفّ على ديانها محدودُ  
درج الزمان على المودة بيننا      وأراه ينقص والإخاء يزيدُ  
براً بمصر . ومصرُ أعظم حرمةً      من أن يضيع رجاؤها المنشودُ  
شدوا القلوب على الإخاء فإنها      مصرٌ وإن بلاءها لشديدُ  
أنرى الممالك كل يوم حولنا      تسعى ونحن على الرجاء قعود ؟ !  
الأمر مشترك ومصرُ لنا معاً      في العالمين منازلُ ولُحودُ  
والنيلُ ، إن حمل القذا وإذا صفا      فهو الحياةُ ووردُها المورودُ  
أنحون أنفسنا ونفسد أمرنا      أن قال وأش أواراد حسودُ ؟  
زعم العدي أنا نعتُ بلادنا      زعم لعمرُ الأمتين بعيودُ

وينتزه حافظ عودة الحديوي عباس من دار الخلافة سنة ١٩١١ ، فيشير في قصيدته التي هناها بها إلى خلاف المسلمين والقبط ، داعياً إياه إلى تلافيه حيث يقول (٢) :

مولاي ! . أمتك الوديعة أصبحت      وعمرى المودة بينها تتفصمُ  
نادى بها القبطي ملء كهاته      أن لا سلام وضاق فيها المسلمُ  
وهم أغار على النهى وأضلّها      فجرى الغي وأقصر المتعلم (٣)

١ - الديوان ٢ : ١٢٠ - ١٢٣ . وراجع كذلك قصائده في (الإخاء الوطني ٢ : ١١٣) (العام الهجري الجديد ٢ : ١٢٤) .

٢ - الديوان ١ : ٢٩١ . وحافظ من أقل الشعراء مساهمة في هذا الباب . ليس له فيه إلا هذه الأبيات .

٣ - يقول : جرى الأغبياء وقصار النظر إلى إشعال الفتنة ، بينما كف المتعلمون وذوو النظر عن إخمادها وتلافيتها .

فهِيمُوا مِنَ الْأَدْيَانِ مَا لَا يَرْضَى  
 مَاذَا دَهَا قِبْطِيَّ مَصْرَ فَصْدَه  
 وَعِلَامَ نَحْشِي الْمُسْلِمِينَ وَكَيْدَهُمْ  
 قَدْ ضَمَّنَا أَلَمَ الْحَيَاةِ وَكَلَّنَا  
 إِنِّي ضَمِّينُ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعِهِمْ  
 رَبِّ الْأَرِيكَهْ إِنَّنَا فِي حَاجَةٍ  
 فَأَفِضْ عَلَيْنَا مِنْ سَمَائِكَ حِكْمَةً  
 وَاجْمَعْ شَتَاتَ الْعَنْصَرِينَ بِعَزْمَةٍ  
 فَكَلَاهُمَا لِعَزِيزِ عَرْشِكَ مُخْلِصٌ

دِينٌ وَلَا يَرْضَى بِهِ مَنْ يَفْقَهُمْ  
 عَنْ وَدِّ مُسْلِمِهَا وَمَاذَا يَنْقِمُ؟  
 وَالْمُسْلِمُونَ عَنِ الْمَكَايِدِ نَوْمٌ؟  
 يَشْكُو، فَنَحْنُ عَلَى السَّوَاءِ وَأَنْتُمْ  
 أَنْ يَخْلَصُوا لَكُمْ إِذَا أَخْلَصْتُمْ  
 لِحَمِيلِ رَأْيِكَ وَالْحَوَادِثُ حَوْمٌ (١)  
 تَأْسُو الْقُلُوبَ فَإِنْ رَأْيِكَ أَحْكَمُ  
 تَأْتِي عَلَى هَذَا الْخِلَافِ وَتَحْسِمُ  
 وَكَلَاهُمَا بِرِضَاكَ صَبٌّ مُغْرَمٌ

وَمَيِّتَ مُصْطَفَى رِيَاضِ الَّذِي رَأَسَ الْمُؤْتَمَرَ الْمِصْرِيَّ سَنَةَ ١٩١١ بَعْدَ الْمُؤْتَمَرِ  
 بِشَهْرٍ وَبَعْضُ شَهْرٍ فِي ١٧ يُونِيهِ سَنَةَ ١٩١١، فِيرِثُهُ كَثِيرٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ . وَلَا يَفُوتُ  
 شَوْقِي أَنْ يَشِيرَ فِي رِثَائِهِ إِلَى سَعْيِهِ الْمَشْكُورِ فِي إِطْفَاءِ الْفِتْنَةِ ، حَيْثُ يَقُولُ : (٢)

طَلَعْتَ عَلَى النَّدَى «بَعِينَ شَمْسٍ»  
 عَلَى مَا كَانَ يَنْدُو الْقَوْمُ فِيهَا  
 تَمَلَّكَهُمْ وَقَارُكَ فِي خُشُوعٍ  
 رَأَيْتُ وَجْهَهُ قَوْمِيكَ كَيْفَ جَلَّتْ  
 تَقُولُ : مَتَى أَرَى الْجِرَانَ عَادُوا  
 وَأَنْ أُولُو النُّهْيِ مِنَّا وَمِنْهُمْ ؟  
 مَشَتْ بَيْنَ الْعَشِيرَةِ رُسُلٌ شَرَّ  
 إِذَا الثَّقَةُ اضْمَحَلَّتْ بَيْنَ قَوْمٍ  
 بَنِي الْأَوْطَانِ هُبُّوا ثُمَّ هُبُّوا

فَوَافَتْهَا بِشَمْسَيْنِ الْغَدَاةُ  
 تَوَافَى الْجَمْعُ وَائْتَمَرَ السَّرَّاءُ  
 كَمَا نَظَّمْتَ مَقَامِهَا الصَّلَاةُ  
 وَكَيْفَ تَرَعَرَعْتَ مِصْرَ الْفِتَاةُ  
 وَضُمَّ عَلَى الْإِخَاءِ لَهُمْ شَتَاتٌ ؟  
 عَسَى يَأْسُونَ مَا جَرَحَ الْغُلَاةُ  
 وَفَرَّقَتْ الظُّنُونُ السَّيِّئَاتُ  
 تَمَزَّقَتْ الرُّوَابِطُ وَالصَّلَاتُ  
 فَبَعْضُ الْمَوْتِ يَجْلِبُهُ السُّبَّاتُ

- ١ - الْحَوَادِثُ حَوْمٌ : أَيِ تَحْوِمُ حَوْلَنَا وَتَطُوفُ بِنَا .
- ٢ - الدِّيْوَانُ ٣ : ٤٧ وَقَدْ تَفَرَّدَ شَوْقِي بِالْإِشَارَةِ إِلَى الْمُؤْتَمَرِ الْمِصْرِيِّ بَيْنَ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ رَثَوْهُ وَتَعَمَّلُوا أَنْ يَهْرَبُوا مِنَ الْمَوْضُوعِ وَيَتَجَاهَلُوهُ .

مشى للمجد خَطَفَ البرقِ قومٌ      ونحن إذا مشينا السُّلْحَفَاةُ  
يُعِدُّونَ القُوَى بَرًّا وبحسراً      وعُدَّتْنَا الأُمَاني الكاذباتُ

وَمُوتَ جُرْجِي زِيدَانُ سَنَةَ ١٩١٤ . فَيَتَهَيَّزُ شَوْقِي هَذِهِ الْفُرْصَةَ ، وَيَشِيرُ فِي  
رِثَائِهِ إِلَى أَنَّ الْأَدِيَانَ إِنَّمَا نَزَلَتْ لِهَدَايَةِ النَّاسِ . فَمِنْ فُسَادِ الرَّأْيِ أَنْ نَجْعَلَهَا بَاباً  
لِلشَّرِّ . وَإِنَّمَا يَتَّبِعُ النَّاسُ آبَاءَهُمْ فِي أَدِيَانِهِمْ ، وَيَرِثُونَ الْعَقِيدَةَ فِيمَا يَرِثُونَ مِنْ  
مُخْلَفَاتِ الْأَجْدَادِ : (١)

كَمَالِكُ الشَّرْقِ أَمْ أَدْرَاسُ أَطْلَالُ؟      وَتِلْكَ دَوْلَاتُهُ أَوْ رَسْمُهَا الْبَالِي؟  
أَصَابَهَا الدَّهْرُ إِلَّا فِي مَسَائِرِهَا      وَالدَّهْرُ بِالنَّاسِ مِنْ خَالٍ إِلَى خَالٍ  
وَصَارَ مَا نَتَغَنَّى مِنْ مَحَاسِنِهَا      حَدِيثُ ذِي مَحَنَةٍ عَنْ صَفْوَةِ الْخَالِي  
إِذَا جَفَا الْحَقُّ أَرْضاً هَانَ جَانِبُهَا      كَانَتْهَا غَابَةً مِنْ غَيْرِ رِثْبَالٍ  
وَإِنْ تَحَكَّمَتْ فِيهَا الْجَهْلُ أَسْلَمَهَا      لِفَاتِكٍ مِنْ عَوَادِي الذَّلِّ قَتَالٍ  
نَوَابِغَ الشَّرْقِ هَزَّوهُ لَعَلَّ بِهِ      مِنَ اللَّيَالِي جَمُودَ الْيَأْسِ السَّالِي  
إِنْ تَنَفَّخُوا فِيهِ مِنْ رُوحِ الْبَيَانِ وَمِنْ      حَقِيقَةِ الْعِلْمِ يَنْهَضُ بَعْدَ إِعْضَالِ  
لَا تَجْعَلُوا الدِّينَ بَابَ الشَّرِّ بَيْنَكُمْ      وَلَا مَحَلَّ مُبَاهَاةٍ وَإِدْلَالِ  
مَا الدِّينُ إِلَّا تَرَاثُ النَّاسِ قَبْلَكُمْ      كُلُّ أَمْرٍ لِأَيِّهِ تَابِعٌ تَالِي  
لَيْسَ الْغُلُوفُ أَمِيناً فِي مَشُورَتِهِ      مَنَاهِجُ الرُّشْدِ قَدْ تَخَفَى عَلَى الْغَالِي

وَيَرْجَمُ وَاصِفُ غَالِي - ابْنُ بَطْرُسْ غَالِي - بَعْضَ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ إِلَى الْفَرَنْسِيَّةِ ،  
وَيَنْشُرُ التَّرْجُمَةَ فِي بَارِيْسِ فِي كِتَابِ سَمَاءِ « رَوْضِ الْأَزْهَارِ » ، وَيُلْقِي بَعْضَ  
الْمَحَاضِرَاتِ هُنَاكَ فِي الْإِشَادَةِ بِفَضْلِ الشَّرْقِ وَالشَّرْقِيِّينَ ، فَيَقِيمُ الْمَصْرِيِّونَ حَفْلًا  
بِفَنْدُقِ « شِبْرَد » فِي مَسَاءِ ٤ يُونِيَّةِ سَنَةِ ١٩١٤ بِرِيَاسَةِ إِسْمَاعِيلِ ضَبْرِي (٢) .  
وَيَسَاهِمُ شَوْقِي فِي هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ بِقَصِيدَتِهِ « يَا شَبَابَ الدِّيَارِ » . وَفِيهَا يَقُولُ (٣) :

١ - الدِّيَوَانُ ٣ : ١٢٤

٢ - مَذَكِّرَاتِي فِي نِصْفِ قَرْنِ ٢ ب : ٣٢١

٣ - الدِّيَوَانُ ١ : ٢٣٥

يا بني مصر، لم أقل أمة القبط  
واحتيال على خيال من المجذ  
إنما نحن - مسلمين وقببطاً -  
سبَقَ النيلُ بالأبوّةِ فينا  
نحن من طينةِ الكريمِ على الدّ  
مرّ ما مرّ من قرون علينا  
وانقضى الدهرُ بين زغردةِ العُرّ  
ما تحلى بكم يسوع ولا كنّا  
وتضاعُ البلادُ بالنوم عنها وتضاعُ الحقوقُ بالإهمال

ويتجه في آخر قصيدته إلى شباب مصر، مسلمين وقببطاً ، يذكرهم بواجبهم نحو وطنهم ، وبأنهم موضع الأمل في النهضة به، فيقول :

يا شباب الديار مصرُ إليكم  
كلّما رُوِّعَتْ بشبهةِ يئاسٍ  
هيئوها لما يليق بمتنفّ  
هيئوها لما أراد « علي »  
وانهضوا نهضةَ الشعوبِ لدنيا  
ولواء العرّين للأشبال  
جعلتكم معاقل الآمال  
وكريم الآثار والأطلال  
وتنمى على الطُّبى والعوالي  
وحياة كبيرة الأشغال

١ - يشير إلى ما كان يردده القبط من أنهم هم سلالّة الفراعنة، وما يزعمونه من أن القبط تطلق على المصريين جميعاً . فهناك قبطي مسلم وقبطي مسيحي . ويراجع في ذلك على سبيل المثال نص المحاضرة التي ألقاها شكري صادق في حفلة جمعية التوفيق ، وموضوعها « الفنون القبطية وعلاقتها بالفنون الأخرى » . وقد نشرتها صحيفة « مصر » في أعداد ٣٠ يناير ، ٣١ يناير ، وأول فبراير سنة ١٩١٠

٢ - يقول للمسلمين والقبط : لم هذا التعصب ، وليس أحد منكم هو خير أمة نبيه ، فليس القبط هم أخلص أتباع المسيح ، ولا هم خير من ينفذ شريعته . وليس المسلمون من المصريين هم خير أمة محمد ولا هم أحرص المسلمين على إقامة شعائر الإسلام . والأولى لكل منهما أن يقيم دينه ويمارسه بدل أن يتخذ أداة للشر وسبباً للنزاع .

وإلى الله من مشى بصليب في يديه ومن مشى بهلال  
ويساهم حافظ في الحفل بقصيدته : (١)

يا صاحب الروضة الغناء هجّت بنا ذكري الأوائل من أهل وجيران  
ويكتفي فيها بالإشارة إلى فضل المحتفل به وإخلاصه لمصريته .

ويساهم إسماعيل صبري - رئيس الحفل - في هذه المناسبة بقصيدة قصيرة (٢) :  
أي صوت حبيته بالأمس بارئ من مقتر العلوم والعلماء  
وهو فيها كصاحبه حافظ ، فضل أن يتجاهل وجود الخلاف القائم بين  
عنصري الأمة ، واكتفى بالثناء على واصف غالي ، والإشادة بمجهوده الأدبي .

\* \* \*

كان هذا الشقاق إذن محنة امتحنت بها الجامعة المصرية الناشئة فثبتت لها .  
وكان فرصة مواتية لكلام كثير قيل في تثبيت دعائم القومية المصرية . وليس من  
الإسراف في الاستنتاج ، ولا هو من الغلو في القول ، أن نقرر أن الوحدة  
الرائعة بين عنصري الأمة ، التي بدت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في سنة  
١٩١٩ ، لم تكن إلا ثمرة لهذه الجهود المخلصة التي بذلت في رأب الصدع ،  
وتوثيق الصلات ، وإزالة الأوهام ، وتصحيح فهم التدين . الذي لم يزل الجهل  
يأخذ بزمامه ، والعصبية العمياء تركبه ، حتى تردت به في فتنة هوجاء ، يبرأ  
منها إلى الله كل دين .

١ - الديوان ١ : ٦٣

٢ - الديوان ص ٨٤



## الفصل الرابع

### تيارات سياسية

كانت الثورة العرابية بداية تحول خطير في الوعي السياسي المصري ، فقد كثر فيها الكلام عن حقوق المصريين وعن الحياة النيابية وعن الحد من سلطان الحاكم ومراقبة تصرفاته . وكان أخطر ما تنطوي عليه من دلالة أنها مظهر لثقة المصريين بأنفسهم وبقدرتهم على فرض إرادتهم ، وبجيشهم وبقدرته على الصمود في وجه الأجنبي .

والواقع أن ثورة الأفكار والتطلع إلى الحرية والنظم النيابية كانت قد بدأت منذ أواخر عهد إسماعيل ، واتسع مداها في أوائل عهد توفيق . فأخذت مصر تتطلع إلى نظام جديد يضع حداً للإسراف وللنفوذ الأجنبي ، ويوطد أركان العدل والحرية والدستور <sup>(١)</sup> .

وبدأت مظاهر هذه الثورة الكامنة التي تريد أن تعبر عن نفسها في صور مختلفة . فقد بلغت جرأة الصحف في معارضة الحكومة حداً لم يألفه الناس ولم يعرفه الحاكمون من قبل . وأصبحنا نسمع للمرة الأولى في تاريخ مصر الحديث عن تعطيل الصحف واضطهاد رجال الصحافة <sup>(٢)</sup> . وكثر حديث الناس عن

١ - الثورة العرابية ص ١٩ .

٢ - مثل صحف : « مصر » و « التجارة » و « مصر الفتاة » - الثورة العرابية ص ٦٩ ، زعماء الإصلاح ٣٠٠ ، ٣٠١ .

الظلم والظالمين . وجهر الثوار بأرائهم الجريئة التي صادفت هوى في النفوس . وانطلق جمال الدين الأفغاني يشحن قلوب تلاميذه ومريديه بالثورة على الأوضاع السائدة ، ويوقظ فيهم روح الحمية والأنفة بما يلقي إليهم من مثل قوله : (١) « إنكم معاصر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وريتم بحجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الحسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتترف قوام حياتكم ومواد غذائكم ، المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم ، بالمقرعة والسوط ، وأنتم في غفلة معرضون . فلو كان في عروقكم دم فيه كريّات حياة ، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ، ولما صبرتم على هذه الضعة والحمول ، ولما قعدتم على الرّمضاء وأنتم ضاحكون . تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيين والمماليك والعلويين ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمية ، ويهيف عظامكم بأداة عسفة ، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة ، لا حس لكم ولا صوت . انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط ، شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم .

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرشيد فلاح  
هبوا من غفلتكم . اصحوا من سكرتكم . انفضوا عنكم غبار الغباوة

١- تاريخ الإمام ١ : ٤٦ . ومن المعروف أن جمال الدين الأفغاني أحد دعاة الماسونية في مصر . وأنه قد ضم إليها تلاميذه المقربين الذين لعبوا الدور الأول في تهيج الناس وعلى رأسهم محمد عبده وأديب إسحق . كما ضم إليها عدداً من الكبراء والوجهاء منهم ولي العهد توفيق باشا ، ومن المعروف أيضاً أن بعض زعماء الثورة مثل البارودي - كان ماسونياً . وأن المستر بلنت كان على صلة بزعماء الثورة كما هو ثابت في مذكراته . ولذلك فستظل صلة الثورة العرابية بالماسونية وبالصهيونية العالمية سؤالا يحتاج إلى جواب وتعمزه الأدلة الصريحة القاطعة . أما جمال الدين الأفغاني فقد كان رجلاً مريباً ، له أهداف خطيرة تختلف عما يتظاهر به من أغيرة على الاسلام . وفي كتابي « الاسلام والحضارة الغربية » تفصيل أكثر عنه .

## الفصل الرابع

### تيارات سياسية

كانت الثورة العرابية بداية تحول خطير في الوعي السياسي المصري ، فقد كثر فيها الكلام عن حقوق المصريين وعن الحياة النيابية وعن الحد من سلطان الحاكم ومراقبة تصرفاته . وكان أخطر ما تنطوي عليه من دلالة أنها تظهر لشقة المصريين بأنفسهم وبقدرتهم على فرض إرادتهم ، وبجيشهم وبقدرته على الصمود في وجه الأجنبي .

والواقع أن ثورة الأفكار والتطلع إلى الحرية والنظم النيابية كانت قد بدأت منذ أواخر عهد إسماعيل ، واتسع مداها في أوائل عهد توفيق . فأخذت مصر تتطلع إلى نظام جديد يضع حداً للإسراف وللنفوذ الأجنبي ، ويوطد أركان العدل والحرية والدستور <sup>(١)</sup> .

وبدأت مظاهر هذه الثورة الكامنة التي تريد أن تعبر عن نفسها في صور مختلفة . فقد بلغت جرأة الصحف في معارضة الحكومة حداً لم يألفه الناس ولم يعرفه الحاكمون من قبل . وأصبحنا نسمع للمرة الأولى في تاريخ مصر الحديث عن تعطيل الصحف واضطهاد رجال الصحافة <sup>(٢)</sup> . وكثر حديث الناس عن

١ - الثورة العرابية ص ١٩ .

٢ - مثل صحف : « مصر » و « التجارة » و « مصر الفتاة » - الثورة العرابية ص ٦٩ ، زعماء الإصلاح ٣٠٠ ، ٣٠١ .

الظلم والظالمين . وجهر الثوار بأرأهم الجريئة التي صادفت هوى في النفوس . وانطلق جمال الدين الأفغاني يشحن قلوب تلاميذه ومريديه بالثورة على الأوضاع السائدة ، ويوقظ فيهم روح الحمية والألفة بما يلقي إليهم من مثل قوله : (١) « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وريتم بحجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحن وتعنون لو طأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الحسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتنترف قوام حياتكم ومواد غذائكم ، المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم ، بالمقرعة والسوط ، وأنتم في غفلة معرضون . فلو كان في عروقكم دم فيه كريات حياة ، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ، ولما صبرتم على هذه الضعة والحمول ، ولما قعدتم على الرعضاء وأنتم ضاحكون . تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيين والمماليك والعلويين ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمية ، ويهيف عظامكم بأداة عسفة ، وأنتم كالصخرة الملقاة في القلابة ، لا حس لكم ولا صوت . انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط ، شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم .

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرشيد فلاح  
هبوا من غفلتكم . اصحوا من سكرتكم . انفضوا عنكم غبار الغباوة

١ - تاريخ الإمام ١ : ٤٦ . ومن المعروف أن جمال الدين الأفغاني أحد دعاة الماسونية في مصر . وأنه قد ضم إليها تلاميذه المقربين الذين لعبوا الدور الأول في تهيج الناس وعلى رأسهم محمد عبده وأديب إسحق . كما ضم إليها عدداً من الكبراء والوجهاء منهم ولي العهد توفيق باشا ، ومن المعروف أيضاً أن بعض زعماء الثورة مثل البارودي - كان ماسونياً . وأن المستر بلنت كان على صلة بزعماء الثورة كما هو ثابت في مذكراته . ولذلك فستظل صلة الثورة العرابية بالماسونية وبالصهيونية العالمية مؤالا يحتاج إلى جواب وتموزه الأدلة الصريحة القاطعة . أما جمال الدين الأفغاني فقد كان رجلاً مريباً ، له أهداف خطيرة تختلف عما يتظاهر به من الغيرة على الاسلام . وفي كتابي « الاسلام والمضادة الغربية » تفصيل أكثر عنه .

والحمول . عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء ، أو موتوا مأجورين شهداء »  
وغمر البلاد سيلٌ من المنشورات السرية التي تصور سوء الحال وانتشار الظلم  
مطالبةً بوضع حد لما تعانيه مصر والمصريون (١) . ثم أسفرت جماعة الثوار من  
الساخطين عن وجهها وجهرت بوجودها . فكوّنوا حزباً سياسياً للمرة الأولى في  
تاريخ مصر الحديث ، سموه الحزب الوطني . ونشر الحزب برنامجاً الرسمي في  
جريدة التيمس في أول يناير سنة ١٨٨٢ . وهو يدل على وعي وطني من نوع  
جديد ، يقوم على أساس القومية المصرية وحدها دون تفريق بين الأديان . فقد  
جاء فيه :

« الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني . فإنه مؤلف من رجال مختلفي  
العقيدة والمذهب . وأغلبيته مسلمون لأن تسعة أعشار المصريين من المسلمين .  
وجميع النصارى واليهود وكل من يحترق أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم  
إليه ، لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات . ويعلم أن الجميع إخوان ، وأن  
حقوقهم في السياسة والشرائع متساوية » (٢)  
وظهر من الشعراء من يستطيع أن يقول عن إسماعيل أيام كان الجبروت  
في عنفوانه (٣) :

رمى بلادكم في قعر هاوية      من الديون على مرغوب جوسيار (٤)  
وأنفق ... (٥) لا بخلاً ولا كرمًا      على بغي وقواد وأشرار  
والمرء يقنع في الدنيا بواحدة      من النساء (٥) وهو لم يقنع بمليار

١ - كان أول هذه المنشورات بيان سياسي في ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ طبع منه عشرون ألف  
نسخة . ويروى أن مصطفى رياض رئيس الوزارة وقتذاك حاول معرفة ناشريه لإقصائهم إلى  
السودان فلم يستطع « الثورة العرابية ص ٧٠ » . وهذه الرواية تحتاج إلى تحقيق دقيق ،  
لما هو معروف من صلة رياض بالافغاني صانع هذه الثورة .

٢ - الثورة العرابية ص ١٤٧ وقد قام المستر بلنت بنشر هذا البرنامج في جريدة التايمز .

٢ - ديوان صالح مجدي ص ١٧٩ .

٤ - لم أهتم إلى جوسيار هذا . ولعله أحد الأجانب ذوي النفوذ من مستشاري إسماعيل .

٥ - موضع هذه الكلمة بياض بطبعة الديوان . ولعل الكلمة الساقطة هي « المال » .

ويكتفي ببناء واحد وله      تسعون قصراً بأخشاب وأحجار  
فاستيقظوا لا أقال الله عثر تكم      من غفلة البستكم ملبس العار  
وصالح مجدي صاحب هذه الأبيات هو الذي يقول نادماً على ما أنفق من  
نجهد ، وما سوّد من صحف في مدح طائفة من الملوك والروّوس والوجهاء ، هم  
أحق الناس بالذم والهجاء (١) :

أستغفر الله من نظم القريض ومن      وسّم البغيض بما يُعزّي لرئبال  
ومن مديح غدا ذمّي به أبداً      فرضاً على مؤمن عدل وتنبّال  
ومن أكاذيب ألفاظ بها انتشرت      صحائف طيّها قد كان أولى لي  
ومن ثناء مجازي حقيقته      تهكم عند تفصيل وإجمال  
ومن حماس خيالي قد اندرجت      به ذوو الحين في تعداد أبطال  
ومن زخارف أوزان نظمت بها      ركن الحنا والعنا في سلك أقيال (٢)

وهذا الشاعر الذي توفي قبل قيام الثورة العراقية بشهور في نوفمبر سنة ١٨٨١  
هو الذي يقول ، مستثيراً همم المصريين لمقاومة النفوذ الأجنبي الذي استفحل  
في مصر ، حتى غدت مرتعاً لكل أفاق (٣) .

خليلي ما للفضل والعلم قيمة      مع الجهل في دار العنا والمغارم  
وما صاحب العرفان فيها كجاهل      أتاها ذليلاً من بلاد الأعاجم  
فلو كان فينا نخوة عربية      مللنا على أعدائنا بالصوارم  
فإن نحن متنا قبل أن نبلي المني      عذّرنا ورحنا بالثنا والمكارم  
وإن نحن أنقذنا من الجور أهلنا      ظفرنا وفزنا بالثنا والمغانم  
أما فيكم يا أهل مصر كغيركم      نصيراً يرجي للقنا والعزائم  
فلو أن لي جيشاً به ألقيتهم      لأفنت أقصاهم برمح وصارم  
وطهرت أرض الله منهم بقتلهم      وأيدت دين المصطفى خير هاشم

١ - ديوان صالح مجدي ص ٢٣٤

٢ - الأقيال : جمع قيل « بفتح ثم سكون » : الملك . وأصله لقب للملك اليمن في الجاهلية .

٣ - ديوان « صالح مجدي » ص ٢٧٥ . وراجع كذلك في هذا الغرض ص ٢٣ . من ديوانه

وَأَمْسَيْتُ كَاللَيْثِ ابْنِ أَيُّوبَ مَغْرَمًا      بَضْرِبِ رِقَابِ مَنْهُمْ وَمَعَاصِمَ (١)  
فِي آلِ مِصْرَ لَا تَنَامُوا وَدَافِعُوا      عَنِ الدِّينِ وَالْأَوْطَانِ أَهْلَ الْمَحَارِمِ  
فَأَمْوَالَكُمْ أَضْحَتْ لَدَيْهِمْ غَنِيمَةً      وَأَبْنَاؤُكُمْ مَا بَيْنَ عَبْدٍ وَخَادِمِ  
وَمَنْ بَعْدَ مَا كُنْتُمْ شُمُوسَ مَعَارِفِ      كَسَفْتُمْ وَأَصْبَحْتُمْ شَبِيهَ الْبَهَائِمِ  
وَعَشْتُمْ بَذَلٍ بَعْدَ جَاهٍ وَعِزَّةٍ      وَدَارَتْ عَلَيْكُمْ دَائِرَاتُ الْمَظَالِمِ  
غَلَا تَغْفُلُوا عَنْ قَطْعِ دَابِرِ نَسْلِهِمْ      فَقَدْ مَلَأُوا بِالْفُسْقِ كُلَّ الْمَلَا حِمِ

وبدأ هذا الشعور الغامض بالسخط يتبلور ، وبدأت الآراء المختلطة تنضج وتأخذ أشكالاً محددة واضحة المعالم والأهداف والمناهج . فهذا هو محمد شريف يولف وزارته الأولى سنة ١٨٧٩ في أواخر أيام إسماعيل على أساس مسؤولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب . ويعود فيؤكد ذلك عندما دعاه توفيق - بعد عزل أبيه - إلى إعادة تأليف الوزارة ، ويصدر بعد تشكيلها « أمراً سامياً » يوضح فيه برنامج الحكم . وفيه يقرر مسؤولية الوزارة ، كما يقرر العمل على حل المشكلات المالية والحد من نفوذ الأجانب ، وذلك بهيمنة مجلس النواب على الميزانية وعدم إشراك الأجانب في الوزارة (٢) . وهذا هو محمد عبده يكتب مقالين في سنة ١٨٨١ يؤيد فيهما النظام النيابي ، ويدلل على وجوبه ولزومه للحاكم والمحكوم ، كما يتكلم عن قيمة الرأي العام في تقويم الحاكم ومراقبة تصرفاته ، وفي لم الشئ المتفرق من الآراء والمصالح ، بما يصون مصالح الوطن ويحقق السعادة والرفاهية للمواطنين جميعاً (٣) . يقول محمد عبده في وجوب الشورى على الحاكم « خلق الإنسان محاطاً بالشهوات ، مكتنفاً بالأميال ، مقيداً بالأغراض . فهو أسيرها ، تدفعه إلى مقتضياتها ، وتجذبه إلى لوازمها ، بحيث تكون جميع قواه آلات لها تحركها بما يناسبها ، وتستعملها فيما يلائمها . فلا

١- ابن أيوب هو : « صلاح الدين الأيوبي » .

٢- الثورة العربية ص ٢٥ .

٣- نشر المقالان في عددي ٢٤ ، ٢٥ ديسمبر من الوقائع المصرية - تاريخ الإمام ٢ : ١٩٧ - ٢٠٥

بتصور حسناً إلا ما تستحسن ، ولا يتخيل جميلاً إلا ما تستجمل . وهذا أمر يكاد أن يكون طبيعياً فطرياً ، لا يمكن الإنسان أن يغالبه ، ولا أن يتخلص منه ، وإن أمكن في بعض الأحيان تقليل سطوته وتحديد سلطته . على أن هذا أيضاً ليس في وسع كل أحد ولا في طاقة كل شخص . فلا يستطيعه إلا من كبرت همته ، ولا يقدر عليه إلا من ذكت فطنته ، حتى يتمكن من ردع تلك الدوافع وكبح تلك الجواذب ، بما يتخذ من الوسائل المختلفة ، حسب اختلاف المقاصد ، والذرائع المتنوعة ، حسب تنوع الغايات .

وحيث كانت هذه الدوافع والجواذب قوية لدى أولي الأمر لاقتدارهم على مقتضياتها وتمكنهم من لوازمها ، كانوا مضطرين إلى مغالبتها ومقاومتها بما ييسر من الوسائل المؤدية إلى ذلك ، حتى يتمكنوا من النهوض بما وسد إليهم من رعاية مصالح العباد . وليس من وسيلة إلى ذلك إلا مشاورة العارفين العالمين بطرقها ، فإن للرأي العام في مغالبة الأهواء ما لا يخفى من القوة . ولذلك ترى أن الإنسان ربما مال إلى شيء ، ولكن يمنعه من معاطاته علمه بأن الرأي العام لا يستحسنه . وأيضاً فالإنسان الواحد قاصر وإن بلغ ما بلغ من اتساع نطاق الفكر عن أن يحيط علماً بالمصالح عامة ، خصوصاً إذا كانت مصالح أمة كبيرة . فإنها حينئذ تكون بمنزلة الفنون المتنوعة المختلفة التي يعجز الإنسان الواحد أن يستوعبها ويستوفيهها اطلائاً .

ويقول في وجوب الشورى على المحكوم : « قد علمت أن الواحد وإن بلغ من علو الفكر ورفعة الذكاء مكاناً عالياً قاصراً عن الإحاطة بمصالح الأمة . وحينئذ يلزمها إذا ألقت إليه مقاليد مصالحها أن تمدد من آرائها بما يقتدر به على النهوض بواجباتها والقيام بحقوقها . فليس من الإنصاف أن تلقى على كاهله أعباء هذه المصالح الجسيمة وتتخلى عنه ، ثم إذا رأت ما لا بد منه من التقصير وجهت إليه سهام اللوم . بل يجب عليها مساعدته بما تراه موافقاً لوجه الصواب . ثم إذا وجدت منه تقصيراً فيما اختص به كان لها حينئذ أن تلوم »

ويقول في نشأة الرأي العام ولزومه : « إن القانون الصادر عن الرأي العام



هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس إلا . وبيانه أن الاجتماع بين أمة من الناس من مبدأ أمره لا يكون له داعية سوى الصدفة ، أو أسباب أخرى قهرية لا تخرج عن الطوارق التي تلم بالإنسان فتلجئه إلى ملجأ من نوعه يستعين به على دفعها . فإذا استتب الاجتماع وسكن الأمن في قلوب المجتمعين ، وانقطع كل منهم في الأسباب التي توصله إلى لوازم المعيشة ، نزع فيهم حب المسابقة في كل ما يتنافس فيه كل حي ، وتولد من ذلك حب الطمع والشره ، وجرّ الأمر إلى الحسد والبغض والبطر ، فأصبحوا وهم في مكان واحد متباعدي المقاصد ، أشتات القلوب ، لا يبالي أحدهم بافتداء مصلحته بمصلحة الآخر بأي طريق سلك ، ونسي رابطة الاجتماع وواجب الاشتراك في الوطن ، وتناول أشدّهم عَصْداً مقاليد الحكم عليهم ، وبث فيهم أعوانه وأنصاره بدون قاعدة تربط الأعمال وتبين الحدود . فحينئذ لا ترى لاثنين منهم رأيين متوافقين ولا قصدين متطابقين . بل لا ترى إلا نفوساً شاردة ، وأغراضاً متباينة ، تسوقهم عصا الظلم ، وتجمعهم دائرة الغرْم . فهم في هذه الحالة ليس لهم وجهة تربط أعمالهم وتوحد مقاصدهم ، بحيث تكون محوراً لدائرة أفكارهم ، وغاية تنتهي إليها حركاتهم في كافة أمورهم ، إذا ما نزل بهم من دواعي الاضطراب ، وأسباب تبلبل الألباب ، ما جعل لكل منهم شأنًا خاصاً به ، فلا يفكر يوماً ما في حقوق الاجتماع ونسب الارتباط ، فكأنه أمة وحده ، مقطوع العلائق بغيره . فلا يتصور أن يكون لهم حينئذ رأي عام يجمعهم . . . فإذا توالى عليهم الجوادث ، وعلمتهم أسفار الأخبار طرفاً من سير الأمم ، تذكروا أنه قد كان من حقوق الاجتماع ما يسوقهم إلى العيش الرغد ، ويصون عناصرهم الشريفة من لَوْث الحسة ودناسة الاتضاع . فتهم نفوسهم بتقويم دعائم الاجتماع على أصولها التي تطالبهم بها طبيعته ، فتمانعهم تلك الأخلاق التي نشأوا بها ممانعة تُضْعِف منهم قوة العمل . فكلما قويت فيهم دواعي الاجتماع اشتدت كراحتهم للتقاعد عن الأخذ بالوسائل ، وطفقت نفوسهم تنفض عنها دَرَن الملكات الفاسدة ، وتوفرت فيهم بواعث الأعمال المختلفة ، وأصبحت

المقاصد متجهة إلى غاية واحدة ، وهي المعاوضة على حفظ الهيئة الاجتماعية . فعند ذلك ترى من لم تهزه الشفقة منهم على المنافع العامة ولم يفقه حقيقتها يوماً يفضلها على غاياته الخاصة ، ويعلمها حق العلم بدون أن يتلقى درسها من معلم ، فإن الحاجة هي الأستاذ الذي لا يضيع تعليمه ، ولا يخيب إرشاده . ومن هنا ينشأ بين الناس ما يعبر عنه بالرأي العام ، وهو الأساس الذي بدونه لا يمكن أن تتوجه الكلمة في أمر ما يراد التداول فيه ، ونقطة التلاقي التي تجتمع بها أطراف الأفكار المتشعبة ، وتنمحي فيها الأغراض المتعددة . . . فإذا بلغت أمة من الناس هذه الدرجة من التنور ، وأصبحوا جميعاً على رأي واحد في وجوب ضبط المصالح ، وتقييد الأعمال بحدود مقدسة ، تصان ولا تهان ، اندفعوا جميعاً إلى طلب هذه الحقوق الشريفة ، بدون أن يخشوا لومة لائم . ولا يكتفون دون أن يروا بين أيديهم قانوناً عادلاً لائقاً بحالهم ، منطبقاً على أخلاقهم وعوائدهم ، كافلاً بمصالحهم ، يرجعون إليه في أمر المساواة والأمن على البلاد والعباد .

وهذا هو عرابي وصحبه يناقشون أنواع الحكومات وأساليب الحكم ، فيفضلون النظام الجمهوري ويهمون بتنفيذه ، فلا يحول بينهم وبين ذلك إلا ما يخشون من مفاجأة الرأي العام بنظام لم يستعدوا له . وفي ذلك يقول عرابي في خطاب له إلى بلنت : « ثم خُلع اسماعيل فزال عنا عبء ثقل . ولكننا لو كنا نحن قد فعلنا ذلك بأنفسنا لكننا نخلصنا من أسرة محمد علي بأجمعها ، ولم يكن فيها أحد جدير بالحكم سوى سعيد . وكنا عندئذ أعلننا الجمهورية » <sup>(١)</sup> ويقول البارودي « كنا نرمي منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا . ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة ، لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم . ومع ذلك فسنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت » <sup>(٢)</sup> .

١ - البارودي « رسالة ماجستير مخطوطة للسيدة نفوسة زكريا أعدت تحت إشرافي » ص ٢٨

نقلا عن بلنت في التاريخ السري للاحتلال البريطاني .

٢ - المرجع السابق ص ٤٠ .

وانتهت الثورة العربية بسجن زعمائها وتشريدهم . واستولى اليأس على الناس ، وفشا فيهم روح التخاذل ، ودب ديب السعيات . وفقد الصديق ثقته في صديقه ، بعد الذي كان من شهادة بعضهم على البعض ، وإيقاع الواحد منهم بجاره وصديقه تحت ضغط المحققين وهول الإرهاب . وكره الناس السياسة وتشاءوا باسمها واستعاذوا بالله من شرها ، فانطوا على أنفسهم لا يرجون إلا السلامة ، ولا يطمعون إلا في حياة هادئة لا ينغصها الهم والفرع ، وقد تضافر عليهم الفقر والمرض ، فاجتاحت الكوليرا — أو « الشوطة » كما كانوا يسمونها — مصر في السنة التالية للاحتلال ، وراح ضحيتها أكثر من ستين ألفاً من المصريين<sup>(١)</sup> . وأخذ الاحتلال في غمرة من بأس الناس وموت الهمم وارتقاء الخديوي في أحضان أولياء نعمته الذين يدين لهم بكيانه وسلطانه يثبت أقدامه ويدعم كيانه . فتسلط على الجيش بعد أن حله وأعاد تكوينه ضئيلاً هزيباً أعزل ، لا يتجاوز عدده ستة آلاف ، في قبضة « سردار » إنجليزي يعاونه نفر من كبار الضباط من بني جنسه . وأغلقت جميع مصانع الأسلحة بعد أن بيعت أدواتها بأبخس الأثمان ، وبيعت السفن الحربية أو حطمت وبيعت أجزاؤها ، وصارت مهمات الجيش وأدواته تشتري من إنجلترا ولا يحملها الجنود المصريون إلا وقت التمرين<sup>(٢)</sup> . وتسلط الاحتلال الإنجليزي كذلك على الشرطة بوضع رجل إنجليزي على رأسها ، وتعيين وكيل إنجليزي لوزارة الداخلية ، بلغ من غطرسته أن حضر يوماً تمثيل إحدى الروايات بمسرح زيزينيا في الإسكندرية فجلس في مقصورة الخديوي الخاصة<sup>(٣)</sup> . وتسلط على الحياة الاقتصادية بإلغاء المراقبة الثنائية وتعيين مستشار إنجليزي للمالية . وألغى الحياة النيابية ، وأغرق مصر وأرهقها بتعويضات الأجانب عما نالهم من ضرر مزعوم — وقد أربت على أربعة ملايين من الجنيهات<sup>(٤)</sup> — وبتكاليف جيش الاحتلال والموظفين الإنجليز

١ - مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ٣٢ ، مصر للمصريين ٦ : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

٢ - مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ١٧ ، ١٩ .

٣ - المرجع نفسه ص ١٥٩ .

وقد بلغت سنة ١٨٨٣ ما يقرب من نصف مليون جنيه<sup>(١)</sup> ، وبتكاليف حرب المهدي في السودان . وتوالت الوزارات المستسلمة للإنجليز ، المرتحية في أحضانهم ، نوبار ثم رياض ثم مصطفى فهمي . وأُخمدت أنفاس الصحافة لأدنى شبهة يتوهم فيها التعريض بالاحتلال أو الخديوي . فمُنعت « العروة الوثقى » التي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في باريس من دخول مصر . وألغيت صحيفة « الوطن » وصحيفة « مرآة الشرق » وصحيفة « الزمان » وعطلت « الأهرام » شهراً<sup>(٢)</sup> كل ذلك والناس أشباه أموات ، لا تُسمع لهم نأمة ، ولا يرتفع صوت بمعارضة أو شكوى أو تذمر .

وكان أول صوت ارتفع باسم الوطن والوطنية بعد الاحتلال هو صوت صحيفة « المؤيد » التي ظهر العدد الأول منها في أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ . وقد جاء في فاتحته « وما لنا أن لا نقوم بشعائر تطالبنا بها الإحساسات الطبيعية والحاجات الوطنية ودواعي الحياة الدينية والأدبية وكمال التحقق بحقيقة الوحدة الجامعة الجنسية . فنسألك اللهم أن ترشدنا إلى خير ما أردنا وأحسن ما نريد ، وأن تؤيدنا بعنايتك الصمدانية ، فإنك الفعال لما تريد » . ثم يقول : « خدمة الأوطان أوجب الواجبات وألزم الفرائض . من أضاعها قضت عليه شريعة الطبيعة بالحرمان الأبدي والشقاء الدائم . فمقصدنا من نشر المؤيد هو تأدية الفرض عن طهارة طيوية وإخلاص نية . وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . . . ومهما جدّ سوانا في خدمتنا واجتهد ، أو هجرت عينه الغمض ، فلا تقوم النافلة مكان الفرض . وليس من المروءة أن لا نشارك من جاد علينا بخدمة الوطن ، وندع نواظرنا لفتور الوسن . »

« فما الناس إلا يقظة ، فإذا غفّت عيونهم داستهم حُمُرُ الناس  
فبالعين يُكفى المرء صدمة عاثر وفي العين يهوي من تغافلُه الناسي<sup>(٣)</sup> »

١ - المرجع نفسه ص ٦٤ .

٢ - المرجع نفسه ١٦١ - ١٦٣ ، مذكراتي في نصف قرن ١ : ١٩٠ .

٣ - العين الأول مقصود بها العضو المبصر والثانية مقصود بها البئر .

وارتفع صوت « المؤيد » للمرة الأولى منذ الاحتلال بإثارة مسألة الجلاء .  
فأخذ يتساءل : « أحقُّ ما تقولون من أنكم ستتركون مصر عند تمام إصلاحها ؟  
وما هو الإصلاح الذي تعلقون عليه أمر انجلائكم ؟ وهل بدأت فيه أو تم شيء منه ؟ »  
وارتفع صوته للمرة الأولى منذ الاحتلال يَنشُدُ المصريين الاتحاد ويذكرهم  
بمجدهم القديم وينبههم إلى خطر الاستعمار الاقتصادي إذ يقول : « أي  
بني وطني الأعزاء علي ، الأصدقاء إلي . أي أفراد العائلة المصرية ، وأجزاء  
هيئتها المدنية . علمتم — ولا أخالكم تجهلون — حالة بلادنا في الأزمان الغابرة  
والقرون المتوسطة ، وما جناه اللاحق على السابق . . وهامي الحالة الحاضرة  
تطالبكم بأداء الواجب عليكم ، مما يجعلكم رجالا تبارون الرجال . وإن تبار  
هذا التمدن الحديث لا بجاريه إلا من عرف وجهة مجاريه ، ذوو القوة ممن  
هذبتهم التجارب ، فحافظوا على الأوقات وانتهزوا الفرصات . اعلّموا  
بني آيينا أن هذا التمدن قد حُمِلَ إلى بلادنا على أكف أقوام أقوياء حرصاء ،  
لم يرضهم في ثمنه القليل ، ولم تكفهم في مقابلته القيمة ، يودون أن يضربوا  
بأيديهم على التجارة والصناعة ومصادر الثروة . ونحن ننظر إليهم بعين المتعجب  
الباهت ، مرسلّة أيدينا إلى الجوانب ، كأننا لسنا جميعاً أبناء أب واحد وأم  
واحدة . إن هذا لشيء عجاب » (٢)

وراح يستنهض الحمم ويوقظ النوام بمثل قوله :  
« ألا قل لمن يظن أن مجد الأمة بالمال والحرية : إن المال لا ينهال من السماء ،  
والحرية لا تنبعث من الينابيع والحداول . وكلاهما لا يأتي إلا من طريق العزم والحزم ،  
ولا يغرس في الأمة إلا بأيدي كبار رجالها الذين يحبون أن يروا شعبهم متجلبياً  
بجلباب السعادة والرفاهية في أعين الشعوب . ولا يخفى أنه لا يُشَخَّصُ الأمة في  
عيون غيرها إلا حال القابضين على أزمّة أمورها . فإن كانوا أشداء حرصاء على  
المنفعة ، عالمين بما يجب أن يكون ، لا تلجئهم الشدة إلى الترف ، واللين إلى التفريط ،

١ - منتخبات المؤيد السنة الأولى - مقال عنوانه « متى تصليح مصر » ص ٣٠

٢ - منتخبات المؤيد السنة الأولى - مقال عنوانه « يا بني مصر » ص ٤٧

ظهرت الأمة هكذا ، فعظمتها القلوب وأكبرتها الأعين . ولكن إذا كانوا ضعافاً أذلاء ، تلعب بأعظافهم الكبرياء على الضعفاء ، ويأخذهم الصغار لدى الأقوياء ، وقعت الأمة في بُحْران الفساد ، وظهرت وعلى وجهها غبار الذل ، منكسرة القلب ، لا تكاد تتحرك أو تخطو خطوة إلى مقصد . » (١)

وأخذ يستثير الحمية ويضرب للناس الأمثال بمثل قوله :  
« قالت الحكماء إن الحياة هي مجموع الوظائف التي تقوم بها أعضاء الجسم . والموت هو بطلان تلك الوظائف . وهو أقرب التعاريف وأسلمها من التكلف . وعليه فلا بأس من إطلاق الحياة على الأمة ، فيقال هذه أمة حية ، إذا كان أفرادها الذين هم بمنزلة الأعضاء لجسمها قائمين بوظائفهم . ويقال تلك الأمة ميتة ، إذا أدخل أفرادها إلى النوم والكسل ، ولم يقوموا بواجباتهم التي يفرضها عليهم قانون البقاء في عالم الوجود . . . هل كان يُظن أن عرب البوادي تقوم منهم أمة يتحرك فيها سبعون ألف فارس لامرأة صاحبة : وامعتصماه ، أو أن الإنكليز يصبحون شعباً يقوم منه اثنا عشر ألف مقاتل للأخذ بثأر رجل منهم قتله بعض المتوحشين ، ويقوم منه رجال يجعلون لفظة بريطانيا لا تذكر إلا وعلى أثرها « العظمى » ؟ . . . وتحرق فئة منهم ثلاثين ألف مجلد من كتاب فرنساوي ذكر فيه غلادستون بغير ما يليق به من التعظيم ؟ . . . بل من كان يظن أن الأمة الفرنسية ، التي كانت بيوت أهلها مبنية من قبل على هيئة الحصون والقلاع ، لما كان متسلطاً عليهم من الفشل والانحلال ، تدرج منها أمة تطير أفئدتها عند ذكر الأت拉斯 واللورين (مديريتان أخذتهما منها الألمان في الحرب الأخيرة) ، ويأبى الواحد من أفرادها أن يدخل خاناً ألمانياً أو يشتري بضاعة من ألمانيا ، متى أمكنه أن يشتريها من فرنساوي ؟ . . . بل من كان يخطر على فكره أن البرتغال - على قلة عددهم وعددهم - تتوقف عمالتهم عن شحن المراكب الإنكليزية وتفرغها ، ويكتب تجارهم إلى وكلائهم أن لا يشتروا البضائع الإنكليزية ، ولا يشحنوا ما لديهم في مراكب إنكليزية ، ويطرحوا عن رؤوسهم البرانيط التي

صنعها الإنكليز، كل ذلك لأن الإنكليز عارضوا حكومتهم في بعض مستعمراتها؟  
والأمثال على ذلك كثيرة ، لا يبعد على الأديب أن يأخذ مما بين طرفي حالة  
كيل أمة أطوارها العديدة ، ويزن بذلك قوة حياتها . »

« ولقد قال بعض الحكماء : إنك إذا رأيت الغلام في المكتب يسمع سب أبيه  
ولا يتميز غيظاً ، فبشر الأمة التي سيكون عضواً منها بالانحلال والدمار . ولقد  
رأينا مصداق ذلك في بلادنا هذه . فقد نُقل إلينا في بعض التواريخ أنه كان  
يُسَبِّح المصري بلفظة فلاح فيقول « قطع الفلاح ونهاره » . وإذا ذاك كانت  
مصر على ما لا يخفى من الانحلال والبوار . » <sup>(١)</sup>

وأخذ يحذر من كل ما يمس كيان الوطن ، أو يضعف الشعور بالقومية  
المصرية . فهو يوجه الأنظار إلى ما ينطوي عليه انتشار المدارس الأجنبية من  
أخطار ، إذ يقول :

« ما طمحت الدول الأوروبية إلى الاستيلاء على بلد وإقليم من قارة إفريقية ،  
أو عبارة أخرى من الشرق عموماً ، إلا وسبقت إليه بافتتاح المدارس بمُرْسَلِيهَا  
الدينيين ومن تخلّق بأخلاقهم ، ليمهدوا لها طريق الافتتاح أو الاستعمار ، علماً  
منهم بأن مأمورية هؤلاء المعلمين ليست إلا عبارة عن بث أخلاق وعوائد  
وتعاليم ، دينية كانت أو فنية . وهم إذا دخلوا قرية وظهروا بهذا المظهر لا يلاقون  
معارضة أو ممانعة ، لأن حجّتهم نشر العلم والتهذيب ، ورفع لواء التمدن . ومن  
لا يرضى بذلك فليس له من اسم الإنسانية نصيب ، تقوم عليه قائمة حرب  
التعنيف والتثديد بلسان كل خطيب وقلم كل كاتب . فلا مناص من أن تقبل  
هذه الأقاليم الشرقية الوافدين إليها من المرسلين الذين هم نُصَرَاءُ الهداية  
والمعارف والتمدن في مظهر العين ، وسفراء الاستعمار والاستيلاء في الحقيقة ...  
وهل يُتصوّر أن قوماً جازوا البحار ، وتجشموا الأخطار لمحض منفعة من  
وفدوا لديهم خدمة للإنسانية كما يقولون ؟ كلا فالإنسان لا يتحرك حركة  
ولا يعمل عملاً إلا وله غرض ذاتي فيه . لكن قد لا يكون الغرض الذاتي محض

١ - متخبات المؤيد ص ٨١ « حياة الأمم » . « قطع الفلاح ونهاره » حكى الكاتب العبارة  
بالعامية . يدعو على نفسه فيقول : قطع الله الفلاح واليوم الذي كان فيه .

الباعث ولا مُضيراً في النتيجة . وقد يكون كذلك . وقد قيل : كلما عظم العمل كان الباعث أعظم . فلا ريب أن البواعث التي دعت الأجنيين إلى مفارقة ديارهم والنهوض إلينا هي جلية . ولا يمكننا أن نقول هي محض التكسب واستجلاب الدرهم والدينار . فإن بعض تلك المدارس يأخذ على التعليم ما لا يكاد يفي بنفقات التلميذ ، والبعض يقبل الفقراء مجاناً . بل إننا نعلم حق العلم أنه مامن مدرسة من هذه المدارس إلا ولها جمعية من الجمعيات الخيرية في مملكتها ، تنفق عليها النفقات الطائلة . ولا يكون ذلك عبثاً . ونرى بأعيننا من جهة أخرى أن كل مدرسة غربية ما وضعت يدها على أمة أو قبيلة تملكاً أو حماية ، إلا وقد جعلت مقدمة ذلك هذه المدارس . فبان أن المقصد العظيم والباعث القوي هو سياسي ملتي في آن واحد كما قدمنا . » (١)

\* \* \*

كان صوت « المؤيد » هو البشير بأن مصر لم يزل فيها بقية من حياة وإحساس . ولم يمض على صدوره أقل من ثلاث سنوات حتى ظهر العدد الأول من مجلة « الأستاذ » في ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ (٢) ، فحمل فيها عبد الله النديم على الاستعمار وأعوانه في عنف لا هوادة فيه ، مستأنفاً جهاده الذي بدأه مع عرابي رغم ما ذاق في سني اختفائه العشر من آلام . ولم يمض على ظهور « الأستاذ » خمسة شهور حتى أعلن الحرب الصريحة على الاستعمار وأذنا به ، واستهلها بمقال عنيف سافر لا غموض فيه ولا التواء ، جعل عنوانه العبارة التي كان يرددها الإنجليز كلما أظهر المصريون ضيقاً بمشاريعهم الاستعمارية : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » . (٣) وكان هذا المقال العنيف رداً على إنذار كرومر لعباس حين أقال وزارة مصطفى فهمي باشا صديق الإنجليز في ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ .

١ - منتخبات المؤيد : السنة الأولى ص ٥٠ .

٢ - كانت « الأستاذ » مجلة أسبوعية تصدر في يوم الثلاثاء من كل أسبوع . وقد صدر العدد الأخير منها في ١٣ يولية سنة ١٨٩٣ .

٣ - الأستاذ عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣



يقول عبد الله النديم في مقاله هذا عن أثر الاستعمار في الاقتصاد :  
« قالت أوروبا إنكم متوحشون ، لكونكم لا تحسنون صنع الأثاث  
واللباس ، وأنكم في حاجة إلى مصنوعاتنا ، ولا تصلون إليه إلا بعقد المعاهدات  
التجارية . وبذا تمكنت من إدخال مصنوعها في الشرق لتحوّل الثروة إليها ،  
فأمات ما كان يصنعه الشرقيون ، وحجرت على ما لا بد منه من صناعة الشرق  
الهندية وغيرها . فما يصنع في الهند والصين والعجم والأناضول وغيره ، إنما  
يُنْفَق ويبيع على يد الأوربي كما يَنْفَق ويبيع مصنوع بلاده . فالشرقيون أجراء  
يزرعون ويحصدون ويصنعون ، ليزوجوا تجارة أوروبا ، ويعظموا ثروتها ،  
ويؤيدوا قوتها الملكية بالإيرادات المالية . فلا حظّ لهم من الوجود ، ولا رغبة  
لهم في الملك ، كأنهم أمام أوروبا جنس خلق لخدمتها ، لتقاعدهم عن مجارة  
أهلها » .

ثم أشار إلى إفساد الإنجليز أخلاق المصريين وتقاليدهم ، مما أدى إلى انحلال  
الشخصية وموت الكرامة ، فقال :

« قالت أوروبا : إن وقوفكم على عاداتكم الشرقية ، وتخلقكم بأخلاق  
آبائكم ، بقاء على الحمجية والتوحش . فلا بد من مجاراتنا في حركاتنا المدنية ،  
لتساونا في الرتبة . وفتحت لنا البيّرات والخمارات والمقامر ، وأباححت الزنا  
والقمار ، ووسعت دائرة اللهو والحسران . فغفل الشرقيون عما وراء ذلك  
من ضياع الدين والملك والمجد والشرف ، وانكب الأغنياء والمغفلون على  
الخمور ، فساءت أخلاقهم ، وضعفت عقولهم ، وفسدت عقائدهم . وتحولوا  
إلى المومسات ، فارتكبوا الإثم بارتكاب المحرّم ، والعار باتخاذهم الوطنية آلة  
للفُحش ، وجعلوها عُرضةً للأجنبي بعدم غيرتهم عليها ، فهم في رتبة القُواد<sup>(١)</sup>  
بل هم هم . ومال فريق إلى القمار ، فباع الغيْط والدار ، واضطر لبيع حلي

---

١ - القواد : (بضم القاف) جمع قواد (بفتح القاف) وهو الذي يدل على بيوت الرّبة ويقود  
الرجال للنساء .

زوجته برضاها أو بسرقة منها . والكل عطف على المرابين ، يقترض ويصرف في الملامي ومتلفات العقل والجسم والملك ، حتى أسكن الأوروبي مكانه وصار له خادماً بعد أن كان عظيماً محترماً . وكلما تهالك الشرقيون على الخمور والملامي ، واصلت أوروبا رسائل الخمر ، وارتحل إليهم المومسات وأرباب الملامي ، تحويلاً للثروة وإزهاقاً لروح الدين ، حتى أصبح المتلبسون بهذه القبائح والفضائح لا شرقيين ولا غربيين ، واتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق . وهي تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية ، وما هي إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة . إذ لو كان الانغماس في الملامي ومفسدات العقل والدين من المدنية لما تحاشته أوروبا وعدت مرتكبه همجياً جاهلاً مجنوناً ، ولما وضعت القوانين الشديدة للمسكرات ومنع التلامذة منها ، ولما كتبت الرسائل العديدة في ذم الخمر والفسوق ، وحرمان ضعفاء العقيدة والمتقاعدين عن العبادة وحضور الكنائس . وإنما هذه أشراك وفخاخ تُنصب في طريق الشرقي ، حتى لا يخطو خطوة إلا وقع في حباله أوروبا . ولما رأت أوروبا أن الشرقيين لا ينتبهون من غفلتهم ، ولا يعقلون مقاصد الدول ، ولا يدركون مكاييد الملوك ، ولا يسعون في صالح بلادهم ، ولا يحافظون على دينهم ، ولا يعرفون شرف لغاتهم ، ولا يحفظون كراسي ملوكهم ، ولا يهمهم ضياع أوطانهم ، اتخذتهم كرة تلعب بهم كيف تشاء ، وهي تقول لهم : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا . »

ثم قال مشيراً إلى أذنان الاستعمار من المصريين ؛ الذين يرتكب الاستعمار كل ما يرتكب من جرائم وآثام باسمهم وبأيديهم :

« كفت إنجلترا يدها عن الأعمال عند دخولها مصر ، وسلمتها إلى المصريين ظاهراً ، لتقيم الأدلة لأوروبا أنها ما دخلت إلا لتراقب المصريين وتشير عليهم بما فيه التوفيق بين مصالحهم ومصالح الدول . ولما لم تجد أمامها من يجعل هذا الظاهر باطناً ، بحصر السلطة في الذات الخديوية الفخيمة ، والإدارات في الوطنيين ، أخذت تقول وهم يفعلون ، حتى أصبحت تفعل وهم لا ينطقون .

وكانت تتقي باسمهم المطاعن الأوروبية، حتى خلا الجو وأمنت الاعتراض.  
فأخذوا يذمونها ويرمونها بخلف الوعد ونكث العهد وعدم الصدق وطول  
الباع في الخداع، وهم غير مُحَقِّقِينَ، فإنها ما دخلت إلا لتعمل عملاً أمام  
أوروبا، فلما فوضوا إليها الأعمال استلمتها بهمة ونشاط. ومثلها ومثلهم  
كمثل لص دخل دار قوم وقال لهم: حملوني ما عندكم من أثاث وحلي  
وآنية. فأخذوا يحملونه ما يريد من غير معارضة. فهل إذا دخل عليه البوليس  
وأهل الدار يحملونه بأيديهم يقول هذا لص؟.. كلا، بل يقول إنه صاحب  
الدار وهؤلاء خدمه. أيرَوْنَ أن الإنكليز هم الذين نشروا منشور المومسات،  
ورخصوا للنساء أن يخرجن للبغاء تحت حماية القانون؟.. أم هم الذين سنوا  
كشف الأطباء على البغايا وإعطاءهن شهادات بأنهن صالحات للزنا، فهتكوا  
حرمة القرآن والإنجيل والتوراة بتحليل ما حرمه الله تعالى في كل كتاب؟...  
أم هل قالوا للمصريين: سننق ملايين في المقاولات والأعمال الهندسية من  
غير أن نُسأل عما نفعل فيها، فإياكم والسؤال عن مبالغ ستكونون عبيداً  
مكلفين بسدادها إلى روتشيلد وغيره؟ أم هم الذين أعطوا الالتزامات الوابورية  
والأرضية، ووسعوا نطاق المعاهدات، إلى أن ضيقوا كل عمل مصري؟ أم  
هم الذين منعوا المصريين من زراعة الدخان والحشيش لتروج مزارع أوروبا  
بخراب بيوت هؤلاء الضعفاء؟ أم هم الذين باعوا مهماتهم وآلاتهم بغير ثمن،  
وربما أعطوا من أخذها شيئاً يستعين به على نقلها، حتى تركوا البلاد محتاجة  
لمن يحرسها بالعصا أو بالنبوت؟..<sup>(١)</sup> أم هم الذين أبعادوا المصريين عن الخدمة  
وحشروا الغرباء<sup>(٢)</sup> في المصالح حتى أصبح ألوف من المصريين لا يجدون  
القوت ولا يعرفون لاستخدامهم مرة ثانية سبيلاً؟.. أم هم الذين قللوا من

١ - يشير إلى تصفية المصانع الحربية عقب الاحتلال بعد أن فككت أجزاءها وبيعت بأبخس الأثمان  
على أنها غير صالحة «خردة». النبوت الفرع النابت من الشجر، يطلق في اللهجة المصرية  
على العصا المستوية.

٢ - يقصد اللبنانيين، والمسيحيين منهم خاصة، الذين كثر عددهم وقتذاك في الوظائف  
الحكومية. وكان بعض هؤلاء الموظفون أعواناً للاستعمار كما سيجي.

تلاميذة المصريين في مدارسهم وأكثروا من استخدام الأجانب فيها ، وتدرجوا لإماتة لغتهم الوطنية بفرض المكافآت لمن ينبغ في الإنكليزية ، لتُنسى لغة القرآن فيُنسى بها الدين الواقفُ عقبةً أمام أوروبا ، كما يصرحون بذلك في مجالسهم وأندية شورا هم ؟ .. لا والله ، ما نالوا أملاً ، ولا قارفوا عملاً ، ولا أذلوا رجلاً ، ولا خربوا بيتاً ، ولا هتكوا حرمة إلا بالمصريين .

وأخذ يلقي تبعة ما صارت إليه مصر من سوء الحال على أمراء المصريين وزعمائهم حيث يقول :

« لماذا نتألم من أعمالها (١) وأمرأوتنا اقتصروا على القعود في القصور وركوب العربيات للتفسيح في المترهات ، وعقلاؤنا صامتون لا ينطقون بكلمة رجاء أو صوت استصراخ . وضعفاؤنا حيارى ينتظرون هولاء وهم عنهم لاهون ، ونبهاؤنا في المحافل يتحاورون ويتناظرون بما لا يفيد الوطن والمُلك شيئاً ، متعللين بأن محافلهم لا تتعرض للسياسة ولا للدين . فإذا انصرف النبهاء عن وجهتي السياسة والدين ، فمن تقوم الأعمال ، ويتقوم أودُ الحكومة ، ويبقى عمود الدين قائماً كبقية الأديان ؟ .. أبالإخاء الذي ربطناه مع الأجنبي ، نتخلي له عن مرجع المجد وأصل الشرف ؟ .. وهل تريد أوروبا أن تنتصر علينا في حرب عوان بأكثر من صرف نبهاء البلاد عن النظر في المُلك والدين ، ليُخلَّوْها الجوف فتفعل ما تشاء وتغير ما تشاء ؟ .. مع أن النبهاء يمكنهم أن يستخدموا محافلهم في مصالح بلادهم ، فيتمكنوا بقواهم العقلية مما لا يمكنهم منه سيف ولا مدفع ، من غير إثارة فتنة أو إراقة قطرة دم ، ويصلحون ما أفسده الاغترار والانخداع ، ويحدثون في البلاد عصبية وطنية لا تردها أعظم أمة عن مشربها المصري وسعيها المؤيد ، بربط القلوب على عزيمة واحدة صادقة .. »

وراح يذكر المصريين بما كان من تخلفهم عن عرابي وحسن استقبالهم للإنجليز ، مغترين بما أذاعه عليهم الحديوي توفيق وأعوانه من أنهم لم يدخلوا مصر إلا مصلحين منجدين ، فقال :

١ - الضمير في « أعمالها » راجع إلى انكلترا .

« مضت السنوات العشر التي قابلتم غُرَّتَها بالأفراح واليزين، وطرتم فيها حول  
الأوهام طرباً وسروراً، وعميتم عن سوء العاقبة، فأنشد شعراؤكم القصائد  
الطنانة الرنانة مدحاً وثناءً (١) وشربتم الخمر جهاراً باسم من استعديتموه على  
بلادكم، ونصرتموه بتثييط إخوانكم، وبذلتكم أموالكم وأرواحكم في دخولهم  
البلاد، والتخلي لهم عما بأيديكم من الأعمال. ولطالما طأطأتم الرؤوس وحنيتهم  
الظهور وركعتهم أمامهم تعظيماً وتسليماً، وبصقتهم على وجوه إخوانكم ولبستم  
أجمل ثيابكم تنتظرون يوماً يقتل فيه مائة ألف مصري. فهذه الأيام تريكم  
كيف تدور الدوائر، وكيف تتقلب الأحوال بالأهوال، على من لم يقرأ  
لعواقب، ومن يلقي نفسه بين نيوب الصلّ خوفاً من العظاية « السحلية ». .  
فقد أبدلت المصائب الولائم الأجنبية بالآثم الفقرية ودعتكم لتكسير أعواد  
الطرب والسرور، وضرب دُفّ الندب والثناء. وهل تُنجزُونَ إلا ما كنتم  
تعملون؟ .. »

ثم أخذ يعرض بالمقطم - صحيفة الاستعمار - متوقفاً ما ستهاجمه به ،  
وما سوف تدعيه من أنه يدعو إلى ثورة كالثورة العراقية فقال :

« وكأني بدخيل (٢) يوسوس للأجانب قائلاً : إن « الأستاذ » يدعو إلى ثورة  
مصرية بهذه العبارة . فقد تعودنا سماع الأراجيف من الدخلاء ، وتسليط  
الأوربيين على كل بلد نوذي فيه بالمحافظة على وطنيته . ونحن نضع حجراً في  
فم هذا الدخيل قبل أن يحرك شفتيه بكلمة إغراء . إن المصريين قد جربوا  
أنفسهم في التظاهر بالقوة ، فوقف شقاقهم بينهم وبين الظفر بالمقصود وهم  
شاكو السلاح كثير والعُدَد والعُدَد . والآن لا قوة بأيديهم ولا سلاح . وقادة  
الجند من الأجانب . ولا يحمل العسكري إلا بندقية فارغة حكمها حكم عصا

١ - يشير إلى القصائد التي قيلت في مدح « توفيق » بعد عودته، وفي الترحيب به وبجيش الاحتلال ،  
وفي ذم العراقيين. وتراجع نماذج من هذه القصائد في كتاب « مصر للمصريين ٢٣٨ : ٥ - ٢٤٧ »

٢ - كان صاحب صحيفة « المقطم » هو فارس نمر . وهو لبناني الأصل .

الراعي . ولا موجب لحركة الأهالي حركة عنوانية بعد خضوعهم لأمرهم ،  
وانقيادهم إليه في السر والعلن . وقد تأدبوا وعلموا دسائس أوروبا ، وتنبهوا  
لمقاصد الدول وسعيهم في اتخاذهم آلة لبلوغ مآربهم ، لا لمصلحة المصريين  
— معاذ الله — ولا لمنفعة المسلمين — أستغفر الله — فما من مصري إلا وهو يعلم  
الآن أن أوروبا لا تصدق في قول ، ولا تفي بوعدها ، ولا تحب شرقياً ، ولا تسعى  
في خير مصري . وإنما هي ملاعب سياسية يقدمونها بين أعين الجهلاء الذين  
لا خبرة لهم بدهاء الدول ومطامعها ، يستميلونهم بها استمالة الطفل بقطعة  
حلوى أو ثوب منقوش . ومن انتهى بهم الأمر إلى الوقوف على النوايا والمقاصد  
السيئة ، مع فراغهم من المعدات الآلية ، وعدم حاجتهم إليها ، يستحيل  
عليهم أن يكبدوا صفو الراحة بشغب أصوات فضلا عن قعقة سلاح . وما  
يدعوهم « الأستاذ » إلا إلى مجازاة الأورباوين فيما هم فيه من معرفة قدر  
نفوسهم ، والمحافظة على حقوقهم ولغاتهم وأديانهم وعوائدهم ، والدأب  
خلف الاستقلال بأعمال بلادهم . »

ثم قال بعد أن تكلم عن وحدة عنصري الأمة من مسلمين ومسيحيين :  
« فيا بني مصر . . ليعد المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفاً للعصبية الدينية .  
وليرجع الاثنان إلى القبطي والإسرائيلي تأييداً للجامعة الوطنية . وليكن المجموع  
رجلاً واحداً يسعى خلف شيء واحد ، هو حفظ مصر للمصريين . »  
ويهاجم ذلك النفر الذين خوت قلوبهم من الوطنية ، ممن يلتمسون الجاه  
بالتزلف إلى المحتل الغاصب قائلاً :

« نرى كثيراً من الشرقيين ، بل المصريين ، حول حمى الأجنبي ،  
ليأذاً به وطلباً لمعروفه . فهل تناول منه إلا لقمة لو لم يجده لطرحتها  
للكلب لكونها فضلة طعامه وفئات خيوانه ؟ . . وهل جلس في حضرته  
إلا مهيناً مزدري منظوراً إليه بعين الاحتقار بل الاستعباد ؟ . . وهل مكث من  
أضعف الأعمال إلا ليستعمله آلة في تنفيذ آماله وتحقيق أمانيه ؟ . . وهل بش  
في وجهه مرة إلا ليُدخل عليه غفلة الرحمة والحنان ، ليصرف أنظاره عما يراه

من سلب الحقوق ؟ . . . »

كان هذا المقال الجريء العنيف بداية لسلسلة من المعارك ، تألفت عليه فيها الصحف الإنجليزية ، توّبتها صحيفة « المقطم » ، وأهمته بإثارة الفتنة ، حتى انتهى أمره إلى خضوع الحديوي عباس لما أملاه عليه كرومر من إبعاده عن مصر منفياً<sup>(١)</sup> . فودع قراءه وداعاً مؤثراً في العدد الأخير من الأستاذ ، في كلمة عنوانها « تحية وسلام » ، ختمها بقوله : « وما خُلِقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب . والعاقِل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظم والجلالة ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرأ في أعين الواقفين عند الظواهر . وعلى هذا فإني أودع إخواني قائلاً :

أودّعكم والله يعلم أنني أحب لقاءكم والخلود إليكم  
وما عن قلبي كان الرحيل ، وإنما دواعي تبدت فالسلام عليكم  
وبذلك طويت صحيفة الأستاذ ، ولما يحل الحول على صدور العدد الأول منها<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

وتلقف الراية من يد النديم مصطفى كامل ، الذي تلقى دروسه الأولى في الوطنية وفي السياسة على يديه . فقد اتصل به منذ عودته من منفاه ، وعرف منه كثيراً من أسرار الثورة العربية ودسائس السياسة الإنجليزية . مما جعله يتجنب الخلاف مع الحديوي ، ويحاول قدر استطاعته أن يجعل من الشعب والقصر قوة

١ - زعماء الإصلاح ص ٢٤٠ ، مجلة الأستاذ العدد الأخير ص ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ .

٢ - لم تطل حياة عبد الله النديم بعد ذلك ، فقد توفي في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٩٦ غرباً في تركيا بعد حياة لم تتجاوز أربعة وخمسين عاماً ، كلها جهاد عنيف ، لم يذق فيه طعم الراحة والاستقرار . وقد ذكر الدكتور أحمد أمين في كتاب « زعماء الإصلاح » أنه لم يعقب ولداً ولكن الصدفة الحسنة قادتني إلى معرفة ابن له ولد بعد وفاة أبيه في تركيا ، وعقب عودة والدته إلى مصر ، وهو السيد محمد سعيد عبد الله النديم وكيل إدارة المئاتر بالإسكندرية . وكانت والدته عند إصدار الطبعة الأولى من هذا الكتاب ١٩٥٤ على قيد الحياة .

واحدة تواجه الاستعمار (١) . وخطا مصطفى كامل خطوة جديدة إلى الأمام حين جاهر بطلب الجلاء في أول حديث له نشر في صحيفة الأهرام (٢) . وتابع بعد ذلك نشر المقالات الوطنية في صحيفتي « الأهرام » و « المؤيد » ثم في الصحف الأوروبية منذ بدأ رحلاته السنوية إلى أوروبا في مايو سنة ١٨٩٥ (٣) . حتى ظهرت صحيفة « اللواء » اليومية في ٢ يناير سنة ١٩٠٠ ، فكان يكتب مقالاتها الافتتاحية في أكثر الأحيان .

\* \* \*

وقد اقترن ظهور الحركة الوطنية بعد الثورة العراقية بظهور الحديوي عباس على مسرح السياسة حين جلس على عرش مصر في ٨ يناير سنة ١٨٩٢ ، بعد وفاة أبيه الذي كان سبباً في نكبتها بالاحتلال الإنجليزي .

والواقع أن عباساً كان محور الحياة السياسية والوطنية في ذلك الوقت . فقد تولى الحكم وهو شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره . وكان جريئاً واسع الأمل ، يريد أن يكون ملكاً حقيقياً لا دمية في يد الإنجليز ، وكان مصرياً بحتاً كما حكم عليه كرومر منذ لقائهما الأول (٤) . فنفخ في مصر روحاً جديدة من الوطنية والشجاعة ، جرأت الأمة على مناهضة الاحتلال ، وقوت الآمال بالاستقلال (٥) وكان ينعى على أبيه ضعفه واستسلامه للإنجليز (٦) ولذلك كان أول ما فكر فيه عند تولي الحكم أن يغير رجال حاشيته الذين ورثهم عن أبيه ، والذين ألفوا أن يذلوا أنفسهم ويمتهنوا كرامتهم أمام الانجليز (٧) .

١ - مصطفى كامل ص ٣٠

٢ - الأهرام عدد ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ مصطفى كامل ص ٢٧

٣ - مصطفى كامل ص ٣٩

٤ - عباس الثاني ص ٢١ ، ٢٨

٥ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦٩

٦ - عباس الثاني ص ٢٧

٧ - مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٦



بدأ عباس حكمه كأحسن ما يبدأه ملك . فهو شديد الرغبة في التودد إلى الشعب ، يستقبل طوائفهم المختلفة مرتين كل شهر .<sup>(١)</sup> ويصدر عفوه عن عدد كبير ممن اشتركوا في الثورة العرابية في السنة الأولى لحكمه ، ويرد إليهم رتبهم وشاراتهم ويعيدهم للخدمة<sup>(٢)</sup> . وهو يعرض الجيش المصري مرتين في ذلك العام<sup>(٣)</sup> ، ويحيي شهر رمضان بتلاوة القرآن والاستماع إلى تفسيره مع رجال حاشيته<sup>(٤)</sup> . وهو يطالب بخروج الجيش الإنجليزي من القلعة . ويتصل بالمديرين مباشرة دون الرجوع إلى كرومر كما جرت عادة والده من قبله<sup>(٥)</sup> . وقد نجح نجاحاً مؤكداً في بث شعور الكراهية للإنجليز في قلوب المصريين ، كما نجح في إخراجهم عما ركنوا إليه من فتور واستسلام يشبه الموت ، ورسم لهم طريق المقاومة بجرأته في تحديهم ، فكان كسيال من الكهرباء طبق جو مصر وكهرب جميع أهلها ، فشعروا بأنهم أمة يجب أن يستقلوا بأمورهم<sup>(٦)</sup> .

ولذلك لم يكن عجباً أن يلتفت المصريون حوله وأن يحبوه . وقد بلغ من حماسهم في استقباله أن يتقدم الشباب لحر عربته بعد أن نحوا عنها الجياد ، حين ذهب لصلاة الجمعة في مسجد الحسين رضي الله عنه<sup>(٧)</sup> . وقد أقر كرومر بنفوذ عباس حين قال إن الصعوبة الكبرى التي واجهت الإنجليز حين استهدفوا رفع مستوى الفلاح هي أن يصلوا إلى ذلك دون الاصطدام بالقصر ، الذي أثبت على توالي العصور - رغم ما آل إليه من فساد - قدرته على جمع الشعب المصري وتكثيره<sup>(٨)</sup> . واعترف بزعامته حين قال إن المبادئ العرابية قد بدأت في الظهور

١ - المرجع نفسه ٢ : ٢٦

٢ - المرجع نفسه ٢ : ٣٥

٣ - نفس المرجع ٢ : ٣٧

٤ - المرجع نفسه ٢ : ٣٨

٥ - نفس المرجع ٢ : ٥٢

٦ - تاريخ الامتياز الإمام ١ : ٥٩٢

٧ - مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٧

٨ - Modern Egypt ٢ : ١٩٣

تحت اسم جديد هو لقب « خديوية » ، وأن الحالة أصبحت كثيرة الشبه بالتي كانت عليه عند بدء الثورة العراقية ، غير أن الفرق الوحيد هو أن الخديوي نفسه في هذه المرة كان هو قائد الحركة <sup>(١)</sup> ، وحين قرر أن أنصار المبادئ الديمقراطية الحديثة ومن سماهم الغوغاء ، الذين لا يملكون من التغني بها ، كانوا جميعاً في جانب الخديوي <sup>(٢)</sup> . وإلى ذلك أشار السيد محمد رشيد رضا في تاريخ الأستاذ الإمام حين قال « ومن إنصاف التاريخ أن أذكر هنا أفضل محاسن هذا الأمير الكبير - وقد ذكرت مساوئه - حتى لا تكون المساوىء هي التي تستقر وحدها في نفس قارئ هذا الكتاب ، وهو ظلم ، فأقول : أول ما عرف الناس من محاسنه ما يسمى في عرف هذا العصر بالوطنية <sup>(٣)</sup> » .

وقد كان من آيات هذه الوطنية احتضانه مصطفى كامل منذ ألقى أمامه خطبة يرحب فيها بمقدمه حين زار مدرسة الحقوق ، فشجعه على السفر إلى فرنسا لإتمام دراسته ، وقربه إليه بعد عودته ، فكان يجتمع به سرّاً في مسجد قريب من سراي القبة ، يدبر معه الخطط للتخلص من الاستعمار <sup>(٤)</sup> . وأمدّه بالنفوذ وبالمال ، فشجعه على تأسيس الحزب الوطني ، وأعانته على إصدار صحفه المختلفة <sup>(٥)</sup> .

١ - عباس الثاني ٤٤ ، ٤٥

٢ - المرجع نفسه ص ٣١

٣ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٢

٤ - عاد مصطفى كامل بعد إتمام دراسته في ديسمبر سنة ١٨٩٤ . وكان فيما اتفق عليه مع عباس وقتذاك أن تولف جماعة سرية من بعض الشباب الممتازين بالوطنية من تلقوا العلم في مصر وفي الخارج « تاريخ الإمام ١ : ٥٩٣ ، مصطفى كامل ٢٨ ، ٢٨١ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٩٠ ، ٢ : ١٤٠ » ويقول أحمد شفيق إن هذه الجماعة هي التي قررت القيام بالدفاع عن مصالح مصر ضد الإنجليز بالكتابة في الصحف الفرنسية وبالخطب التي كان يلقيها مصطفى كامل في مصر وفي أوروبا .

٥ - أصدر اللواء سنة ١٩٠٠ . ثم أصدر في سنة ١٩٠٧ صحيفتين يوميتين ، إحداهما بالفرنسية وهي ليتندار إجيبيسيان ، والأخرى إنجليزية وهي ذى إجيبيسيان ستاندرد . وأسس لذلك شركة مساهمة لإصدار الصحيفتين سنة ١٩٠٦ ، رأس مالها عشرون ألف جنيه . وقد سعت عباس الأعيان على مساعدته بالاكتتاب فيهما ، حتى احتج كرومر على هذا التدخل السافر في معاونته المشاريع المعادية للإنجليز - راجع مصطفى كامل ص ٢٠٢ ، تاريخ الإمام ١ : ٥٩٣ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٠٣

وكان عباس إلى جانب تشجيعه لمصطفى كامل ، يحاول أن يجمع حوله ضباط الجيش وأن يحثهم على عدم الاستسلام والخضوع لرؤسائهم من الإنجليز (١) . وكان يحض الموظفين على الاحتفاظ بكرامتهم والتمسك بحقوقهم واختصاصاتهم إزاء رؤسائهم من ممثلي الاحتلال . فظهرت روح المقاومة بين الموظفين ، واستحكم الخلاف في دواوين الحكومة ومصالحها بينهم وبين الإنجليز ، حتى قال كرومر إن الموظفين جميعاً من أكبر كبير إلى أصغر صغير كانوا تابعين لعصابة الحركة ضد الإنجليز ، التي يقودها عباس . وكان يعرض عن الذين يتوددون إلى الإنجليز ، ويبدون عداً صريحاً واضحاً لكل من يلوذ بهم من الأعيان والعمد والمشايخ ، ويسيء استقبالهم في القصر في مختلف المناسبات (٢) .

من أجل ذلك كله لم يكن هناك مفر من اصطدام عباس بكرومر ممثل الاحتلال ولم يكن هناك وسيلة لتجنب هذا الصدام المتوقع (٣) .

وظل كرومر يتصيد الفرصة المناسبة ليضرب ضربه دون أن يكون هو البادئ ، حتى يقطع السبيل على كل احتجاج ، وحتى لا يبدو أمام الرأي العالمي العام معتدياً (٤) . وسرعان ما وجد الفرصة المناسبة عندما انتهز عباس مرض

---

١ - كان من آثار ذلك فصل عدد من الضباط المصريين في السودان سنة ١٨٩٩ ، من بينهم حافظ إبراهيم الشاعر - راجع تاريخ الإمام ١ : ٥٩٢ ، عباس الثاني ٨٢ ، ليالي سطح ص ٨١ ، ١٠٩ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٢١ .

٢ - عباس الثاني ص ٥٧ ، مذكراتي في نصف قرن : ٨٠

٣ - بدأ هذا الاصطدام باستخفاف ضباط الجيش من الإنجليز بالخدوي وإهمال تحيته في الطرقات والمجتمعات العامة ، مما دعاه للشكوى إلى كرومر من سوء أديهم - راجع مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١١٦ ، عباس الثاني ص ٢٩ .

٤ - يقول كرومر « أما أنا فقد عرفت أن لا مفر من وقوع نزاع شديد . ولكني اعتقدت أن البدء في النزاع لا ينطبق على السياسة الرشيدة . . . فالحلطة التي كان يجب على أتباعها كانت

مصطفى فهمي فتخلص منه بإقالته في ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ ، وأصدر أمره إلى حسين فخري بتشكيل الوزارة ، مكتفياً في كل ذلك بإبلاغ كرومر بما تم .<sup>(١)</sup> وأبرق كرومر إلى وزير الخارجية البريطانية يقول : « إن وقوع نزاع شديد مع الخديوي - كما قدّرتُ منذ وقت طويل - أمر لا بد منه . ولا أرى من الصواب تأخيرهُ . وإني أرى وجوب انتهاز هذه الفرصة لوضع حد لهذه الأمور . وإني أرى أن لا فائدة من اقتصار فخامتكم على نصحه ، بل أقترح أن ترسلوا إلي برقية أستطيع أن أريها لسموه ، تذكرون فيها بكل جلاء أن حكومة جلالة الملكة تنتظر أن يؤخذ رأيها في المسائل الهامة مثل مسألة تغيير النظار . . . كذلك أقترح إعطائي السلطة بأن أتخذ الوسائل اللازمة التي أرى وجوب اتخاذها لمنع هذا التغيير . . . الخ » . وأصدر كرومر أمره في الوقت نفسه إلى الموظفين البريطانيين بأن لا يعترفوا بالوزارة الجديدة حتى يتلقوا أوامره<sup>(٢)</sup> .

وجد الخديوي الشاب نفسه وحيداً أمام السياسي العجوز . فالكتلة الشعبية لا تتجاوز قوتها كلاماً يقال ، أو مظاهرات تجتمع ثم تنفض . وقنصلاً فرنسا وروسيا اللذان كانا يشجعانه على مقاومة الإنجليز قد تخليا عنه . ورأى كرومر أن من الأفضل أن لا يسرف في إذلاله ، وأن يدع الباب مفتوحاً للتفاهم ، لعله يستطيع من بعد أن يتألفه ، فحل المسألة حلاً وسطياً ، وذلك بأن لا يعود مصطفى فهمي إلى رئاسة الوزارة ، وبأن يعزل فخري في نفس الوقت ، ويعهد في تأليف الوزارة إلى مصطفى رياض . ولكنه أصر على أن يتقدم عباس إليه بخطاب

---

= مرسومة واضحة . وهي أنه كلما كان يتحقق اقتراب الأزمة كانت تزداد الخلجة إلى الاعتدال المتناهي ، لكي أبعد كل ما يدعو إلى الاشتباه بأن الأزمة أثّرت عمداً . . . « عباس الثاني ص ٣٠ - ٣١ .

١ - كان مصطفى فهمي من أطوع رؤساء الوزارات المصريين للإنجليز وأوثقهم صلة بهم ، حتى لقد روى أحمد شفيق وكرومر أنه أجاب رسول عباس إليه حين طلب منه الاستقالة بقوله : إن الأوفق لسموه أن يستشير اللورد كرومر قبل أن يتخذ خطوة في هذا السبيل . راجع مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٥٨ ، عباس الثاني ص ٣٤ .

٢ - عباس الثاني ص ٣٥ - ٣٦ ، مصطفى كامل ص ٢٦٤ .

أملَى هو صورته، يقول فيه « إنه يرغب رغبة شديدة في أن يوجه عنايته إلى إيجاد أصدقاء العلاقات الودية مع إنجلترا . وأنه يسير بكل رضا بموجب نصيحة حكومة جلالة الملكة في كل المسائل المهمة في المستقبل <sup>(١)</sup> » .

وظن كرومر أنه قد لقن الخديوي الشاب درساً لن ينساه . وكان يتوقع أن يجد في رياض - عده المبادئ العربية القديم - عوناً على ترويض عباس وكسر حدثه . ولكن الذي حدث هو أن رياضاً قد انقلب إلى مؤازرة عباس ، وظاهره في موقفه العدائي من إنجلترا ، فمنع الموظفين الإنكليز ممن جرت العادة بأن يحضروا مجلس الوزراء من حضوره ، وقرر أن تكون اللغة العربية هي لغة التعليم في المدارس الأميرية ، بعد أن كانت معظم الدروس تلقى باللغة الإنكليزية <sup>(٢)</sup> . وكثر الصدام في عهده بين الموظفين المصريين والإنكليز <sup>(٣)</sup> . وتشجعت الصحف الوطنية على مهاجمة سلطات الاحتلال ، حتى اضطر إزاء إلحاح كرومر إلى إيقاف صحيفة « الأستاذ » وإبعاد صاحبها عن وطنه .

ومضى عباس لوجهه لا يراجع ، يؤيده رياض ، وقد تأثر بما رأى من إجماع الشعب على تأييد الخديوي . فقد ظلت الجموع من مختلف الطبقات تتوالى على القصر طوال اليوم الأول لتوليهِ الوزارة ، تهتف داعية للخديوي مشيدة بوطنيته وجرأته . وهاجم فريق من الشباب ، وعلى رأسهم مصطفى كامل - وكان وقتذاك طالباً في الحقوق - صحيفة « المقطم » التي كانت تؤيد الإنكليز وتهاجم الخديوي <sup>(٤)</sup> . وتجلى حماس الشعب في استقبال عباس حين

١ - عباس الثاني ص ٣٧ - ٣٩

٢ - مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٨٨ - ٩١

٣ - مثال ذلك ما حدث حين أصر ماهر باشا وكيل الحربية على أن يعرف مرتبات ضباط الجيش من الإنجليز لمقارنتها بمرتبات زملائهم من المصريين . وكان السردار يحرص على الاحتفاظ بمثل هذه البيانات في طي الكتمان ، وقد تعود منذ الاحتلال أن لا تكون موضع مناقشة - عباس الثاني ص ٥٦ - ٥٧ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٨٠ .

٤ - عباس الثاني ص ٤٥ .

ذهب إلى مسرح الأوبرا لمشاهدة رواية « عابدة » بعد الأزمة بأربعة أيام<sup>(١)</sup>

لذلك لم يمض على أزمة مصطفى فهمي عام حتى تصيد كرومر فرصة لتوجيه لطمة جديدة قوية إلى عباس ، حين وجد الفرصة مواتية في حادثة تافهة ، احتك فيها الخديوي بكتشنر - سردار الجيش وقتذاك<sup>(٢)</sup> - فبادر كرومر إلى الاتصال برياض ، وطلب تقديم اعتذار رسمي من الخديوي عباس ينشر في الصحيفة الرسمية ، مهدداً بخلع . وأسرع رياض إلى مقابلة عباس في جرجا قبل عودته إلى القاهرة ، وقد ملأ الرعب قلبه ، وأقنعه بقبول شروط كرومر . فلم يجد الخديوي ، « وقد وجد نفسه وحيداً للمرة الثانية ، بدأ من قبولها . ونشرت البرقية التي اعتذر فيها عباس إلى كتشنر في الصحف العربية ، كما نشرت ترجمتها الفرنسية في الصحف الأوروبية<sup>(٣)</sup> . وكانت هذه الحادثة ضربة قاضية لنفوذ عباس في الجيش . فقد انتهى الأمر فيه إلى ما توقعته صحيفة « الأهرام » في تعليقها على الحادث ، واستنكارها لموقف رياض من الخديوي بمساعدته الإنجليز على إملاء شروطهم وإذلال عباس ، حين قالت : « إن الضباط والعساكر المصريين سينتهي بهم الأمر إلى أن لا يعرفوا رئيساً عسكرياً سوى كتشنر باشا ، ولا رئيساً سياسياً سوى اللورد كرومر » .

\* \* \*

كان اصطدام الخديوي بالإنجليز يزيد عطف المصريين عليه وحبهم له .

١ - مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٦٢

٢ - وذلك أن الخديوي سافر في رحلة إلى الحدود . فلما بلغ وادي حلفا وعرض الجيش في ١٨ يناير سنة ١٨٩٤ ، أبدى للسردار - وهو وقتذاك كتشنر - بعض الملاحظات التي تدل على عدم رضائه عن تدريب بعض الفرق . ولم يدع كرومر الفرصة تفلت من يده ، فهو يقول : « إن الفرصة التي كنت أرقبها قد جاءت . وإنه من الصعب اختيار ميدان للواقعة أنسب من هذا الميدان » فانتهاز هذه الفرصة لإذلال عباس - عباس الثاني ص ٦٠ .

٣ - راجع التفاصيل في مصطفى كامل ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٢٠

- ١٣١ ، عباس الثاني ص ٥٨ - ٦٦

وكان هو من جانبه لا يدع فرصة للاتصال بالشعب إلا اقتنصها . (١) لذلك لم يكن عجباً أن يقبل عليه الشعراء مادحين وأن يمجّدوا فيه وطنيته الصادقة وميوله المصرية ، التي كانت شيئاً جديداً من هذه الأسرة التركية التي عاملت الشعب من قبل بكثير من الترفع والاحتقار . ومن الإنصاف لهؤلاء الشعراء الذين مدحوه في هذه الفترة الأولى من حياته — وهم كثرة كبيرة ، لا يكاد يشذ عنها شاعر من شعراء ذلك العصر — أن نقول : إنهم كانوا مدفوعين إلى ذلك بشعور وطني خالص لا تشوبه شائبة من التزلف أو الملق ، فقد جمع عباس في هذه الفترة الأولى من حكمه بين الزعامة والملك . وهذا هو عبد الله النديم ، خطيب الثورة العربية ، الذي لم يحد عن مبادئها حتى مات غريباً في تركيا ، لا يني عن الإشادة به في كل مكان من صحيفته « الأستاذ » ، محاولاً أن يجمع المصريين حوله ، وأن يجعله قطب الحركة الوطنية في ذلك الوقت . وهذا هو مصطفى كامل ، قائد الحركة الوطنية المناهضة للاستعمار ، يقول في خطبة له بالإسكندرية سنة ١٨٩٦ :

« والحمد لله . فقد أصبحت مصر عارفة بحقوقها ، وأصبح أبناؤها عارفين واجباتهم نحوها ، مستظللين جميعاً — على خلاف ما يشتهي الدخلاء — براية الوطنية الشريفة الحامل للوائها عزيز مصر وأميرها الجليل عباس حلمي باشا .  
« أراكم أيها الوطنيون الأوفياء ، والمستوطنون الأعزاء ، صفقتم وهللتم ، وبدت عليكم علامات البشر والسرور ، عندما ذكرت اسم عزيزنا المحبوب . فاسمحوا لي أن أحمدكم من صميم فؤادي ، وأشكركم على المكانة السامية لأمرنا الكريم في نفوسكم ، الدالة على أن الشعب المصري كله قد ر هذا السيد حق قدره ، وعرف أنه حقيق بأن يُحَبَّ ويُخدَم بصدق وإخلاص ، جدير بأن يساعد في خدمة الوطن العزيز . »

---

١ — راجع على سبيل المثال وصف رحلة الحديوي عباس إلى الصعيد لافتتاح الخط الحديدي بين أسيوط وجرجا سنة ١٨٩٣ فقد حرص على زيارة الأقاليم والنزول في ضيافة أعيانها على طول الطريق — مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٨٤ — ٨٧ .

« إن هذا الأمر أرسل ليسترد لمصر حقوقها ، ويعيد لها أملاكها المفقودة .  
فليكن منا رجال أوفياء يساعدونه على هذا العمل الخطير ، وينسون أشخاصهم  
في جانب خدمة البلاد . فإن الوطن يستغيث بكل ذي شعور حي ، والأمة  
تستنجد بكل ذي إحساس شريف . »

« ولا يجب أن ننسى أن أميرنا المحبوب سهل علينا كثيراً خدمة الوطن  
الشريف . فإنه هو الذي أسمع أوروبا أن مصر ترغب بغيره وتشوق نوال  
حريتها التامة . وهو الذي أزال الخلاف القديم بين مصر والدولة العثمانية ، وأيد  
العلائق الحسنة ، وأحبط مساعي الدخلاء مريدي التفريق . فلنساعده جميعاً  
فإن في مساعدته خدمة لمصر وأهلها (١) . »

والذي يقرأ مدائح الشعراء لعباس في هذه الفترة ، يستطيع أن يدرك بسهولة  
أن كثيراً منها يدخل في صميم الشعر الوطني ، بما اشتمل عليه من تصوير لذلك  
الكفاح المرير الذي كان يخوضه الخديوي ضد الاستعمار .

وطبيعي أن يكون شوقي في مقدمة هؤلاء الشعراء الذين مدحوا عباساً . ولسنا  
نزعم أنه كان مدفوعاً في كل مدائحه بشعور وطني ، فقد كان شوقي وقتذاك  
شاعر القصر . وقد تضطره وظيفته إلى مدح أميره بالحق وبالباطل . ولكننا  
نقول : إن هذا الشعر طابق الحق في هذه الفترة ، على ما كان فيه من تحوط  
واحتراس ، وتجنب لمهاجمة الاحتلال مهاجمة صريحة في أغلب الأحيان (٢) .

---

١ - مصر والاحتلال الإنجليزي - مجموعة أعمال مصطفى كامل من مايو ١٨٩٥ إلى مايو ١٨٩٦

ص ١٤٢ - ١٤٣ وراجع كذلك مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢٠٣ .

٢ - من الإنصاف لشوقي في هذا المقام أن نشير إلى ما كان من صداقته لمصطفى كامل ، وإلى أن  
صلته به لم تخضع لصلة الخديوي به قوة وفوراً . ولكنها استمرت وثيقة قوية على كل الأحوال .  
ومن الإنصاف له كذلك أن نذكر أنه كان من أبغض رجال الحاشية إلى الإنجليز . ويدل على  
ذلك ما كان من نصيحة كرومر لعباس في آخر لقاء بينهما قبيل رحيل كرومر ، بأن يبتعد  
عن مصطفى كامل وعلي يوسف وأحمد شوقي . ويدل عليه كذلك إبعادهم إياه عن مصر  
بعد خلع عباس - يراجع في ذلك « مصطفى كامل » للرافعي ص ١٢٠ ، ٣٠٤ ، ٣٢٣ ،  
مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١١٤ - ١١٥ ، ١١٨



ومن أحسن ما قال في هذه الفترة ، مما يتصل بشعر الوطنية ، قوله (١) :

بصوتك حاججنا الممالك والعصرا  
وباسمك أسمعنا ، نريد زماننا  
ونطلبُ حقاً عند هذا الورى لنا  
ففي المليك ! لي في حبذا الملك سيرة  
بأي فؤاد جئتُها في مكانها  
ولا هبَّتْ فيها البأسَ والرأي والحجا  
فما ذقتَ في هذا المقام مودةً  
إذا حمّت النيلَ المؤملَ راحةً  
وإنا لنعطي النيلَ في الله خلقه  
فما ساءنا أن غالنا الدهر شطرنّا  
بعثنا وعيداً من زئير وطالما  
عرفنا خطوب الدهر والصبرَ عندها  
وما نلتَ يا عباسُ ما نلتَه سدىً  
سندعو بني الدنيا إلى النيل دعوةً  
وملكاً كما تهوى الأحاديث عالياً  
تضيء به شُورى المرأي التي زكتُ  
وتمرحُ في أيامه النفسُ حرةً

وقلنا فباتت مصرُ في مجدها مصرا  
كبيراً - كعهد العالمين به - حرّاً  
توضّح ، يُزري في توضّحه الفجرا  
فقل لي ، وإني من يرى أمرك الأمرا  
من الدهر ، لم تخطيء عزائمك الدهرا ؟  
خصوصاً ، وذاك الملكَ والبرّ والبحرا  
لقوم يذوق الناسُ ودّهموا قسراً (٢)  
فقد حمّت الشمس الكرمة والبдра  
ونخشاه فيه أن يُباعَ وأن يُشرى  
ولكنما نرعى لأبنائه الشطرا (٣)  
بعثنا السكونَ الجهمَ والنظرَ الشزرا  
فلم نعرف الخطبَ الذي غلب الصبرا  
ولكنْ أصاب الصابرون بك الأجر  
يلبّون منها الجاه والنائلَ الغمرا  
كأن الحديوي فيه قيصر أو كسرى  
وتشرق أركان القضاء الذي برّا  
تناولها قُشْباً وتلبسها خضرا

وهو يشير في قصيدة أخرى إلى شدة إقبال الشعب على عباس والتفافه حوله  
كلما اشتدت الأزمات ، وكلما أسرف الإنجليز في التضييق عليه فيقول (٤) :

١ - ديوان شوقي طبعة سنة ١٩١٢ ص ٨٣

٢ - يقصد بالذين يذوق الناس ودهم مرغمين الإنكليز .

٣ - يقصد بالخطر الأول الذي غاله الدهر : السودان ، أما الشطر الثاني الذي يرعاه الحديوي  
لأبنائه فهو مصر .

٤ - ديوان شوقي طبعة سنة ١٩١٢ ص ٧٣

بِعَبَّاسٍ عَشْنَا حِينَ لَا الْعِيشُ هَيِّنٌ      وَحِينَ بَنُوهُ لَا جَمِيلٌ وَلَا حَمْدٌ  
تَحَبُّكَ يَا خَيْرَ الْمُلُوكِ رَعِيَّةٌ      لَهَا مِنْكَ مَا يَخْفَى ، وَلِلْحَالِ مَا يَبْدُو  
وَلَاءَ مَعَ الْأَيَّامِ ، تَنْمُو صُرُوفُهَا      فَيَنْمُو ، وَتَشْتَدُّ الْخُطُوبُ فَيَشْتَدُّ

ويشير إلى قيادة عباس للحركة الوطنية وكفاحه للاستعمار في قصيدة ثالثة  
حيث يقول (١) :

هذه مصر جاءها النيل يسعى      وهو يا طالما جفاها وصدا  
صاحبَ النيل في البرية إيسه      حرَّرَ النيل للبرية ورُدا  
أرفع الصوت إن عصرَكَ حرٌّ      لن يرى من سماع صوتك بُدا  
إنما المُلْكُ أن تكون بلاد      وتصيبَ البلادُ بالملك مجدا  
فقولَ الذي سننتَ ونجحَ      لرعاياك في المعارف قصدا  
ومرُ العلمَ أن يزور بلاداً      عَهِدَتْهَا لَهُ الْخَلَائِقُ مَهْدا

وهو يشير في هذه القصيدة إلى ما كان من احتجاج الإنجليز على تقريب  
الخليوي له ، ونصحهم إياه بإقصائه عنه فيقول :

قلْ لِرَاجٍ أَنْ يَسْتَرِقَ يَرَاعِي      أَنَا لَا أَشْتَرِي بَذَا التَّاجَ قِيدَا  
لِيَرَاعِي وَلِلْأَحَادِيثِ شَأْنُ      أُرْتَجِي أَنْ يَكُونَ مِسْكَاً وَنَدَاً  
نَوْمَةُ السِّيفِ قَدْ تَكُونُ حَيَاةً      وَرَأَيْتُ الْيَرَاعَ إِنْ نَامَ أَرْدَى  
خَلَقَ اللَّهُ ذَاكَ صَاحِبَ غِمْدٍ      وَبَرَا ذَا لَا يَعْرِفُ الدَّهْرُ غِمْدَا

ويشير إلى حيرة المصريين ، وما صاروا إليه من سوء الحال ، مشيداً بجهد  
عباس ، الذي لا يعرف قلبه اليأس ، حيث يقول (٢) :

أَبَا الْخِيَارِ !.. أَلَا رَأَيْتُ فَيَعْصِمُهُمْ      فَلَيْسَ إِلَّا إِلَى آرَائِكَ الْهَرَبُ  
بَاتُوا يُرْجَوْنَ لَمَّا طَالَ بُؤْسُهُمْ      وَالنَّفْسُ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْخَطْبِ تَرْتَقِبُ

١ - المرجع نفسه ص ٦٨

٢ - ديوان شوقي طبعة سنة ١٩١٢ ص ٥٨

لن يعرف اليأس قوم أنت حصنهمو      وأنت رايتهم والفيلق اللّجب  
عودتهم أن يبينوا في خلائقهم      وأنت عان بما عودتهم تعب  
والصدق أرفع ما اهتز الملوك له      وخير ما عود ابناً في الحياة أب  
ولنما الأمم الأخلاق ما بقيت      فإن همّو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويشيد حافظ بقيادة عباس للحركة الوطنية في قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٤  
حيث يقول (١) :

رَدَدْتَ ما سلبت أيدي الزمان لنا      وما تقلّص من ظل وسلطان  
... فكن بملكك بناء الرجال ولا      تجعل بناءك إلا كلّ معنوان  
وانظر إلى أمة لولاك ما طلبت      حقاً ولا شعرت حباً لأوطان

ويقول إسماعيل صبري في قصيدة مدحه بها سنة ١٨٩٣ : (٢)

عباسُ !... قد سُسّت البلاد سياسة      سيحدث التاريخ عنها الأعصرا  
أنفذت حكمك بادهاً بمسائل      دقت على الحكماء أن تُتصوراً  
وبنيت سداً من ذكائك دونهم      فأريتنا ياً جوج والإسكندرا (٣)  
يا صاحب النيل الذي جرّت به      مصر على البلدان ذبلاً أخضرا  
حققت آمال البلاد وجزّتها      شأواً وما جزّت الشباب الأنضرا  
رامتك شبلًا كي تُعزّ عرينها      فأبيت إلا أن تكون غضنفرأ

ويقول محرم من قصيدة مدحه بها في إحدى رحلاته الكبرى التي كان

١ - ديوان حافظ ١ : ٣٠ ولحافظ قصيدتان سابقتان على هذه القصيدة قالها سنة ١٩٠١ ولم  
يشر فيهما إلى الحركة الوطنية من قريب أو بعيد ، لأنه كان وقتذاك في الاستيداع ، وكان  
يؤمل أن يعود إلى الخدمة . وإنما تجرأ حافظ في هذه القصيدة بعد أن أحيل إلى التقاعد سنة  
١٩٠٣ فانقطع أمله ولم يعد يبا لي غضب الإنكليز .

٢ - ديوان إسماعيل صبري ص ٤٦ .

٣ - يشبه المفسدين بياجوج ، ويشبه عباساً بالإسكندر الذي بنى سداً على «ياجوج وماجوج» ليحول  
بينهم وبين الناس ، كما جاء في سورة الكهف .

يطوف فيها بالأقاليم وينزل في ضيافة أعيانها : (١)

أهلاً بربّ النيل يلقي شعبه	فَرِحاً يَضْجُ مهللاً ومكبراً
فرعون ينظر من خلال عَصُورِهِ	خزيانَ يرفع كفه مستغفراً
سُئِلَتِ الرعية عادلاً تبغي لها	عزّ الحياة ، وساسها متجبراً
جحد الإله وفي يديك كتابه	تقضي به وتعيده متدبراً
الملك إصلاحٌ وعدلٌ شائع	يحمي الضعيفَ ويقمع المتكبراً
ورعايةٌ تهب النفوس حياتها	وتردّ جيش البؤس عنها مدبراً
مولايَ أحييتَ الرجاء لأمة	شهدتَ بطلعتك الرجاء الأكبر
صديقُ الولاء أمانة لك في دمي	يأبى لها الإيمانُ أن تتغيراً
لستُ الذي يرضى العُقوقُ سجيّة	ويرى القلبُ في المذاهب متجراً
لو كنتُ طالب حاجة لوجدتني	أسعى إليها في ذرّاك مشمراً
ولو أنّي ممّن يتوقُّ إلى الغنى	لوجدته بندي يديك ميسراً
ما في الحياة على تعاظم شأنها	ما يستخفّ العاقل المتبصراً
لو كان لي قصرٌ يُزارُ جعلته	لوفادةِ العباسِ بدعاً في الورى

ويقول الكاشف ، من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠١ : (٢)

مرّ بالنيل قبل عهدك دهر	كان فيه لا يرتوي الورادُ
وبواديه - وهو أجذبُ محلّ -	يشتكي عنده الطوى الروادُ
... فيك آمالنا الكبارُ ، وفينا	لك حب وذمة وانقياد
ولديك النجاة من كل عاد	وإليك السكون والإخلاص
أنخاف العدى وأنت محيطة	بالذي دبّر الدهاة وكادوا
وجدوا ما نووه ما دمت في مصّ	مرّ محالاً فاستسلموا أو كادوا
واكتسوا شيمة الصديق فما يظ	هرّ منهم إلا الرضى والوداد

١ - ديوان محرم ٢ : ١٢٨ - ١٢٩

٢ - ديوان الكاشف ١ : ٢٣

ويقول من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٣ : (١)

إن الذي أحيا البلادَ بنيلها  
وهبتك عالي عرشها، وهبتها  
لا يبلغُ الأقوامُ منها مأرباً  
وسينجلون كما انجلت من قبلهم  
سعيًا لتسينا بموعد الرضى  
إنا ل نرجو بعد أهبتك التي

لكَ مُرْجِعُ بكَ مجدها المصوب  
عدلاً فكنت الواهب الموهوب  
ما دمت فيهم ناقدًا وحسيبا  
أُممٌ أشد وقائعاً وحروباً  
إثمًا جناهُ مَنْ مَضَوْا وذنوباً  
بهرت حُسودك صيحة فتوئباً

ويقول عبد المطلب من قصيدة مدحه بها حين عاد من الحج سنة ١٩١٠ م (٢) :

يدعو لمصر بأن يراها أحرزت  
بلد عرفناه بهيم بحبه  
وهو الغياث لمصر إن عبيثت بها  
وهو الذي وقف المواقف كلها  
يدعو ويرجو نصرها مبتلا  
فعلى بنيها أن يحل ولاؤه

في دولة العلياء كل نصاب  
منذ الشباب وقبل عصر شباب  
أيدي ثعالب في الورى وذئاب  
في نصر مصر وقوف ليث الغاب  
لله بين القبر والمحراب (٣)  
منهم مع الأرواح والألباب

ويقول عبد الحليم المصري من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٦ ، وكان وقتذاك تلميذاً بالمدرسة الحربية (٤) :

لكَ اللواءان فوق الإنس والجان  
رَبُّ الأسود التي يوم الكربة لا  
لبثت في أمة السكسون تقرضها  
و كنت كالدهر لو أغفت لواحظهُ

فاخذل عداتك من قاصٍ من داني  
يروون إخوانهم فيها بإخوان  
عدلاً يعدل وعدواناً بعدوان  
له على الناس قلبٌ غيرُ وسنان

١ - ديوان الكاشف ١ : ٣٢

٢ - ديوان عبد المطلب ص ٢٥

٣ - يقصد « بين القبر والمحراب » أي قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومنبره ، في مسجده بالمدينة المنورة .

٤ - ديوان عبد الحليم المصري ١ : ١٦ - ١٩

... هَمَمْتُ بِالْمَدْحِ وَالْدُنْيَا تَتْبَطِنِي      وَكَانَ مَدْحُكَ مَقْرُونًا بِإِيمَانٍ (١)  
فَإِنْ ظَفَرْتُ بِأَمَالِي سَأَخْذِلُهَا      وَإِنْ خُذِلْتُ فَإِنِّي ذَلِكَ الْجَانِي

\* \* \*

هكذا أحب الناس عباساً في صدر حكمه . وكذلك مدحه الشعراء مخلصين غير منافقين . ولكن الحال لم يدم على هذا المنوال . فقد تضعضع عباس وخار عزمه أمام اللطمتين القاسيتين اللتين تلقاهما من كرومر . ولم يدرك ماذا يصنع . هذه هي فرنسا وروسيا ، تشجعانه على مقاومة النفوذ الإنكليزي ، ثم تتخليان عنه في المآزق . وهذا هو الشعب من ورائه ، قصارى جهده أن يصفق وأن يهتف بحياته أو بسقوط الظلم ، فجهدته جهد المقل ، وحببه حب الضعيف الذي لا يضر ولا ينفع . وهؤلاء هم الذين اصطفاهم وقربهم إليه : مصطفى كامل وعلي يوسف ، لا تتجاوز وسائلهم الحطَبَ والمقالات . وهؤلاء هم أعيان المصريين وكبرائهم ، يسرعون إلى موكب الظافر يرتمون تحت أقدامه ابتغاء النفع (٢) . والجيش — على ضآلته وضعفه — والشرطة والأداة الحكومية بعد

١ — يشير إلى أن مدحه يغضب كرومر ويغضب الإنجليز أصحاب السلطان ويعرضه للاضطهاد لأنه كان وقتذاك طالباً في المدرسة الحربية .

٢ — من أمثلة ذلك ، تصريح فخري باشا الذي رشحه عباس لرياسة الوزارة بعد إقالة وزارة مصطفى فهمي ، بأن الاستعمار الإنكليزي أهون من غيره ، وأنه لو تولى الوزارة لما فكر في الاستغناء عن خدمات الموظفين الإنكليز ، لأن مصر لا تستطيع تصريف أمورها بغير مشورتهم « مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٧٤ » . ومن أمثله كذلك تراجع ماهر باشا الذي كان من ألد أعداء الإنكليز بعد اللطمة التي تلقاها عباس في أزمة الحدود ، وبعد نقله من وكالة الحربية في هذه الحادثة بأمر كرومر . فقد انضوى إلى الإنجليز بعد ذلك مستينساً من مقاومتهم « عباس الثاني هامش ص ٥٨ » . ومن أمثله كذلك انصراف رياض باشا إلى التقرب لكرومر بعد أن أقاله عباس من رياسة الوزارة لتخليه عنه في حادث الحدود . وقد ظهر تزلفه هذا في خطبته المشهورة عند افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية سنة ١٩٠٤ .. وهي الخطبة التي هاجمه شوقي بسببها في قصيدته « خاتمة رياض » ( عباس الثاني هامش ص ٦٦ ، مصطفى كامل ١٤٤ - ١٤٧ ، ديوان شوقي ١ : ٢٤٩ ) . وهكذا جنح معظم رجالات مصر إلى موالة الاحتلال واكتساب رضاه ، فانتشر دروح الخضوع والاستسلام بعد انسحاب =

ذلك كله في يد كرومر . فكيف يصنع ؟

بدا لعباس بصيص<sup>١</sup> ضئيل من الأمل يشع من باب الخليفة في تركيا ، فتبعه وطرق باب السلطان عبد الحميد ، يرجو أن يجد عنده الملجأ من كرومر ، وارتمى بين أحضانه كما يرتمي الطفل بين يدي أبيه طلباً للحماية من كلب ضار . وخيل إليه أن السلطان سينصفه ، فبالغ في إذلال نفسه له والتأدب بين يديه<sup>(١)</sup> . ولكن عبد الحميد كان غارقاً في متاعبه الخاصة . وكان هو نفسه عاجزاً عن مقاومة الدول الأوروبية والتخلص من نفوذها ، وفي مقدمتها إنكلترا ، فكيف يدفع الضر عن غيره من لا يستطيع دفعه عن نفسه ؟ . . وكيف يعين عبد المعين وهو أحوج لمن يعينه ؟ . . كما يقول المثل المصري<sup>(٢)</sup> .

وأخذ كرومر يرقب رحلات عباس إلى الآستانة وعلى غمه ابتسامة ساخرة . وهذا هو السفير البريطاني في الآستانة يقول : « إن السلطان نصح للخديوي بطريقة أبوية أن يفوض أمره إلى الله ، ويرضى بما قسم له ، ويثق بفعل الزمن ، محافظاً دائماً على العلاقات الحسنة مع الإنكليز » . ويقول كرومر عن وفد عباس إلى تركيا وعن العريضة التي رفعوها إلى الخليفة ، في عبارة ملؤها الشماتة والاستخفاف : « ومهما تكن البواعث التي جعلت السلطان يعاملهم هذه المعاملة ، فلا ريب أنهم نالوا ما يستحقون . فإن هذه العريضة كانت ألطف فصل هزلي في رواية الحركة ضد الإنجليز . . . هذه هي النتيجة الوحيدة من زيارة الخديوي

---

= فرنسا من فاشودة سنة ١٨٩٨ وبعد اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ ( مصطفى كامل ١٠١ و ١٠٨ ، ١٠٩ ) ونفثى الضعف والنفعية والانصراف عن متابعة الحركة الوطنية بعد اتفاق فرنسا وإنكلترا سنة ١٩٠٤ « مصطفى كامل ١٤٢ ، ١٤٣ » .

١ - زار عباس السلطان عبد الحميد في ثلاث سنوات متتالية عقب أزمة الوزارة الفهمية في سنوات ١٨٩٣ ، ١٨٩٤ ، ١٨٩٥ . ويروي أحمد شفيق في وصف المقابلة الأولى أن الخديوي كان يقف مؤدياً التحية العسكرية للسلطان عبد الحميد كلما أجاب عن سؤال يوجهه إليه . كما روي أنه امتنع عن التدخين في حضرته حين قدم إليه لفاقة تبغ ، ولم يسمح لنفسه بالتدخين حتى أمره السلطان بذلك قائلاً : الطاعة فوق الأدب « مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٠٣ »

٢ - المثل بلهجة الشعب « جيتك يا عبد المعين تعني لقيتك يا عبد المعين تمنان » . والمعين هو الله سبحانه وتعالى .

للآستانة . فإنه اقتنع بأن لا ينتظر أي مساعدة من هذه الجهة . ذهب شاهراً  
الحرب ، وعاد خصباً مؤدباً ذليلاً « (١)

واضطرب تفكير عباس ، وراح يتخبط في تصرفاته . فهو تارة يفر من  
الإنكليز إلى تركيا . وهو تارة أخرى ينصرف عن السلطان محتماً منه بالإنكليز (٢) .  
وهو كاره لكليهما في الحالين : لا تطمئن نفسه إلى هذا ولا ذاك . ولكن صلاته  
بتركيا تقوى وتضعف تبعاً لحسن صلاته بالإنكليز ، وصلاته بالإنكليز تزيد  
وتقل تبعاً لإقبال السلطان عليه أو انصرافه عنه (٣) . وبينما كان عباس يشجع  
أعضاء « تركيا الفتاة » الفارين إلى مصر من مطاردة السلطان عبد الحميد (٤) ، إذا به  
ينقلب إلى محاربتهم تقرباً للسلطان (٥) . وبينما هو مقبل على الشعب محتضن مطالبه ،  
ويشجعه على تقديم العرائض للمطالبة بالدستور التماساً للحد من نفوذ كرومر (٦) ،  
إذا به يتنكر للشعب وزعمائه ، ويُعرض عن مطالبه . حين يرى إقبال غورست  
« خليفة كرومر » عليه ، فيحارب الحرية والصحافة ويُغضى عن الزج بأصدقاء  
الأمس في السجون (٧) . فإذا مات غورست وحل محله كتشنر « عدوه القديم في

١ - عباس الثاني ص ٥٥ ، ٥٦

٢ - مذكراتي في نصف قرن : ٢ : ٤١١ ، ٢ : ١٦ ، ٢٠ ، ٢١

٣ - سافر عباس للآستانة في أول حكمه ثلاث سنوات متتابة ثم انقطع سنة ١٨٩٥ بعد زيارة  
الأسطول الإنكليزي للإسكندرية . وسافر إلى لندن سنة ١٩٠٠ حين فرت صلته بالسلطان  
بسبب تشجيعه للفارين إلى مصر من أعضاء « تركيا الفتاة » . ولكنه عاد لاستمالة السلطان حين  
أمر كرومر بتفتيش قصره في حادث « ليون فهمي » سنة ١٩٠١ . ولم يلبث أن انصرف إلى  
التقرب من الإنكليز حين اختلف مع السلطان على جزيرة « طاشوز » سنة ١٩٠٢ . وهكذا ظل  
طول حكمه يفر من الإنكليز إلى الترك تارة ، ومن الترك إلى الإنكليز تارة أخرى . وكان بما  
يفسد عليه صلته بالسلطان مكاييد « الأمير حليم » الصدر الأعظم ، وقد كان طامعاً في عرش  
مصر « راجع مذكراتي في نصف قرن في السنوات السابقة » .

٤ - مذكراتي في نصف قرن : ٢ : ٣٠٣ - ٣٠٨ ، ٢ : ٤ ، ٨ ، ١٤٩ - ١٥٠

٥ - المرجع نفسه ٢ : ٣٦٨ ، ٣٩٤ - ٣٩٥ ، عباس الثاني ٧٧ - ٧٨ و ٨٠

٦ - محمد فريد : ٥٧ ، ٥٨ مذكراتي في نصف قرن : ٢ : ١١٤ و ١١٨ ، ١٥٣ و ١٥٤

٧ - المرجع نفسه ٦٤ ، ١٠٠ ، مذكراتي في نصف قرن : ٢ : ١٦٧ و ١٦٨ و ١٧٣

و ١٨٢ و ٢٣١ .



حادثة الحدود « عاد يلتمس عون الزعماء الذين زج بهم أمس في السجون (١) .  
كان هذا التذبذب والتخبط داعياً لاختلاف آراء الناس في عباس :  
أكان مخلصاً لمبادئه ولكنه غلب على أمره ؟ .. أكان صادق النية ولكنه غالب  
التيار فغلبه ؟ ... أكانت آماله أكبر من همته فلم يصبر للكفاح ؟ ... أم أن حبه  
للملوك وتعلقه بما يحيطه من أهبة وجاه كان أكبر من حبه لقومه ووطنه ؟ ... أم  
أنه كان يسعى إلى زيادة نفوذه وإطلاق يده من كل قيد ، فهو يلتمس الوصول  
إلى هذه الغاية من كل سبيل ؟ ... وهو إذن لا يكره الاحتلال الإنكليزي نفسه ،  
ولكنه ينافس مثله وينازعه السلطان ؟ !

مهما يكن من دخيلة أمره ، فقد انتهى إلى نهاية لا يختلف عليها اثنان .  
انتهى إلى اليأس والاستسلام . فشهد العرض العسكري الذي كان يقيمه جيش  
الاحتلال في ميدان عابدين بمناسبة عيد ميلاد الملكة فكتوريا ، ثم الملك إدوارد  
السابع من بعدها . ووقف للمرة الأولى تحت العلم البريطاني بجوار اللورد كرومر  
في سنة ١٩٠٤ ، مرتدياً بدلة التشريفية الكبرى يحيط به حرسه الخاص (٢) . ثم  
قبيل تعيين « ياور » إنكليزي له في سنة ١٩٠٥ (٣) . ثم نشرت له صحيفة « الديلي  
تلغراف » حديثاً في سنة ١٩٠٧ ، بعد تعيين غورست ، ينفي فيه عن نفسه  
همة العمل ضد الاحتلال ، مطرياً اللورد كرومر ، مصرحاً بأنه لا فائدة  
للمصريين من استبدال احتلال باحتلال ، وبأن الاحتلال الإنكليزي أفضل من  
أي احتلال آخر (٤) .

وانصرف عباس في غمرة يأسه إلى المال يجمعه في شره ، ويكدسه في نهم ،  
ولا يبالي شيئاً غير تحقيق منفعته ، معتذراً عن مسلكه بأنه يعادي دولة قوية  
قاهرة يحتاج في حربها إلى المال ، وبأنه لا يدري هل ينتهي الأمر بظفره فينجح

١ - مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٣٠٣ ، محمد فريد ٣٤٤ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩١

٢ - مصطفى كامل ١٥٢ و ١٥٣ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٥٦

٣ - مصطفى كامل ص ١٥٥

٤ - مصطفى كامل ٢٨٧ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١١٥ - ١١٦

١. إجلائها أم تظفر هي فتطرده خارج مصر ؟... فهو يحتاط لنفسه بأن يدّخر ما يمكنه من العيش إذا دارت عليه الدائرة (١). والأمثلة على هذا الشره كثيرة . منها جزيرة طاشوز (٢) ، وشركة الزبرجد والنحاس (٣) . ومنها بيع الرتب والنياشين وما استتبعه من فضائح (٤) . ومنها حرصه على وضع يده على إدارة الأوقاف وإطلاق يده فيها دون مراقبة ، مما أدى إلى اصطدامه بحسن عاصم وبمحمد عبده وبقاضي القضاة التركي وبغيرهم في تفتيش مشتهر سنة ١٩٠٤ (٥)

١ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٧

٢ - خلاصة المسألة أن الخديوي اتفق مع أحد الأجانب من السويسريين على إنشاء معصرة زيت هذه الجزيرة سنة ١٩٠٣ وهي وقف لأسرة محمد علي ، وهبها له السلطان مكافأة على حملته الوهابية . وثار سكان الجزيرة حين فرض عباس ضريبة عالية على المعز التي كانت تأكل كثيراً من شجيرات الزيتون ، وشكوا للسلطان ، فأصدر أمره باحتلال الجزيرة حفظاً للأمن . وقد ساءت علاقة عباس بالسلطان من أجل ذلك ، حتى لقد التمس معونة الإنجليز . « راجع التفاصيل في مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٩٥ - ٤٠٦ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦١ - ٥٦٢ »

٣ - ملخص المسألة أن الخديوي اتفق مع ثلاثة ، أحدهم سويسري ، على تأليف شركة لاستخراج اللؤلؤ والأحجار الكريمة من البحر الأحمر ، والتنقيب عن النحاس والمعادن في جزره وفي شبه جزيرة سيناء ، على أن يكون الربح مناصفة بينه وبين الشركاء . وفوجئ عباس بمنافسة شركة إنكليزية له في الطور ، فلم يستطع الوفاء بعقد الشركة . « راجع التفاصيل في مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٦٦ ، ٦٧ »

٤ - كانت الرتب تباع كالسلع ، وكان لكل رتبة سعر معين ، وكان لها وسطاء معروفون ، ربما اعتدى بعضهم على البعض الآخر فنافسه في عملاته . وقد ترتب على ذلك أن الرتب منحت في بعض الأحيان لأشخاص محكوم عليهم في جرائم خلقية كالزوير والاختلاس ، فأحدث ذلك ضجة وكان حديث الناس والصحف . وتدخل كرومر في الأمر مهدداً بسحب امتياز منح الرتب من الخديوي « مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٧ ، ٨ و ٤٣ - ٤٤ » وراجع على سبيل المثال مقالا للطفي السيد نشر بصحيفة « الجريدة » في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨ عن « الرتب والنياشين » المنتخبات ص ٧٢ . .

٥ - ملخص المسألة أن « زورفاداكى » اشترى من الحكومة حديقة الحيزة وسرايها وجزءاً من الأرض الزراعية التي أمامها على النيل . ثم اتفق مع عباس على أن يستبدل أرض الوقف الواقعة بجوار « الكوبري الأعشى » بتفتيش الخديوي في « مشتهر » . وكان الخديوي راغباً في إنفاذ الصفقة للتخلص من تفتيش مشتهر ، وليكون شريكاً لزورفاداكى في الأراضي =

وفي تفتيش «المطاعنة» سنة ١٩١٣<sup>(١)</sup>. وكان الذي يعني الإنكليز من الأمر - إلى جانب تشويه سمعة عباس والتودد إلى الشعب - هو أن لا يتركوا في يد عباس مصادر للمال لا تخضع للرقابة، يمكن أن يستغلها في مناوراتهم. ولذلك كان الشيخ محمد عبده «صديق كرومر» أكثر الناس اصطداماً بعباس في ديوان الأوقاف. وقد بلغ من كره عباس لمحمد عبده أن سخط على كل من اشترك في رثائه أو تشييع جنازته<sup>(٢)</sup>. ومن الأمثلة على هذا الشره في جمع المال مساومته لإيطاليا على شراء سكة حديد مربوط التي كان قد أنشأها لإصلاح أراضيها الزراعية بغرب الإسكندرية، وذلك في مقابل سعيه عند السنوسيين لوقف مقاومتهم للاستعمار الإيطالي سنة ١٩١٢، ثم إقالته لوزارة محمد سعيد سنة ١٩١٤ حين اشترت الحكومة هذا الخط بمبلغ لم يرض شرهه<sup>(٣)</sup>. وقد تدلى عباس في جشعه إلى سفاسف الأمور، حتى لقد فصل موظفاً بسراي رأس التين لأنه رفض أن يرسل حشائياً «مراتب» و«كراسي» إلى تكيّة المتتره، معتذراً بأن «المراتب»

= التي تشتري من الوقف. ولذلك غالى في تقدير أرض مشتهر وبخس أرض الوقف. فلما عرضت المسألة على مجلس الأوقاف الأعلى عارضها محمد عبده، وآزره حسن عاصم رئيس الديوان الخديوي، بما كان سبباً في غضب عباس عليه «مذكراتي في نصف قرن ٢ ب: ٤٥ - ٤٦، تاريخ الأستاذ الإمام ١: ٥٦٢»

١ - ملخص المسألة أن الدائرة السنية باعت ٣٠٠٠ فداناً لمشتريين، قسطاً باقي الثمن للبنك العقاري. وتأخر عليهما قسطا سنتين، فشرع البنك في نزع الملكية. وعند ذاك أوعز الخديوي لديوان الأوقاف بشرائها بالممارسة بأكثر من ضعفي ثمنها حتى لا تبخس في المزايدة الجبري. وقد عارض أحد شفيق الصفقة فنقل من الأوقاف وحل محله آخر مقابل رشوة ٥٠٠٠ جنيه وأنفذ الصفقة. ثم تبين أن الصفقة تمت مقابل ستين ألف جنيه قدمت رشوة للخديوي. وقد علم كتشنر بالأمر فصمم على تحويل ديوان الأوقاف إلى وزارة. «مذكراتي في نصف قرن ٢ ب: ٢٩٢ - ٢٩٨»

٢ - وهذا هو السبب في أن شوقي لم يرثه إلا بثلاثة أبيات. ويراجع في أمثال هذه الفضائح إلى جانب ما سبق تاريخ الأستاذ الإمام ١: ٥٦١، ٥٦٢، ٥٧١، ٥٧٢، عباس الثاني ٧٦، ٧٣

٣ - مذكراتي في نصف قرن ٢ ب: ٣٠٩، وراجع التفاصيل في المرجع نفسه ٢ ب: ٣٢٥، ٣٢٦

يمكن أن يقال إنها استهلكت وأدخل قطنها في « التنجيد » ، أما الكراسي فهي « عهدة » ثابتة ولا يمكن إرسال شيء منها . (١)

ولم يكن شره عباس إلى السلطة بأقل من شرهه إلى المال . فلم يكد كرومر يرحل عن مصر ويحل محله غورست فيرضي شرهه إلى السلطة والمال ويطلق يده في كل ما تشتهي نفسه منهما ، حتى تنكر للحركة الوطنية وحارب رجالها ، وعدل عن تحمسه للمطالبين بالحياة النيابية ، لأنها أصبحت تقيد إرادته بعد أن كانت تقيد إرادة ممثل الاحتلال . وهذا هو مصطفى فهمي الذي تلقى بسببه أول صدمة من الاحتلال ، لا يكاد يخفي بعيد جلوس عباس ، فيقيم الزينات الفخمة أمام بيته ، حتى يرضى عنه ويقبل عليه ويستشير في كل صغيرة وكبيرة . ويروي أحمد شفيق عن استبداده قصصاً عجيبة . فهو يكلف أحد الموظفين حين يغضب عليه بالعمل في نقل الفحم ، فإذا هرب والتحق بإحدى الشركات أمر بإعادته إلى القصر . وهو دائم السب والشتم لموظفيه . بل لقد يبلغ في ذلك أن يضربهم بالسوط بيده (٢) .

\* \* \*

كان انحراف عباس سبباً في تحول الشعب عنه ، ثم سخطه عليه ومهاجمته له ، مما دعاه إلى زج معارضيه في السجون . وأخذ مصطفى كامل يهاجم الحكومة وينتقد تصرفاتها واستسلامها للإنكليز منذ سنة ١٩٠٤ (٣) ، مما أغضب الخديوي ، وانتهى بإعلان مصطفى كامل انفصاله عن القصر (٤) . ولكن مصطفى كامل كان يتفادى الاصطدام بعباس ومهاجمته رغم ما شجر بينهما من خلاف ، حتى لا يتيح للإنكليز فرصة

١ - المرجع نفسه ٢ ب : ١٣٢

٢ - المرجع نفسه ٢ ب : ١٣٢ و ١٤٣ و ١٥٨

٣ - راجع خطبة مصطفى كامل في الإسكندرية : يونيو سنة ١٩٠٤ « مصطفى كامل ١٤٧ - ١٥٠ »

٤ - اللواء عدداً ٢٥ ، ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤ - مصطفى كامل ص ٢٨٢ ، مذكراتي في

نصف قرن ٢ ب : ٥٩ ، ٦٠

للتدخل ، وكان يتخذ القصر وسيلة لتوحيد سياسة الأمة المصرية على مقاومة الاحتلال (١) . وهذا هو ما عناه شوقي حين قال في الذكرى السابعة عشرة لوفاته :

جمعت الناس حول العرش علماً بأن لمصر في العرش اعتصاما  
هو العلم الذي تفديه مصر ونحن الجند في العلم انتظاما

وكان عباس في الوقت نفسه يحس أنه محتاج إلى مصطفى كامل ، لا يستطيع أن يجمع على نفسه بين عداوته وعداوة كرومر ممثل الاحتلال . ولذلك سلمت علاقة مصطفى كامل بعباس رغم انفصاله عنه . فلما خلفه محمد فريد ، شعر عباس بأنه يستطيع الاستغناء عنه بعد أن ساد الوفاق بينه وبين جورست ممثل الاحتلال . ورأى محمد فريد أن عباساً لم يعد مستعداً للمضي مع الشعب في كفاح المحتل الغاصب ، بل لقد رآه يتساهل في حقوق مصر ، حرصاً على صلات الود الجديدة ، أو على سياسة الوفاق كما كانوا يسمونها في ذلك الوقت . عند ذاك هاجم محمد فريد عباساً ، ورد عباس هذا الهجوم ، فأمعن في اضطهاد الحركة الوطنية . واستعان على ذلك ببعث قانون المطبوعات في سنة ١٩٠٩ ، وهو قانون كان قد صدر في أيام الثورة العراقية سنة ١٨٨١ . وسن قانون النفي الإداري ، الذي ينحول للحكومة حق نفي المصري لمجرد الشبهة ، بحجة أنه خطر على الأمن العام (٢) . وبذلك نجح ذلك الداهية الإنكليزي ، غورست ، في صرف جهود الشعب إلى محاربة الخديوي بدلاً من محاربة المحتلين . ووقف الإنكليز موقف المتفرج ، يتدخلون للتوسط ولحل النزاع حينما يحلو لهم ذلك . وتحقق بذلك ما أوصى به اللورد دوفرين في تقريره الذي وضعه في السنة الأولى للاحتلال ، حين نصح بأن لا يتولى الإنكليز حكم مصر المباشر وإدارتها ، مقترحاً أن تحكم بأيد مصرية موالية للاحتلال ، حتى تقع أخطاء الحكم على رؤوس المصريين

١ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٣ ، ٥٩٤

٢ - محمد فريد ص ١٠٠ و ١٠٦ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٧٣ ، ١٨٤ ، ١٧٨ ، ١٨٠

أنفسهم . (١) وكان تصرف غورست صورة من المأساة التي كروها الإنكليز في كل مستعمراتهم على مر السنين . يغرون الزعيم من الزعماء بالمال وبالجاه ، ثم يملون له حتى يتورط في أخطاء تفقده ثقة الرأي العام . فإذا قضوا عليه نبذوه ، وظهروا أمام الشعوب بمظهر الغيورين على العدالة ، الذين يتدخلون للحد من جشعه واستغلاله (٢) . وذلك هو ما حدث مع عباس ، أملوا له حتى تخلى عنه الشعب وأصبح وحيداً . ثم تنمروا عليه ، وبعثوا لمصر بعده اللدود « كشنر » ممثلاً للاحتلال ، يسومه الخسف ويذيقه الذل ويضيق عليه ، حتى لقد لزم قصره مفكراً في التنازل عن العرش .

ومنذ ذلك الوقت أصبح الوطنيون يحاربون في جبهتين ، يحاربون الاحتلال ويحاربون في الوقت نفسه الحديوي وأذناب الاستعمار . وعرفت مصر مظاهرات الطلبة منذ سنة ١٩٠٦ . وبلغ من تحدي الطلبة للحديوي ، وكرههم إياه أن مر بنفر منهم في « قهوة الشيشة » ، وهو في طريقه لتوديع ولي عهد انكلترا الذي كان في زيارة مصر سنة ١٩٠٩ ، فظلوا جلوساً وقد وضع كل منهم ساقاً على ساق ينظرون إليه دون اكتراث (٣) . وأثار هذا الموقف الكاشف فقال ، يخاطب الطلبة ، وقد عز عليه أن يرى الحديوي محوطاً بالحراس خشية اغتياله ، وهو الذي كان يترغم الحركة الوطنية في الأمس القريب (٤) :

أرأيتم الحراس دون ركابه	سداً فما يرنو إليه مسلم
قد يصبح الإنسان شيطاناً ولا	يقع الذي ظنوا بكم وتوهموا
هل نحن أمة قبصر أو جاره	كسرى فيخشى أن يحيط به الدم
أم بعد ما أمين الأعادي ليلـة	يأبى على الخُلصاء أن يتكلموا ؟

وانضم الأزهر للحركة الوطنية ، يتدد مع المتددين بحكم الحديوي الاستبدادي ،

١ - مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ٢٣

٢ - راجع عباس الثاني ص ٧٣

٣ - مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٧٨ .

٤ - قصيدة الكاشف : الطلبة والسياسة . ديوانه ٢ : ٩٥

وبحكم من يشد أزره من أعوان الاستبداد والاستعباد<sup>(١)</sup> . وظهرت المنشورات الثورية التي تدعو إلى تأسيس جماعات سرية للاغتيال<sup>(٢)</sup> . ثم عرفت مصر أول حادث اغتيال سياسي سنة ١٩١٠ حين قُتِل الورداني بطرس غالي رئيس الوزراء . وجهر المعارضون للخديوي بعذائه وتجراًوا عليه . فاستطاع سعد زغلول في سنة ١٩٠٧ أن يضرب بيده المنضدة في إحدى جلسات مجلس الوزراء وهو يقول ، موجهاً الخطاب لعباس : « حينئذ لا يستطيع الإنسان أن يتكلم هنا » . كما استطاع أن يكسب إلى جانبه أغلبية المجلس ضد عباس في مشروع مدرسة القضاء الشرعي . الذي كان يعارضه وقتذاك<sup>(٣)</sup> . ورفض محمد فريد أن يقف عندما عزف السلام الخديوي في حفلة لرعاية الأطفال أقيمت في دار الأوبرا سنة ١٩١٢ ، وكان يشهدا مندوب الخديوي<sup>(٤)</sup> . ونشر محمد عبده مقالا عنيفاً في صحيفة المنار سنة ١٩٠٢ يهاجم فيه محمد علي ، وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس الأسرة العلوية . وقد صور في هذا المقال الجريء كيف وصل محمد علي للحكم ثم كيف احتفظ به . فقال<sup>(٥)</sup> :

« ما الذي صنع محمد علي ؟ .. لم يستطع أن يُحْيِي ولكن استطاع أن يميت . كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش ويمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه .

١ - مصطفى كامل ١٦٢ - ١٦٤ ، محمد فريد ٧٧ ، ١٠٣ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ ب :

١٦٤ ، ١٧٨ ، ٢١٠ ، روتشتين ٣٥٠

٢ - وصلت إلى عباس خطابات تهديد ثم قبض على ثلاثة من الشبان بتهمة التآمر على الخديوي وعلى كتنشر وعلى محمد سعيد فزجوا في السجن « مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٦٥ ، ٢١٠ ،

٢٦٨ ، ٢٧٠ »

٣ - مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٠٢ ، ٢٤٢ . ولمدرسة القضاء الشرعي قصة طويلة ليس هنا مجال تفصيلها . فقد أنشئت بإشارة من اللورد كرومر على نمط معين أعده وعهد إلى الشيخ محمد عبده باحتذائه . ويراجع في ذلك تقرير كرومر السنوي عن سنة ١٩٠٥ في الفقرة رقم ٩٨ تحت عنوان The Mehkemeh Sherieh المحكمة الشرعية .

٤ - المرجع نفسه ٢ ب : ٢٦٨

٥ - تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٨٢ - ٣٨٩

ثم يعود بقوة الجيش وبخزب آخر على من كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه . وهكذا ، حتى إذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير « أنا » . واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين . وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الأهالي ، وزالت ملكة الشجاعة منهم . وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها ، فلم يبق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه ، أو نفاه مع بقية ولده إلى السودان فهلك فيه . »

« أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى ، كأنه كان يحن لشبهه فيه ورثه عن أصله الكريم ، حتى انحط الكرام ، وساد اللثام ، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أي وجه . فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفسي ، ليُصَيِّر البلاد المصرية جميعاً إقطاعاً واحداً له ولأولاده ، على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة . »

ثم يقول محمد عبده :

« إن محمد علي قد ملأ مصر بالأجانب والدخلاء ، يستعين بهم على إقرار نفوذه ، وأذل المصريين بإطلاق يد هؤلاء الدخلاء فيهم ، يحكمون على هواهم لا هدف لهم إلا مرضاة الأمير صاحب الإقطاع الكبير . »

ثم ينفي عنه ما ينسب إليه من إصلاح ، بل ينسب إليه قتل كل روح للشهامة أو النخوة في مصر ، مما ظهر أثره عند غزو الإنجليز لها ، فيقول :

« حمل الأهالي على الزراعة ، ولكن ليأخذ الغلات . ولذلك كانوا يهربون من ملك الأتليان كما يهرب غيرهم من الهوء الأصفر والموت الأحمر . وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك . »

« يقولون إنه أنشأ المعامل والمصانع . ولكن هل حجب إلى المصريين العمل والصناعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم ؟ .. وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصناعة وينشرونها في البلاد ؟ .. أين هم ؟ .. ومن كانوا ؟ .. وأين آثارهم ؟ .. لا .. بل بغض إلى المصريين العمل والصناعة بتسخيرهم



في العمل والاستبداد بشمرته . فكانوا يتربصون يوماً لا يعاقبون فيه على هجر  
المعمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعنين الساعة التي جاءت  
بهم إليه . »

« يقولون إنه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوخ به الملوك . وأنشأ  
أسطولا ضخماً تشقّل به ظهورُ البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار .  
فهل علم المصريون حب التجند ، وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والغلب ،  
وحبّ اليهم الخدمة في الجندية ، وعلمهم الافتخار بها ؟ .. لا ... بل علمهم  
الهروب منها ، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم  
يساقون إلى الموت ، بعد أن كانوا ينتظمون في أحزاب الأمراء ومحاربون ولا  
يبالون بالموت أيام حكم الممالك . . . هل شعر مصري بعظمة أسطوله أو  
بقوة جيشه ؟ ... وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك إليه ، بأن يقول :  
هذا جيشي وأسطولي ، أو جيش بلدي وأسطوله ؟ .. كلا . . لم يكن  
شيء من ذلك . . . فقد كان المصري يعد ذلك الجيش وتلك القوة عوناً لظلمه  
فهي قوة خصمه . . . »

« ظهر الأثر العظيم عندما جاء الإنكليز لإخماد ثورة عرابي . دخل الإنكليز  
مصر بأسهل ما يدخل به دامر على قوم<sup>(١)</sup> . ثم استقروا ولم توجد في البلاد  
نخوة في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها . وهو ضد ما رأيناه  
عند دخول الفرنسيين في مصر . وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى  
والموت الأخير ، وجهلته الأحداث فهم لا يسألون أنفسهم عنه  
ولا يهتدون إليه . »

وعند ذلك يبلغ محمد عبده قمة العنف والهياج ، وقد أوشك أن ينحتم  
مقاله ، فيقول :

« لا يستحي بعض الأحداث من أن يقولوا إن محمد علي جعل من  
جدران سلطانه بُنيّة من الدين . أي دين كان دعامة للسلطان محمد علي ؟ ...

١ - الدامر : هو الذي يدخل على القوم بلا استئذان .

دين التحصيل ؟ .. دين الكرباج ؟ ... دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده ؟ ...  
وإلا فليقل لنا أحد من الناس : أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين  
الإسلامي الجليل ؟ ... » (١)

\* \* \*

وظهر أثر هذا الانحراف عن عباس واضحاً في الشعر . فاصبحنا نرى  
الشعراء الذين كانوا يمدحونه بالأمس ينتقدون سياسته ؛ منهم من يبلغ في ذلك  
حد الهجاء العنيف الذي يعرض صاحبه للسجن ، ومنهم من يرفق في ذلك  
إشفافاً على وحدة الأمة ، أو خوفاً من الاضطهاد ، فلا يتجاوز فيما يقول  
العتاب الرقيق .

هذا هو علي الغاياتي شاعر الحزب الوطني ، يعرض بالخطيوي الذي يحارب  
الأحرار ، والذي يعارض إرادة الشعب المطالب بالدستور ، وذلك في مقدمة  
ديوانه « وطنيتي » ، منتهزاً الفرصة المناسبة في كلامه عن لويس السادس عشر  
وزوجته ماري أنطوانيت فيقول (٢) :

وكان ملك فرنسا في ذلك الحين « لويس السادس عشر » مستسلماً لإرادة  
حاشيته الظالمة ، وزوجته المستبدة المسرفة « ماري أنطوانيت » . . . وقد كانت  
حمقاء عدوة للإصلاح والإنصاف . وكانت تحتقر الشعب الفرنسي الكريم  
وتعامله معاملة ياباها الحر وتعافها النفس الشريفة . وهي التي دفعت زوجها إلى

---

١- راجع كذلك تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٨٣ وفيه تلخيص المقال الذي هاجم فيه رشيد  
رضا محمد علي ، وهو سابق على مقال محمد عبده . والواقع أنا لا نستطيع أن نعتبر هذين  
المقالين صدقاً لسخط الرأي العام في ذلك الوقت ، ولكن محمد عبده كان صديقاً لكرومر ،  
وكان يستمد منه القوة والتأييد حين يهاجم الخطيوي . ولعل هذه الحقيقة تقلل من تقدير  
الجرأة التي ينطوي عليها هذا المقال .

٢- وطنيتي ص ٢٥ ، ٢٦ . وكذلك كان أكثر الناس - ولا يزالون - يتمثلون بالثورة  
الفرنسية وبأقوال رجالها . لأنهم يجهلون أصابع اليهودية العالمية الخفية التي اشتركت فيها ،  
بل التي حركتها وأثارتها ، عن طريق الماسون .

مصادرة الأحرار والوقوف في وجوههم . فلما اشتدت الأزمة وحمي وطيس الثورة كتبت إلى أبيها مستنجدة مستجيبة ، فلم تغنها تلك الجيوش الأجنبية والجنود الحرارة المنتصرة للملوكية ، بل كان التغلب للأمة ، والنصر العزيز لفرنسا الحرة . . . ودالت دولة الطغيان . وكذلك عاقبة الظالمين . . . لم تتدبر هذه الملكة الظلمة في أمرها . وسارت في الأمة سيرة الملوك المطلقين والحكام المستبدين ، فقابلت إحسان الرعية بالكفران ، مستعزة بسلطان الملك ، مضللة بشياطين الملوك . وكانت ترى أنها مالكة الرقاب ومقدرة الأرزاق — كما يرى بعض الحكام في هذه العصور — فاستحقت غضب الشعب . ويا ويل الحكومة من غضب الشعب . وكانت عاقبة أمرها الهلاك والدمار .

ثم يعقب الغياثي في مقدمة ديوانه على نشيد المارسلير بقوله (١) :

« إلا أنه مما لا ريب فيه أن الحكومة كلما انتهجت منهج الجور وسلكت سبيل العسف ، فتحت من حيث لا تدري للأمة أبواب الحرية الواسعة ، وهدتها طرق السعادة المنشودة ، والضغط لا محالة يحدث الانفجار . فطوبى لأمة تقوضت في ديارها دعائم العدل ، ووقف حكامها لها بكل سبيل وقفه الذئاب أمام الشياة ، فنظرت ذات اليمين وذات الشمال مستجيبة مستعيذة ، فما رأت غير ظلم وظلام ، يأخذ أموالها الحاكم المستبد بإحدى يديه ، ويسومها سوء العذاب باليد الأخرى ، فهو يجيعها ليشبع ، ويفقرها ليغنى ، ويذلها ليعتز ، ثم يسد في وجهها مناهل العلم ، لتفصح أمامه مناهج الظلم . حتى إذا ما رفعت رأساً أثقلته المظالم ، أوفتحت عيناً أغمضتها رؤية الظالم ، أو شككت وبكت ، ثم استرحمت واستنصفت ، كانت الطامة الكبرى عليها والويل الأعظم لها . ولا يزال هذا حالها مع حكامها حتى تفيض الكأس ، ولا تجد النفس طاقة لها على ما احتملت ، ويرتفع بين الأمة صوت الإباء ، مردداً قول أبي العلاء :

مُلِّ المَقَامُ ، فكم أعاشر أمة أمّرت بغير صلاحها أمراؤها !!  
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعَدَّوا مصالحها وهم أَجْرَ أَوْها

« هنالك تشرق شمس الانتقام ، وتأخذ الشعب نشوة الانتصار ، وتري الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن يوم الظالمين يوم عاصيب . هنالك يغير الله حالا بعد حال ، وتستوي الأمة على عرشها ، تدير دفة الحكم بيدها ، وتسير القضاء العدل بإرادتها . هنالك ينادي منادي الحكومة الأهلية الدستورية العادلة بصوت مُدَوٍّ في أرجاء البلاد أن « لا ظلم اليوم . . لا ظلم اليوم » . ويختتم مقدمة ديوانه بهذه الكلمات النائرة (١) :

« إن الحرية ليست منحة ولا هبة من ملك أو أمير ، بل هي حق طبيعي للشعوب ، متى دبت فيها روح الإباء والاستقلال أخذته بالقوة القاهرة من أيدي مغتصبية ، وقدمت في سبيله النفس والنفيس . فهولاء الذين يحاربون أعداء الحرية بالوسائل النافعة ، وينتقمون للوطن منهم ثم ينالون الموت من يد ظالمة وهم في سبيل جهادهم سائرون ، أولئك الذين رضي الله والشعب عنهم ، ووجبت لهم الكرامة الدائمة والذكرى الخالدة » (٢) .

وها هوذا يتحدث عن خضوع الحديوي وحكومته لإرادة المحتلين ، ويستحث الشعب على الجهاد لاستخلاص حقوقه فيقول (٣) :

وعداة ملكوا الأمر ولم	يحفظوا للشعب في حق ذماما
وولاة أقسموا أن يسجدوا	كلما رام العدا منهم مراما
رَبِّ !! ماذا يصنع المصري إن	جاوز الصبر مدى الصدر فقاما ؟!
طال يوم الظلم في مصر ، ولم	ندّر بعد اليوم للعدل مقاما
هل يرى المحتل أننا أمة	مُدّ عرفنا السلم لاندري الحصاما ؟
أو يرى الظالم فينا أننا	نحمل الحسيف ولا نبغي انتقاما ؟

١- وطنيتي ص ٤١

٢- يشير الناياتي إلى الورداني الذي قتل بطرس غالي رئيس الوزراء ثم حكم القضاء بإعدامه ويراجع في ذلك قصيدتان للشاعر في ديوانه ص ١٠٩ ، ١١٥

٣- وطنيتي ص ٤٥

وها هو ذا مهاجم شوقي شاعر عباس ، حين نشر له « المؤيد » في سنة ١٩٠٨ حديثاً يعتذر فيه عن إصدار الدستور بأن عباساً لا يستطيع أن يمنحه بغير رضا الإنكليز ، ويقول : « إن الأمة لم تبلغ من النضج ما يؤهلها للحياة النيابية » . يقول الغاياتي (١) :

يا شاعر الأمراء ، ويحك ، هل ترى	في الثرما في النظم من خطرات؟
إني رأيتك في حديثك شاعراً	لكن خيالك زائفُ النظرات
يا شاعر النيل العظيم ! .. أما ترى	للنيل إلا أسوأ الحالات ؟
ما كنت أحسب أن مثلك وهو في	شعراء مصرٍ صاحبُ الآيات
يجني على الشعب الكريم جناية	ويود أن يبقى مع الأموات !!
وأنت تروي عن سواك حديثه	كَيْسَما نرى الدستور ليس بآت ؟
واللهُ يعلم أننا لا ننشي	يوماً ولا نلهم عن الطلبات
حتى نفوز بنَيْلِهِ رغم العدا	ونبّه العزّامات للهجمات

وتصل مهاجمة الغاياتي عباساً إلى قمة العنف عند صدور قانون المطبوعات ، إذ يقول ، مشيراً إلى مالقيت الأمة على يدي عباس من نكال ، بعد أن تحول إلى مهادنة الإنكليز ، منزلقاً إلى ما سماه « سياسة الوفاق » (٢) :

أعبّاسُ ! هذا آخر العهد بيننا	فلا تحشّ منا بعد ذلك عتابا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة	ننال إذا رُمنا الحياة عقابا ؟!
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها	وأصلبتنا بعد « الوفاق » عذابا
رويدك يا عباسُ . لا تبلغ المدى	ولا تستمع للظالمين خطابا
فما يبتغي « جورست » إلا مكيدة	تحوّل أقلامَ السلام حِرابا

ثم يتجه إلى مهاجمة بطرس غالي ، الذي ولي الوزارة بأمر المحتلين ، ويذكره بماضيه في دنشواي ، مهدداً بأنه لن يبلغ ما يريد حتى يلقي جزاءه :

١ - وطني ص ٥٨

٢ - وطني ص ٦٩

ألا مَطَرَ الله الوزارة نقمة  
تحاول أن تقضي علينا بإثمها  
وزارة خدّاع أقامته بيننا  
جنى ما جنى في دنشواي وغيرها  
فقيّد أقلام الصحافة عليها  
بني مصر! بُشِّرْني . فالرجاء محقق  
فإني لمحت النصر بين صفوفكم  
ولا بُلِّغْتَ مما تروم محرّاما  
ولكن ستلقى دون ذلك أثاما (١)  
يد الحاكمين الآثمين فقاما  
ولم يكفه حتى استحل حراما  
إذا أبصرتُ سوءاته تشعّامي  
ومن عَدَم الأقوال رامَ فعّالا  
وأبصرتُ عُقْبَى الظالمين وبالا

و ديوان محرم مليء بالقصائد التي حاول بها الشاعر أن يردّ عباساً إلى صوابه  
ويعيده إلى الإخلاص لشعبه ووطنه . منها ما يستغني بالتلميح عن التصريح ،  
فيتكلم عن صفات الملك الصالح ومعائب الملك الفاسد ، ومنها ما يهاجم في  
عنف ، فيصف الملوك بالكذب والنفاق وإفساد الحياة .

يقول محرم في صفة الملك الصالح (٢)

أَحَبُّ المالكين إلى الرعايا  
تغلغل في مكان الحسّ منها  
ملك ليس يألوها افتقادا  
فكان السَّمْعَ فيها والفؤادا

ثم يقول في تصوير الملك الفاسد :

أَضَرُّ الناس ذو تاج تولّى  
وكان على الرعية شرّ راع  
تبيّت له الأريكة في عناء  
كأن الملكَ في عينه حُلْمٌ  
وتدعوه الرعية وهو لاهٍ  
فلا هو يُرتجى يوماً لنفعٍ  
ولا هو مالك كشفاً لضرٍ  
فما نفع البلاد ولا أفادا  
وأشأمَ مالك في الدهر سادا  
تمارس منه أهوالا شدادا  
يلذ به فما يألو رقادا  
فتصدّع دون مَسْمَعِهِ الجهادا  
يُعزّ به الرعية والبلادا  
إذا ما كائدُ الحَدَثَانِ كادا

١ - الأثام ( بفتح الهزّة ) : جزاء الإثم .

٢ - ديوان محرم ٢ : ٥٣ - ٥٦

ثم يتخلص من ذلك إلى مخاطبة عباس ، طالباً منه أن يأخذ بيد الرعية ،  
ويوحد صفوفها المتفرقة ، ويقودها في كفاحها ، متسائلاً : ألا يرضيك أن  
تكون ملكاً على شعب عزيز ؟ ..

عزيرَ النيل ! .. والآمالُ حيرى أضيءُ قَصْدَ السبيل لنا وألّف وقدّها قَوْدَ مأمونٍ عليها فإيه يا عزيزَ النيل إيه وللشعب المصفّد أن تراه ... ألسَ ترى بنيتها في شقاق أتركهم يهب الشر فيهم	تسائلك الهداية والرشاد أوابدها ، فتوشك أن تَعَادَى <sup>(١)</sup> يُصاديها بأحسن ما تُصادَى أما ترضى لحكمك أن يشادا ؟ وقد نزع الأدهم والصفادا ؟ فما يرجون ما عاشوا اتحادا ؟ ونارُ الخطب تنقد اتقادا ؟
---	---

ويشير محرم في قصيدة أخرى إلى فساد الشعب تبعاً لفساد الملوك حيث  
يقول (٢) :

رأيتُ الشعبَ - والأمثالَ جَمَّ - وما تبقى الممالكُ لاهيات إذا غَوَتْ الهداةُ فلا رشيدٌ وأعجبُ ما أرى : شعبٌ نحيفٌ	على ما كان مالكة يكون تصرفها الخلاعة والمجونُ وإن خان الرعاة فلا أمينُ يسوسُ قطيعه راع بدين !
--	--

ويهاجم الملوك ، وينسبهم إلى الظلم ومجافاة العدل حيث يقول (٣) :

أرى العدلَ دَعْوَى يُعْجِبُ الناسَ حَسَنُها  
أكاذيبُ يُزجِيها الفتى وهو عالم  
فسا الظلمُ بين الناس واعتز أهله  
وبات ضعيف القوم يؤذَى ويرهق

١ - الأوابد من الوحوش : الشاردة النافرة .

٢ - ديوان محرم ٢ : ٥٧

٣ - ديوان محرم ٢ : ٨٦

خَلِيئاً مِنَ الْأَعْوَانِ ، يُغْضَبُ حَقُّهُ  
...رَأَيْتُ مُلُوكَ النَّاسِ لَا يَنْصِفُونَهُمْ  
فِيُغْضِي ، وَيُرْمَى بِالْهَوَانِ فَيُطْرَقُ  
وَخَيْرُ الْمُلُوكِ الْمُنْصِفُ الْمُتْرَفُ  
إِذَا مَلَكَوا ، وَالْعَدْلُ بِالْمَلِكِ أُخْلَقُ  
يَقِيمُونَ صِرْحَ الظُّلْمِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ

وَيَلْتَهَبُ شَعْرَ مُحْرَمٍ بِالثُّورَةِ حِينَ يَهَاجِمُ قَانُونِ الْمَطْبُوعَاتِ فَيَقُولُ (١) :

صُبُّوا الْمِدَادَ وَحَطِّمُوا الْأَقْلَامَ  
وَخَذُوا عَلَى الْوُجْدَانِ كُلِّ ثَنِيَّةٍ  
... يَا مِصْرُ ! .. مَاذَا تَطْلِبِينَ ؟ .. أَمَا كَفَى  
مَوْتِي فَمَا مَوْتَ الْعَلِيلِ بِضَائِرِ  
مَنْ ذَا يَرُدُّ عَلَيْكَ عَهْدَكَ صَالِحاً  
قَمْنَا بِنَصْرِكَ وَالْخِنَاقُ مُضِيقٌ  
... أَنُحْنُ مِصْرَ ، وَمَا تَحْوَلُ نِيلَهَا  
نَبْغِي لَهَا الشَّرْفَ الْأَشْمَ مُؤَيِّداً  
وَنُعِزُّ رَايَتَهَا وَنَمْنَعُ حَوْضَهَا  
وَإِذَا مَلَكَوا بِالْهَوَانِ فَيُطْرَقُ  
وَخَيْرُ الْمُلُوكِ الْمُنْصِفُ الْمُتْرَفُ  
إِذَا مَلَكَوا ، وَالْعَدْلُ بِالْمَلِكِ أُخْلَقُ  
يَقِيمُونَ صِرْحَ الظُّلْمِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ

وَيَهَاجِمُ عَبَّاساً فِي عَنَفٍ ، مُتَهَمّاً الْمُلُوكَ بِالْكَذِبِ وَمُجَافَاةِ الشَّرْفِ ، مُشِيراً إِلَى  
فَضَائِحِ بَيْعِ الرُّتَبِ وَالنِّيَاشِينَ حَيْثُ يَقُولُ : (٢)

كُذِبَ الْمُلُوكُ وَمَنْ مَحَاوَلٌ عِنْدَهُمْ  
رُتَبٌ وَأَلْقَابٌ تَغَرُّ . وَمَا بِهَا  
كَمْ رُتَبَةٍ نَعِمِ الْغَبِيِّ بَنِيْلَهَا  
لَوْ كَانَ يَعْلَمُ ذُلَّهَا وَهَوَانَهَا  
... لَا الْمَجْدُ مُجْدٌ بَعْدَمَا عَبَثَ بِهِ  
شَرْفًا وَيَزْعَمُ أَنَّهُمْ شَرْفَاءُ  
فَخَرُّ الْمُحَرِّزِهَا وَلَا اسْتِعْلَاءُ  
مَنْ حَيْثُ جَلَّلَهَا أَسَى وَشَقَاءُ  
مَا طَالَ مِنْهُ الزَّهْوُ وَالْحِيَلَاءُ  
أَيْدِي الْمُلُوكِ وَلَا السَّنَاءُ سَنَاءُ

١ - ديوان محرم ٢ : ٤٧ - ٤٨

٢ - ديوان محرم ١ : ١٥٠



مالوا عن الشرف الصميم وأحدثوا  
رفعوا الطغَامَ على الكرام فأشكلت  
وإذا الرعاة تنكبت سبل الهدى  
لوجاور الشرفُ الملوكَ لأورقت  
الحقُ منتَهَكُ المحارم بينهم  
رفعوا العروش على الدماء وإنما  
ما شاءت الأوهامُ والأهواءُ  
قيَمُ الرجال ورابت الأشياءُ  
غوت الهداة وطاشت الحكماءُ  
صمُ الصخور وضاعت الظلمات  
والعدل وهمُ والوفاء هباءُ  
تبقى السفينة ما أقام الماءُ

أما الكاشف ، فهو يتقدم إلى عباس في قصيدة أنشأها في عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ ، ناصحاً له في رفق أن يعيد إلى شعبه الدستور الذي أصدره أبوه ، حتى ينكشف موقف الإنكليز ، ويعرف الناس أنهم هم المعارضون (١) :

يا تابع الأجداد والآباء في  
وامنح رعيتك الذي سألوكه  
ماذا عليك إذا انتزعت أمورها  
هذي نفوسهمو لديك رهينة  
لا يسألونك مدفعاً وصوارماً  
لك في الخليفة أسوةٌ محمودة  
حكم البلاد أعد صنيع أبيكا  
وعلى الطغاة الإثمُ إن منعوكا (٢)  
منهم ، وشاطرك الأمور بنوكا؟  
ولو استطاعوا غيرها منحوكا  
هم يسألونك آيةً من فيكا  
ولتتبعنَّ سبيله السلوكا (٣)

ثم هو يحذره من سياسة الوفاق الخبيثة التي جاء بها جورست ليفرق بها بينه وبين شعبه . فهو اليوم يشكو إليه الأحرار من شعبه ليغضهم إليه ، ثم هو في غد يشكوه إليهم حتى يكرهوه . وهو ينصحه بأن يستبقي ود شعبه ويحرص على تأييده فهو عدته وقوته (٤) :

أهلاً وسهلاً بالوفاق ومرحباً لو كان فيه قضاء ما وعدوكا

١ - ديوان الكاشف ٢ : ٤٨ - ٥٠

٢ - يقصد بالطغاة الإنكليز الذين كان يتملئ عباس بمعارضتهم الحياة النيابية .

٣ - يشير إلى الدستور التركي الذي كان قد صدر في هذا العام .

٤ - ديوان الكاشف ٢ : ٤٩

لك أن تودّهمو كما ودّوكا  
 أن يعلنوا لك موثقاً مفكوكا  
 كنتم المخلاتل سرّ المهتوكا  
 حرّ فكان الآفك المأفوكا  
 غير الوفاء ، وفي غد يشكوكا  
 هذا المراس ، فقام يستصفيكا  
 أنا نحن وأنا نرجوكا  
 تُرضي العواذل فيك أم حسبوكا ؟  
 من لا يرى لك في البلاد شريكاً ؟  
 فاحرص على تأييد مستبيكا  
 للمخلصين يقيهمو ويقيكا  
 جنداً يصول ، ولا دماً مسفوكا  
 أرايتني أغريك أم أوصيكا ؟  
 حتى يعود محرراً واديكا

إن كنت مُشترطاً الجلاء فواجب  
 خير لنا أن يعلنوا البغضاء من  
 ما كان حباً ما ترى ، لكنه  
 أرايت كيف وشى بكل مهذب  
 اليوم يشكونا إليك وما بنا  
 أعين على أوهامه ووعيده  
 ماذا ترى في قادرين يسوؤهم  
 حسبوا الرعية - وهي عند يقينها -  
 وعليك ينجي ، أم على أعدائه  
 لم يبق غيرك للبلاد وأهلها  
 لك من يقينك والتجارب عاصم  
 يا حبذا يوم الجلاء ، ولا نرى  
 هذي خواطري الحسان وغيرتي  
 لا رافني عيد بمصر وموسم

ويحذره في قصيدة أخرى قالها سنة ١٩٠٩ مما تنطوي عليه سياسة الوفاق  
 الكاذبة من أخطار ، وينصح له أن يعلن رضاه وعفوه عن ضحايا قانون  
 المطبوعات حيث يقول (١) :

ووفاء صُحْب أم رياء دُهاة ؟ (٢)  
 ويخادعون منادياً بشكاة ؟  
 غفلوا عن الميعاد والميقات ؟  
 ملكوا أعنة أمرها سلسات ؟  
 وترقبوا اللحظات والخطرات

صدقوا رجال الملك أم كذبوهم ؟  
 أبويدون مصاولاً بحسامه  
 لم يعملون على البقاء ؟ .. وما لهم  
 أمن الذنوب شكاةً مصرّك بعدا  
 غدّوا على أحرارها أنفاسهم

١ - ديوان الكاشف ٣ : ٥٦

٢ - الضمير في « صدقوا » عائد على الإذليل

إن ينقيموا منها مِرَاسَ غَلَايَها      فالعجز أن تبقى بغير غلَاة (١)  
أرأيتها في المهرجان ، وقد خلت      من حلّية الأتراب والأخوات (٢)  
أعلن رضاك عن الأباة ، فإنه      فنصّل الخطاب وفرجة الأزمات

وهذا هو عبد الحليم المصري الذي يملأ مدح عباس ديوانه ، يقسو عليه في العتاب ، في قصيدة رفعها إليه سنة ١٩٠٨ على لسان الأمة المصرية ، مطالباً بالدستور ، يحذره فيها من معاداة الشعب وتجاهل مطالبه ، ويضرب له الأمثال بمظفر الدين شاه العجم ، الذي خلعه شعبه حين ألغى الدستور الذي أصدره أبوه بعد أن وعده قبل جلوسه أن يرعاه ، حائثاً بقسمه الذي أقسمه أمام أبيه ، وبالثورة المراكشية التي انتهت بنخلع عبد العزيز وتولية عبد الحفيظ . ثم هو يذكر عباساً بحديثه الذي أدلى به إلى صحيفة « الطان » ، ووعد فيه بإصدار الدستور (٣) . ويقول له إننا شعب مسلم ، لا نتوسل بالثورات . فهل لا يشفع لنا ذلك عندك ، إذ نطلب الدستور بالخطابة والكلام ، حين يطلبه غيرنا بالدماء ؟

رُدّ الوديعة لا مالا ولا شانا      لم نرج في جانب الدستور إحسانا  
لولا ولاؤك لم نبسط إليك يداً      من الرجاء ، ولم نسألك غفرانا  
ربّ الأريكة ! إنا لا نزال على      وثيق عهدك أخذاناً وأعوانا  
لا يفصم الدهر حبلا من مودتنا      ولا تشاب بماء البؤس نَعمانا  
إن الحياة لدارٌ نحن نسكنها      وحاشَ لله أن نشقى بسكنانا  
الناس تُخلَقُ أحراراً ، فكيف بنا      نرضى المقام بوادي النيل عبيدانا ؟  
مظفر الدين ! هل أغمضت عينك عن      منابت الشعب ، أم أوقرت آذاننا ؟

١ - يقصد بالغلاة : رجال الحزب الوطني الذين كانوا يهتمون بالتطرف .

٢ - يشير إلى ما قوبل به عيد جلوسه الأخير من فتور .

٣ - ديوان عبد الحليم المصري ١ : ٥٨ وراجع كذلك إشارته إلى الدستور في قصيدة العام الهجري سني ١٩١٠ م و ١٩١١ م ، وإشارته إلى اضطهاد الصحافة والأحرار في قصيدته « المساجين » و « الحرية » في ديوانه ١ : ٥٦ و ١١٩ و ١٠٨ - ١١٢ و ٧١ - ٧٤ .

حتى ترى الدم حول العرش منهماً  
وتسأل القسم المبرور، هل حنث  
قد قام شبلك بالإفتاء يهدم ما  
فأجرت القومُ يمناً من دماهم  
وعلمت من رآها كيف تُرخص في  
إن قام بالملك مولاي (الحفيظ) ولم  
وحرر الشعب من ذل الضعيف إلى  
فكيف لم تولنا مثل (الحفيظ) يداً  
هلاً أدكرت الوعود السالفات، وهل  
ما نال في الغرب أقوامٌ مآربهم  
ونحن في الشرق لم ننسِ السيوف ولا  
فكيف لا يشفع الصبرُ الحميلُ لنا  
يا لفظةً منك في الآذان نرقبها  
ثبي لنا في الدياجي مثلما وثبت

وتبصر القوم فتاكاً وطعانا  
فيه الأعاجم ، أم ظنته بهتاناً (١)؟  
شيدت للعدل أركاناً وجدراناً  
يكاد يُخفّي عن الأبصار «طهرانا»  
حب الدساتير أرواحاً وأبدانا  
يقم له الدهر فوق العرش أركاناً  
عز القوي وأمسى فيه سلطاناً  
وأنت أكرم أنساباً وأوطاناً ؟  
نسبت بالأمس ما أسمعته (الطنانا) ؟  
إلا وسالت دماء القوم ألواناً  
نرى بغير اليراع المرّ فرساناً  
عند (الأمير) ولا ترضيه شكوانا ؟  
كان آذاننا أصبحن أجفانا  
لترك أختك ، إن الوقت قد حانا

\* \* \*

كان عباس يكره الإنجليز في أعماق نفسه. وكانت علاقته بهم سيئة طوال مدة حكمه، إذا استثنينا السنوات الأربع التي تخللتها، من تعيين إلدون جورست معتمداً بريطانيا سنة ١٩٠٧ إلى وفاته سنة ١٩١١ وتعيين اللورد كتشنر خلفاً له (٢).

١ - كان مظفر الدين قد أقسم لأبيه قبل جلوسه على العرش أن لا يسترد الدستور . فلما مات أبوه حنث بقسمه وألغاه .

٢ - ويتمين اللورد كتشنر عدو عباس القديم في حادثة الحدود انتهت الفترة التي يسمونها فترة الوفاق ، وعاد الخلاف بين عباس والإنجليز إلى حدته الأولى التي اتسم بها مدة إقامة كرومر في مصر .

وسواء كان كره عباس للإنجليز بدافع من وطنيته على رأي الذين يحسنون به الظن، أو بدافع من منازعتهم إياه سلطته — على رأي الذين يسيئون به الظن — فالحقيقة الثابتة هي أنه لم يطمئن للإنجليز، ولم يطمئن الإنجليز إليه، ولم يتوانوا عن التخلص منه حين سنحت لهم الفرصة بإعلان الحرب العالمية الأولى أثناء رحلته إلى تركيا سنة ١٩١٤. وقد جاهر عباس الإنجليز بعدائه وحاربهم حرباً صريحة في بداية حكمه. ثم أخفى هذا الكره، وظل يدس لهم في الظلام، مسدلاً حجاباً من البراعة والرصانة على كرهه الشديد لهم، كما يقول كرومر<sup>(١)</sup>. ولكن النزاع بينه وبينهم لم يفتر ولم يتقطع في الحالين. بل ظلت في مصر سلطتان قائمتان تتنازعان النفوذ. سلطة الخديوي وسلطة المعتمد البريطاني، أو السلطة الشرعية والسلطة الفعلية، كما كانت تسميها الصحف في ذلك الحين، وكما يقول الكاشف<sup>(٢)</sup>.

أيسود شعب ليس منه رعائسه فهما وإن طال المدى ضدان  
يأبى ويشفق أن يصرف أمره ويسوسه حكسان مختلفان  
أبهم بالأمر الكبير وليثمه يوماً وليس له عليه يدان<sup>(٣)</sup>

وكانت كل من هاتين السلطتين تعمل دائبة في جمع الأنصار واكتساب الأعوان. وقد نجح عباس في السنوات الأولى لحكمه في بث حركة وطنية إسلامية تزعمها مصطفى كامل والشيخ علي يوسف. واستطاع أن يضم إلى صفه ضباط الجيش وكثرة من الموظفين. ولكنه لم يلبث أن خسرهم حين استيقنوا ضعفه أمام الإنجليز، منذ اضطره كرومر إلى الاعتذار لكثرت سنة ١٨٩٦ ثم اضطره بعد ذلك إلى التخلي عن الضباط الذين حوكموا عندما تمردت فرقتهان

١ - عباس الثاني ص ٤ ويصفه كرومر في موضع آخر من الكتاب بأنه كان أستاذاً في فن

الدسائس الخفية ص ٨

٢ - ديوان الكاشف ٢ : ٤٢

٣ - ولي الأمر : هو الخديوي الحاكم الشرعي وقتذاك.

من الجيش المصري في السودان سنة ١٩٠٠<sup>(١)</sup> . وخسر عباس الحزب الوطني بعد ذلك منذ لوح له غورست بالسلطة ، ونجح في إفساد ما بينه وبين رجاله الذين كانوا يطالبون وقتذاك بالحياة النيابية ، فانقلب إلى محاربتهم والتنكيل بهم .  
وحين كان عباس يخسر الأصدقاء والأولياء ، كان الإنجليز يجدون في اصطناع الأصدقاء والأولياء ، ويسرعون إلى احتضان كل خصم له وللسلطان عبد الحميد ، مظهرين أنفسهم في صورة المدافعين عن الحرية والعدل ، المقاومين للظلم والطغيان . وساعدهم على ذلك انتشار روح الخضوع والاستسلام عقب الاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٠٤ ، مما أدى إلى تفشي اليأس والنفعية<sup>(٢)</sup> .

استطاع الإنجليز أن يكسبوا إلى جانبهم العمدة والمشايخ ، بتأييدهم في التخلص من نفوذ الباشوات وكبار الملاك ، وبحرضهم على تخفيف ضرائب الأملاك ، ولو أدى ذلك إلى شل المشروعات الضرورية في شتى نواحي الحياة<sup>(٣)</sup> . واستطاعوا أن يشتروا نفراً من رجال الجيش ، فكانوا يمنحون بعضهم « مداليات » تحول

---

١ - علم كرومر أن عباساً هو الذي حرض الضباط على الثورة . فتجاهل الأمر وذهب إليه مقترحاً أن يقابل الضباط المحكوم عليهم ويوجههم بكلمات اختارها له . فلم يجد عباس بداً من قبول عرض كرومر حتى لا تثبت عليه تهمة تحريض الضباط . وبذلك فقد الضباط ثقتهم فيه ، وفقد هو نفوذه وهيئته في أوساطهم « راجع عباس الثاني ص ٨٢ ، ٨٣ وراجع كذلك تصوير حافظ إبراهيم لاستبداد الإنجليز في الجيش ومكائدهم لإفساده وإضعافه ، والتفريق بين المصريين والسودانيين ، وما انتهى إليه أمر الضباط المصريين من رهبة الإنجليز والرضوخ لهم ، وقصة تمرد الفرقتين المصريتين في السودان : « ليالي سطيع ص ٧٩ ، ١١٢ » وراجع كذلك مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٢١ ، ٣٢٦ »

٢ - مصطفى كامل ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، و ١٤٢ ، ١٤٣ . تاريخ الإمام ١ : ٩٢٣ - ٩٢٤  
٣ - يقول كرومر في ذلك : « إن الرابطة الوحيدة التي تربط الحاكم بالمحكوم عندما تختلف اللغة والجنسية والمذهب والعادات تنحصر في المصالح المادية . وبين هذه المصالح وأهمها جعل ضرائب الأملاك خفيفة . لذلك أرى أن الأحوال السياسية التي علينا مقابلتها والعمل فيها هي من نوع يجعل كل الاعتبارات تزول في جانب ضرورة إبقاء الضرائب منخفضة . . الخ » ( راجع عباس الثاني ص ١٥ ، ١٧ وقارن ذلك بما جاء في ص ٥٧ عن العمدة والمشايخ )

حاملها الحق في أخذ راتب شهري من الخزينة الإنجليزية فوق مرتباتهم ، وذلك على سبيل المكافأة والتشجيع لما يظهرون من ضروب الشجاعة في القتال ، أثناء حملة السودان ، التي لم يتحمس لها الرأي المصري العام . ونجح كرومر في عقد صلات ود مع كثير من رجال الدين ، مثل شيخ الأزهر والمفتي ومشايخ الطرق ، لعلمه بقوة نفوذهم الشعبي ، وبحرص عباس والسلطان على اصطفاؤهم وتقريبهم والاستعانة بنفوذهم <sup>(١)</sup> . واحتضن محمد عبده حين اصطدم بعباس ، حتى أصبح هو سنده في كل ما استهدفه من مشاريع تطوير الأزهر وإنشاء مدرسة للقضاء الشرعي <sup>(٢)</sup> . كما احتضن اللاجئين إلى مصر من أعضاء تركيا الفتاة ، وشجعهم على تشويه سمعة الحكم التركي ونبش سيئات عبد الحميد والتشجيع باستبداده ، متظاهراً بأنه إنما يفعل ذلك دفاعاً عن الحرية <sup>(٣)</sup> . وفتح كرومر أبواب قصره لكل صاحب شكوى ، ثم أخذ يتدخل باسم هؤلاء الشاكين ، وباسم العدل والإنصاف ، للحد من نفوذ الخديوي ومقاومة شره وجشعه <sup>(٤)</sup> ، حتى رأينا بعض أعضاء الأسرة العلوية يلجأون إلى إنجلترا وإليه ، طالبين إنصافهم من عباس <sup>(٥)</sup> .

#### ١ - Modern Egypt ٢ : ١٧٤ - ١٨٥

٢ - بلغ من ثقة محمد عبده به واعتماده عليه أنه حين عزم على زيارة الآستانة سنة ١٩٠١ لم ينفذ عزمه إلا بعد أن استشاره . فحمله توصية إلى السفارة الإنجليزية في تركيا لرعايته وحمايته مدة إقامته بها . وكان كرومر هو الذي توسط في العفو عن محمد عبده وإعادته إلى مصر « مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٧٩ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٨٤٧ ، Modern Egypt

هامش ٢ : ١٨٠ - ١٨١ »

٣ - راجع ضبط مطبعة تركيا الفتاة في مصر وتفتيش دارهم وتدخل كرومر لحمايتهم في : مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٩٤ - ٣٩٥ ، عباس الثاني ص ٨٠ وراجع كذلك تدخل كرومر في حبس عباس لليون فهمي الأرمني ، وتهديده بتفتيش القصر في : مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٦٨ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٧٩ ، عباس الثاني ص ٧٨ ، ٧٩ وراجع كذلك قصة بدر خان الذي لجأ إلى مصر فاراً من عبد الحميد وحماية الإنجليز له وغضبهم من نجاح عباس في حمله على العودة لتركيا في : عباس الثاني ص ٨٠ ، ٨١

٤ - مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٥٣ ، ٥٤

٥ - من الأمثلة على ذلك أن المحاكم الشرعية أصدرت حكماً بالجبر على إحدى الأميرات ، وعينت =

واتخذ النزاع بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية شكلاً أدبياً . فكان لعباس صحيفة رسمية تعبر عن اتجاهاته وتدافع عنه وتهاجم أعداءه ، هي صحيفة «المؤيد» . وكان للإنجليز صحيفة رسمية أيضاً تدافع عنهم وتهاجم أعداءهم ، هي صحيفة «المقطم» . وكان للخديوي شاعر رسمي يشيد به وهو «شوقي» ، تؤيده طائفة من الشعراء . وكان للإنجليز شاعر نصب نفسه ملدحهم والإشادة بهم وهو «نسيم» <sup>(١)</sup> . تؤيده قلة من الكتاب الشعراء الذين يدينون بكيانهم لهم مثل ولي الدين يسكن .

وكان شاعر الخديوي يرصد المناسبات المختلفة ليسجلها في شعره ، مادحاً أميره في أعياد جلوسه وفي أعياد ميلاده . وفي أعياد الفطر ، وأعياد الأضحى ، وبدء العام الهجري ، وفي أسفاره داخل البلاد . وفي أسفاره للآستانة ، وفي سفره للحج ، وفي حفلاته الراقصة التي كان يقيمها في عابدين كل عام . وكان شعره السياسي متأثراً بتقلبات أميره صراحة وغموضاً ، وعنفاً وليناً . فهو في أول حكم عباس صريح في مهاجمة الإنجليز في مثل قصيدته :

بصوتك حاجتنا الممالك والعصرا      وقلنا فبانت مصر في مجدها مصرا <sup>(٢)</sup>

فإذا تراجع عباس أمام كرومر تراجع هو أيضاً ، ولم يعد يهاجم إلا في كثير

---

= عليها وصياً اختاره عباس . فشكت الأميرة إلى ملك إنجلترا ، وأحال هذا شكواها إلى كرومر . فتدخل في الأمر واستبدل بالوصي الذي اختاره عباس وصياً آخر موثقاً به من إنجلترا ، « مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢٢٤ » ومن الأمثلة عليه كذلك أن أميرة أخرى شكت إلى ملك الإنكليز من عباس أثناء زيارته له سنة ١٩٠٥ ، فوجه كرومر إلى عباس نقداً قاسياً في شأنها بعد عودته « مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٧٠ ، ٧١ »

١ - عدل نسيم عن موقفه بعد رحيل كرومر عن مصر ، وأعلن ندمه على ما فرط منه ، في قصيدة نشرها باللواء سنة ١٩٠٨ « الديوان ١ : ٣ - ٦ » زاعماً أنه فعل ذلك غيرة على الإسلام لمهاجمة كرومر له . والواقع أن شعر الشاعر يشهد بأنه محترف يجري وراء المال ويبيع نفسه لمن يدفع ثمناً أكبر . ثم إنه لم يجد مجالاً للقول بعد أن ساد الوثام بين غورست خليفة كرومر وبين عباس .

٢ - ديوان شوقي طبعة سنة ١٩١٢ ص ٨٣



من الغموض والالتواء الذي لا يدع لمناقشته وحسابه سبيلا . وذلك في مثل قصيدته التي قالها سنة ١٩٠٢ ، حين أجّل حفل تتويج إدوارد السابع بسبب إصابته بدُمّل<sup>(١)</sup> . ويسكت في حادث دنشواي الذي أقام الدنيا وأقعدها ، فلا يتكلم إلا بعد رحيل كرومر وقد مر على الحادث عام<sup>(٢)</sup> . ولا تذهب جرأته إلى أبعد من مهاجمة المتوددين إلى الإنجليز من المصريين ، كالذي فعله برياض حين أشاد بكرومر في حفل افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية بالإسكندرية سنة ١٩٠٤<sup>(٣)</sup> . فإذا أمن عباس مكر كرومر بعد رحيله هاجمه شوقي مهاجمة عنيفة في قصيدته :

أيامكم أم عهد إسماعيل ؟ ... أم أنت فرعون يسوس النيل ؟ (٤)

ويسكت شوقي عندما اطمأنت صلة عباس بالإنجليز في فترة الوفاق . فإذا عادت إلى الكدر ، وأخذ عباس يكيّد في الخفاء ، أخذ هو يلتمس المناسبات التي يشير فيها من بعيد إلى الاستعمار حين يتحدث عن قانون الغابة الذي يسود العالم ، وحين يحث المصريين والمسلمين على الأخذ بأسباب القوة ، في مثل قصيدته عن قصر أنس الوجود، التي وجهها إلى روزفلت الكبير حين زار مصر سنة ١٩١٠ ، وفي مثل قصيدته عن « الحجاب والسفور » ، وقصيدته في « نهج البردة » ، اللتين نشرتا في العام نفسه ، و« الهمزية النبوية » التي نشرت سنة ١٩١٢ ، والبائية في « ذكرى المولد » التي نشرت سنة ١٩١٤<sup>(٥)</sup> .

١ - راجع قصيدة شوقي : لمن ذلك الملك الذي عز جانبه لقد وعظ الأملاك والناس صاحبه

« الديوان ١ : ٧٥ »

٢ - راجع قصيدة شوقي : يا دنشواي على رباك سلام ذهبت بأنس ربوعك الأيام

« الديوان ١ : ٣٠١ »

٣ - راجع قصيدة شوقي : كبير السابقين من الكرام برغمي أن أفالك باللام

« الديوان ١ : ٢٥٩ » .

٤ - راجع القصيدة في الديوان ١ : ٢٠٩

٥ - راجع القصائد السابقة في ديوانه ٢ : ٦٥ ، ١ : ٢١٩ ، ٢٤٠ ، ٤١ ، ٥٩ .

وكان شاعر كرومر ينتهز كل فرصة تمكنه من مدح الإنجليز والإشادة  
بعدهم وفضلهم على مصر فيبلغ في ذلك العجب . أليس عجباً أن نجد شاعراً  
مصرياً يضلّه المال ، فيقول للملك الإنجليز بمناسبة شفائه من داء «الأعور»<sup>(١)</sup>

صاحبَ التاج أنت بالقوم أعلم هم يودّون أن تعيش وتسلم  
يشيد فيها بعدله ، معرضاً بعباس حيث يقول :

ويمناً لولاك عاثَ طغاة في بلاد من جورهم تتظلم  
ظعن الجور عن بلادك لما طنّب العدل في ذراك ونخيم  
ثم يجد في نفسه الجرأة لأن يقول :

إننا نعرف الملوك ولكن إن عددناهم فأنت المقدّم  
ليس إلا إياك مولى مفدىّ يُبدأ القول في ثناه ويُختتم  
وإذا قيل : أين أعظم منه ؟ لم نجد - للتقى - سوى الله أعظم

ثم يختم قصيدته مفتخراً بأنه السابق المقدّم بين مادحيه :

تبعيتني إلى مديحك ناس إنما الفضل للذي يتقدم  
أنا في مصر شاعرٌ قيل عنه ساجعٌ فيك بالثناء ترنّم

ويرثي هذا الشاعر الملكة فكتوريا سنة ١٩٠١ ، فيختم قصيدته بتهنئة ابنها،  
والتعريض بعباس، وبكل مصري تجري في دمه قطرة من وطنية حين يقول:<sup>(٢)</sup>

رأيتك في الورى ملكاً وحيداً وليس لها سواك بلا ارتياب  
فخذ من شاعر النيل امتداحاً يثير حفاظ القوم الغضاب

ثم يطاوع هذا العاق لسانه، إذ يقول في قصيدة يهنيء بها ملك الإنجليز في

١ - ديوان نسيم ١ : ١٠٠ - ١٠٢

٢ - ديوان نسيم ١ : ١٠٣

تتويجه إمبراطوراً للهند : (١)

يا قوم مصر ، ولم أنظر لكم أثراً  
أتفخرون بآثار لغيركم  
إلام تبغون ملكاً عز جانبه  
وتفخرون بما « خوفو » بنى لكم  
فأي فخر لكم فيما نشاهده  
إذا المعالي دعت قومي دواعيها  
الظلم شيدها والدهر يبليها ؟  
وتبلغون من الدعوى تناهيها ؟  
وتمدحون من الأهرام بانيها  
يا أمة نسيت في الذل ماضيها ؟

ويقول مشيداً بالاحتلال ، في وضع الحجر الأساسي لخزان أسوان سنة ١٨٩٩  
ناسباً فخره للإنجليز (٢) :

أمة المجد شيدتك بقُطُرٍ  
وأحق الأقوام بالمدح قوم  
فخليق لمثل مصر بأن تُعزَّ  
بلَغَتْ في احتلاله الأوطار  
ركبوا في سبيلها الأخطار  
جَبَّ حتى تفاخر الأمصار

ثم يقول في افتتاحه سنة ١٩٠٣ ، الذي شهده « الدوق أوف كنوت » زوج  
أخت « الملك إدوارد » ، معرضاً بعباس الذي تخلف عن حضور الحفل ، خشية أن  
تمس كرامته بوضع « الدوق » في موضع الصدارة :

بناءً عظيم لم يجد لا افتتاحه  
وكم من دعي فارق الصدر عنوة  
سواك عظيماً فيه للفخر مآلف  
إذا حضر المستأذن المتنصف (٣)

وحين كانت مصر في عيد يوم رحيل كرومر كان هذا البائس الهالك يذرف  
الدمع على فراقه فيقول : (٤)

١ - ديوان نسيم ١ : ١٠٨

٢ - ديوان نسيم ١ : ١١٠

٣ - ديوان نسيم ١ : ١٣٠ . المستأذن : الذي لا يدخل الناس إلى مجلسه إلا بإذنه . المتنصف  
المخدوم . والمقصود بهما هو الدوق . كما أن المقصود بالدعي هو الخديوي عباس .

٤ - ديوان نسيم ١ : ١١٤ - ١١٥

يا منقذ النيل لا ينسى لك النيلُ  
يداً لها من فم الإصلاح تقبيل  
وحين يقول له شوقي ، مشيراً إلى أن تنحيته جاءت نتيجة لحملة مصطفى كامل  
عليه بسبب دنشواي :

فاذهب بحفظ الله جل صنيعه مستعفياً إن شئت أو معزولاً  
يقول نسيم في هذه القصيدة :

حاشاك ما أنت بالمغضوب من نصيبه كلاً ، ولا أنت من عليك معزول  
وحين يعدد الشعراء سيئاته ، يرد إليه نسيم كل الفضل فيما ساد مصر من عدل  
وما بلغته من رقي :

جعلت مصر بلاداً أمطرت ذهباً فتربها بمذاب التبر مبلول  
خلفتها ويد الإسعاد تكتنفها دارٌ عليها من النعمى سراويل  
حللت فيها وغُلُّ الجور مُقْعِدُها ذلاً ، وفارقتها والبحور مغلول

ويهاجم رجال الحزب الوطني ، زاعماً أنهم يهودون في غير موضع للتهويل :

أوى أناساً تمنوا في سياستهم أن يخذلوك وخصم الحق مخذول  
يهودون بلا جدوى مزاعمهم ولن يضرَّك إيهام وتهويل  
لو كان بالناس عدل ما قضى عُمرٌ ربُّ العدالة فيهم وهو مقتول  
صرنا نخاف على الأعراض من نفر كأن جبرؤهم في نهشها غول  
قد جرّدوا ألسناً ياليتها قطعت من دونها مرهف الحدّين مسلول (١)

أما ولي الدين يكن فقد كان أحد أعضاء جماعة « تركيا الفتاة » ، الذين

١- راجع فيما عدا القصائد السابقة قصائده : في نور العدل « ١ : ٦ - ٨ » ، تنويع ملك  
الإنجليز « ١ : ١٨ » ، لؤلؤة التهاني بقدم ولي عهد إنكلترا سنة ١٩٠٦ « ١ : ٨٩ »  
وراجع كذلك قصائده الكثيرة في هجاء الشيخ علي يوسف بمناسبة زواجه من بنت الشيخ  
عبد الخالق السادات . وهي قصائد مقدّعة كان مدفوعاً إليها بولائه لكرور وولاء الشيخ  
علي يوسف لعباس .

يهاجمون عبد الحميد ويشنعون به، ويتزعمون حركة المطالبة بإصدار الدستور. وقد نفاه السلطان عبد الحميد إلى «سيواس»، وظل في منفاه سبع سنوات، ولم يفرج عنه إلا بعد سقوط عبد الحميد وإعلان الدستور سنة ١٩٠٩. وقد عانى خلال هذه السنوات هو وأمه العجوز وزوجته الشابة وطفلاه الصغيران - وكان أصغرهما رضيعاً - من العذاب والآلام ما وصفه في كتابه «المعلوم والمجهول» بجزأيه. وكان كثير من جماعة «تركيا الفتاة» قد فروا إلى مصر من مطاردة عبد الحميد، فأتخذوها مركزاً من مراكز دعايتهم المنبثة خارج الدولة العثمانية، وأصدروا فيها بعض الصحف والمنشورات التي تشع بفساد حكمه واستبداده. وكان عباس يغضي عنهم ويشجعهم حين تسوء صلته بالسلطان عبد الحميد، ويشدد عليهم حين يريد أن يتقرب إليه باضطهادهم. وكان كرومر هو الذي يتولى حمايتهم حين يتخلى عنهم عباس ويمكر بهم. لذلك كان أعضاء «تركيا الفتاة» يدينون له بالولاء ويشيدون بعدله. بينما كان كرومر يستخدمهم في تحقيق أهداف السياسة الإنجليزية التي تريد أن تقضي على الجامعة الإسلامية وتقطع أوصال الإمبراطورية العثمانية. وقد وجدت بغيتها في هذا النفر الذي يشع بسيئات عبد الحميد، ويدعو إلى الأخذ بأسباب المدنية الغربية، ويهاجم من يسمونهم «رجال الدين» ويتهمهم بأنهم سبب البلاء وموطن الداء، بل ويهاجم الدين نفسه ساخراً بقيمه وشعائره، مستبدلاً بها القيم التي كان يدعو إليها الليبراليون من اللادينييين في أوروبا (Liberals). وكان ولي الدين يكن من أشد أنصار تركيا الفتاة تقديراً لكرومر، حتى لقد صدر الجزء الأول من كتابه «المعلوم والمجهول» بصورته، وكتب تحتها «مصلح مصر». وقد انتهى به اعترافه بفضل كرومر إلى تأييد الاحتلال. وكان من بين ما كتبه في ذلك مقال نشر في «المقطم» عنوانه «المحتلون يخرجون من مصر»<sup>(١)</sup>. وهو يتصور في مقاله الآثار التي تترتب على خروجهم. فيروي حلمياً رأى فيه جيش الاحتلال يخرج من مصر، ثم رأى تمتلإ إبراهيم يتزل إلى الميدان ليمنعه من الخروج، مستحلفاً

الإنجليز أن يقيموا العدل وليكفوا الرعاع عن الإفساد . وقد بدأ ولي الدين يكن قصته بقوله :

« . . . فرأيت فيما يرى النائم كأني أسير إلى ميدان عابدين . فلما وافيت مدخل الميدان مما يلي الشارع الآخذ من ميدان «الأوبرا» إذا جموع من الجنود المحتلة ، تتقدمها موسيقاها ، ويقودها قوادها مشاة وفرساناً ، تحفّق بينها الأعلام البريطانية التي أظلت الأمن والعدل بمصر في أكثر من ربع قرن . وبأطراف الميدان جماعات من الرعاع والسوقة ، يتوسطها بعض تلامذة المدارس ، وآخرون جعلت أتعرف بعضهم كلما علق بهم نظري . فالتفت إلى وسط الميدان ، فإذا العلم البريطاني وإلى جانبه العلم العثماني ، يصل بينهما رباط أخضر إشارة إلى الود والاتحاد . وإذا أمام العلمين منبر ذو درجات أعد ليخطب عليه من لا أعرفه . »

فإذا بلغ من حلمه الذي تخيله خطبة « الجنرال مكسويل » قائد جيش الاحتلال قال :

« فصعد قائد الجيش المحتل على المنبر ، وخطب الحاضرين فقال :

نحن الآن يتنازع قلوبنا عاملان : واحد للفرح وآخر للحزن . فأما عامل الفرح فبأن أثمرت مساعينا لإصلاح مصر حتى نستطيع أن نعيش وحدها . وأما عامل الترح فبأن سنودع وادي النيل وأبنائه بعد أن طاب لنا المقام واستحكمت في قلوبنا الإلفة . »

ثم هو يصور ائتمار المفسدين وما يدبرون من تخريب بعد رحيل جيش الاحتلال فيقول :

« فإذا شرذمات من أهل الضوضاء وسكان الأعشاش ، وقد عصبوا رؤوسهم بمناديل حمراء وبأيديهم العصي ، تتقدمهم عربات فيها رجل كالخيار « الشنبر » ، له شارب أسود يخاله على البعد رائيه حشد خنجر ، على رأسه « طربوش »

أعوج . وإلى جانبه آخر مثله . ولكنه منتفخ البطن كـ « البرنيّة »<sup>(١)</sup> وفي يده شيء يشير به لم أتبينه جيداً ، وأحسبه سوطاً . وأمام العربية بين هؤلاء الجموع رجل أسود الشاربين طويل القامة ، مُعَمَّمٌ مُكَمَّمٌ ، يحمل على كتفه مشعلة مغطاة بكوفية<sup>(٢)</sup> من كوفيات « المحلة » الكبرى ، وقد جَمَحَ أَيْمًا جِمَاحٌ . فكان ينظر بمنة ويسرة ، ويصيح بملء فيه قائلاً : « مِلْحَة في عين اللي ما يصلي على النبي » . فتأملته فإذا هو أحد مشاهير الكتاب والخطباء ، عزيز القدر بين أشياعه . فتركته وحبله على غاربه ، وقلت أنظر إلى غيره ، فسمعت أحد من في العربية يقول لجماعة من المشايخ : إذا ركب الجنود القطار ، وسار بهم حتى غاب عن الأبصار ، تذهبون من ساعتكم في جماعة من الشذاذ إلى إدارة كذا ، فتهدمونها على من فيها ، ثم تفعلون ذلك بإدارة كذا ، ثم استعلموا لنا عن هذا الخبيث الملعون الذي يسمي نفسه « زهيراً »<sup>(٣)</sup> . فاجعلوا في عنقه حبلاً وجروه على وجهه ، ثم ألقوا به في النيل .»

ويختتم مقاله الذي يروي فيه هذا الحلم المزعوم بخطاب إبراهيم بن محمد علي ، إذ يناشد المحتلين البقاء فيقول فيما يقول :

« .. حتى صار ما صار<sup>(٤)</sup> ، وحَمِي الحِمَى بهذه البواتر ، ونامت الأعينُ في أمن هاته الأعلام ، وتريدون اليوم أن تخرجوا من مصر ، ليصبح عاليها سافلها ، وليجري هذا النيلُ أحمرَ قانياً ؟ .. كلا . . . ثم كلا . لأصبحن صبيحة تخرق حجب الأزل ، وتنفذ إلى من وبلحوا غابته . ولأبعثن لكم من تحت المقابر أجساداً تسد دونكم طريق الرحيل . أما والهَرَمَينِ والنيل ، ليدخلن أهل الطيش غداً على العذارى في خدورهن ، وليأخذنَّ بغدائرهن ، وليقومنَّ بعد زماعكم من الشر

١ - البرنية : كلمة يستعملها العامة في مصر يطلقونها على إناء فخاري صغير منبعج البطن يستخدم في حفظ الأطعمة السائلة .

٢ - الكوفية في العامة المصرية : ملعقة صغيرة تحيط بالرقبة .

٣ - يقصد نفسه ، و(زهير) هو الاسم المستعار الذي كان يذيل به مقالاته في « المقطم » .

٤ - يشير إلى الثورة العرابية .

أضعافُ ما أتى بمقامكم من الخير . ارجعوا إلى ثكناتكم مأجورين غيرَ مأزورين .  
إنما يَأْنَسُ إليكم أهل الوقار وأنصار الفضل .»

ويوجه ولي الدين يكن خطابه في مقال آخر إلى والي «البصرة» العثماني فيقول (١) :  
« يزعمون أنك تبغض الإنكليز . أبغضهم ما شئت ، وأحببهم ما شئت ، لسنا  
على فؤادك مسيطرين . ولكنّ الوالي العثماني يحب من تحب دولته ، ودولتك  
تحب الإنكليز ، والإنكليز يحبونها . »

« يزعمون أنك تقول إن الهند ومصر شريكتان في الشقاء ، وإنهما يتمللان  
من ظلم الإنكليز . ولكنك تعرف أن في الظلم ضرراً لا يجارينا إليها الإنكليز ،  
وأن القوم نزلوا بمصر وعيوننا تراهم ، وأن فضلهم على هذا القطر أعظم من  
فتح الشوارع وإقامة التماثيل ، وأن لهم عندنا - معشر العثمانيين - لخملاً لا ينساه  
من في فؤاده مثقالُ ذرة من المروءة . وربما كان من أبناء «التايمز» أفراد لا يحبون  
العثمانيين ، فليكن في العثمانيين أناس يبغضون أبناء التايمز . غير أن والي «البصرة»  
يجب أن لا يكون إلا وفياً عارفاً بمرامي الكلام . »

ويعترف ولي الدين يكن بحميل إنجلترا على من يسميهم «الأحرار» من  
أعضاء «تركيا الفتاة» ، في رثائه لإدوارد السابع سنة ١٩١٠ ، حيث يقول (٢) :

أبا الأحرار لا ينسأك حر	شبابهم يُجِلُّكَ والكهول
رفعت بناءهم وجريت معهم	كذلك الليث يتبعه الشبول
تناديك الشعوب بكسل أرض	فليتك سامع ماذا تقول ؟ !
تناجي منك حاميتها المرجى	وصولتتها إذا قامت نصول

\*\*\*

وكان للاستعمار - إلى جانب هذه البطانة التي اتخذها من المصريين - أعوان  
آخرون من الشّاميين ومن الأرمن ، النازحين إلى مصر ، والمنبئين في الوظائف  
الحكومية في مختلف النواحي والفروع . أما الشّاميون - وقد كانت كثرتهم

١ - الصحائف السود ص ٧٩ .

٢ - ديوان ولي الدين يكن ص ٦٣ - ٦٤ .



من المسيحيين - نيرجع نفوذ جاليتههم ونشاطها في مصر إلى حكم إسماعيل ، حين أراد أن ينشر الحضارة الأوروبية ، فاحتاج إلى موظفين يتقنون الفرنسية إلى جانب العربية - وكانت الفرنسية وقتذاك لغة دولية - فلم يجد بغيته في المصريين ، إذ كان أصحاب الثقافة الأوروبية منهم قلة لا تكفي ، فأنجه إلى الشّاميين ، الذين كان مسيحيوهم أسبق من المسلمين إلى الالتحاق بالمدارس الفرنسية والأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية ، يستخدمهم في مختلف المصالح الحكومية . ثم ساعد الرعيل الأول منهم لإخوانهم ومواطنيهم على الرحلة إلى مصر ، ومهدوا لهم احتلال مراكز حكومية فيها <sup>(١)</sup> . وكان طبيعيا أن لا يشارك هؤلاء الشّاميون المصريين في إحساسهم الوطني . فلأنما هم مرتزقة لا يبالون إلا الغنم ، يحرون وراءه حيث كان ، ويحققون لأنفسهم منه أوفر نصيب ، لا يعنيه في ذلك أن يرضى المصريون أو يغضبوا . ولأنما يعنيه أن يرضى صاحب السلطة الذي يجري رزقهم على يديه . هذا إلى أن فساد الحكم التركي وغلوه في اضطهادهم وتحقيرهم قد ولد فيهم حقدا على الترك خاصة ، وعلى المسلمين عامة . لذلك لم يجد الإنجليز حين احتلوا مصر خيرا منهم معينا ونصيرا . فاتخذوا منهم صاحب «المقطم» «والمقتطف» ليكون لسانهم الناطق . وتدخلوا لحمايتهم حين هم رياض باشا أن يصدر قانونا يحرم عليهم فيه الالتحاق بالوظائف الحكومية في سنة ١٩٠٠ . <sup>(٢)</sup> وقد أثنى عليهم كرومر ، واعترف بما أدوا للإنجليز من خدمات ، وما بذلوا لهم من معونة صادقة . وخص المسيحيين منهم بثنائه ، فقال : « إنهم أهم كثيرا من مسلميهم من وجهة النظر السياسية <sup>(٣)</sup> » .

أما الأرمن فيرجع نفوذ جاليتهم إلى حكم محمد علي . فقد كانوا يشغلون منذ ذلك الوقت مناصب رئيسية خطيرة في الدولة ، جعلت لهم كلمة نافذة

١ - Modern Egypt ٢ : ٣١٤ - ٣١٥ .

٢ - مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢١٦ .

٣ - Modern Egypt ٢ : ٢١٣ - ٢١٩ .

مسموعة في كل ما يتصل بشئون مصر ، حتى لقد استطاع أحدهم فيما بعد أن يصبح وزيراً للخارجية ، ثم رئيساً للوزارة ، وأن يمكن لزوج ابنته من بعده حتى يصل إلى وزارة الخارجية .<sup>(١)</sup> وقد قص مصطفى كامل في خطاب له بعث به إلى أحمد شفيق باشا ما جرى بينه وبين الأميرالاي بارنج ( شفيق اللورد كرومر ) من حديث خلال إحدى أسفاره إلى فرنسا للدعاية لمصر . ومن هذا الحديث نستطيع أن نتبين مدى اعتماد الإنجليز على نوبار باشا في تنفيذ سياستهم في مصر وفي السودان ، وما كان يطمح فيه نوبار من مكافأة الإنجليز له على إخلاصه ، بالعمل على استقلال أرمينيا وإنشاء وطن قومي لبني جنسه<sup>(٢)</sup> .

ذلك تأويل ما نجده في أدب هذه الحقبة من التعريض بالدخلاء .

يقول مصطفى كامل في خطبة له بالإسكندرية سنة ١٨٩٦ :<sup>(٣)</sup>

« وإذا كان صالح مصر يقضي كما قلت بوجوب وجود خطباء من أبنائها يطوفون العواصم والمدائن في أوروبا معلنين آراءهم ، مجاهرين بإحساساتهم ، مطالبين بحرية بلادهم ، فوجود خطباء مثلهم في مصر نفسها يرشدون الأمة إلى الخير ، ويحذرونها من الوقوع في الشر ، أصبح أمراً محتماً ، خصوصاً في هذا الزمن الذي يعمل فيه الدخلاء للتفريق بين الوطنيين وبعضهم ، والشقاق بين المصريين والأوربيين ، ويكيدون للأمة أعظم كيد ، ويدسون الدسائس لخلق القلاقل وإحداث الاضطرابات . »

« أجل أيها السادة... أجل. إن تحذير الأمة من أعمال الدخلاء صار واجباً على كل مصري شريف الإحساس ، مخلص النية لبلاده . وما نبلاء المصريين مجاهلين طغمة الدخلاء ، بل الكل يعرفها ، والكل إذا لقيها يشير إليها . »

١ - Modern Egypt ٢ : ٢١٩ - ٢٢١ والمقصود هو نوبار باشا .

٢ - مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٩٢ - ١٩٥

٣ - مصر والاحتلال الإنجليزي « مجموعة أعمال مصطفى كامل من مايو سنة ١٨٩٥ إلى مايو سنة ١٨٩٦ من ١٤١ ، ١٤٩ » .

فلتجبطوا أيها الوطنيون الفضلاء مساعي هذه الفئة السيئة ، ولتردوا رجالها على أعقابهم خاسرين ... فالدخيل الدخيل ... هو العدو الحقيقي ، وهو العدو الألد ، الذي تجب محاربته بالقلم واللسان ، حتى تعرفه الأمة وتنبذه . وتجتنبه كل الاجتناب . ولا يسلم شعب راغب في الحرية المدنية والسعادة الاجتماعية إلا إذا اتحدت أفرادها ، ومنعوا الدخيل من إلقاء بذور الفتن ، والتفريق بينهم وبين بعضهم مما يكون وراءه ضياع بلادهم وضياعهم هم أنفسهم » .

ويقول عبد الله النديم في مقال نشر في مجلة الأستاذ في عدد ١٧ يناير

سنة ١٨٩٣ :

« أنا أخوك ... فلم أنكرني ؟ ... ما الشام ومصر إلا توأمان أبوهما واحد ، يسوء الاثنين ما ساء أحدهما . فلم تنافر أبناؤهما وانحاز السوريون في جانب بعيد عن المصريين وإن ساكنوهم في مصر ؟ ألم يكن الأجدر بنا أن نصرف علومنا ومعارفنا وقوانا العقلية في صلاح بلادنا وبث روح العلم والحياة الوطنية فيها ؟ ... أبراتب قدره عشرون جنيها يبيع المرء منا أخاه ووطنه ، بل جنسه ودينه ؟ ... أم بكلمة تغرير نصرف حياتنا في خدمة الأجنبي لنعيه على إخواننا ، لينتقم منهم بغير ذنب ويجني على غير جان ؟ بشس والله ما وصلتنا إليه هذه الخزعبلات التي نسميها معارف وآدابا . زرعنا الأحقاد في قلوبنا بغيا وعدوانا . أهلكنا أنفسنا بالعداوة في غير مصلحة جهلا وحماسة ... فضحنا أنفسنا بنقل عوراتنا للغير سفاهة منا وجنونا .. بعنا هيئتنا للأجنبي بلا ثمن خبلا وبلاهة . ولو اجتمعت كلمتنا واثلفت نفوسنا وصفت بواطننا وصرفنا هذه الهمم في حفظ الوطنين وإعلاء كلمة الجنس ، لحسدتنا المعالي ، ووقفت أوروبا تنظرنا بعين الإعظام والإجلال . ولكن قضت شقوة الشرقيين أن يكونوا كحطب النار يأكل بعضه بعضا ، لينتفع الغير بنارهم اصطلاء وطبخا واستعمالا فيما يشاء . والعهد قريب ، والعود غير عسير ... »

« وأأسفاه على رجال قضى آباؤهم الدهور الطويلة يتبادلون العمران والاستيطان ، لا يفرق بينهم دخيل ، ولا يقطعهم عن بعضهم أجنبي ،

فجاءوا من بعدهم وخالفوا سيرهم ، وحالفوا غيرهم ، وخدموا الأجنبي بمساعدته على التداخل في بلادهم ، بل على الاستيلاء عليها . لا لعداوة بين الأمتين ، ولا لحرب جرت في الوطنين ، بل برغيف يحصله الزبَّال ، وخرقة يملكها الشحاذ . وإن قيل إن جامعة الدين اضطرتهم ، قلنا إن عز الاستقلال بالوطنية خير من الإذلال بجامعة الدين . فإن الأجنبي يغر الرجل منا حتى يوصله إلى غرضه ، ثم يُلحقه بغيره عند تمام الاستيلاء ، ولا يعرف له حقا غير خدمته ، ولا يفريق بينه وبين من بغيره ديناً في الاستخدام والاستعباد . « (١) وصور حافظ إبراهيم ما كان يقوم بين المصريين وبين هذه الطائفة من الشَّاميين ، من الكراهية المتبادلة وسوء الظن ، حيث يقول مصوراً شكاة الشَّامي (٢) :

« جلستُ أبث النبل شكاتي من أبنائه . وأنتَ تعلم أنهم صارمونا على غير ريبة ، وقاطعونا على غير ذنب ، وأصبحوا يرموننا بثقل الظل وجمود النسيم ، ولم يراعوا حق الحوار ، فسموا إقدامنا قحة ، ونشاطنا جشعا ، وكدحنا وراء الرزق فضولا ، ونزوحنا عن الوطن عارا ، وضربنا في الأرض شرودا . وما ذنب من ضاقت عليه بلاده فخرج يلتمس وجوه الرزق في بلاد لله ؟! ... اللهم إنها محاسن عدوها عيوبها ، وحسنات سموها ذنوبها . » ثم يقول مصورا شكاة المصريين على لسان سطحي :

« إنني لا أكذب الله . لقد أكثرتم من التداخل في شئونهم ، فعز ذلك

١- وقد خصص عبد الله النديم عدداً كاملاً من مجلة «الأستاذ» لمهاجمة أصحاب «المقطم» ومن يذهب مذهبهم من أبناء جنسهم . وكان بالغ العنف في مهاجمته . ولم يمض على مقاله هذا شهر واحد حتى أرغم الرجل الوطني الذي لم يفتر عن الكفاح ولم يعرف الخوف إلى قلبه سيلاً على إغلاق صحيفته والهجرة عن مصر (العدد ٢٩ من الأستاذ الصادر في ٢٣ مايو سنة ١٨٩٣)

٢- ليالي سطحي ص ١٦ - ٢٢ . وهو يشير في هذا الموضع من كتابه إلى أن المسيحيين من الشَّاميين هم المقصودين بهذا الدم بنوع خاص . ويعلل تفوقهم وتخلف المسلمين من الشَّاميين بانصراف الفريق الآخر عن إلحاق أبنائهم بالمدارس الأجنبية .

عليهم من أقرب الناس إليهم . نزلتم بلادهم فترلتم رحبا ، وتفيأتم ظلالها فأصبتم خصبا ، ثم فتحت لهم أبواب الصحافة فقالوا أهلا ، وحلتم معهم في دور التجارة فقالوا سهلا . ولو أنكم وقفتم عند هذا الحد لرأيتم منهم ودا صحيحا وإخلاصا صريحا . ولكنكم تحطيم ذلك إلى المناصب فسدتم طريق الناشئين ، وضيقتم نطاق الاستخدام على الطالبين . ولقد كنتم منذ بضع سنين لا تتجاوزون ستة آلاف عدا ، فأصبحتم اليوم وقد نيفتم على الثلاثين <sup>(١)</sup> وقد وسع النثر في مهاجمة هذا الفريق من مسيحيي الشاميين الذين أيدوا الاستعمار في مصر ما لم يسع الشعر . لأن الشعراء خافوا إن هم تعرضوا للشاميين جملة أن يسيثوا إلى المخلصين منهم ، أو يفسدوا الرابطة الشرقية التي كانت ناشئة في ذلك الوقت . وخافوا إن هم أشاروا إلى المسيحيين منهم أن يثيروا فتنة دينية تفرق بين المصريين . ولذلك اكتفوا بالإشارات العابرة ، مثل قول حافظ ، إذ يصور جددهم وخمول المصريين ، الذين يتبرمون بما أصاب هؤلاء من رزق ، وقد قعدوا عن منافستهم في مختلف الميادين . وذلك من قصيدة له في زواج الشيخ علي يوسف سنة ١٩٠٤ : <sup>(٢)</sup>

وقالوا : دخیل علیه العفاء	ونعم الدخیل علی مذهبي
رأنا نیاما ولما نُفِقْ	فشمّر للسعي والمکسب
وماذا علیه إذا فاتنا	ونحن علی العیش لم نبدأ
ألفنا الحمول ویا ليتنا	ألفنا الحمول ولم نکذب

١- يقول كرومر : إن أهمية الشاميين - ومن الواضح أن كلامه هنا ينطبق على المسيحيين منهم - لا ترجع إلى ضخامة جالياتهم . ولكنها ترجع إلى المراكز التي يشغلونها ، فمعظمهم موظفون في الحكومة . وفي كل قرية مصرية تجد مرابيا . إذا لم يكن يونانيا فهو شامي . فالشاميون يحتلون في مصر المكان الذي يحتله اليهود في الدول الأوروبية . فهم مكروهون من المصريين - مسلمين وقبطاً - لأنهم يستأثرون دونهم بالوظائف من ناحية ، ولأنهم دائنون من ناحية أخرى ، وعلاقة الدائن بالمدين يسودها البغض في أكثر الأحيان ( *Modern Egypt* )

٢ : ٢١٣ - ٢١٤ )

٢- ديوان حافظ إبراهيم ١ : ٢٥٧

ويقول في قصيدة ألقاها في حفل أقامه له جماعة من السوريين في فندق «شبرد» سنة ١٩٠٨، بعد أن وصف نشاط الشّاميين الموفق في مصر وفي أمريكا : (١)

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم	فصافحوها تصافح نفسها العربُ
فما الكنانةُ إلا الشامُ عاج على	رُبوها من بنيتها سادةٌ نُجُبُ
لولا رجالٌ تغالَوْا في سياستهم	منا ومنهم كما لُمنا ولا عتبوا
إن يكتبوا لي ذنباً في مودتهم	فإنما الفخر في الذنب الذي كتبوا

ويقول علي الغاياني في قصيدة كتبها بمناسبة حبس الشيخ عبد العزيز جاويز في المقال الذي كتبه عن ذكرى دنشواي في صحيفة اللواء سنة ١٩٠٩ : (٢)

وغداً (الدّخيل) مُروّعاً	أركاناه تهتدم
يرجو النجاة ولا سبيـ	ل ويستبين فيعجم
ويمد صوت ندائه	نحو «العميد» فيحجم
ذاقَ الوبال بما جنا	ه ولم يُعِده الدرهم
فاندكّ صرّحٌ كان في	ه للخيانة مغنم
وكذاك شأن المجرم	ن يصيبهم ما أجرموا

ويقول نسيم : (٣)

اتقوا الله يا غواةً قليلاً	واخلعوا العار عنكم والشناراً
تنسبون المصري للعار جهلاً	وهو أسمى من العقاب مزاراً
جثتم داره ضيوفاً عراً	فكساكم من الثراء دثاراً
أيها المشتري بهجوك حظاً	هجوك القوم قابل استنكاراً

١- ديوان حافظ ١ : ٢٦٩ - ٢٧١

٢- وطني ص ٨٠ وهو يقصد «بالدخيل» صاحب «المقطم»

٣- ديوان نسيم ١ : ٤٨

نَمُقُّ النثر في مقاصد تُجَنِّدِي      تُلَفِّ حَمْدَ الْوَرَى عَلَيْكَ نِشَارَا

\* \* \*

وبين هاتين الطائفتين من الكتاب والشعراء ، التي تؤيد إحداهما السلطة الشرعية ممثلة في الخديوي ، وتؤيد أخراهما السلطة الفعلية ممثلة في قنصل بريطانيا العام ، كانت هناك طائفة ثالثة تتردد بين المعسكرين ، تحاول أن تحتفظ بصداقتهما معاً ، وترجو أن لا يخطئها الخير والبر من أحدهما ، وتخشى إن هي أعطت كل نفسها لأحدهما أن تُبتلى بعداوة الآخر وأذاه . وهؤلاء هم ضعاف النفوس من المسلمين الذين لا يصبرون للكفاح ولا يستطيعون تجشم أعبائه وتبعاته ، وطلاب النفع الذين لا يرون الحياة إلا طعاماً يملأ البطون ، وكساء يختال على الأبدان ، ومتعاً تملأ حياتهم الفارغة التافهة .

وكان حافظ إبراهيم واحداً من هؤلاء المسلمين من طلاب العيش . وكأنما كان يعني نفسه بالبيت الأخير من قوله في تبكيت المصريين : (١)

وشعب يفر من الصالحات	فرار السليم من الأجرب
وصحف تطن طنين الذباب	وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير	ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير	ويطنب في ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين	على غير قصد ولا مأرب

فقد ظل هذا المسكين منذ أُحيل إلى الاستبداد فيمن عوقبوا من المتهمين في حادث تمرد فرقتي الجيش المصري بالسودان سنة ١٩٠٠ يدير وجهه إلى عباس تارة ، وإلى السلطان عبد الحميد تارة أخرى . فإذا استيقنت نفسه قلة حيلتهما وقصر باعهما انصرف إلى الإنجليز ، وقوى صلاته بالشيخ محمد عبده صديق كرومر وعدو عباس ، ولم يترك رجلاً ذا سلطة يؤمل أن

يجري خيره على يديه إلا قصده . وهو في كل حالاته يتملق ويستعطف ، مؤملاً أن يصيبه الخير آخر الأمر من إحدى السلطات . وقد تتخلل سكرته صحوات يشبه فيها بالثائرين في مثل حادث دنشواي أو توديع كرومر . ولكن الحرص والخوف يمنعان ثورته من الانطلاق ، ويقيدانها بأغلال ينم عنها شعره . فهو في الأولى يضع إنجلترا موضع الأب الذي يظن بابه العقوق إذ يقول (١) :

لا تظنوا بنا العقوق ولكن أرشدونا إذا ضللنا الرشادا  
وهو يشعر شعوراً عميقاً بضعفه أمامهم ، وليس هذا شأن الثائرين .

كيف يخلو من القوي التشفّي من ضعيف ألقى إليه القيادة ؟  
إنها مُثَلَّة تشف عن الغي — ظ . ولسنا لغيظكم أنداداً

وهو في الأخرى يروي ما يقول الناس من حسنات كرومر وسيئاته ، بل ويقدم الحسنات على السيئات ، ثم يقول آخر الأمر إنه شاعر لا رأي له (٢)

فهذا حديثُ الناس والناسُ السُّن إذا قال هذا صاح ذاك مفنداً  
ولو كنتُ من أهل السياسة بينهم لسجّلت لي رأياً وبُلّغت مقصداً  
ولكنني في معرض القول شاعر أضاف إلى التاريخ قولاً مخلدًا

وكأنما كان حافظ يصف نفسه ، حين صور ما يسيطر على رجال الجيش من رهبة الإنجليز فقال : (٣)

« ينظر المصري إلى الإنجليزي وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة ، فيكبره رهبة وإجلالا ، ويتضعضع لرؤيته . وينظر إليه الإنجليزي بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافاً بشأنه ، ويطيّل عتاب الخالق الذي فطره على شكله وصورته ومنحه نعمة التنفس في جو يتنفس الإنجليزي فيه . وهو

١- ديوان حافظ ٢ : ٢٠

٢- ديوان حافظ ٢ : ٣٠

٣- ليالي سطيح ص ١١٠



إن خاطبه خاطبه بلسان لا تجري عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق ، أو  
بإشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر . »

« هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط . أما الكبار منهم ، كبار الرتب  
والأجسام ، لا كبار النفوس والأحلام ، فحالمهم إلى الرحمة أدعى منها إلى  
اللوم . فلقد سقاهم ساقى السياسة الإنجليزية كوؤساً من منقوع الرعب . فإذا  
نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وقفته الجواد وقد  
رأى الليث . حتى إذا صدر له أمره بشيء كاد يخرج من ظله سرعةً لإمضاء  
ذلك الأمر . فهو إلى إجابة داعيهم أسرع من الصدى . وهو على حفظ أمره  
أحرص من الفسُوغراف على حفظ الصوت . »

« اللهم إن العيش مع الأبيضيّين وإن أبردا العظام ، أروحُ للنفس من  
عيش ضباطنا العظام . تراهم وكأن أكتافهم سماء الدنيا وقد تزينت بالنجوم ،  
فيروك ما ترى ، ولو كشفتهم لرأيت تحت تلك السماء أفئدة هواء . »

« فليت سيوفهم كانت عِصياً وليت نجومهم كانت رُجوماً »

مدح حافظ عباساً سنة ١٩٠١ بقصيدتين ، إحداهما في عيد الفطر ،  
والأخرى في عيد جلوسه <sup>(١)</sup> ، وهنأ السلطان عبد الحميد في العام نفسه بعيد  
جلوسه ، متقرباً إليه بمهاجمة حزب تركيا الفتاة <sup>(٢)</sup> . ثم لم يلبث أن انصرف  
إلى تهنئة إدوارد السابع سنة ١٩٠٢ بتتويجه ، فإذا كل بيت من أبيات قصيدته  
ينطق بما يملأ قلبه من رهبة الإنجليز . يبدأ قصيدته بقوله <sup>(٣)</sup> :

لمحت في مصر ذاك التاج والقمر  
فقلت للشعر هذا يوم من شعرا  
ثم يصور قوة إنجلترا القاهرة إذ يقول :

---

١ - ديوان حافظ ١ : ١١ و ١٣

٢ - « ١٠ : ١٥ »

٣ - ديوان حافظ ١ : ١٨

مَنْ ذَا يَنَاقِيكَ وَالْأَقْدَارُ جَارِيَةٌ      بِمَا تَشَائِنِ ، وَالْدُنْيَا لِمَنْ قَهْرًا  
إِذَا ابْتَسَمْتَ لَنَا فَالْدَهْرُ مَبْتَسِمٌ      وَإِنْ كَثُرَتْ لَنَا عَنْ نَابِهِ كُشْرًا  
وَيُخْرِجُهُ الْخَوْفُ عَنْ وَقَارِهِ وَكَرَامَتِهِ حِينَ يَقُولُ :

الْيَوْمَ يَلْتَمِسُ تَاجُ الْعِزِّ مُحْتَشِمًا      رَأْسًا يَدْبُرُ مَلَكًا يَكْلَأُ الْبَشْرَا  
يَصْرِفُ الْأَمْرَ مِنْ مِصْرَ إِلَى عَدْنٍ      فَالْهَنْدُ فَالْكَابُ حَتَّى يَعْبُرَ الْجُزُرَا  
بَلْ إِنَّهُ لِيَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَنْصُرَ جُنْدَهُ فِي الْآفَاقِ إِذْ يَقُولُ :

إِدْوَارِدُ دُمْتَ وَدَامَ الْمَلِكُ فِي رَغَدٍ      وَدَامَ جُنْدُكَ فِي الْآفَاقِ مُنْتَصِرَا  
وَيَقْرُنُهُ فِي عَدْلِهِ بِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ إِذْ يَقُولُ :

هَمْ يَذْكُرُونَكَ إِنْ عَدُّوا عَدُوَّهُمْ      وَنَحْنُ نَذْكُرُ إِنْ عَدُّوا لَنَا عُومَرَا  
كَأَنَّمَا أَنْتَ تَجْرِي فِي طَرِيقَتِهِ      عَدَلًا وَحِلْمًا وَإِيقَاعًا بِمَنْ أُشِيرَا  
ثُمَّ يَنْصَرِفُ حَافِظٌ إِلَى مَدْحِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَالِدِفَاعِ عَنْهُ فِي سَنَتَيْ ١٩٠٢ وَ ١٩٠٣<sup>(١)</sup> وَيَعُودُ فِي سَنَةِ ١٩٠٤ إِلَى عَبَّاسٍ ، فَيَمْدَحُهُ بِقَصِيدَتَيْنِ فِي عِيدِ الْأَضْحَى وَفِي عِيدِ الْعَامِ الْهَجْرِيِّ<sup>(٢)</sup> ، مُعْتَذِرًا عَنْ سَكَوتِهِ فِي الْعَامِينَ الْمَاضِينَ ، وَيَقُولُ فِي الْقَصِيدَةِ الثَّانِيَةِ مُسْتَعِظًا .

عَسَى ذَلِكَ الْعَامُ الْجَلِيدُ يَسْرُنِي      بَبْشَرِي . وَهَلْ لِلْبَائِسِينَ بَبْشِيرُ ؟  
وَيَنْظُرُ لِي رَبُّ الْأَرِيكَةِ نَظْرَةً      بِهَا يَنْجَلِي لَيْلُ الْأَسَى وَيَنْبِيرُ  
فَإِذَا عَيْنُ سَعْدِ زَغْلُولٍ وَزِيرًا لِلْمَعَارِفِ فِي وَزَارَةِ صَهْرِهِ مُصْطَفَى بِاشَا فَهْمِي  
سَنَةِ ١٩٠٦ ، مَدَحَهُ مُتَقَرِّبًا إِلَيْهِ بِصِلَتِهِ بِأَسَاتِذِهِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ<sup>(٣)</sup> :

فَارْدُدْ لَنَا عَهْدَ الْإِمَا      مَـ وَكُنْ بِنَا الرَّجُلَ الْمَقْدَى

١ - ديوان حافظ ١ : ٢١ - ٢٧

٢ - ١ : ٢٨ و ٣١

٣ - ١ : ٢٦٤

فإذا انتهى به المطاف إلى دار الكتب وعين بها سنة ١٩١١ ، بلغ به اليأس والاستسلام أن ينصح السلطان حسين كامل ، حين وُضعَ على عرش مصر بعد خلع عباس سنة ١٩١٥ ، بموالة الإنجليز والإخلاص لهم إذ يقول (١) :

ووالِ القومَ لِنَهِمُ كِرَامَ	مِيَامِينُ النَقِيبَةِ أَيْنَ حَلَّوْا
لَهم مَلِكٌ عَلَى التَّامِيزِ أَضَحَتْ	ذَرَاهُ عَلَى المَعَالِي تَسْتَهْلُ
وَلَيْسَ كَقَوْمِهِمْ فِي الغَرِبِ قَوْمُ	مِنَ الأخْلَاقِ قَدْ نَهَلُوا وَعَلَوْا
فَإِنْ صَادَقْتَهُمْ صَدَقُوكَ وَدَّآ	وَلَيْسَ لَهُمْ إِذَا فَتَشْتَ مِثْلُ
وَإِنْ شَاوَرْتَهُمْ وَالْأَمْرُ جِدُّ	ظَفِرَتْ لَهُمْ بِرَأْيٍ لَا يَزِلُّ
وَإِنْ نَادَيْتَهُمْ لَبَّآكَ مِنْهُمْ	أَسَاطِيلُ وَأَسْيَافُ تُسَلُّ
فَمَادِدُهُمْ حِبَالُ الْوَدِّ وَانْهَضُ	بِنَا فِقْيَادُنَا لِلْخَيْرِ سَهْلُ

وَيَقْنَعُ بِطَلَبِ الإِصْلَاحِ فِي ظِلِّ الرَايَةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي اسْتَقْبَلَ بِهَا السِير آرثر مَكْمَاهُون سنة ١٩١٥ (٢) :

نَرْجُو حَيَاةَ حُرَّةٍ	مُضْمُونَةٍ فِي ظِلِّ رَايَةِ
وَنُرُومُ تَعْلِيمًا يَكُونُ	نَ لَهُ مِنَ الْفَوْضَى وَقَايَةِ
وَنُودُ أَنْ لَا تَسْمَعُوا	فِينَا السَّعَايَةَ وَالْوَشَايَةَ
أَنْتُمْ أَطِبَّاءُ الشُّعُو	بِ وَأَنْبِلُ الْأَقْوَامِ غَايَةِ
أَنْتَى حَلَلْتُمْ فِي الْبَلَا	دَ لَكُمْ مِنَ الإِصْلَاحِ آيَةِ
رَسَخْتَ بِنَايَةِ مَجْدِكُمْ	فَوْقَ الرُّوِيَّةِ وَالْهَدَايَةِ
وَعَسَدَلْتُمْ فَمَلَكْتُمْ	الْبَدَنِيَا فِي الْعَدْلِ الْكِفَايَةِ
إِنْ تَنْصَرُوا الْمُسْتَضْعَفِيَّةِ	نَ فَنَحْنُ أَضْعَفُهُمْ نَكَايَةِ

وإزاء هذا النزاع بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية انقسمت مصر إلى

١ - ديوان حافظ ١ : ٦٧ - ٧١

٢ - » ٢ : ٨٢ والسير آرثر مكماهون هو أول مندوب بريطاني عين في ظل الحماية . وقد وصل إلى مصر في ٩ يناير سنة ١٩١٥ .

معسكرين كبيرين ، أحدهما يحارب الاستعمار ، ويتذرع إلى ذلك بكل وسيلة ممكنة ، فيعتمد على نفوذ الحديوي آنأ ، وعلى نفوذ تركيا آنأ آخر ، وعلى نفوذ فرنسا في بعض الأحيان . وذلك هو الحزب الوطني ، يؤيده شباب مصر المثقف وطلبة المدارس في مختلف المعاهد . أما المعسكر الآخر فقد جنح إلى موالة الإنجليز واكتساب رضائهم ، معتقداً أن مصر في ضعفها وانحلالها لا تستطيع أن تكافحهم . وأن الطريق الأمثل للتقدم هو إصلاح حالتها الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية بالاتفاق مع سلطات الاحتلال . وذلك هو حزب الأمة ، يؤيده كبار الملاك ، ويشايعهم نفر من أصدقاء الشيخ محمد عبده ، مثل سعد زغلول وفتحي زغلول<sup>(١)</sup> . وبين هذين الحزبين الكبيرين كان هناك فريقان آخران ، فريق يعبر عن اتجاهات الحديوي ، استحدثه عباس حين فسد ما بينه وبين الحزب الوطني ، ويمثله الشيخ علي يوسف ومعه قلة من الأشياع يسمون أنفسهم حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية . وفريق باع نفسه للاستعمار وسمى نفسه الحزب الوطني الحر ، وما هو بوطني وما هو بحر ، وتمثله صحيفة «المقطم» . وربما استطعنا أن نضيف إلى هذين الفريقين فريقاً ثالثاً كان مستقلاً عن هذه الأحزاب جميعاً ، وكان يقاوم النفوذ الإنجليزي ، ولكنه لا يقاومه من وجهة النظر المصرية أو التركية ، وإنما يقاومه من وجهة النظر الفرنسية ، التي كانت - قبل الاتفاق الودي الذي عقد بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٠٤ - تدور حول إحراج الإنجليز وإغلاق مراكزهم في مصر ، بإثارة المشاكل ووضع العقبات في طريقهم . وكانت صحيفة «الأهرام» هي الممثلة لهذا الاتجاه<sup>(٢)</sup> . وربما كان مقال الجريدة «تعالوا نتفق أو مختلف» من أوضح ما كتب في بيان الفروق بين هذه الأحزاب .

---

١ - مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٠٢ و ١٢٩ و ١٤٣ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩١  
٢ - راجع نشأة هذه الأحزاب وبرامجها والظروف التي مهدت لظهورها في مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٢٦ - ١٣٢ ، الدولة العربية المتحدة ٣ : ٩٦ - ١٠٣ تاريخ المفاوضات المصرية ص ٢٣ - ٢٩ »

وقد جاء فيه (١) :

« . . . (فالمؤيد) يتحيز دائماً في سياسته العامة إلى إحدى السلطتين ، وأما في جزئيات المسائل وتقدير الحوادث فإنه يجري من النقيض إلى النقيض ، أي من (اللواء) إلى (المقطم) . فأحياناً يكون كالأول ، وأحياناً كالثاني ، وغالباً ينفرد في هذا الميدان الفسيح بذهنكم النقيضين ، مراعيّاً في ذلك حالة مصلحة سياسته العامة التي ذكرناها . وأما (الجريدة) فإنها لا تتحيز بلجهة من السلطتين ، ولا تتفق مع طرف من طرفي النقيض . وليس من سياستها أن تخدم سلطة مطلقاً . بل قلمها وقف في خدمة الأمة دون سواها ، وليس أمام نظرها إلا أن تصبح الأمة ذات إرادة ثابتة ووجود مستقل عن كل سلطة ، تقف في مركز مكيين لمطالبة السلطتين جميعاً بحقوقها من غير استكانة ولا محاباة (٢) . وبذلك لا يمكن أن تكون متفقة السياسة مع « المؤيد » . وأما (المقطم) فإنه يتحيز إلى سلطة قصر الدوبارة ، ويزين أعمال المحتلين ولو كان ملوئها الخطأ ، ويقول بالرضى عن الاحتلال . وأما (الجريدة) فإنها لا تقول بالرضى عن الاحتلال مطلقاً . وإنها لا تناقش الآن في أصل الاحتلال ، لأن الوقت لم يحن بعد . ولا تتحيز بلجهة ، لأنها تنتقد أعمال الحكومة والمحتلين بالحرية الكاملة ، وتبين صالحها من طالحها ، وتقول الحق في الحالتين من غير محاباة . وبهذا لا يمكن أن تكون (الجريدة) و (المقطم) متفقتي المذهب . . . . وأما (اللواء) فإنها تدعو إلى الاستقلال بالطفرة ، وخطتها عدائية للمحتلين . ونحن نرى أن الطفرة محال ، وعواقب التشبث بها خطيرة جداً ،

---

١ - صحيفة « الجريدة » عدد ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٧ المقالة الافتتاحية .

٢ - كذلك تزعم « الجريدة » والواقع أنها كانت تتحيز لكرورم وتتحامل على عباس . وقد كانت فكرة المصرية والتصير وقتذاك من خلق الإنجليز . وهي فكرة - على ما فيها من حق في ظاهرها - لم يكن يراد بها إلا الباطل . فهي شبيهة بفكرة السودنة التي خلقها الإنجليز في السودان للتفريق بين المصريين والسودانيين . وليس من محض الاتفاق أن يكون النادي بفكرة التصير وقتذاك هو حزب الأمة ، وأن يكون النادي بفكرة السودنة بعد ذلك في السودان هو الحزب المسمى بهذا الاسم نفسه .

وأن الاستقلال لا يكون إلا بمعداته التي شرحها سعادة حسن عبد الرازق باشا في خطبته . كما نرى أن معاداة المحتلين وتقبيح أعمالهم التي لا يحكم العدل بقبحها ليس من الاعتدال الذي هو شعارنا في كل شيء » .

وقد تكلمت في الفصل الثاني من فصول هذا الكتاب عن الفوارق الأساسية بين هذه الأحزاب . ولكني أحب أن أشير هنا إلى أن الخلاف بين هذه الأحزاب قد انتهى إلى خوض الصحف في مهاترات لم تكن تستهدف الحق دائماً ، كان كثير منها يتصل بالأشخاص لا بالمسائل العامة (١) . وقد أفست هذه المهاترات الأخلاق والأذواق ، فتولد في المصريين ميل جامع لتتبع هذا السباب والتشفي بسماعه ، وأصبحت هوايتهم الفاسدة أن يترقبوا في شوق طلوع اليوم الجديد ليستمتعوا بمزيد من السباب ، وليأخذوا مقاعدهم في حفل مصارعة الثيران ، وقد غدا أقدرُ الناس على السباب وعلى ردّه هو أبرعهم في أعين الناس . وبذلك استنفدت طاقة المصريين فيما لا طائل تحته ، وصرفت عن مواجهة الاستعمار ، عدوهم الأول ، الذي استراح من حربهم بعد أن أصبح كل منهم حرباً على صاحبه . وارتكبت الصحف باسم الحرية أبشع جريمة في تمزيق شمل المصريين وتمزيق كلمتهم ، حتى ضج المصلحون من هذه الفوضى المؤذية للأذواق ، والمفسدة للأخلاق والباعثة على بلبلة الأفكار . يقول عبد الله النديم (٢) :

« أطلقت إنجلترا حرية المطبوعات والأفكار . فرأينا الجرائد الكثيرة تتكلم بما تريد ، وتتصرف في أفكارها كيف تشاء . هذه تقول : أنا وطنية ، أنا دي بأن خير البلاد وصالحها موقوف على جعل الأعمال بيد المصريين ، تحوطهم عناية الحضرة الخديوية تحت مراقبة بريطانيا العظمى ، حتى إذا رأتهم قاموا بحكومة ثابتة مؤيدة بالقانون الحق النافذ ، وفوت وعدّها ، وأجلت جندّها ، وتركتهم يتمتعون بحريتهم في بلادهم ، كما تتمتع البلغار والجبل الأسود

١ - راجع أشلة لذلك في تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦٤ ، ٦٦٨ ، ٦٩٤ ، ٧٠٤ ، ٧١٠ ، ٨٣٣ ، ٨٥٣ .

٢ - الأستاذ عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ .

والعرب وغيرها مما هو أقل من مصر بكثير ، والأمة مرتاحة لها . وهذه تقول : مصلحة البلاد موقوفة على زيادة نفوذ الإنكليز ، ووضع الإدارات تحت أيديهم بمساعدة التزلاء ، حتى يتهياً المصريون لاستلام أعمالهم . لا تبالي رضي عنها المصريون أو غضبوا منها . وهذه تقول : إن فرنسا هي الدولة الوحيدة في المحافظة على مصر وحقوق السلطان فيها وتأيد الخديوي ، ولا يضرها إلا وجود الإنكليز فيها . وهذه مذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وهذه علمية تهذب النفوس . وهذه تورث لهم من مصادرات الأديان ما يوقعهم في الشك والتردد . وهذه دينية ، وهذه حقوقية ، وهذه طبية . ثم تركت المصريين يغدون ويروحون بين هذه المتناقضات وهم يتناظرون ويتجادلون ، لا رقيب عليهم ولا جاسوس . ولما رأت أن كثرة المؤثرات الفكرية لم تنبههم إلى طلب حقوقهم ، وظهورهم أمامها بالتظاهرات الأدبية استدلالاً على استعدادهم للقيام بأعمال بلادهم ، تركت الجرائد تخوض في المواضيع المتضادة ، وتلعب بالأفكار الجامدة ، ونحن في بحار اللهو غارقون . »

وصور حافظ إبراهيم فساد الصحف التي لا ينفقُ سوقها إلا بتبادل الشتائم بالباطل ، وقد أصبح الناس لا يتقبلون كلاماً في الأدب أو الأخلاق ، ولا يستهويهم إلا السباب . فقال في « ليالي سَطِيح » على لسان صاحبه إذ يبثه شكاته : (١)

« فتق لي الدهن أن ألقى بنفسي في غمار المحررين ، وأن أنشئ صحيفة أسبوعية . فصحت عزيمتي على الدخول في زمرة الكتاب وإن لم أكن منهم . . . وجعلت أكتب في الفضيلة وأدعو الناس إلى الأخذ بها ، وأستعين بما سطره الأول وجرى عليه الأخير . وأستمد من بطون الكتب أحكم الأمثال وأمثلة العظات وأكد ذهني في الاستنباط . . . ولكن فاني أنظر نظرة في أخلاق الأمة التي أكتب لها ، وأن أجول بالفكر جولة في وجوه عاداتها . فلم تنفق لذلك سلعتي ، ولم تنتشر صحيفتي . . . فقلت لنفسي : أينها النفس ، لقد

أَعْدَرَ صَاحِبُكَ وَمَا قَصَرَ ، فَأَنْتَ الْيَوْمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ ، إِمَّا الْفُضِيلَةَ وَالنَّعْشَ ، وَإِمَّا الرَّذِيلَةَ وَالْعَيْشَ . وَكَانَتْ مِنْ غَيْرِ تِلْكَ النُّفُوسِ الْمُطْمَئِنَّةِ ، الَّتِي بَشَّرَهَا اللَّهُ بِالْخَيْرِ . فَشَمَسَتْ عَنْ الْأُولَى وَسَكَنْتْ إِلَى الثَّانِيَةِ . فَمَا زَالَتْ تَأْمُرُنِي بِالسُّوءِ حَتَّى أَصْبَحْتُ صَحِيفَتِي مَجْمُوعَةً لِلنَّقَائِصِ وَمُسْتَنَامًا لِلْعُيُوبِ . وَأَصْبَحَ يِرَاعِي وَقَدْ اسْتَمَدَ مِنْ لَعَابِ الْأَفَاعِي لَعَابَهُ . وَاسْتَعَارَ مِنَ الْمَسَامِيرِ سَبَابَهُ<sup>(١)</sup> . فَمَا زَلْتُ أَطْعُنُ عَلَى زَيْدٍ لِأَجْتِنَلُ مِنْ عَمْرٍو ، وَأَغْضُضُ مِنْ خَالِدٍ لِأَشُدَّ مِنْ بَكْرٍ ، حَتَّى زَلَّ الرَّأْيُ وَعَثَرَ الْقَلَمُ ، فَأَصْبَحْتُ غَرِيمَ الْحُكُومَةِ ، وَخُوصِمْتُ إِلَى الْمُحَاكِمِ فَأَصْبَحْتُ مَخْصُومًا ، وَبِتَ وَقَدْ اصْطَلَحْتَ عَلَى الْخَطُوبِ » .

ثم يقول على لسان سطيح في الرد على صاحبه :  
« أَيُّ فُلَانٍ ! . . . إِنْ لِلصَّحَافَةِ رَجَالًا ، وَلِلسِّيَاسَةِ أَبْطَالًا ، طَرَقُوا لَهَا الضَّمَائِرَ . وَتَنَاوَلُوا بِهَا مَا وَرَاءَ السَّرَائِرِ ، فَسَدَّ دَوَا الْكَلَامِ كَمَا تَسَدُّ السَّهَامِ . وَبَلَّغُوا بِالْمَقَالِ مَا لَا تَبْلُغُهُ النَّصَالُ . يُعْجَبُونَكَ فَتَعْجَبُ ، وَيَسْتَغْضِبُونَكَ فَتَغْضَبُ . . . وَهُمْ كَمَا قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةِ : يَحْقُونَ الْبَاطِلَ وَيَبْطَلُونَ الْحَقَّ . كَالْمُصَوِّرِ الَّذِي يَصُورُ فِي الْحَائِظِ صُورًا كَأَنَّهَا خَارِجَةٌ وَلَيْسَتْ بِخَارِجَةٍ ، وَأُخْرَى كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ وَلَيْسَتْ بِدَاخِلَةٍ . »

ثم قال على لسان صاحبه إذ يسأل سطيحاً عن معنى الحرية وحدودها :  
« أَلَا يَحْدِثُنَا وَلِيُّ اللَّهِ عَنْ تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي أَخَذَهَا النَّاسُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا ، فَذَهَبَتْ فِيهَا الظُّنُونُ مَذَاهِبَهَا ، وَرَكِبَتْ الْأَوْهَامُ مَرَاقِبَهَا . ثُمَّ أَسْكَنُوهَا فِي غَيْرِ مَعْنَاهَا ، وَأَرَادُوا مِنْهَا غَيْرَ مَا أَرَادَتْ مِنْهُمْ . فَذَلَّتْ بِهِمْ وَذَلُّوا بِهَا . وَكَانَ ذَلِكَ عِلَّةُ هَذِهِ الْفَوَاضِي الَّتِي تَرَاهَا فِي الصَّحَفِ ، وَذَلِكَ الْفُسَادُ الَّذِي سَرَى فِي الْأَخْلَاقِ ؟ »

---

١ - المسامير : كتيب لعبد الله النديم في هجاء أبي الهدي الصيادي الذي كان شيخاً للإسلام في تركيا ، وكان متسلطاً على السلطان عبد الحميد . وهو عربي الأصل . وقد ابتلي النديم بعداوته مدة إقامته في الآستانة بعد إبعاده عن وطنه عقب تعطيل صحيفة « الأستاذ » . والمسامير مملوءة بالفحش المقذع .



ويقول على لسان سطيح في مضار ما وقعت فيه الصحف من مهاترات :  
« أما وجوه المضرة في بقائها فقد أصبحت شيئاً يحسّ ، وأصبح مثلها كمثل  
الهواء ، فقد كنا نشعر به ولا نراه ، حتى سلطوا عليه ضغط الجوفتكائف حتى  
همت الأيدي بلمسه ، وتلون حتى وقع في النظر تحت حسه . »  
« فمنها أنهم نصبوها حبال لصيد المال . فأقاموا لها سوقاً فرشت فيها  
الصحف وركزت الأقلام ، وعرضت للبيع أعراض الناس ، فزاهم يجلسون  
للمساومة في تلك الأعراض . ويأتي حامل الضبّ ( الحقد ) لأخيه ، فيساومهم  
في تمزيق عرض من أراد ، ويُسْهَر ذلك في المزاد . »  
« ومنها ديب الفساد إلى أخلاق العامة ، لكثرة ما يقرأون ويسمعون  
من ألفاظ السباب . فإذا فسدت الأخلاق في الأمة فقد فسد فيها كل شيء »  
« ومنها دخول السقاط من القوم في زمرة المحررين . اللهم إلا نفرأ من  
أنصار الفضيلة ، ذهب صرير أقلامهم ضياعاً في وسط تلك الضجة القائمة .  
وهذا قليل من كثير . »

ويقول محرم في تصوير هذا الفساد والشقاق (١)

فوجدت أكثر ما يقال دعاويا	ولقد بلوت الكاتبين جميعهم
ملأت مناديع الفضاء مساويا (٢)	شكوا العياب على هئات لوبدت
ضربت على الأبواب سداً عاتيا	لا برركت تلك الأكف فإنها
تجتاب ليل الغي أسفع داجيا (٣)	حجبت صديق الرشد عنها فارتمت
علماً بما تخفي السرائر وافيا	سلي أنبتك اليقين فإن لي
ورأيت أمثلاً من رأيت مداجيا	ألفيت أصدق من بلوت مداها

١ - ديوان محرم ٢ : ٩٧ - ١٠٠

٢ - العياب : جمع عيبة « بفتح العين » وهي الحقيبة . مناديع : جمع مندوحة وهي ما اتسع  
من الفضاء . يقول إن بين جنابات الكتاب الذين يتشدقون بالفضيلة من الشر ما هو خليق أن  
يسد الفضاء .

٣ - الصديق : الصبح .

بعثوا الصحائف يلتوين كأنما  
صحف يزل الصدق عن صفحاتها  
... صدقوا العدو ولاءهم وتمزقوا  
فهم المعاول إن رماهم هادماً  
وهم السلاح إذا يُشيع مناجزاً  
مالي أهيب بمن لو أني نافخ  
.. ليت الزلازل والصواعق في يدي  
فنيث براكين القريض ولا أرى  
فلئن صمت لأصمتن تجلداً  
بعثوا بهن عقارباً وأفاعياً  
ويظل جد القول عنها نابياً  
خصماء فيما بينهم وأعادياً  
وهم الدعائم إن علاهم بانياً  
وهم العديد إذا يصيح مناوياً  
في الصور ما نبهت منهم غافياً  
فأصبها للغافلين أفياساً  
ما شفتي من جهل فومي فانيا  
ولئن نطقت لأنطقن تشاكياً

من أجل ذلك أخذ الناس يتصايحون بالدعوة إلى الاتحاد وإلى ضم الصفوف ، فكانوا كالذين يصرخون وسط الضجيج ينشدون الناس السكوت ، فيضيفون إلى الضجيج ضجيجاً جديداً ، أو كالذي يحاول أن يوحد بين الأديان فلا يزيد على أن يضيف إليها ديناً جديداً . أو كالذي يريد توحيد اللغات فينتهي إلى خلق لغة جديدة . فالمختلفون لا يملون الخلاف ، كما أن دعاة الخير لا يستيشون من الدعوة إلى الوحدة وإلى الوئام .

يقول حافظ إبراهيم في قصيدة وجهها إلى « البرنس » حسين كامل حين وكلت إليه رئاسة مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية سنة ١٩٠٩ ، طالباً إليه أن يعمل على جمع الصفوف وتوحيد الكلمة : (١)

هلاك الفرد منشؤه توان  
وإنا قد ونيينا وانقسمنا  
فساء مقامنا في أرض مصر  
فلا عجب إذا ملكت علينا  
حسين .. حسين ، أنت لها فنبه  
أفيض في قاعة الشورى وئاماً  
وموت الشعب منشؤه انقسام  
فلا سعي هناك ولا وئام  
وطاب لغيرنا فيها المقام  
مذاهبننا ! .. وأكثرنا نيام  
رجالاً عن طلاب الحق ناموا  
فقد أودى بنا وبها الخصام

فمثلك لا يروعه الصدام  
وإن قتلوا فإنهم كسرام  
كمأة لا يطيب لها انهمام  
من الشهوات والفرص اغتنام  
ولكن في صفوفهم انضمام

وعلمهم مصادمة العوادي  
ففي حزب اليمين لديك قوم  
وفي حزب الشمال لديك أسد  
فكونوا للبلاد ولا يفتكم  
فما سادوا بمعجزة علينا

ويقول محرم : (١)

فلا أدباً وجدت ولا خلاقاً  
ولا يرجون في الخير اتفاقاً  
وإن كان الهدى ركبوا الأبقاً (٢)  
إلى العلياء قيلاً أو وناقاً  
لهم أخلاقهم منها انطلاقاً  
ولا رفعوا لصالحه رواقاً  
على سعة الجوانب كيف ضاقاً  
وساموه التفرق والشقاقاً  
جعلت مكانه السبع الطباقاً  
سوى قلم يذوب له احتراقاً

بلوت المدعين بلاء صدق  
دعاة الشر يتفقون فيه  
إذا كان الهوى دلفوا سراعاً  
كان بهم غداة يُقال سيروا  
أسارى في قيود الجهل تأبى  
لبس القوم ما منعوا ذماراً  
ألت ترى مجال الجِد فيهم  
أضاعوا الشعب حين تواكلوه  
ولو أني وكيت الأمر فيه  
ولكني امرؤ لا شيء عندي

ويقول (٣) :

حتى يزول تفرق ونحزب  
تنشق منه ولا الهوى يتشعب  
حش على أعدائه يتألب

ليس الشقاء بزائل عن أمة  
من لي بشعب في الكنانة لا القوى  
متألب يبغي الحياة كأنه

١ - ديوان محرم ٢ : ١٢٥

٢ - أبق العبد أبقاً : استخفى وهرب من سيده .

٣ - ديوان محرم ٢ : ١١١

ويقول شوقي في الحمزية النبوية التي نشرت سنة ١٩١٢ ، متوجهاً بخطابه إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه : (١)

ما جئتُ بابكَ مادحاً بل داعياً      ومن المديح تضرعٌ ودُعاء  
أدعوك عن قومي الضعاف لأزمة      في مثلها يلقي عليك رجاء  
أدري رسولُ الله أن نفوسهم      ركبَتْ هواها ، والقلوبُ هواء  
متفككون فما تَضُمُّ نفوسهم      ثقةٌ ولا جَمَعَ القلوبَ صفاء  
رقدوا وغرَّهمُ نعيمٌ باطلٌ      ونعيمٌ قومٍ في القيودِ بلاء

ويقول في قصيدة أخرى هنا بها عباساً بعيد الفطر : (٢)

وطني ! أسفتُ عليك في عيد الملا      وبكيتُ من وجدٍ ومن إشفاق  
لا عيدَ لي حتى أراكَ بأمة      شماءَ راويةٍ من الأخلاق  
ذهبَ الكرامُ الجامعون لأمرهم      وبقيتُ في خَلَفٍ بغير خَلَق  
أَيَظَلُّ بعضهم لبعض خاذلاً      ويُقال شعبٌ في الحضارة راق  
وإذا أراد الله إشفاءَ القُرى      جعل الهداةَ بها دُعاةَ شِفاق

ويقول في ختام القصيدة الحزينة التي هنا بها السلطان حسين كامل بعد عزل عباس (٣) :

يا أهلَ مصرَ كلُّوا الأمورَ لربكم      فاللهُ خيرٌ موئلاً ووَكَيْلاً  
جرتِ الأمورُ مع القضاء لغاية      وأقرها من يملك التحويلاً  
أخذتُ عِناً منه غيرَ عِنائها      سبحانه مُتَصَرِّفاً ومُديلاً  
هل كان ذاكَ العهدُ إلا موقفاً      للسلطين والبلادِ ويلاً ؟ (٤)

١ - ديوان شوقي ١ : ٢٩ « نشرت في المؤيد ٧ مارس سنة ١٩١٢ » .

٢ - ديوان شوقي ٢ : ٩٢ .

٣ - ديوان شوقي ١ : ٢١٧ .

٤ - يشير إلى تنازع السلطة الشرعية الممثلة في الخديوي والسلطة الفعلية الممثلة في قنصل بريطانيا العام

يعتزُّ كلُّ ذليلٍ أقوامٍ به  
دَفَعَتْ بنا فيه الحوادثُ وانقضت  
وانقضَّ مَلْعَبُهُ وشاهدُهُ، على  
فأدَمْتُمُ الشُّعْناءَ فيما بينكم  
كلُّ يُوَيْدِ حَزْبَهُ وفريقَهُ  
حتى انطوت تلك السُّنُونُ كملعبٍ  
وإذا أراد الله أمراً لم يُجِدْ

وعزيرُكُمْ يُلْقِي القِيادَ ذليلاً<sup>(١)</sup>  
إلا نتائجَ بعدَها وذيوها  
أن الروايةَ لم تَتِمَّ فَصُولاً<sup>(٢)</sup>  
ولبثْتُمُ في المضحكات طويلاً  
ويرى وجودَ الآخرين فَصُولاً  
وفرغْتُمُ من أهلها تمثيلاً  
لقضائه رداً ولا تبديلاً

---

١ - يقصد بالعزير عباساً الذي أذله الإنكليز ، وخصوصاً في السنوات الأخيرة ، حين كان  
كشتر هو مثل بريطانيا .

٢ - كان هذا البيت والذي قبله مما دعا الإنكليز إلى أن لا يطمئنا إلى شوقي ، فأبعده عن مصر .

## الفصل الخامس

### نزعات إصلاحية

ليس التفريق بين ما هو من السياسة وما هو من الإصلاح بالأمر الهين . بل إن التفرقة تكاد تكون تفرقة تعسفية أو إصطلاحية . فكل حركة إصلاحية تخدم هدفاً سياسياً في حقيقة الأمر . وكل منهج سياسي يمكن أن يوصف بأنه حركة إصلاح ، تستهدف رفع مستوى مجموعة أو أكثر من المجموعات البشرية . ولكن العرف جرى على إدخال ما يتصل بتنظيم الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول الأخرى في نطاق السياسة ، بينما أطلق اسم الإصلاح على البرامج التي ترمي إلى رفع مستوى الشعب وتحسين حاله في شتى نواحي الحياة . ولذلك اقترن اسم السياسة في الأذهان بالسلطة والحكم والتطاحن والمغامرة ، في الوقت الذي لا تثير فيه كلمة « الإصلاح » إلا التفكير الهادئ الذي يتسم بالاتزان والإنصاف ، والذي ينأى بصاحبه عن المخاطر ، ولا يحره إلى المجازفة في ميادين النزاع العنيف . فالذين يتعرضون للسياسة ممن يجدون في أنفسهم الجسارة عليها ، والذين يشتغلون بالإصلاح ممن يغلب على طبائعهم الهدوء والروية ، ولا يريدون أن يزجوا بأنفسهم في طريق محفوف بالمكاره وبمكامن

الخطر ، هؤلاء وهؤلاء يعملون في ميدان واحد هو الوطنية ، أو السياسة بمعناها الواسع الذي يدخل فيه كل ما يتصل بتدبير علائق أفراد الأمة أو الوطن بعضهم البعض ، ودفعهم في مدارج التطور والرفي . بيد أن من الناس من يجمع بين الصفتين ويشغل بالناحيتين ، ومنهم من يقصر نفسه على ناحية واحدة . فكل الذين يشتغلون بالسياسة يشتغلون في الوقت نفسه بالإصلاح ، لأن سياسة أمور الدولة الخارجية لا تقوم إلا على سلامة جبهتها الداخلية . ولكن كثيراً من المشتغلين بالإصلاح لا يزجون بأنفسهم في شؤون السياسة ، لأنهم لا يأنسون في أنفسهم الجسارة عليها ، أو لأنهم يوثرون البعد عن مواطن الزحام حين يتكالب على المورد كل منافق وكل طامع وكل مغامر من الذين يطلبون الغنم الكبير من أقرب طريق ، ومن لا يباليون أن يقعوا على الثروة العريضة أو الموت الذريع .

كذلك كان شأن المشتغلين بالإصلاح في هذه الفترة التي نورخ لها . كان بعضهم من المشتغلين بالسياسة ممن تكلمنا عنهم في الفصل السابق . وكان بعضهم الآخر ممن كرهوا أن يزجوا بأنفسهم في هذا المعترك العنيف ، فآثروا أن يسلكوا طريقاً لا يعرضهم لغضب السلطان ، بعد أن رأوا ما رأوا من سوء مصير العراقيين ، وما يتعرض له المجاهدون للاستعمار من أذى واضطهاد . وقد كان هؤلاء المصلحين مندوحةً ومتسعاً في المجتمع المصري الذي آل إلى حال بغیضة من الانحلال والفساد . وكانت المشكلة الكبرى التي تواجه كل سياسي وكل مصلح هي : كيف ننشئ أمة قوية راقية من هذا المجتمع المفكك ، الذي انتهى به الجهل والفقر ، مع تحكم الاستبداد فيه أجيالاً طويلة ، إلى حال من اليأس أصبح معها لا يكثرث لشيء مما يجري حوله ، بل أصبح في حالة فقد معها التمييز بين الضار والنافع ، واختلط عليه فيها الخير بالشر ، وأنس إلى الظلام حتى أصبح النور يؤذي عينيه ؟ .. قال رجال السياسة : إن الاحتلال هو أصل البلاء ، فلا بد من مناجزة المحتل . وقالوا : إن الاستبداد هو جرثومة الداء فلا بد من المطالبة بالدستور . ولكن

المشكلة ظلت باقية تنتظر الحل في رأي رجال الإصلاح ، لأن مجاهدة المستعمر أو الحاكم المستبد تحتاج إلى تضافر القوى واتحاد الجهود . وكيف تتضافر القوى في شعب خيم عليه الجهل والفقر ، وتحكم فيه اليأس والتخاذل ، حتى بلغ حالة تشبه الموت ، إن لم تكن هي الموت عينه ؟

كان الفتور والتبلد قد استوليا على المجتمع المصري ، بعد أن توالى على الناس الاستعباد والاستبداد والذل والهوان ، فماتت فيهم الآمال ، وفقدوا بتوالي العصور أخص ما يميز الإنسان ، وهو الإرادة ، فتركوا أنفسهم للتيارات المعتركة تقذف بهم حيثما قذفت ، وهم في سكون الجماد الذي لا يحس شيئاً .

وقد رسم عبد الله النديم في رواية « الوطن » صورة حية ناطقة لهذا المجتمع الذي أفقده الاستبداد إرادته ، وأماتت المصائب المتراكمة إحساسه ، حتى فقد الأمل ، وترك العمل ، وارتاح للكسل ، وانحصرت لذته في ألوان من المتع الرخيصة التي يُغرق فيها همومه التماساً لتسكين الآلام<sup>(١)</sup> . والتمثيلية تشخص « الوطن » رجلاً ، وتعرض صوراً حية للحوار بينه وبين أفراد من مختلف طبقات المصريين ، بعضهم من سكان القرى وبعضهم من المدن ، وبعضهم من الفقراء وبعضهم من السادة المترفين الفارغين لذاتهم ، وبعضهم من الفلاحين الذين يعيشون على ما تخرج الأرض وبعضهم من الصيادين الذين يعيشون على ما يخرج البحر ، وبعضهم من الجهلة الذين يكسبون عيشهم من احتراف الحرف المختلفة ، وبعضهم من الموظفين الذين أصابوا حظاً من

---

١ - مثلت الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان يشرف عليها النديم هذه المسرحية على مسرح « زيزينيا » بحضور الخديوي توفيق . وهذه الجمعية هي جمعية أخرى غير الجمعية الحالية . وقد كان الحوار يجري في أكثر الأحيان باللهجة العامية المحلية . وهي - كما هو معروف - تختلف باختلاف الأقاليم ، بل باختلاف الطوائف والطبقات في الإقليم الواحد ، كما تتعرض للتطور والتغير على توالي السنين . وذلك كله يضيق دائرة صلاحيتها زماناً ومكاناً ، ويفقدها صفة العموم والدوام . لذلك رأيت أن أعدل عما فعلته في الطبعة الأولى من تقديم نصها بالعامية المصرية ، مكتفياً بتلخيصها . ولمن شاء أن يرجع للنص في « سلافة النديم » .



التعليم المدني الحديث . عرض النديم صوراً لهذه الطبقات جميعاً تبين أنها على تباينها في مظهرها لا تختلف في جوهرها ، فكلٌ منهم يعاني من آثار الاستبداد ومن فادح المغارم والتكاليف مثل ما يعاني الآخر . وكلهم مشغول بنفسه عما حوله ، وكلهم مصابون بشلل في أعصابهم ، مُبتلون ببلادة في إحساسهم ، لا يزعجهم البلاء الذي يُصَبُّ على رؤوسهم والذي يجري من حولهم ، ولا يحلمون بخير مما هم فيه ، ولا يرون الذين يحاولون ذلك إلا مجانين يتعلقون بالأوهام ويحاولون المستحيل .

انظر إلى هذا الحوار بين « أبو دَعْمُوم » و « أبو الزُّلْفَى » وهما من الفلاحين سكان القرى <sup>(١)</sup> يث كل منهما صاحبه شكواه ، وما يحل به من المغارم ، وما يتزل به من صنوف المحن والغصَب والنهب ، على أيدي « الطَّوَّافَةِ » و « مشايخ البلد » و « حكام الحُطَّة » و « المديرين » . وبينما هما في هذه الحال إذ يطلع عليهما « الوطن » يندب أهله وأولاده ورجاله الذين تخلوا عنه وقرحهم له ، فيتصدى له الرجلان يسألانه في ازدراء — لقدارته وراثته — ماذا يطلب من هؤلاء الذين يندبهم ؟ . . وأي شيء فيه يدعوهم إلى حبه والتعلق به ؟ . . فإذا طلب إليهما « الوطن » أن يعملوا على جمع الكلمة رأياً أنه يتعلق بالمحال في بلد تفككت فيه عرى المودة ، وشغل كل واحد فيه نفسه . فإذا دعاهما إلى التعليم تعجبا من قوله متسائلين : وماذا يجدي التعليم وفقية القرية يتكلم كل يوم في الحلال والحرام ، بينما « شيخ البلد » يقطع جلود الناس بالسياط . ولا يسلم « الفقيه » نفسه من هذا المصير إذا حدثته نفسه بالاعتراض ؟ . . فإذا علما أن المقصود بالتعليم هو إرسال الأولاد لمكتب القرية سَخِرا منه ، وقد ازدادا يقيناً ببلأته ، لأن أولادهما — بحمد الله — صَحَّاحُ الأبدان ، وقد تعود الناس أن لا يرسلوا إلى « الكتاب » إلا العميان ممن يُعَدُّون للارتزاق بتلاوة القرآن . فإذا أكثر الوطن عليهم وأثقل ، ردا عليه في استهزاء يعرضان بسطوة « ناظر النسم » الذي تنحرس

من رهبته الألسن، وبالجبالي « الصراف » جرجيوس الذي يضرب ويشتمخ ،  
وبالحاجب التركي « القَوَّاص » الذي يرْفُس ولا يبالي أن يقتل بلا حساب ،  
متمنيان أن يطلع عليهما الساعة واحد من هؤلاء ليستمتعا بفصاحة « الوطن »  
في حضوره . فإذا طلب « الوطن » إليهما أن يشكوا للحكومة من قسوة  
هؤلاء الظالمين وتجبرهم ، أظهرنا الخوف الشديد من لقاء « الحكام » ، الذين  
ترتعد منهما الفرائصُ يومَ يبلغهما أنهما مطلوبان للقاء أحدهم .

ثم يعرض علينا المؤلف لونا آخر في حوار يدور بين « أبو دَعْموم »  
و « أبو الزلفى » وهما من سكان الريف ، وبين « الحاج حسين » و « المعلم  
أبو العلا » وهما من سكان المدن ، يصور فيه كلٌّ من الطرفين ما يعاني من  
فوضى الحكم واستبداد الحاكمين . فساكننا المدينة يعدّ دان صنوف الضرائب  
والمغارم التي لا تكاد تدخل تحت حصر ، مثل « الشخصية » و « حب الوطن » ،  
و « الطلُنبَة » ، و « الغفر » ، و « النَصَافَة » ، و « نزع الكُتُفان » ، فلا يكادان يفرغان  
من إحصائها حتى يعدّ لهما ساكننا القرية من أمثالها عندهم ما يجعلهما يحمدان  
الله على مصابهما . وذلك من مثل : « ضريبة المال » و « المقابلة » و « السدس » و « مصاريف  
الري » و « السهوم » و « المصلح » و « الشخصية » و « عوايد البهائم » و « الوطنية » و « الأغنام »  
و « النخيل » و « الدخولية » . وذلك عدا ما يغرمه الفلاح من محاصيله كل عام من مثل :  
« عادة الحكيم والمهندس والمزيّن » و « المشدّات » و « الطوافَة » و « قواسة المدير وخدمه »  
و « سنوية الناظر وخدمه » و « العونة » و « السخرة » ، وما يخضع له بناته وأولاده وبهائمه  
من ضروب السخرة وصنوف الإهانات من خدام الحكام وأولادهم  
ونسائهم . ويضاف إلى ذلك ما يُغصّب من غلات الفلاحين ودوابهم ودجاجهم نهبا  
للناهبين بين الأيدي التي تتناقله حتى يصل منه ما يصل -- إن وصل -- إلى أيدي  
الحكام الذين ينهبون باسمهم ما ينهبون . وجاني الضرائب « الصراف » مع  
ذلك كله يمر كل يوم فيأخذ ما يأخذه بلا حساب ، والضريبة باقية كما هي لم  
ينقص منها شيء . فإن ناقشه « الفلاح » أو اعترض لِكَمِّه « شيخُ البلد »  
الذي يرافقه قائلا : أَعْقَلُكَ أَثْبِتْ ، مما هو مسطور في الدفاتر يا لكع ؟ !

ثم استمع بعد ذلك إلى حديث « الوطن » مع « الحاج حسين » و « المعلم

أبو العلا « حين يفاجئهما وهما غارقان في الحديث عن المقارنة بين الأوكار التي يحرق فيها « الحشيش » فيجفيلان منه مذعورين . فإذا اطمأنا إلى أنه « الوطن » سألاه عن علة ما اعتراه من تغير وما صار إليه من سوء الحال . فيقول لهما إن أولاده هم سبب تعاسته . ويظل يبكي شقاءه ويندب أبناءه حتى يظن به « الحشاشان » الجنون ، ويضيقان بشكايته التي نغصت عليهما مجلسهما ، فينصرفان عنه إلى متعتهما .

وقريب من هذا الحديث حديث رجلين آخرين من السادة المترفين ، وهما « السيد علي » و « السيد إبراهيم » . يتحدثان عن السهرات والأفراح والولائم ، ويخوضان في ذكريات تافهة يتحدثان فيها عن جمال أحدهما في صباه ، وحب والد الثاني له وقتذاك وتغزله فيه . ولا يقطع عليهما حديثهما إلا صياح « الوطن » : أين رجال الفتوة ؟ .. أين رجال النجدة ؟ . . . ويضيق به السيدان المترفان ويلعنان وجهه ولحاجته وتنطعه ، إذ تعود أن يفسد عليهما مجالس المتعة بنعيقه حين ينوح على السابقين الأولين .

ويرى أحدُ السيدين - بعد ممانعة من صاحبه - أن يواسيه بسؤاله عن حاله ، فيشكو إليه « الوطن » ما ابتلى به أبنائه من تواكل وخمول انتهى بهما إلى التخلف عن ركب العلم والمدينة . فيعجب السيد المترف لقول « الوطن » في إنكاره على المصريين أنهم أهل مدنية ، مع ما هو معروف عنهم من الظرف وحضور البديهة والدعابة .

فإذا صحَّح له « الوطن » خطأه ، وعرفه أن المدنية الحقيقية في نشر العلم وفتح المدارس ، أجابه السيد المترف في استنكار بأن « المدارس » شيء لا يشتغل به إلا النصارى . أما المسلمون فبحسبهم مكاتب تحفيظ القرآن . وهي - بحمد الله - ملأى بكل أعمى وكل كسيع . فإذا أطل « الوطن » الكلام في تصحيح خطأ السيد المترف ، نظر إلى صاحبه قائلاً الآن أدركت أنك كنت على حق حين عارضت في حديثي مع هذا الشخص . فهو حقيقةً مخبول ذاهب العقل . ويعودان إلى ما كانا فيه من لهُو الحديث .

ثم يقدم عبد الله النديم بعد ذلك حواراً بين « الوطن » وبين صيادين من أهل الإسكندرية ، لا يختلف في دلالة عما مضى . ثم يلتقي « الوطن » باثنين من المتخرجين في المدارس الأجنبية هما « عزت أغندي » و « مظهر أفندي » — وأحدهما مترجم في بعض القنصليات الأجنبية — فإذا هما يتحدثان عن الليالي الصاخبة في دور الخلاعة والخمر ، ويتفاخران بما ينفقان فيها من مال ، فيُجمل تتخللها عبارات فرنسية . وإذا هما لا يعرفان للتعليم غاية إلا تحصيل لقمة العيش من أي وجه ، ولا يفكران إلا في المتعة وفي الابتعاد عن المنغصات . ولا يريان ما سوى ذلك مما يدعو إليه « الوطن » من ضروب الجلد إلا سخفاً واشتغالا بما يملأ الحياة هماً وحزناً .

كذلك صوّر عبد الله النديم حال الناس قبيل الثورة العراقية ، لا يدركون من المصالح إلا الداني القريب الذي يمس أشخاصهم ، ولا يعرفون من المتع إلا أدناها مما يتصل بملذات الجسد ، ولا يرسلون أبناءهم إلى مدارس القرية « الكتاتيب » إلا أن يكونوا عمياناً يرتزقون بقراءة القرآن . وهم بعد ذلك مستكينون لما يقع عليهم من الظلم ، لا يكادون يطمعون في دفعه . ولذلك فهم يعيشون في ذوات أنفسهم ، وفي أضيق حدود الجماعة التي لا تتجاوز نطاق الأسرة ، لا يعينهم شيء مما يجري من حولهم ، لأنهم يعرفون أن ذلك لا يتصل بهم ولا يغيّر من الواقع المرّ البائس الذي هم فيه شيئاً . ذلك شأن الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون . أما المرزوقون ممن أتيحت لهم وسائل العيش ، فهم لا ينظرون لمن حولهم ممن ابتلي بألوان المحن إلا ليحمدوا الله على ما رزقهم من خير وما كفاهم من شر . وهم يملأون الفراغ الممل من أعمارهم الضائعة بالسهرات وبالأحاديث التافهة في مجتمعاتهم وفي ندواتهم ، ويقتلون البقية الباقية من أحاسيسهم ويقظتهم — إن كان فيها بقية — بطلب ما يغيّبهم عن شعورهم من ألوان الخمر والمخدّرات ، وقد أعجزتهم اللذة في اليقظة فهم يلتمسونها في أحلام المخمورين وخيالات المخدّرين . لا يميز الجاهل من المتعلم إلا أن الثاني يدير لسانه بألوان من الرطانة يحشرها في

كلامه ، ويتخذها عنواناً للكياسة والظرف والتمدن ، ويظن أنها تميزه عن غيره ممن لا يعرفها .

\* \* \* \*

ومرت الثورة العراقية في حياة الناس سريعاً وكأنها لم تكن ، فعادوا إلى نأسهم أبلغ ما يكون اليأس ، وإلى انطوائهم أشد ما يكون الانطواء ، ينظرون من حولهم دون اكتراث ، وكأن الأمر لا يعينهم في شيء . ولم يكن يُستظر من هذه حالهم إلا الاستسلام المطلق ، وإلا الإسراع لاستقبال الحديوي الظافر عند عودته للقاهرة بمثل ما استقبلوا عرابي الظافر من قبل . تابعوا الثوار مبهورين بجرأتهم ، مأخوذين بصنيعهم الذي لم يكن يخطر لأحد ببال . فلما انهزموا تركوهم لمصيرهم المؤلم كما يقول البارودي .

وكنّا جميعاً ، فلما وقعتُ — صبرتُ وغادرتُ معشري

واستأنفوا حياتهم كأن لم يكن مما كان شيء .

وأدرك العقلاء والراشدون أن تهذيب الشعب وإصلاح عيوبه هو الخطوة الأولى في سبيل أي نهضة . فأخذوا يكشفون عن مواطن الضعف والمرض في حياتنا ، وينبهون إليها في لين الواعظ المشفق على قومه ، الحريص على هدايتهم حيناً ، وفي عنف المغيظ المحق الذي غلب عليه اليأس من الإصلاح والضيق بالفساد حيناً آخر . وكان من أثر ذلك أن ظهر في أوائل القرن العشرين لون من الأدب الواقعي الذي يرتبط بالحياة أشد الارتباط ، ويستمد موضوعاته مما يجري من حوله ، فاحتل مكاناً بارزاً بين الفنون الأدبية المختلفة . وطالعتنا كثير من القصائد والمقالات الهجائية التي تُلهب المجتمع بسياط النقد المر ، وتهاجم معاييه ، وتتهكم بأساليب حياته الفاسدة . فمن ذلك قول الكاشف في وصف وباء «الكوليرا» الذي اجتاح مصر سنة ١٩٠٢ ، مصوراً فتكه بالناس ، وتغشيه نتيجة للجهل والاستسلام وانتشار الخرافات وسوء فهم الناس وتفسيرهم

لمعنى التوكل على الله والرضا بقضائه (١) :

وكم ليلٍ قضيتُ حليفَ وجدٍ  
فإن أغفيتُ نبهني مخيفاً  
فمن أمٌ مضى عنها بنوها  
وهذا كان لي جاراً وفيّاً  
فأحسب أنني في الظهر مبيتٌ  
وذي هوسٍ يقول لقيتُ ليلاً  
بأيديها سيوفٌ لامعاتٌ  
وما حيلُ الحكومة في مُغيرٍ  
إذا ما طاردته في مكانٍ  
وكان له من الأهلين عونٌ  
تساوى عندهم نفعٌ وضرٌ  
إذا لا قوا الأطباء استعاذوا  
وأبدوا للعقاقير احتقاراً  
وقالوا : في منازلنا دعونا  
وإن لنا من الدايات عنكم  
ولولا غفلةُ العلماء عنهم  
إذا استهدوهم قالوا : استعينوا  
نرى أن لا فراراً من المنايا  
وما العدووى ، وإن نقموا علينا  
وإن تكُ نقمةٌ فقد احتمينا  
وإن لنا على الله اعتماداً

وسهد في الضراعة والصلاة  
صباحُ الثاكرات الباقيات  
ومن أمٌ أصيبت في البنات  
وكانت تلك إحدى التابعات  
إذا أبصرت ميتاً في الغداة  
شياطين المنايا الدائرات  
كلمع عيونها المتوقدات  
به وجدَّ البلاد مرحبات  
رأت منه مِراسَ الراسخات  
علينا ، فهو موفور الثبات  
فما عرفوا الحماة من العداة  
وخاضوا في الظنون السيئات  
وظنوها سموماً مهلكات  
فإن الموت في المستشفيات  
غنىٌ لعلاجنا ومن الرُقاة  
لما ترَكوا الوسوس غالبات  
بصبرٍ واخضعوا للكوارثات  
فنهزأ بالدواء وبالأساة  
سوى وهمِ النفوس الحائرات  
بأسرار « البخاري » الشافعات  
وأساباً إليه واصلات

ومن ذلك قول حافظ إبراهيم ، من قصيدة له في الحرب اليابانية سنة

١٩٠٤ ، يصور يأسه من إصلاح المجتمع الذي شاعت فيه روح الانحلال  
والتخاذل (١) :

أَنَا لَوْلَا أَنَّ لِي مِنْ أُمِّي  
أُمَّةٌ قَدْ فَتَّ فِي سَاعِدِهَا  
تَعَشَّقُ الْأَلْقَابَ فِي غَيْرِ الْعَلَا  
وَهِيَ ، وَالْأَحْدَاثُ تَسْتَهْدِفُهَا  
لَا تَبَالِي لَعِيبِ الْقَوْمِ بِهَا  
خَاذِلًا مَا بَتُّ أَشْكُو النَّوْبَا  
بَغْضُهَا الْأَهْلَ وَحُبُّ الْغَرْبَا  
وَتُفْهَدِّي بِالْذَفُوسِ الرُّتْبَا  
تَعَشَّقُ اللَّهْوَ وَتَهْوَى الطَّرْبَا  
أَمْ بِهَا صَرَفُ اللَّيَالِي لَعْبَا

وقوله من قصيدة أخرى : (٢)

سَكَتُ فَأَصْغَرُوا أَدْبِي  
وَمَا أَرْجُوهُ مِنْ بِلَدٍ  
وَهَلْ فِي مَصْرٍ مَفْخَرَةٌ  
وَذِي إِرْثٍ يَكَاثِرُنَا  
وَفِي الرُّومِيِّ مَوْعِظَةٌ  
يَقْتُلُنَا بِهَا قَوَدٌ  
وَيَمْشِي نَحْوَ رَايْتِهِ  
فَقُلْ لِلْفَاخِرِينَ : أَمَا  
أَرُونِي بَيْنَكُمْ رَجُلَا  
أَرُونِي نَصْفَ مُخْتَرَعٍ  
وَقُلْتُ فَأَكْبَرُوا أَرْبِي (٣)  
بِهِ ضَاقَ الرِّجَاءُ وَبِي ؟  
سِوَى الْأَلْقَابِ وَالرُّتَبِ ؟  
بِمَالٍ غَيْرِ مَكْتَسَبٍ  
لِشَعْبٍ جَدَّ فِي اللَّعْبِ  
وَلَا دِيَّةَ وَلَا رَهَبَ  
فَتَحْمِيهِ مِنَ الْعَطَبِ (٤)  
لِذَا الْفَخْرَ مِنْ سَبَبِ ؟  
رَكِينًا وَاضِحَ الْحَسَبِ  
أَرُونِي رُبْعَ مُخْتَسِبِ (٥)

١ - الديوان ٢ : ٧

٢ - الديوان ٢ : ١١٠ وقد وردت القصيدة في « ليالي سطيح » ص ٢٦ الذي طبع للمرة الأولى  
سنة ١٩٠٦ .

٣ - يقول إنه سكت حين انتابه اليأس ، فلامه الناس لسكوته . فلما تكلم أكبر الناس ما يقول ،  
وظنوا أن ما يطلبه شيء كبير لا سبيل لتحقيقه .

٤ - يشير إلى الامتيازات الأجنبية .

٥ - يقصد بالمحتسب الخبير بشؤون المال والاقتصاد .

أرؤني	نادياً	حفلاً	بأهل الفضل والأدب
وماذا	في	مدارسكم	من التعليم والكتب ؟
وماذا	في	مساجدكم	من السبّيان والخطب ؟
وماذا	في	صحائفكم	سوى التمويه والكذب ؟
حصائد	ألسن	تجرت	إلى الويلات والحرب
فهبوا	من	مراقدكم	فإن الوقت من ذهب
فهذي	أمة	اليابا	ن جازت دارة الشهب
فهامت	بالعلا	شغفاً	وهيئنا بابتة العنب

ويقول محرم مصوراً انشغال كل رجل بنفسه وبتحقيق مصلحته ، وتوفير أسباب الثروة والجاه ، لا يبالي شيئاً غير ذلك : (١)

أكلُ أمرئ في مصر يسعى لنفسه	ويطلب أسباب الحياة لذاته ؟
طروبُ الأماني ما يبالي بشعبه	وإن ملأ الدنيا ضجيجُ نعاته
يرى نفسه فوق الملائك عفة	وقد ضجعت الجنان من فتكاته
إذا نال ما يرجوه لم يعنه امرؤ	سواه ولم يحفل بطول شكاته
يظل كأن الحق يتبع خطوه	إذا سار يبغي الغنم فوق رفاته
سواء عليه منزل السخط والرضى	إذا نال ما يرضيه من شهواته
يرى الدين والدنيا ثراءً يصيبه	وقصرأ تنزل العين عن شرفاته
يفوق الصلاب الصم إن سيم نائلاً (٢)	ويعتد لج البحر من حسناته
ويجهل ما يدري الصبي ، ويدعي	من العلم ما ينسبك ذكر ثقاته
ويأتلك بالأخبار يزعم أنها	بقية وحي وهي من نزغاته
ويحلف ما داجى ولا خان صاحباً	وقد عب سبل الغدر في لحظاته
لعمري لقد مارست دهري وأهله	فأربت مساوئهم على نكباته

\*\*\*\*

١ - الديوان : ٢ : ٧٦ - ٧٧

٢ - الصلاب الصم : هي حوافر الخيل . يقول إنه يسبق الخيل جرياً هارباً من محتاج يستجديه .



رأى بعض رجال السياسة أن الاحتلال هو أصل البلاء ، وأن مصر لن تصبح لها نهضة إلا بإجلاء العدو الجاثم على أرضها ، المتحكم في أرزاق أهلها وفي مصائرهم ، والذي يعترض كل حركة حقيقية تهدف إلى النهضة . ورأوا أن الجهود يجب أن تنصرف إلى محاربته ، فإذا حققت هدفها من الجهاد بإجلائه فكل شيء بعد ذلك سهل يسير . ورأى آخرون أن يبدعوا بإصلاح المجتمع المصري وأفراده ، لأن ما انتاب مصر من تفكك وانحلال ، وما فتك بأهلها من أدواء ، لم يجيء - في رأيهم - نتيجة للاحتلال ، بل إن الاحتلال هو الذي كان من نتائجه وآثاره . فالاحتلال عندهم ليس هو علة هذا التأخر وإن كان من المسلّم به أنه يضع العراقيل في سبيل التقدم . ورأوا بعد ذلك أن يجمع الناس على كره المحتلين لا سبيل إليه . فالعدو قوي متحكم موفور العُدّة . والناس في يأسهم واستسلامهم لا يعينهم إلا ما يمس أشخاصهم ، لأنهم يدركون أن ما يصيب مصر من خير أو شر لا يصل إليهم منه إلا الضرر ، وإنما خيره كله لمن كانوا يسمّون أنفسهم أصحاب المصالح الحقيقية . ومن ليس له في مصر مصلحة كيف يمكن أن يحس مصريته ويدافع عنها ويقتل نفسه في سبيلها ؟

ولقي الذين يسعون إلى الإصلاح تشجيعاً من كرومر ، لأن هذا الإصلاح يحقق له هدفين . فهو يشغل الرأي العام بما يُطرح على بساط البحث من مسائل وما يثار من مشاكل ، فينصرف عن الانسياق في تيار الكراهية للاحتلال الإنكليزي التي كان يذكي نارها الحزب الوطني الثائر . ثم إن الإصلاح يدعم في الوقت نفسه حجة الاستعمار في أنه دائب على العمل لترقية مصر وإصلاحها ، ويقدم لكرومر مادة جديدة لفخر جديد يضيفه إلى تقريراته السنوية التي كان يتشدد فيها بما تم في عهده من إصلاح . وهو قادر دائماً على أن يضع حداً لما يراه خطيراً وضاراً بمصلحة دولته مما لا يروقه من وجوه الإصلاح ، لا تعوزّه الوسائل في صرف الناس عنه بالحيلة أو العنف . لذلك أُطلقت حرية الصحافة في الكلام عن عيوب المجتمع وآفاته ووسائل

علاجه . وطرح على بساط البحث كثير من المسائل ، واحتد النقاش حول بعضها . وبرز بين المصلحين طائفتان متميزتان تغاير إحداهما الأخرى ، طائفة تدعو إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، وطائفة أخرى تدعو إلى الاحتفاظ بتقاليدنا الإسلامية والشرقية .

ظهرت آثار هذين التيارين في السياسة ، فكان أنصار الجامعة القومية يمثلون الفريق الأول ، وكان أنصار الجامعة الإسلامية يمثلون الفريق الثاني . وظهرت في الأدب وفي الفن ، فكان هناك فريق يتخذ مُثله الفنية من الأوربيين ، وكان هناك فريق آخر يستمد قيمه من قديم العرب ومن تقاليد الشرق . وظهرت في التعليم ، فكانت هناك مدارس عصرية تأخذ بأساليب الدراسة الأوروبية ، ومدارس أوربية للجانبات الأجنبية ، أقبل عليها أبناء الأغنياء من المصريين ، وكان إلى جانبها معاهد دينية تقتص على العلوم الشرعية والإسلامية وما يتصل بها . وظهرت في المجتمعات وفي سائر شؤون الحياة ، فكان هناك مجدّدون — أو مقلّدون للغرب إن شئت — يُبغضون إلى الناس قديميهم وتراثهم ويصرفونهم عنه داعين إلى مسايرة العصر والأخذ بكل مستحدث طريف ، وكان هناك المحافظون في الأزياء وفي آداب الاجتماع وفي أساليب العيش وأنماط الحياة .

وقد نشأ عن هذين التيارين المتباينين تناقض في الحياة المصرية ، التي جمعت بين المحافظة المترمّة ، وبين التطرّف في الأخذ بأسباب المدنية الغربية ، وبين التوسط الذي يأخذ من كل من الاتجاهين بنصيب . وبدأ هذا التناقض في قصر الخديوي عباس ، وسرى منه إلى بيوت الأغنياء والمترفين . فكان عباس يحتفل في قصره بشهر رمضان احتفالا عظيماً . فيدعو إلى مائدته مختلف الطوائف ، ويحضر مع حاشيته دروس التفسير منذ السنة الأولى لحكمه .<sup>(١)</sup> ولكنه كان يقيم مع ذلك حفلا راقصاً في عابدين كل عام منذ

١ - مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢٨

سنة ١٨٩٥ ، يمتد فيه السهر إلى الصبح ، وكان يسمّى ( ليلة البتلو )<sup>(١)</sup> .  
وقد حج عباس مع والدته إلى بيت الله الحرام سنة ١٩٠٩<sup>(٢)</sup> . ولكنه كان  
يسافر مع ذلك في رحلة طويلة إلى أوروبا كل عام . وقد وضح أثر هذا  
التناقض في شعر شوقي ، شاعر القصر . فتجاوز في ديوانه وصف المرقص  
والحمر ، مع مدائح الرسول عليه الصلاة والسلام وتمجيد الإسلام<sup>(٣)</sup> .

\*\*\*\*

كان قوام الدعوة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية عددًا من أصحاب  
الثقافة الأوروبية الذين كان يسميهم خصومهم وقتذاك بالمتفرنجين ، بعضهم  
من الشّاميين المسيحيين الذين استقروا في مصر ، وبعضهم من المصريين الذين  
تلقوا دراستهم في أوروبا أو في المدارس الأوروبية ومدارس الإرساليات  
الدينية التي كان عددها في ازدياد مُطرد<sup>(٤)</sup> .

أما الشّاميون فقد كانوا موزعين بين النفوذ الفرنسي والنفوذ الإنكليزي .  
وكانت صحيفة « الأهرام » تمثل الاتجاه الأول ، بينما كان « المقطم »  
و « المقطف » يمثلان الاتجاه الثاني . وكانت هذه الصحف – والصحيفة  
الأخيرة منها بنوع خاص – دأبة على تعريف المذاهب الغربية في الفلسفة  
والأدب وسائر ضروب الثقافة ، لا تكاد تشير إلى شيء من قديم الشرق  
وتراثه الفكري . وكانت تترجم لعظماء الرجال من الغربيين ، ولا تكاد  
تجد فيها ترجمة لرجل من أبطال الإسلام أو الشرق أو مصر في تاريخها

---

١- المرجع السابق ٢ : ٢١٣ .

٢- المرجع السابق ٢ ب : ١٨٩ ، ١٩٠ .

٣- راجع أمثلة لوصف حفلة البتلو في ديوان شوقي ج ٢ ص ٨ - ١٢ « أثر البال في البال » ،  
١٣ - ١٧ « مرقص » . وراجع كذلك « شوقي : شعره الإسلامي » للدكتور ماهر فهمي -  
الفصل الثاني .

٤- يراجع في مدارس الإرساليات الدينية والجاليات الأجنبية الفصل الثاني من الكتاب الخامس  
في ( تاريخ التعليم في مصر ) للدكتور أحمد عزت عبد الكريم ٢ : ٨٢١ - ٨٧٥ .

الحافل الطويل . كما كانت تعمل من طريق خفي على إضعاف النعمة الدينية والوطنية بما تنشر من آراء تشكك في العقيدة ، وبما تدعو إليه من نزعات عالمية لا يراد بها - في حقيقة الأمر - إلا تقريب الفوارق بين المصريين وبين أعدائهم الذين يمتصون دماءهم والذين يحتلون ديارهم ، لكي يسكنوا إليهم ويألفوهم . فمن أمثال ذلك مقال نشرته « المقتطف » تحت عنوان « الناس إخوة » ، جاء فيه : (١)

« وامتزاج الأمم من أقوى الوسائل الطبيعية لترقيتها وإضعاف خلق الأثرة والتباغض وتقوية خلق الإيثار والتواد . فعلى الذين يهتمون بإصلاح نسل الإنسان وترقيته جسداً وعقلاً أن يسعوا في إقناع أبناء نوعهم أنهم وسائر الناس من طينة واحدة ، ولا يمتاز بعضهم على بعض إلا بالفضائل المكتسبة . وإن كانت الأديان قد فرقت بينهم فيما مضى فعلى زعمائها أن يزيلوا أسباب التفريق الآن . وإن كان رجال السياسة يسعون إلى إحكام أسباب العداء بين أمة وأمة وشعب وشعب ، فعلى علماء الاجتماع أن يحبطوا مساعيهم ويسفها آراءهم . وعلى رسل الخير دعاة الأديان أن يجعلوا غرضهم الأول التعليم بأن الله صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض . »

« ولا يخفى أن الكلام لا يفيد عشر ما يفيد العمل ، وأنه إذا كان عمل المعلم مخالفاً لتعليمه ذهب تعليمه أدراج الرياح . فالمبشر الذي يُعلِّم أن الناس من دم واحد ويقاطع أخته أو ابنته إذا تزوجت رجلاً أجنبياً لمجرد كونه من غير أمته ، ينقض بعمله كل ما يقوله بلسانه ، ويثبت للملأ أنه جاهل لا يفهم معنى ما يُعلِّم به ، أو منافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر . »

« ولا مثل الزواج بين الأمم لتمكين عرى الاتحاد ، فضلاً عن تقوية

١ - المقتطف عدد سبتمبر سنة ١٩٠٩ ص ٨٢٧ - ٨٢٩ . ومن المعروف أن فارس باشا نمر كان ماسونياً . ومن مبادئ الماسونية الأساسية إلغاء العصبية الدينية والوطنية ، حتى لا يبقى في العالم إلا العصبية اليهودية ديناً وقومية . ( راجع فضائل الماسونية لشاهين بك مكاريوس ص ٥٥ - ومؤلفه من كبار الماسون . وهو زوج أخت فارس نمر باشا ) .

النسل ... فإباحة التزاوج بين الأمم المختلفة والترغيب فيه خير واسطة تربط الشعوب . وإذا سلمت من التباغض الديني والمذهبي وكان العفاف عنوانها ربطت أمم العالم أجمع ، وأصلحت ما عجزت عن إصلاحه الشرائع والسنن . ولكن اختلاف الأديان - وجعل هذا الاختلاف مصلحة من مصالح المنتفعين به - يبقى فاصلاً بين الأمم وسداً منيعاً يمنع اتصالها . »

والواقع أن مثل هذه الدعوات التي تنادي بالإخاء البشري تمس قلوب كثير من الناس لأنها تناجي أقدس ما في الإنسان وأطهر ما تنطوي عليه فطرته . ولكنها تؤثر أكثر ما تؤثر في الأمم الضعيفة ، وفي نفوس الشباب البريء منها بنوع خاص ، لأن الضعيف وحده هو الذي يحلم بالعطف والرحمة . أما القوي فهو لا يتحدث إلا عن الفتح والغلبة . وهو يروج هذه الدعوات بين الضعفاء وهو أولى الناس بأن تستيقظ نفسها نفسه . وليس بين دعوات المبطلين شيء يشبه الحق ويلتبس به في الأفهام كهذه الدعوة إذا انتشرت بين الضعفاء الواقعين تحت عدوان الطامعين وأذى المعتدين . فقد سبقت إرادة الله ( سبحانه ) وهو الفعال لما يريد ، واقتضت حكمته وهو العليم الخبير ، أن يكون التنافس بين الأفراد والجماعات هو سبيل التقدم . ولذلك خلق الناس شعوباً وقبائل وجعلهم شيعاً وأحزاباً . ولو شاء لجعلهم أمة واحدة . ولو شاء لجمعهم على الهدى . ولكن ليبدلوا بعضهم ببعض ، وليجد الضعيف نفسه مدفوعاً إلى استكمال قوته وحشد كل ما أوتي من مواهب وملكات حتى يتخلص من ظلم القوي ، وليتطهر المكافحون خلال كفاحهم من الضعف ومن تحكم الشهوات ، فتسمو نفوسهم ، ويبرز فيهم أشرف ما تنطوي عليه البشرية من عناصر الخير والكمال . ولا يزال الناس في كفاح وجهاد ، وفي تنافس يستهدف التفوق وبلوغ الكمال ، حتى يفتنى من وجه الأرض كل ضعيف وينمحي كل مترف فاسق وكل ضعيف متهافت من الأفراد والجماعات والمذاهب ، وحتى لا يكون على ظهرها إلا كل قوي صالح من المذاهب والأمم والأفراد . ( كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ

والباطل ، فأما الزَّبدُ فيذهبُ جُفَاءً ، وأما ما يَنْفَعُ الناسَ فيمكُثُ  
في الأرض . )

ذلك هو ما دعانا إلى أن نقول في مقال المقتطف السابق إنه لا يستهدف  
إلا ترويض المصريين ، وتمكين الفارس الإنكليزي من مطيته الجامحة بعد  
أن تسكن وتُسَلِّس القيادة .

أما المصريون من الداعين إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، فقد كانوا  
من الذين فتنتهم الحضارة الغربية المزدهرة ، حين عاشوا في البلاد الأوربية ،  
أو نشأوا في مدارسها المنبثة في أنحاء الشرق ، واستمدوا مثلهم العليا في حياتهم  
من ثقافتهم التي لا تمت إلى الحضارة الإسلامية أو العربية بسبب قريب أو  
بعيد . فهم يعرفون عن تاريخ إنكلترا وفرنسا أضعاف ما يعرفون عن تاريخ  
المسلمين أو العرب ، وهم يعرفون عن تاريخ الكنيسة الأوربية وما بين مذاهبها  
من خلاف أكثر مما يعرفون عن تاريخ الفقه الإسلامي ، وهم يعرفون أعلام  
الفكر الأوربي وشعراءه ولا يعرفون عن أعلام الحضارة الإسلامية والعربية  
إلا قليلا . وهم بعد ذلك يعيشون في بيوتهم حياة تحاول أن تقلد في مظهرها  
الحياة الغربية ، وربما وكلوا إلى بعض المربيات الأجنبية تنشئة أبنائهم والقيام  
على تربيتهم . وبذلك توثقت الصلات الثقافية والفنية والروحية بينهم وبين  
الغرب ، بينما فترت الصلات الروحية والثقافية بينهم وبين الشرق والإسلام ،  
وأصبح أسلوب الحياة الشرقية وتقاليدُها لا يقترن في أوهامهم إلا بحاضر  
الشرق البغيض ، وبتلك الأخلاط من حثالة الناس الذين يفرسهم الجهل  
والفوضى والانحلال . وقد تشبعت عقولهم بما كان يذيعه رجال السياسة  
وكثير من كتّاب الغرب الذين كانوا يرددون تخلف الشرقيين إلى تمسكهم  
بالإسلام ، ويقولون إنه دين ساذج ، إن صلح لتنظيم حياة نفر من البدو  
البدائيين ، فهو لا يصلح لتنظيم المجتمع الجديد في القرن العشرين .

يقول كرومر إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ، ولكنه فاشل كنظام

اجتماعي . فقد وُضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ، ولكنه مع ذلك أبدي لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنساني . ويعدد كرومر ما يراه من معاييب الإسلام فيقول إنه يحرم المرأة من كل حقوقها ويعتبرها أخط من الرجل ، وأنه يبيح الرق ، وأنه دين متعصب متطرف يبيح لأتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم في العقيدة أسرى حرب ورقيقاً ، ويكفر كل من لا يعتقد برسالة محمد <sup>(١)</sup> ، ويجعل من أتباعه جماعة من أنصاف الهمج المحبين للحروب الذين لا تتسع صدورهم لأي تسامح ، فهم لا يفهمون أن الخلاف في الرأي ليس موجباً للكراهية والحقْد . ثم يأخذ كرومر في مقارنة بين المسيحية والإسلام ، يحاول أن يبين فيها صلاحية المسيحية للعصر وتفوقها . ويوازن بين أسلوب الشرقي وأسلوب الغربي في الحياة والتفكير ، محاولاً تحقير أسلوب الأول وتسفيهه . فالشرقيون أسرع الناس إلى تصديق الشائعات . وهم يتملقون من فوقهم بنفس القدر الذي ينتظرون فيه الملق ممن هم دونهم . وهم لا يكثرثون للمستقبل ، ولا يتبصرون في العواقب ، ولا يدبّرون شيئاً لمن يتركونهم من خلفهم . وهم يدسّون في الخفاء ولا يعملون في الضوء ، نتيجة للعصور المتوالية التي عانوا فيها من الاضطهاد . وهم يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويدفعهم إيمانهم هذا إلى الرضوخ المطلق لكل ذي سلطان . <sup>(٢)</sup>

هذا نموذج مما كان يكتبه ساسة الغرب ومفكروه عن الإسلام والمسلمين ، تستطيع أن تلمس له نظائر في مثل مقال هانوتو الذي رد عليه محمد عبده في مقالاته المشهورة سنة ١٩٠٠ . <sup>(٣)</sup> وقد انتهى بهؤلاء الغربيين تفكيرهم إلى

١ - عليه صلاة الله وسلامه .

٢ - Modern Egypt ٢ : ١٣٤ - ١٥٤ . وقد فند روتشتين بعض هذه المزاعم في كتابه :

Egypt's Ruin ص ٣١١ - ٣١٢ من الترجمة العربية .

٣ - راجع ترجمة مقال هانوتو في تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٤٠١ - ٤١٤ . وراجع رد محمد

عبده ٢ : ٤١٥ - ٤٦٨

أن الإسلام والتقاليد الإسلامية وأسلوب الشرقي في حياته وتفكيره - وهو يختلف اختلافاً بيناً عن أسلوب الغربي - كل ذلك يحول دون إيجاد علاقة مستقرة بين الشرق والغرب ، ويجعل مركز الغربي المستعمر في الشرق دقيقاً محفوفاً بالخطر ، ويحوجه إلى أن يقف على حمايته بقوة دائمة يقظة . لذلك كان كرومر يحاول ابتداع روابط صناعية مُفْتَعَلَة لكي تسد النقص الناتج عن اختلاف العقيدة والجنس واللغة والعادات والتفكير ، وهي الروابط الأساسية للاتحاد والتعاون بين الحاكم والمحكوم كما يقول . ومن بين ما اقترحه في هذا الصدد أن يكون هناك نظام مدبّر لعرض وجهات النظر التي تبدي عطفاً معقولاً على المصريين ، عن طريق أفراد من المشتغلين بالسياسة الشرقية ، لا عن طريق الحكومة . وكان يؤمل من وراء ذلك أن تجد أجيالُ المصريين المقبلة من الحكمة وسعة الأفق - حسب تعبيره - ما يحفزها للعمل بصبر وإخلاص مع الأوروبيين الذين يعطفون عليهم ، حتى يستطيعوا متعاونين وضع مُثُل عليا جديدة تحل محل المثل الأعلى للمسلم المتدين الذي لم يعد صالحاً لهذا الزمان حسب زعمه (١) .

كل ذلك يعلل لنا ما كان يجد هذا النفر من المفكرين الذين يحتذون أساليب الحياة الغربية من تشجيع ممثل الاحتلال في مصر ورضاه . وقد قرر كرومر في كتابه عن عباس الثاني أن المسلم غير المتخلق بأخلاق أوربية لا يصلح لحكم مصر ، كما أكد أن المستقبل الوزاري سيكون للمصريين المُتَشَرَّبِينَ تربية أوربية (٢) . وهو - مع ذلك - يعترف بأن المتفرنجين من المصريين - وكثرتهم في رأيه من المسلمين - لم يتشربوا روح الحضارة الأوربية ولم يدركوا إلا قشورها . وهم بذلك قد فقدوا أحسن ما في الإسلام

١ - Modern Egypt ٢ : ٥٦٩ - ٥٧٠

٢ - عباس الثاني ص ٦٧ وراجع كذلك ما جاء في تقريره السنوي عن سنة ١٩٠٦ بمناسبة تعيين سعد زغلول وزيراً للمعارف حيث أكد هذا المعنى « ص ٨ من الفقرة ٣ » تحت عنوان :

Egyptian Nationalism .



وأحسن ما في المدنية الأوروبية كما يقول . فهناك فرق - في رأيه - بين المتحررين في أوروبا وبين من تطلق عليهم هذه التسمية في مصر . فأحرار التفكير الأوروبيون (اللِّبراليُّون) ينسجمون مع من حولهم من المسيحيين ولا يعادونهم . بل هم لا يختلفون عنهم في أسلوب حياتهم وتفكيرهم العملي . أما الذين يسمون أنفسهم أحرار التفكير في مصر ، فهم يختلفون مع بني جلدتهم من المتدينين ويحتقرونهم ، ولا يدركون المدنية الغربية إلا إدراكاً سطحياً . فهم لا يعرفون عنها إلا أنها تؤمن بالمادة وحدها . يقرر كرومر ذلك ، ولكنه يقول مع هذا إن المتفرنجين من المصريين ، إذا قيسوا إلى مواطنيهم ، كانوا أصلح الناس للتعاون مع الإدارة الإنكليزية (١) .

ذلك شأن السابقين الأولين من المصريين الذين دعوا إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية . ولكن هؤلاء الدعاة قد استطاعوا على مر الأيام أن يكسبوا أنصاراً من الشباب والمفكرين الذين كانوا يطمحون إلى القوة ، ويتوقون إلى النهضة بوطنهم ، ويرون أن من الخير أن نستفيد بتجربة الغرب ونسلك الطريق الذي سلكه في سيره من الهمجية إلى المدنية ، ومن وهدة الضعف إلى قمة المجد ، ولا يرون في ذلك بأساً على الإسلام والمسلمين .

نظر بعض هؤلاء المفكرين إلى الشرق في تأخره من بعد عزّة وغلبة ، وإلى الغرب في تفوقه من بعد ذل وقلة ، فخیل إليهم أن السبيل إلى نهضة الشرقيين هو أن يأخذوا بأساليب الغربيين في الحياة والتفكير ، وأن يقتلدوا بهم أو ينافسوه كما يقول حافظ إبراهيم في قصيدته التي ألقاها في حفل كلية البنات الأمريكية بمصر سنة ١٩٠٦ : (٢) .

١ - Modern Egypt ٢ : ٢٢٨ - ٢٣٢ . والمقصود بأحرار الفكر أو المتحررين هم معتنقو مذهب الـ Liberalism الذي لا يتقيد أصحابه بالعقائد والآراء السائدة ، دينية كانت أو غير دينية . وهو مذهب يرتبط أصحابه في الغرب بقيم العدالة والإنسانية بمفهومها الجاهلي عند الرومان واليونان الوثنيين ، أكثر من ارتباطهم بالقيم المسيحية .

٢ - ديوان حافظ ١ : ٢٥٩ .

أي رجال الدنيا الجديدة مُدُّوا  
وأفيضوا عليهم من أيادي  
... ليتنا نفتدي بكم أو نجاريب  
إن فينا - لولا التخاذل - أبطا  
وعقولا لولا الحمولُ تولا  
ودعاة للخير لو أنصفوهم  
... قد مَلَكْنَا وقوفنا فيه نبكي  
وسئنا مقالهم كان زيد  
ليت شعري متى تُنْزَعِ مصرُ  
ونراها تفاخر الناس بالأح

لرجال الدنيا القديمة باعا  
كم علومنا وحكمةً واختراعا  
كم عسى نستردُّ ما كان ضاعا  
لا إذا ما هم استقلُّوا البراعا  
ها لفاضت غرابةً وابتداعا  
ملأوا الشرقَ عِزَّةً وامتناعا  
حَسَباً زائلا ومجداً مضاعا  
عبقرياً وكان عمرو شجاعا  
غيرها المجدد في الحياة نزعاً  
ياء فخراً في الخافقين مُداعاً

ونادى هؤلاء المفكرون بأن استبداد الحاكمين بالمحكومين هو السبب الأول  
في انكماش الناس وانطوائهم على أنفسهم جيلاً بعد جيل ، حتى انتهى بهم  
الأمر إلى ما هم فيه من تخاذل وتواكل وفتور ، وبأن هذا الاستبداد قد أفسد  
الدين وقتل كل فضيلة . قتل العلم ، وقتل الطموح ، وقتل الأخلاق ، وأفقد  
الفرد ثقته بنفسه فأصبح آلة صماء لا يتحرك إلا أن يحركه محرّك . وقالوا  
إن صلاح الأمة بصلاح الفرد ، وأن الفرد لا يصلح حتى يتخلص من أسر  
العبودية والاستعباد ، وتكفل له الحرية في أن يقول ما يشاء وفي أن يفعل  
ما يشاء . وذهبوا إلى أن أوروبا لم تحقق نهضتها إلا بتقييد قُوَى الحاكمين ،  
وأنها قد وضعت لذلك نظاماً يحقق سيطرة الشعب وولايته على شؤونه عن  
طريق الدساتير الحديثة والمجالس النيابية . فنشط الأفراد للعمل حين عرف  
كلٌّ منهم قدر نفسه ، وحين تحققوا أن ثمرة جهودهم لا تعود إلا عليهم ،  
ولا يتصرف فيها الحاكم إلا برأيهم ، ولا ينفقها إلا فيما يرون أنه عائد  
عليهم بالنفع والخير . عند ذلك قال هؤلاء المصلحون . لماذا لا يكون للمصري  
أو المسلم أو الشرقي مثل هذه الحرية ؟ ولماذا لا ينعم بمثل هذا النظام ؟ ولماذا

لا يدخل النهضة من الباب الذي دخلت منه أوروبا ؟

إلى جانب ذلك كله كانت الحياة الأوروبية بخيرها وشرها تغزو مصر دائبة لا تنسي ولا تفر. فتأسست شركة التليفونات الإنجليزية سنة ١٨٨٤ ؛ <sup>(١)</sup> وافتتحت السينما الأولى بالقاهرة سنة ١٨٩٦ . وافتتح أول خط للترام سنة ١٨٩٧ . ثم أنشئ البنك الأهلي ومنح امتياز إصدار الأوراق المالية سنة ١٨٩٨ . <sup>(٢)</sup> وافتتحت الحمارات في كل مكان ، حتى تغلغت إلى الريف وإلى أحياء العمال . <sup>(٣)</sup> وافتتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة في كل العواصم . وتجراً الناس على ارتكاب الموبقات والجهر بها باسم الحرية الشخصية التي لم يفهموا منها إلا أن يحل الناس أنفسهم من كل قيد ، لا يبالون ديناً ولا عرفاً ولا مصلحة .

وتجلى أثر الحضارة الغربية والتفكير الأوروبي في دعوات كثيرة ، برزت من بينها ثلاث دعوات كبيرة شغلت الرأي العام في مستهل هذا القرن . أما الدعوة الأولى فقد كانت تطالب بكفالة الحرية الشخصية ، وبالحياة النيابية كما عرفت في الأمم الغربية الحديثة . وأما الدعوة الثانية فقد كانت تطالب بتحرير المفكرين من سلطة رجال الدين ، وذلك بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ، على النمط الذي قامت عليه النهضة الأوروبية الحديثة بعد التخلص من نفوذ الكنيسة . وتطلب من رجال الدين أن لا يقحموا الدين في شؤون الحياة ، لأنهم يرون أن الدين لا ينبغي أن تتجاوز دائرة نفوذه تنظيم صلوات المخلوق بالخالق ، ولأن تنظيم صلوات الناس بعضهم ببعض ينبغي أن يترك للساسة وللمتخصصين في شتى فروع المعرفة . وأما الدعوة الثالثة فقد كانت تنادي بتحرير المرأة — حسب تعبيرهم — وتزعم أن الحجاب قد حال بينها

١ - مذكراتي في نصف قرن ١ : ٢٦٣

٢ - المرجع نفسه ٢ : ٢٣٢ ، ٢٤٦ ، ٢٦٢

٣ - مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ١٨٩ .

وبين أن تكون عضواً نافعاً في الحياة ذا أثر في المجتمع ، على النحو الذي بلغته المرأة الأوربية .

\*\*\*\*

شملت الدعوة إلى الحرية العصر كله ، وكانت الأمنية التي يحلم بها الكتاب والشعراء ، لم يكذب يخرج منهم أحد على هذا الإجماع . كانوا يطالبون بحرية الفرد في أن يفعل ما يشاء ، وفي أن يعبر عن رأيه وينشره كيفما أراد ، وفي أن يدعو إلى الاجتماعات والندوات التي يروج فيها لمذهبه دون قيد .

وكان دعاة الحرية في كل مكان متأثرين بالثورة الفرنسية على وجه الخصوص ، وبآراء مفكرها وزعمائها . فالحرية - كما هو معروف مشهور - هي أحد أركان الشعار المثلث الذي اتخذته هذه الثورة ، وهو ( الحرية - الأخاء - المساواة )<sup>(١)</sup> .

وترعّم المطالبة بالحياة النيابية مصطفى كامل ومن انضوى تحت لوائه من الكتاب والشعراء ، ولم يزالوا ينفخون فيها من روحهم حتى تقدمت الجمعية العمومية في مارس سنة ١٩٠٧ بمطالب غاية في الجراءة ، كان من أهمها طلب دستور وبرلمان<sup>(٢)</sup> . ثم نُقِلَ كرومر من مصر على أثر حادث دنشواي سنة ١٩٠٧ . وقامت من بعد ذلك الثورة التركية ، وصدر الدستور العثماني في يوليو سنة ١٩٠٨ ، فكان لذلك أثر عظيم في تشجيع المطالبين بالحياة النيابية على المضي في جهادهم . فقرر مجلس شورى القوانين في جلسته التي انعقدت في أول ديسمبر سنة ١٩٠٨ أن يضم صوته إلى صوت الجمعية

١ - وهذا الشعار هو شعار ماسوني في الوقت نفسه . بل هو قد انتقل إلى الثورة الفرنسية عن طريق زعمائها من اليهود والماسون . والكلام في ذلك يطول ويحتاج إلى تفصيل ليس هذا موضعه ، راجع كتاب « فضائل الماسونية » ص ٤ ، ٤٩ ، ٨٩ ، ١٣٣ .

٢ - روتشتين ٣٤٥ ، محمد فريد ٥٦ .

العمومية في المطالبة بالحكم النيابي، رغم معارضة الخديوي وممثل الاحتلال (١).  
وقد قدمت في الفصل الرابع بعض نماذج من الشعر والنثر في هذا الصدد،  
ولكني أحب أن أشير هنا إلى كتاب ظهر سنة ١٩٠١ وكان قد نُشر من  
قبل مفرقاً في أعداد سنة ١٨٩٩ من صحيفة المؤيد. كان هذا الكتاب من  
أجراً ما كتب في الدعوة إلى الحرية وإلى الحياة النيابية، وفي محاربة الاستبداد  
وبيان أثره السيء في شتى نواحي المجتمع، علمية وخلقية ودينية واقتصادية  
وعمرانية. ذلك هو كتاب «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» للكواكبي (٢).  
يقول الكواكبي في أثر الاستبداد في إفساد الأخلاق، مبيناً أن الإنسان  
يمتاز بالإرادة، والاستبداد يفقده الإرادة (٣).

« لا تكون الأخلاق أخلاقاً ما لم تكن مُطَرِّدةً على قانون، وهذا ما  
يسمى عند الناس بالناموس. ومن أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب  
ناموس وهو كالحَيوان المملوك العنان، يقاد حيث يراد ويعيش كالريش  
يهب حيث يهب الريح، لا نظام ولا إرادة. وما هي الإرادة؟ هي أم  
ناموس الأخلاق. هي ما قيل فيها تعظيماً لشأنها: « لو جازت عبادة غير  
الله. لاختار العقلاء عبادة الإرادة ». هي تلك الصفة التي تَفْصِلُ الحيوان  
عن النبات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة. فأسير الاستبداد الفاقِدُ الإرادة  
هو مسلوب حق الحيوانية فضلاً عن الإنسانية، يعمل بأمر غيره لا بإرادته.  
ولهذا قال الفقهاء: لا نيةَ للرقيق في كثير من أحواله، إنما هو تابع لنية  
مولاه. »

١- روتشتين ٣٤٩، محمد فريد ٥٦ - ٦٢.

٢- ولد عبد الرحمن الكواكبي مؤلف هذا الكتاب في حلب سنة ١٨٤٨ م ورحل إلى مصر  
حين ضاقت به الحياة في ظل الحكم العثماني بعد أن طوف في كثير من البلاد الإسلامية. وقد  
نشر في مصر كتابيه «أم القرى» و«طبائع الاستبداد» في سنتي ١٨٩٩، ١٩٠١. وتوفي  
في سنة ١٩٠٢. وترجمته الكاملة في «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» ص ٢٤٩ - ٢٨٠  
و «الحركة الأدبية في حلب» ص ٨٩ - ١١٢.

٣- طبائع الاستبداد ص ٩٣.

ويبين الكواكبي الحكمة في احتمال ما في الحرية من مضار لما فيها من مزايا كثيرة . وذلك لأن النهي عن المنكر من أهم الأركان التي يقوم عليها المجتمع السليم . وفي ذلك يقول الكواكبي : (١)

« أقوى ضابط للأخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ . وهو في عهد الاستبداد غير مقدور عليه لغير ذوي المنعة مع الغيرة ، وقليل ما هم ، وقليل ما يفعلون ، وقليل ما يفيد نهيهم ، لأنه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضرراً ولا نفعاً . بل ولا يملكون من أنفسهم شيئاً . وينحصر موضوع نهيهم وانتقادهم في الرذائل النفسية الشخصية فقط مما لا يخفى على أحد . أما المتصدرون في عهد الاستبداد للوعظ والإرشاد فيكونون مطلقاً — ولا أقول غالباً — من المملوقين المرائين . وما أبعد هؤلاء عن التأثير ، لأن النصيح الذي لا إخلاص فيه هو بذر ميت . أما النهي عن المنكرات في الإرادة الحرة فيمكن كل غيور أن يقوم به بأمان وإخلاص ، ويوجهه إلى الضعفاء والأقوياء على سواء ، ويفوق سهام قوارصه على ذوي الشوكة والزعماء ، ويخوض في مواضع تخفيف الظلم وتسديد النظام ، وهذا هو النصيح الذي يُعدي ويجدي . ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس من أهم الأمور ، أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط . ورأت أن تحمّل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد ، لأنه لا ضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد يخنقون بها عدوتهم الطبيعية ، أي الحرية . »

ويقول في إفساد الاستبداد للدين : (٢)

« والاستبداد ريح صرصر فيه إعصار يجعل الإنسان كل ساعة في شأن . وهو مفسد للدين في أهم قسميه ، أي الأخلاق . وأما العبادات منه فلا يمسه »

١ - طبائع الاستبداد ٩٥ - ٩٦

١ - طبائع الاستبداد ١١٢

لأنها ثلاثه في الأكثر . ولهذا تبقى الأديان في الأمم المأسورة عبارة عن عبارات مجردة صارت عادات ، فلا تفيد في تطهير النفوس شيئاً ، فلا تنهى عن فحشاء ولا منكر ، وذلك لفقد الإخلاص فيها تبعاً لفقدتها في النفوس التي ألفت أن تتلجأ وتتلوّى بين يدي سطوة الاستبداد في زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق . ولهذا لا يستغرب في الأسير الأليف تلك الحال أن يستعملها أيضاً مع ربه ومع أبيه وأمه ومع قومه وجنسه ، حتى مع نفسه . »

ويقول في إفساد الاستبداد للتربية : (١)

« الاستبداد يضطر الناس إلى استباحة الكذب والتَّحْيِيل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحس وإماتة النفس ، إلى آخره . وينتج من ذلك أنه يرَبِّي الناس على هذه الحصال . بناءً عليه يرى الآباء أن تعبهم في تربية الأبناء التربية الأولى لا بد أن يذهب يوماً عبثاً تحت أرجل تربية الاستبداد كما ذهبت تربية آبائهم لهم سُدَى . ثم إن عبيد السلطة التي لا حدود لها هم غير مالكن أنفسهم ولا هم آمنون على أنهم يربون أولادهم لهم ، بل هم يربون أنعاماً للمستبدين وأعواناً لهم عليهم . وفي الحقيقة أن الأولاد في عهد الاستبداد سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق . فالتوالد من حيث هو زَمَن الاستبداد حمقٌ ، والاعتناء بالتربية حمقٌ مضاعف ... وغالبُ الأسراء لا يدفعهم للتوالد قصدُ الإخصاب ، إنما يدفعهم إليه الجهل المظلم ، وأنهم محرومون من كل الملذات الحقيقية التي يُحرّمها أيضاً الأغنياء الجهلاء عامة ، كلذة العلم وتعليمه ، ولذة المجد والحماية ، ولذة الإثراء والبذل ، ولذة إحراز مقام في القلوب ، ولذة نفوذ الرأي الصائب ، إلى غير هذه الملذات الروحية . وأما ملذاتهم فهي مقصورة على جعل بطونهم مقابرَ للحيوانات إن تيسّرت ، وإلا فمزابل للنباتات ،

ومنحصرة في استفراغهم الشهوة . كأن أجسامهم خلقت دملاً على أديم الأرض وظيفتها توليد الصيد ودفعه . وهذا الشرُّ البهيمي الناشئ عن فقدان الملذات العالية المذكورة هو ما يعمي الأسراء ويرميهم بالزواج والتوالد ، مع أن العِرْضَ كسائر الحقوق غير مَصُون زمن الاستبداد ، بل هو معرض لهلك الفساق من المستبدين والأشرار من أعوانهم ، خصوصاً في الحواضر الصغيرة والقرى المستضعفة أهلها . »

ويقول في بيان أن المجد الصحيح لا ينشأ في ظل الاستبداد ، وإنما ينشأ في ظله طبقة ممن سماهم « المتمجدين » . ووصف التمجيد والمتمجدين بقوله : (١)

« التَّمَجُّدُ خاص بالإدارات المستبدة ، وهو القربى من المستبد بالفعل ، كالأعوان والعمال ، أو بالقوة ، كالملقين بنحو دوق وبارون ، والمخاطبين بنحو رب العِزَّة ورب الصَّوْلَة أو الموسومين بالنياشين ، أو المطوقين بالحمائل ، وبتعريف آخر ، التمجيد هو أن ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف الإنسانية . وبتعريف أجلى : هو أن يتقلد الرجل سيفاً من قبَل الجبار يبرهن به على أنه جلاد في دولة الاستبداد ، أو يعلق على صدره وساماً مُشْعِراً بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان ، أو يتحلى بسيور مزركشة تنبئ بأنه صار أقرب إلى النساء منه إلى الرجال . وبعبارة أوضح وأخصر : هو أن يصير الإنسان مستبداً صغيراً في كَنَفِ المستبد الأعظم .

« المتمجدون يريدون أن نخدعوا العامة — وما نخدعون إلا أنفسهم — بأنهم أحرار في شئونهم ، لا يُزَاح لهم نقاب ، ولا تُصَفَّع لهم رقاب . فيُحَوِّجهم هذا المظهر الكاذب لتحمل الإساءات والإهانات التي تقع عليهم من قبَل المستبد ، بل للحرص على كتمها ، بل على إظهار عكسها ، بل على مقاومة من يدعي خلافتها ، بل على تغليط أفكار الناس في حق المستبد ،



وإبعادهم من اعتقاد أن من شأنه الظلم . وهكذا يكون المتمجدون أعداء للعدل ، أنصاراً للجور . وهذا ما يقصده المستبد من إيجاد المتمجدين . »

ويقول إن الاستبداد يسري في سائر موظفي الدولة المستبدة ، كبيرهم والصغير : (١)

« الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها ، من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفراش إلى كناس الشوارع . ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً ، لأن الأسافل لا يهتمهم جلب محبة الناس . إنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته وأنصار دولته وشرهون لأكل السقطات من ذبيحة الأمة . وبهذا يأمنهم ويأمنونه ، فيشاركهم ويشاركونه ... إن العقل والتاريخ والعيان ، كل يشهد بأن الوزير الأعظم للمستبد هو اللئيم الأعظم في الأمة ، ثم من دونه من الوزراء يكونون دونه لوئماً ، وهكذا تكون مراتب لوئهم حسب مراتبهم في التشريفات ... كيف يكون عند الوزير نزعة من الشفقة والرأفة على الأمة ، وهو العالم بأنها تبغضه وتمقته وتتوقع له كل سوء ما لم يتفق معها على المستبد ، وما هو بفاعل ذلك أبداً إلا إذا يش من إقباله عنده . وإن فعل فلا يقصد نفع الأمة . إنما يريد تهديد المستبد أو فتح باب مستبد جديد عساه يستورزه فيؤازره على وزره . والنتيجة أن وزير المستبد هو وزير المستبد لا وزير الدولة كما هو في الحكومات الدستورية ... بناءً عليه لا يفتّر أحد من العقلاء بما يتشدد به الوزراء والقواد من الإنكار على الاستبداد والتفلسف بالإصلاح ، وإن تلهفوا وإن تأففوا . ولا ينخدع النبهاء لهم وإن ناحوا وإن بكوا . ولا يثقوا بهم وبوجدانهم مهما صلّوا وسبّحوا . لأن ذلك كله ينافي سيرهم وسيرتهم ، ولا ضامن على أنهم أصبحوا يخالفون ما شبوا وشابوا عليه . بل هم أقرب أن لا يقصدوا بتلك المظاهر غير تهديد المستبد واستئثار دماء الرعية ، أي

أموالها . نعم . كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير أنه يريد إلقاء سيفه للأمة لتكسره ، وهو قد ألف عمر أطويلاً لذة البدخ وعزة الجبّروث ، وهو من تلك الأمة التي قتلت الاستبداد فيها كل الأميال الشريفة العالية ، حتى صار الفلاح التعيس يؤخذ للجنديّة وهو يبكي ، فلا يكاد يتلبّس كُسمٌ ثوبها إلا ويتنمّر على أمه وأبيه ، ويتمرد على أهل قريته وذويه ، ويكظ أسنانه عطشاً للدماء لا يميز بين أخ أو عدو .

ويقول الكواكبي إن الاستبداد يفسد الميول الطبيعية والأخلاق الحسنة ، ويقلب الحقائق في الأذهان ، وينزل بالإنسان إلى مستوى البهائم (١) : « الاستبداد يتصرف في أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة فيضعفها أو يفسدها أو يحوّلها ، فيجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه ، لأنه لم يملكها حقّ الملك ليحمده عليها حقّ الحمد . ويجعله حاقداً على قومه ، لأنهم عون الاستبداد عليه . وفاقداً حب وطنه ، لأنه غير آمن على الاستقرار فيه ويودّ لو انتقل منه . وضعيف الحب لعائلته ، لأنه ليس مطمئناً على دوام علاقته معها . ومختلّ الثقة في صداقة أحبّابه لأنه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون التكافؤ ، وقد يضطّرون لإضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون . أسير الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه ، لأنه لا يملك ما لا غير معرض للسلب ، ولا شرفاً غير معرض للإهانة . ولا يملك الجاهل منه آمالاً مستقبلّة ليتتبّعها ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها . وهذه الحال تجعل الأسير لا يذوق في الكون لذة نعيم غير الملذات البهيمية . بناءً عليه يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وإن كانت تعيسة . وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها . أن هو من الحياة الأدبية ؟ أن هو من الحياة الاجتماعية ؟ أمّا الأحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة . ولا يعرف ذلك إلا من كان منهم (٢) أو كشف الله عن بصيرته . ومثال ذلك

١ - طبائع الاستبداد ص ٧٨ - ٩١ .

٢ - الضمير في ( منهم ) يعود على الأحرار في الجملة السابقة .

الشيخ . فإنهم عندما تَمسي حياتهم كلها أسقاماً وآلاماً ويقربون من أبواب القبور ، يحرصون على حياتهم أكثر من الشباب في مُقْتَبَلِ العمر ، في مُقْتَبَلِ الملاذ ، في مُقْتَبَلِ الآمال . »

« الاستبداد يسلب الراحة الفكرية ، فيُضْني الأجسام فوق ضناها بالشقاء ، فتمرض العقول ، ويختل الشعور ، على درجات متفاوتة في الناس . والعوام الذين هم قليلو المادة في الأصل ، قد يصل مرضهم العقلي إلى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر ، في كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية . ويصل تسفل إدراكهم إلى أن مجرد آثار الأبهة والعظمة التي يرونها على المستبد وأعوانه تَبْهَرُ أبصارهم . ومجرد سماع ألفاظ التفخيم في وصفه وحكايات قوته وصولته يُزيغ أفكارهم . فيرون ويفكرون أن الدواء في الداء . فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين أيدي الذئاب ، حيث هي تجري على قدميها جاهدة إلى مقر حنفها ... وقد قبل الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه ، من اعتقاد أن طالب الحق فاجر ، وتارك حقه مُطِيع ، والمشتكي المتظلم مُفْسِد . والنبية المدقق ملحد ، والحامل المسكين هو الصالح الأمين . وقد اتبع الناس الاستبداد في تسميته النصيح فضولاً ، والغيرة عداوة ، والشهامة عتواً ، والحمية جنوناً ، والإنسانية حماقة ، والرحمة مرضاً . كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياسة . والتحيل كياسة . والدناءة لطف ، والنذالة دماء . »

ويقول : (١) « ومن طبائع الاستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكراً وأوتادُه عَمَلًا ، فهم ربائط المستبد ، يذلهم فيثنون ، ويستبدُّونهم فيحنّون . ولهذا يرسخ الذل بين الأمم التي يكثر أغنياؤها . أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب ، ويتحجب إليهم ببعض الأعمال التي ظاهرها الرأفة ، يقصد بذلك أن يَغْصِبَ أيضاً قلوبهم التي لا يملكون غيرها . والفقراء كذلك

يخافونه خوفَ دناةٍ ونذالةٍ، خَوْفَ البُغَاثِ مِنَ الْعُقَابِ<sup>(١)</sup>، فهم لا يجسرون على الافتكار فضلاً عن الإنكار، كأنهم يتوهمون أن داخل رعوهم جواسيس عليهم. وقد يبلغ فساد الأخلاق في الفقراء أن يسرَّهم فعلاً رضاء المستبد عنهم بأي وجهٍ كان رضاؤه. »

هكذا صور الكواكبي في كتابه آثار السلطة المطلقة التي لا يحدها قيد في الحكام وفي المحكومين على السواء، ليصل آخر الأمر إلى أن كل عللنا يمكن أن تُردَّ آخرَ الأمر إلى الاستبداد، وأن الذين يظنون أن تأخرنا يرجع إلى الجهل أو إلى الفقر أو إلى ترك الدين هم بين مخطئين وبين عارفين بمنعهم الاستبداد وخوف الحكام أن يقولوا ما يعرفونه. وانتهى الكواكبي في آخر كتابه إلى تقديم مجموعة من المشاكل التي تتصل بنظام الحكم، وضعها بين أيدي المفكرين، ودعاهم إلى بحثها وتمحيصها ووضع الحلول لها. وختم هذه المشاكل بالمسألة الكبرى وهي: (كيف نتخلص من الاستبداد؟). وتناول هذا السؤال الأخير وحده بالتعليق فقال<sup>(٢)</sup>:

« إن الأمة التي ضُربت عليها الذلة والمسكنة حتى صارت كالبهائم أو دون البهائم، لا تسأل قط عن الحرية. وقد تنقم على المستبد، ولكن طلباً للانتقام من شخصه، لا طلباً للخلاص من الاستبداد، فلا تستفيد شيئاً، إنما تستبدل مرضاً بمرض كغص بصداع. وقد تقاوم المستبد بسوق مستبد آخر. فإذا نجحت لا يغسل هذا السائق يده إلا بماء الاستبداد، فلا تستفيد أيضاً شيئاً. إنما تستبدل مرضاً مزمناً بمرض جديد...<sup>(٣)</sup> إن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقية الأمة في الإدراك والاحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس... ومبني قاعدة أنه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهئية ماذا يُستبدل به الاستبداد<sup>(٣)</sup>، هو أن معرفة الغاية - ولو إجمالاً - شرط طبيعي للإقدام على كل عمل. لكن المعرفة الإجمالية في هذا الباب لا

١ - البغاث : صغار الطيور وضعافها. العقاب (بضم العين) طائر من الجوارح.

٢ - طبائع الاستبداد ص ١٧٢ - ١٧٧.

٣ - الباء تدخل على المتروك. ولذلك فالصواب فيما يعنيه الكواكبي هو (تستبدل مرضاً جديداً بمرض مزمن) و (ماذا تستبدل بالاستبداد).

تكفي مطلقاً ، بل لا بد من تعيين المَطْلَبَ تعييناً واضحاً موافقاً لرأي الكل أو لرأي الأكثرية ... ثم إذا كانت الغايةُ مبهمّة في الأول ، فلا بد أن يقع الخلاف في الآخر ، فيفسد العملُ أيضاً ، وينقلب إلى فتن صمّاء وانقسام مهلك . ولذلك يجب تعيينُ الغاية بصراحة وإخلاص ، وإشهارُها بين الناس ، والسعي في إقناعهم واستحصال رضائهم بها ، بل حملُهم على النداء بها وطلبها من عند أنفسهم . »

\*\*\*\*\*

أما الاتجاه الثاني الذي تأثر أصحابه بالحضارة الغربية فهو الدعوة إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، أو فصل الدين عن الحياة وشؤونها . ومن المعروف أن ما يسمونه « عصر النهضة » في أوروبا قد جاء نتيجة جهاد طويل بين رواد التحرر الفكري وبين الكنيسة ، التي كان نفوذها على الملوك والأمراء والعلماء وقتذاك واسعاً شاملاً لا يحد . فسيف الحرمان مسلط على رقاب كل من تحدّثهم نفوسُهم بتجاهل البابا ، فضلاً عن مخالفته . ولن ينسى التاريخ إذلال البابا جريجوري السابع للإمبراطور هنري الرابع ، حين اختلف معه على حق تعيين الأساقفة على إقطاعياتهم ، فأعلن حرمانه ، وأحلّ أتباعه الأمراء من ولائهم له ، فاضطر الإمبراطور أن يذهب إليه تائباً في « كانوسا » سنة ١٠٧٧ ، وأن ينتظر الغفران ثلاثة أيام ، متدثراً بالخشيش وهو حافي القدمين وسط الثلج في فناء القلعة . ولن ينسى التاريخ من أحرّق - ومن نُكِّلَ به تحت آلات التعذيب في محاكم التفتيش من رواد علم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم الفلك ، بتهمة الخروج على تعاليم الدين ، أو بتهمة ممارسة السحر الأسود . وهذا الصراع الطويل المرير الذي وقفت فيه الكنيسةُ سداً بين أوروبا وبين التقدم ، وظهر فيه العلماء بمظهر الاستشهاد في الدفاع عن مبادئهم وآرائهم حتى الموت ، قد أتاح الفرصة لدعاة التحرر الفكري ، فهدموا الكنيسة وهدموا معها الدين . وانتهى ذلك الصراع الطويل المرير بانتصار دعاة التحرر

( Liberalism ) والحد من سلطة الكنيسة ، وحصرها في نطاق الدين . وبذلك تحقق فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، وانكمش نفوذ البابا فلم يعد يجاوز طقوس التعميد والصلاة والزواج والحنائز ، وأصبحت شؤون الدولة وتدبير نظام المجتمع في يد رجال السياسة .

قرأ أصحاب الثقافات الغربية ذلك كله فيما تداولوه من كتب التاريخ . وقرءوا معه في هذه الكتب أن ذلك قد استتبع تحرير الفكر فنشط من عقاله ، واندفع يرتاد ويكشف في حرية لا يهددها الخوف ، حتى وضع أوروبا في مكان الذروة من القوة والمال ونفوذ السلطان والعرفان . وُخيل إلى أصحاب هذه الثقافات أن الشعوب الإسلامية — ومصر واحدة منها — تعيش في حالة تشبه حالة أوروبا في العصور الوسطى . وساعد على تمكن هذا الوهم أن الذين يتكلمون باسم الإسلام كانوا جزءاً من العالم الإسلامي الذي مُنيَ بأسباب التخلف والجهل . وبذلك أصبحت آراؤهم موضع السخرية والتندر . وقد دفعهم تخلفهم الثقافي في كثير من الأحيان إلى التورط في محاربة بعض العلوم النافعة بدافع من جهلهم لها، فزعموا أنها تخالف روح الدين . ثم إن نظام التوظيف الحديد منذ عهد إسماعيل ، وفي عهد الاحتلال الإنكليزي خاصة ، قد أدى إلى اختفاء أصحاب الثقافة الدينية من ميادين الإصلاح وتخلفهم عن ركب الحياة ، وانحصار وظائفهم في المساجد . وأصبحت الوظائف الحكومية وأدوات التوجيه الاجتماعي في أيدي أصحاب الثقافة الأوروبية، الذين ينشئون مشاريعهم الاجتماعية والعمرانية على نمط ما تعلموه<sup>(١)</sup> . فكان من جملة ما نقلوه نقلاً أعمى، السخرية برجال الدين والاستخفاف بأمر الدين تبعاً للاستخفاف برجاله .

وكانت هناك قوى خفية غير ظاهرة تؤيد هذا الاتجاه وتمسك ناره بالوقود

---

١- راجع تقرير كرومر عن سنة ١٩٠٦ ( الفقرة ٣ ص ٨ ) . وراجع كذلك Modern Egypt ٢ : ٢٢٩ . حيث يدعو كرومر صراحة إلى وجوب تمكين هذه الطائفة من المناصب المشولة عن التوجيه السياسي والاجتماعي .

والخطب ، بما تلفقه من أكاذيب ، وما تزوره من مبالغات . وما تدبّجه من مقالات تلّبسُ ثوبَ الدفاع عن الحرية ، والرثاء لضحايا الظلم والاستبداد . وربما كانت اليهودية العالمية الطامعة في تقويض نظام الخلافة الإسلامية تمهيداً لاغتيال فلسطين واتخاذها وطناً قومياً لليهود العالم في مقدمة هذه القوى الخفية . فقد كان من أهداف الصهيونية العالمية — ولا يزال — أن تفسد التفكير الإسلامي والمسيحي على السواء ، نشرّاً للفوضى التي يظنون أنها هي السبيل إلى سيادتهم على العالم ، حسب ما يتوهمونه . وكان الاستعمار الطامع في اقتسام العالم العربي والاستيلاء على بثروته وأسواقه ، شريكاً للصهيونية العالمية في هذا التدبير .

ومما يصور هذا الاتجاه الفكري ما كتبه عبد القادر حمزة في سنة ١٩٠٤ تحت عنوان « خطرٌ علينا وعلى الدين » وهو واضح الدلالة في تأثير صاحبه بتاريخ النهضة الأوروبية ، وفي دعوته إلى اقتفاء أثرها . وقد جاء فيه : (١)

« ... ولقد كنت منذ عامين أحببت أن أكتب الكلمة التي أنا اليوم كاتبها نصيحة لأمتي ، واحتراماً لدينها . ولكني اعترتني الرهبة ، وخشيت أن استفز غضبها للدعوة كنت لا يزال يعتريني بعض الشك في صحتها ، ففضلت أن أطوئها خاطراً في صدري ، وتركت للزمن أن ينضجها ، بعد أن تُثَقَّف وتُصَقَّل في نار البحث والتدقيق... والآن بعد مرور عامين طويلين ، قلبتُ فيها تلك الدعوة على جميع وجوهها ، وعرضتها على محكّ النقد والمناقشة ، لا أجدني أخطأت إلا في عدم الجهر بها إلى الآن مع شدة احتياجنا إلى معرفتها والعمل بها ، سيما في هذه الأيام التي شاعت فيها كلمة الدين من أناس اتخذوها تجارة ، فلم يعد يهمهم إلا أن ترددها أفواههم صباح مساء ، وسيلة للتغريب ، واحتيالاً لكسب رضا العامة وشيوع ذكرهم بينها ، غير ملتفتين

١ - المقتطف عدد مارس سنة ١٩٠٤ ص ٢٣١ - ٢٤٠ . وقد رد عليه رفيق العظم في عدد

مايو سنة ١٩٠٤ بمقال يحمل العنوان نفسه : « خطر علينا وعلى الدين » . كما رد عليه

محمد كرد علي في العدد نفسه بمقال عنوانه « الدين والعامة » .

إلى الخطر العظيم الذي يدفعون إليه الأمة ودينها ، كما اندفعت إليه أوروبا من قبل ، فكانت النتيجة وبالأعلى على المسيحية والمسيحيين .

ثم عرض موضوعه بعد هذه المقدمة فقال :

« قالوا : إن الأمة إذا كانت جاهلة متأخرة ، ثم قدر لها أن تخطو إلى الأمام وتنهض راغبة في التقدم ، فلا بد لها من أدوار كثيرة طبيعية تتناوبها واحداً بعد الآخر . وأول هذه الأدوار أن يكثر فيها الناصحون والمرشدون ، فلا يزالون يقرعون الآذان إيقاظاً للنائم ، وتنبيهاً للغافل ، ولا تزال الأمة تُغضى عن أكثر ما يقولون ردحاً من الزمان ، حتى يتأثر مجموعها ، كما تتأثر الصخرة الصماء من قطرات الماء ، فتهم إلى السعي وإتباع القول بالعمل . وحينئذ يصح أن يقال إنها نشطت من عقالها ، وقامت تنفض الغبار عن أكتافها ، ودخلت في دور آخر هو دور الحياة والعمل . »

« فإذا صح قولهم هذا - وهو مما لا شك فيه - وصح أن الأمة المصرية كانت ولا تزال متأخرة جاهلة - ولا أظن مصرياً ينكر ذلك - فإنها في الدور الأول من نهوضها . ولذلك تجدها على كثرة الصائحين بينها والمنادين فيها ، تكاد لا تفقه كلمة من عشر كلمات يلقيها عليها الناصحون والمرشدون . وخلق بنا ونحن لا نزال في أول الطريق أن نتساءل : إلى أين نساق ؟ ... وأي سبيل نتبع ؟ ... وهل فيما نحن سائرون إليه نفع أو ضرر ؟ حتى لا نرمى بقصور النظر ، ولا نكون كالتائه في البلاء لا يعلم إلى النجاة أم إلى الهلاك يسير ... دُرُّ في البلاد طولها وعرضها واستجِلَّ غوامض أفكار أبنائها ، وسل كل من تريد منهم عن أسباب تأخرنا وانحطاطنا ، ثم عن الطريق الذي يؤدي إلى نهوضنا وارتفاعنا ، وبالجملة عن دائنا ودوائنا ، تجده - مهما أطل في الشرح وعدد من الأسباب - لا يحوم إلا حول سبب واحد تنتهي إليه جميع الأسباب . وهذا السبب هو الدين . فتركه والجري على خلافه هو عاة ما نحن فيه . والعمل به هو الدواء الوحيد لشفائنا من كل



ما أصابنا من الأمراض . دع هؤلاء وراقب معلّمي أبناء الأمة ومربي أطفالها واستطلع خلاصة ما يبشّون من النصائح والإرشادات ، تجد أن الدين هو القدوة التي يغرسونها في الأذهان ، مثالا لكل كمال ، ومنبعاً لكل حياة ، وأساساً لكل عمران . »

ويمضي الكاتب في استقراء طبقات الأمة المختلفة ، من كتاب وشعراء وصحفيين ، مصوراً إجماعهم على أن إهمال الدين هو علة تأخرنا . ثم يقول : « هذا كله ، وكثير غيره لا يتسع المقام لإفاضة الشرح فيه ، يدل على مبلغ تسلط الدين على عقولنا ، وانخداع أفهامنا انخداعاً لا مثيل له لكل ما يأتي من جانب الدين . بل يدل على استسلامنا استسلاماً أعمى إلى ماضينا الذي يجب أن نبتعد عنه كل الابتعاد ، إن كنا نريد أن لا نبقى كما نحن وكما كنا جهلاء وضعفاء . »

ويهاجم الكاتب الذين يقحمون الدين في كل شيء تقريباً إلى العامة الذين استولى عليهم ما يسميه الكاتب هوساً دينياً ، ويقول : إن الذين ينادون بالدين هم أجهل الناس بالدين ، ولكنهم يتاجرون باسمه ، ويتخذونه مطية للتغريب والتضليل . ويعلل الكاتب ذلك بما ورثناه من الميل إلى تقليد أسلافنا المعروفين بالتقوى والورع . ثم يقدم أمثلة من تاريخ الحضارة الإسلامية ، ماضيها وحاضرها ، وقف فيها رجال الدين الذين أساءوا فهمه في وجه العلم والعلماء ، واتهموهم بالخروج عليه . ويختم هذا العرض متسائلاً « هل في النداء بالدين فائدة ؟ » فيقول : إن من أخطر الأشياء أن نستنجد بالدين في كل شيء ، بعد أن صار إلى ما صار إليه ، وبعد أن أصبح مجموعة من العادات والتقاليد أنتجها الفهم السيئ والتغالي المضر . ثم يقول :

« هذه بلاد أوروبا كان أهلها قبل العصر الذي يسمونه عصر النهضة والإصلاح متمسكين بعري الدين المسيحي . متشيعين لكل ما يأتي من جانبه . فما زالوا يغالون ويتطرفون . حتى انتهت بهم الحال إلى حصر الدين برمته

في الكنيسة . ولم تمض على ذلك سنوات حتى أصبحت الكنيسة صاحبة  
التصرف المطلق فيهم ، توجههم إلى الحروب الصليبية ، فيعانون المشاق ويكابدون  
الأهوال ويهلكون ألوفاً ومئات ألوفاً حباً في الدين . ثم تستأثر بالأموال  
فلا تجد منهم إلا ملبيين خاضعين ، يقدمون إليها أموالهم باسم الغيرة على  
الدين . ثم تستولي على الكتاب المقدس وتحرم على غيرها فهمته وتفسيره ،  
فيتلقون أوامرها بالرضى والطوع عملاً بأوامر الدين . ثم تقف أمام العلوم  
مخافة أن يكون فيها ما يخالف الدين . وما زالت على حالها ، تفتتت كل  
يوم على الدين باسم الدين ، والناس لا يعرفون إلا كلمات تسمى الدين  
يتفانون في الجهاد غيرةً عليها ، حتى أخذ شعاع العلوم ينفذ إلى الأذهان ،  
وابتداءً دور النهضة . فقام القسوس وقعدوا ، آخذين بتلابيب الأمة بأسرها ،  
ينادونها : الدين الدين ! اطلبي الكمال والرفي والنهضة من جانب الدين .  
وظلوا يصعدون آذانها بهذا النداء ، حتى تنبعت العقول ونظرت إلى الدين  
كما صوروه لها ، فنبذه البعض ، وضعفت سلطته على البعض الآخر . »

ويختم الكاتب مقاله مطالباً بأن يترك الدين بيننا في زيهِ الحقيقي ، ذلك  
الثوب الأبيض الطاهر . وأن لا ننفر الناس منه بإقحامه فيما ليس من  
شأنه ، منادياً بأن القرآن لم ينزل إلا بقواعد عامة للناس جميعاً . ولكل أمة  
أن تتصرف في مدلولات هذه القواعد العامة بما يناسب زمانها ومكانها ،  
دون تقييد أو حجب على الأفهام ، إلا فيما يخرج عن الدين .

كانت الحضارة الأوروبية والثقافة الغربية ، تغزو الشرق الإسلامي ،  
وتغزو تركيا نفسها ، في أشكال مختلفة : معاهد علمية ، وشركات أجنبية ،  
وبضائع ، وملابس ، وفرش ، وأثاث . وقد دأب أبناء الأمراء والأثرياء  
والطبقات العليا من المستورزين والحكام ، على إرسال أبنائهم وبناتهم إلى  
هذه المدارس التي كانت تعد تلاميذها لأسمى المناصب . وأقبل عليها أبناء  
الطبقة المتوسطة تقليداً لهؤلاء الأثرياء في بعض الأحيان ، وإعجاباً بنظامها  
المحكم الدقيق ، وبراعة تلاميذها في اللغات الأجنبية التي تعد صاحبها لكثير

## من الأعمال المُرَبَّجة في أحيان أخرى (١)

وكان السلطان عبد الحميد هو المقصود بكثير مما كُتِبَ عن الدعوة إلى الحرية والمناداة بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية . فالذين يتكلمون عن الاستبداد وتقييده بالنظام النيابي كانوا يقصدون استبداد السلطان عبد الحميد . والذين ينادون بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية كانوا ينظرون إلى استخدام السلطان عبد الحميد سلطته الدينية ، بوصفه خليفة للمسلمين ، في جمع السلطة في يده ومحاربة أعدائه . وكان العرب منهم يطالبون بأن يكون عبد الحميد سلطاناً ، وبأن تكون الخلافة أو الولاية الدينية على شئون المسلمين للعرب الذين هم أقدر الناس على فهم الدين . أما الترك فكان أكثرهم من المتأثرين بالفكر الإلحادي الذي كان يحتاج أوربا باسم ( التحرر Liberalism ) وبكتاب الثورة الفرنسية ومفكرها على وجه الخصوص . وكان كثير منهم واقعاً تحت سيطرة الصهيونية العالمية .

وكان كل ما كتب من هذا اللون يطبع في مصر ، لتعذر نشره في أي قطر من الأقطار العثمانية . وكانت كثرة هذه الكتب تصدر عن الشام ، ولكنها كانت تُطبع في مصر ، وتقرأ في مصر ، ولا تكاد تصل إلى الأقطار العثمانية إلا بطريق التهريب غير المشروع .

ومن هذه الكتب التي طبعها الشاميون في مصر كتاب ( أمّ القُرَى ) للكواكبي (٢) . وقد عالج فيه أسباب ضعف الأمم الإسلامية وتخلفها . ودعا في آخره إلى فصل الخلافة عن السلطنة ، مقترحاً جعل الخلافة في العرب والسلطنة في الترك ، ومحاولاً التدليل على أن الترك يقدمون السياسة على الدين ، وأن احترامهم للشعائر الدينية ليس إلا من قبيل التظاهر والمجاملة لكسب ولاء

١ - راجع مشروع اللائحة التعليمية التي كتبها محمد عبده في بيروت سنة ١٣٠٤ هـ ( ١٨٨٩ م ) في تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٥٠٥ - ٥٢٢

٢ - طبع في مصر سنة ١٨٩٩ ومؤلفه هو مؤلف « طبائع الاستبداد » الذي أشرنا إلى ترجمته في هامش ص ٢٦٦

رعاياهم من المسلمين (ص ١٦٣). وهو يسوق في هذا السبيل جملة من الوقائع التاريخية ، ليثبت أن سلاطين آل عثمان كانوا يضحون بالدين في سبيل إدراك كسب سياسي يزيد من نفوذهم ويؤيد ملكهم . (ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧١) فيزعم أن السلطان محمد الفاتح قد اتفق سراً مع فيرديناند وإيزابيلا على تمكينهما من إزالة مُلْك بني الأحمر ، آخِر الدول العربية في الأندلس، ورضي بما جرى على خمسة ملايين من المسلمين من التقتيل والإكراه على التنصر ، فشغل أساطيل إفريقيا عن نجدة المسلمين ، وذلك في مقابل ما قامت له به من تخذلان للإمبراطورية الشرقية عند مهاجمته مقدونيا ثم القسطنطينية (١) . ثم يقول : إنه بينما كان الأسبانيون يحرقون بقية العرب في الأندلس ، كان السلطان سليم يستأصل آل عباس بعد أن غدر بهم ، مجاوزاً في ذلك كل حد ، حتى قتل كل حبل من النساء . ويقول كذلك : إن السلطان عبد المجيد رأى أن من مؤيدات إدارة ملكه أن يبيح الربا والخمر وأن يبطل الحدود . ويزعم أن الترك هم الذين أعانوا الروس على التتار المسلمين ، وأعانوا هولندا على جأوة والهند (ص ١٦٥) ، وتركوا المسلمين أربعة قرون ولا خليفة ، وتركوا الدين تعبت به الأهواء ولا مرجع ، وتركوا المسلمين صماً بكماً عمياً ولا مرشد (ص ١٧١) . ويقول المؤلف إن لقب الخلافة إنما طرأ على العثمانيين في زمن متأخر ، حين كان بعض وزراء السلطان محمود مخاطبونه بهذا اللقب تفنناً في الإجلال وغلواً في التعظيم ، ثم توسع الناس في ذلك من بعد (ص ١٦٧) .

وقد عدد المؤلف في كتابه هذا مزايا العرب التي ترشحهم للخلافة

---

١- المعروف أن محمد الفاتح استولى على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م. وأن فرديناند وإيزابيلا لم يعتليا عرش إسبانيا إلا سنة ١٤٧٩ م . وقد توفي محمد الفاتح سنة ١٤٨١م ومملكة غرناطة الإسلامية لا تزال قائمة . ولم تسقط في يد فرديناند وإيزابيلا إلا سنة ١٤٩٢ . ولم يتعرض مسلمو الأندلس للتقتيل والتنصير إلا بعد ذلك ببضعة أعوام . وهذا يصور أن الدعاوى التي جاءت في هذا الكتاب وأمثاله كانت تقصد إلى التشجيع والإثارة ، ولا تقوم على التحقيق العلمي الدقيق النزيه .

المسلمين . فهم مشرق النور الإسلامي ، فيهم الكعبة والمسجد النبوي والروضة المطهرة . وبلادهم متوسطة في موقعها الجغرافي بين المسلمين . وهي أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسيةً وأدياناً ومذاهب . وهي أفضل أرض لأن تكون دياراً أحراراً ، لبعدها عن الطامعين والمزاحمين . وأمرأؤهم يجمعون بين شرف الآباء وشرف الأمهات ، لبعدها عن اختلاط الأنساب بالإماء من الأجنبيةات ... إلى آخر ما يعدد المؤلف من مثل هذه الصفات (ص ١٥٤-١٥٨) .

ودعا المؤلف آخر الأمر إلى نقل خلافة المسلمين للعرب ، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لتجديد حياة العثمانيين السياسية (ص ١٦٩-١٧١) . ورسم اختصاصات هذا الخليفة ، فحصرها في شئون السياسة العامة الدينية . فليس من حقه أن يتدخل في شيء من الشئون السياسية والإدارية في السلطنات والإمارات ، ولكنه يصدق على توليات السلاطين والأمراء احتراماً للشرع . ويذكر اسمه في الخطبة قبل أسماء السلاطين ، ولا يُذكر في المسكوكات . وهو يتولى بعد ذلك رئاسة هيئة شورى إسلامية ، تنعقد مدة شهر في كل سنة ، قبيل موسم الحج في مكة .

وبين المؤلف طريقة اختيار الخليفة ، فيقول : إنه يختار بطريق الانتخاب ، ويتجدد انتخابه كل ثلاث سنوات . ويستحسن أن يكون هذا الخليفة قرشياً (ص ١٦٨-١٧٠) .

ولكن هذه الآراء لم تخل من إشارات مريبة إلى موالات الدول الأوروبية المستعمرة ، مثل ما جاء في تحديد وظائف الشورى العامة التي لا تخرج عن تمحيص أمهات المسائل الدينية ، حين ضرب أمثلة لهذه المسائل فقال فيما قال : « وكفتح أبواب حُسن الطاعة للحكومات العادلة ، والاستفادة من إرشاداتها ، وإن كانت غير مسلمة ، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب » (ص ١٦٩) ، ومثل قوله : « والغالب أن الدول المسيحية التي لها رعاياها من المسلمين أو المجاورة للمسلمين تتحذر من أن يجر جمع

الكلمة الدينية إلى رابطة سياسية تولد حروباً دينية . فتعتمد هذه الدول إلى عمل الدسائس والوسائل لمنع حصول هذا الارتباط أساساً . فما هو التدبير الذي يقتضي اتخاذه أمام تحذر الدول ؟ » (ص ١٧٢) . وردّ على ذلك بكلام طويل ، في أن المسلمين المتنورين أدنى إلى المسالمة ، وأن العرب منهم أقرب من غيرهم للألفة وللثبات على العهد ، وأن الجهاد في سبيل الله ليس محصوراً في مجرد محاربة غير المسلمين . فكل عمل شاق نافع للدين والدنيا ، حتى الكسب لأجل العيال ، يسمى جهاداً . وقال فيما أورد من كلام لبعث الطمأنينة في نفوس الدول الأوروبية : « ولَدَى رجال السياسة دليل مهم آخر على أن أصل الإسلام لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم ، بل يستلزم الألفة . وذلك بأن العرب أينما حلوا من البلاد جذبوا أهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم . كما أنهم لم ينفروا من الأمم التي حلت بلادهم وحاكمتهم ، فلم يهاجروا منها ، كعدن وتونس ومصر ، بخلاف الأتراك . بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله ، لأنهم يذعنون بكلمة ربهم تعالى شأنه (وتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) . فإذا علم السياسيون هذه الحقائق وتوابعها لا يتحذرون من الخلافة العربية ، بل يرون من صوالحهم الخصوصية وصوالح النصرانية وصوالح الإنسانية أن يؤيدوا قيام الخلافة العربية بصورة محدودة الصورة ، مربوطة بالشورى ، على النسق الذي قرأته عليك » (ص ١٧٤) .

وكلام الكواكبي هنا متأثر بما كان يذيعه ساسة الدول الاستعمارية عن الجامعة الإسلامية ، من تخيل الخطر الذي يهدد الغربيين في اجتماع كلمة المسلمين وارتباطهم برابطة الإسلام ، الذي يدعو إلى مجاهدة غير المسلمين . والذي يعتبر هذا الجهاد ركناً من أهم أركان الدين .

على أن الناظر في كلام الكواكبي يجده متأثراً بفكرة البابا الذي اتخذ مقره في روما ، مهد المسيحية الأولى في أوروبا ، والذي يرأس المجتمع الديني ، ويتوج الملوك رعايةً لسلطان الدين . كما أن الناظر في كلامه يريه ما فيه

من تودد إلى الدول المستعمرة ، ومن تهوين لوقوع الأمم الإسلامية تحت حكمهم ، وإسقاط فريضة الجهاد بعد أن فسرّها تفسيراً غريباً . كما تَربُّيه الصلة الواضحة بين كلامه هذا وبين كلام مستر بِلْكنْت في كتابه ( مستقبل الإسلام ) الذي دعا فيه إلى نقل الخلافة للعرب<sup>(١)</sup> ، وبينه وبين ما تَكشفَتْ عنه الأيام من حوادث الثورة العربية بتدبير الإنكليز سنة ١٩١٦ . ومن هذه الكتب التي طبعها الشّاميون في مصر كتاب لسليمان البستاني سماه ( ذكرى وعبرة - الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده )<sup>(٢)</sup> طبعه سنة ١٩٠٨ ، وصور في شطره الأول فساد الحكم العثماني قبل صدور الدستور الذي أكرهه السلطان عبد الحميد على إصداره في يوليو سنة ١٩٠٨ . وصور في الشطر الأخير بعض الآمال التي يعلّقها اللبنانيون على العهد الجديد ، الذي وضع - في نظره - حداً للظلم والفوضى والإرهاب .

يقول البستاني في تصوير فساد الحياة الاجتماعية :

« ولكن هذا الجسم<sup>(٣)</sup> على قوته الكامنة ، وإن شئت فقل : على ضعفه الظاهر ، لم يقو على تحمل أذى الحكومة الغابرة ، بما انتابته من ضروب الظلم ، في عصر ليس كالعصور السالفة ، يساق الناس فيه سوقاً ، ويتخذ فيه من دون الله أرباب ظالمون . فالأوية الحكومات الدستورية قد انتشرت من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق ، وكواكب الحرية قد سطعت حولنا واكتفتنا من الجهات الأربع . هذا ، وأرباب الأمر فينا يودون بقاءنا في ظلمة ملهمة . » ثم يقول « فمعظم الشكوى إذن ليس من الاستبداد بمعنى الحكم المطلق ، وإن كانت دولة هذا الحكم قد دالت . وإنما هو من ذلك الاستبداد بمعنى الحكم الجائر الذي أباح الموبقات واستباح المحرمات . استبداد " حَكَمَ "

١ - راجع ص ٢٤، ٢٥ من هذا الكتاب ، حيث يتهم مصطفى كامل بمشروع الخلافة العربية في كتابه ( المسئلة الشرقية ) .

٢ - رُشّيه به كتاب « ما هنالك » الذي أصدرته مطبعة المقطم سنة ١٨٩٦ ولم تصرّح باسم كاتبه . والمعروف الشائع أنه هو إبراهيم المويلحي .

٣ - يقصد جسم الدولة العثمانية .

الأندال برقاب الرجال ، فنكّس الرءوس وذلّل النفوس . استبداد لا مرشد له إلا التعت عن هوىّ تميلُ به النفس إلى حيث لا تدري ، ولا شرع له ولا وازع ، يحلل اليوم ما يحرمه غداً ... الخ ص ١٨-١٩ .

ثم يقدم المؤلف صوراً مظلمة من تحكم الاستبداد وتغلغله في شتى نواحي الحياة ، حتى بات الناس مراقبين في كل حركاتهم . يحصي عليهم الجواسيس أنفاسهم ، ولا يأمن فيه أحدهم أن يفاجئه طارق في دياجي الظلام فيختطفه من بين ذويه ليُزج به في السجون ، أو يُقذف به منفياً إلى أقصى الأرض ، أو يُلقي به في مياه البسفور ، لمجرد شبهة لا تقوم عليها بينة . يقول :

« وهذه القيود والأغلال في أعماق السجون تكاد تشتبك غيظاً لكثرة ما أثقلتْها المعاصمُ والأقدام . وهذه بنغازي وبعض المدن النائية في أطراف السلطنة تضج متحبة لما ترى من شقاء المبعدين . بل هذا البوسفور يوشك أن يفور تلهفاً على تلك الجثث ، فيَقذف بها إلى ثغريه خشية أن تبيت دفينة في بطون الحيتان . - ص ٢٥ » (١) .

ويصور ما أمسى فيه رجال الدولة من حذر الوشاية فيقول :

« كانوا سجينين في بيوتهم ، تُوجِسُ منهم الخيفة ، إذا تجاوزوا الأبواب . وعليهم العيون مبثوثة في المنازل والطرق ، لا يعلمون أهم واقفون لهم في الطريق ، أم قاعدون بين جلسائهم وندمائهم في بيوتهم ، أم جاثمون بين خدمهم في غرف نومهم ومطابخهم . لا يجسر الوزير أن يزور وزيراً ولو كان حبيباً له قبل الوزارة . يمعن الفكرة طويلاً قبل أن يفوه بكلمة ، خوف أن تؤوّل أو تنقل . تأخذه الهواجس فلا يعلم مصيره مساء يومه ... ولهذا كنت ترى معظم هؤلاء الأمراء الأرقاء على تحفز واستعداد ، حتى إذا خشوا الغدر بهم تناولوا حقيبتهم المعدة لمثل هذا اليوم . وطلبوا ملجأً يتقون به

١ - وراجع كذلك مقالا لولي الدين يكن يصور فيه إلقاء أحد الضحايا في مياه البسفور ، وكان قد نشره في صحيفة المقطم بعنوان « خليج البسفور في إحدى ليالي الشتاء » (الصحائف السود ٧٢ - ٧٦)



شرّ السعایات - ص ٦٣ .

ويعصور هذه الأداة المخيفة التي كانت تبعث الرعب في قلوب الناس كبيرهم والصغير ، وهي التي يطلق عليها (الحِفيّة) فيقول :

« أما الحفية عندنا فلم تكن على شيء مما تقدم ، بل قامت على نظام محكم لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم . أقيمت لها دائرة منظمة في المابين ، ودعي رئيسها بأسماء لا يدل منها شيء على مسماها ، كقولهم : مدير سياسة المابين *directeur de la politique du palais imperial* ، أو مدير السياسة الخارجية . ولم يكن يباح لأحد أن يدعوه باسم رئيس الحفية ... وكان لتلك الدائرة فروع متشعبة داخل البلاد وخارجها تشعب العروق في الجسم ، إذ كان عمالها مبثوثين في كل دوائر الحكومة ، من الباب العالي ، إلى النظارات المنفصلة عنه ، إلى كل فرع من فروعها . وهناك شعبة منها لقراءة الكتب والجرائد وترجمة ما كان منها باللغات الأجنبية . وهناك أيضاً عمال مقيمون خاصة لتناول زبدة الأخبار وتقديمها إلى المراجع العليا . وكم كانت تلك المراجع تحذف وتزيد وتعُدّل على هواها ، أو تستنبط من تخيلاتها ما لم يكن له أثر في تلك التقارير ، فتعرضه حقيقة ثابتة على المرجع الأعظم . ص ٨٤-٨٥ . »

ويعصور إسرائف عبد الحميد في التضييق على الصحافة فيقول :

« فكم من جريدة ألغيت أو أوقفت لزمن محدود أو غير محدود لخبر روته عن جرائد أوروبا ينبيء بمقتل وزير في الصين أو أمير في إفريقيا ، أو اختراع ذكرته لآلة تطير في الهواء أو غواصة تسير تحت الماء . بل كم من مرة فاجأ الجريدة أمرٌ بتعطيلها ، وظل صاحبها يبحث أشهراً فلا يعلم لذلك سبباً غير (الإيجاب) . بل كم من مرة انقضت الصواعق على رأس الصحافي لجهله أن هذه الكلمة أو تلك قد انتزعت بحكم الاستبداد من معجم الألفاظ الكتابية ، كالقانون الأساسي ، والخلع وما اشتق منه ، والجمهورية ،

والديناميت ، والثورة ، والإنصاف ، والحرية ، أو أن عبارة أو جملة وجب حذفها من أبواب الإنشاء كقولك : العدل أساس الملك ، والظلم مرتعه وخيم ، والحرية منتهى غايات الأمم . بل الويل كل الويل لمن ذكر حرفاً عرف به علم مشهور كعبد العزيز ومراد ورشاد . ص ٢٢-٢٨ .

ويعصور القيود المفروضة على حرية التأليف فيقول إن هذه القيود لم تكن تحددها إلا (الإرادات السنية) . ولم يكن يباح نشر كتاب من الكتب إلا بعد أن يعرض على (مجلس التفتيش والمعاينة) في الأستانة نفسها ، فيقرأ حرفاً حرفاً ويتعرض خلال ذلك للتغيير والتبديل ، والحذف والإضافة ، ثم تُختتم كل صفحة من صفحاته إن أسعد صاحبه الحظُ بالموافقة على نشره بعد طول الانتظار . والويل له إن وشى به واش بأنه غير حرفاً أثناء الطبع . هذا إلى أن التأليف لم يكن مباحاً إلا في التافه من الأغراض التي لا تنغي شيئاً في تثقيف العقول أو إعلاء الهمم . وقد كان يبدو للرقابة في بعض الأحيان أن تصدر كتاباً وتحظر النظر فيه بعد أن يُقرأ ويتداول بين أيدي الناس أزماناً ، لكلمة أو لعبارة تنبّهت الرقابة إليها بعد حين . وقد يُزج بصاحب الكتاب أو بئعه إلى ظلمات السجن . وكثيراً ما كانت تتعرض المكاتب العامة والخاصة للتفتيش المفاجيء . وكثيراً ما كان يتذرع الوشاة بصفحة من كتاب مؤلف منذ قرون لأخذ صاحبه غيلة ، حتى ضاق تجار الكتب وهواؤها بها ، وأصبحوا يفرّون من اقتنائها (ص ٤٠-٤٦) .

ولم تسلم الرسائل بعد ذلك من المراقبة « حتى كان الصديق إذا بعث برسالة سلام وتودد إلى صديقه بحسب أن عيناً أثيمة تنظر إلى ما كتبه وتحلله وتشرحه قبل أن يقع تحت نظر صاحبه ، فيودع كتابه من العبارات ما يردّ أشبر الوشاة وشبهات المتعنتين - ص ٥٠ » « وكانت لهم مهارة مذكورة بفتح التحارير وفض الأختام ولو كانت بالشمع ، حتى يخيل لك أنهم لو استفادوا من البخار والكهرباء وسائر مخترعات العصر ما استفادوه من الإحاطة بجميع وسائل فض الأختام لرقوا بالبلاد درجات - ص ٥١ » لذلك كان الناس

يفضلون الراسل عن طريق مكاتب البريد الأوروبية المنبثة في سائر الأقطار العثمانية . وقد كان كل مكتب من هذه المكاتب يتمتع بحماية الدولة التي يتبعها ، مما يمنع يد الرقابة أن تصل إليه . وقد كانت هذه المكاتب تخدم أنصار الفساد وأعداءه على السواء . فقد كان الثوار والمتآمرون على عبد الحميد يتبادلون الأخبار عن طريقها . وكان رجال عبد الحميد يهربون ما يجمعون من المال الحرام عن طريقها كذلك . (ص ٤٧ - ٥٤) .

ثم يروي المؤلف أن الجماعات والأندية كانت خاضعة لمثل هذه الرقابة . فلم يكن يُسمح بتأليفها ، إلا ما كان منها خيراً محضاً ، حيث لا بحث ولا خطابة . ومن طرائف ما يروي المؤلف في هذا الباب عن (جمعية المقاصد الخيرية) التي ألفها وجهاء المسلمين في بيروت لإسعاف الفقراء وتربية الأيتام وإنشاء المدارس أن الوشاة وشوا بتلك الجماعة ، فقالوا : تلك جمعية ينم اسمها عن مرمى خفي . ولا حاجة بالجمعيات الخيرية أن يكون لها (مقاصد) . فلا بد من أن تكون تلك المقاصد لأمرٍ آخر . فاقضوا عليها قبل أن تقضي عليكم . (ص ٥٨) .

وبمثل ذلك تناول المؤلف فساد نظم التعليم الذي حرّمته الرقابة من كل علم نافع ، وضيق فيه على العقول « حتى حار المعلمون في أمرهم . وكانوا وهم يلقون حتى ولو مسألة نحوية أو حسابية صرفاً يخشون أن تُوجس منهم إشارة إلى عدد يوافق أعداد سني الظلم ، أو فتحة أو كسرة تشير إلى فتح الأعين وكسر القيود - ص ٣٦ » . وقد أدى ذلك إلى أن يلجأ الناس إلى المدارس الأجنبية « التي كانت متمتعة بحرية حرّمت على سواها . ولقد تهافت عليها الطلاب من كل الملل والنحل تهافت الظمآن على الماء الزلال . وبثّت نور العرفان بين جمهور عظيم من فتياننا . »

هذه صورة مما آل إليه فساد الحكم كما عرضها أحد الشاميين . ومهما

يكن من إنصافه وحياده فيما قال ، أو مبالغته وتحامله ، فذلك ما شاع وما تناقله الناس ، وأعان الثوار من الأتراك والأوربيون الذين كانوا يبيتون النية على اقتسام الإمبراطورية العثمانية على نشره والمبالغة في تصويره والتهويل من شأنه . ولكن أثر ذلك كان محدوداً في الشعر ، وخاصة في مصر ، لما قدمنا في الفصل الأول من أسباب .

فمن ذلك قول نسيم من قصيدة رفعها إلى السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٥ ، ينصحه فيها بالاستجابة لدعوة المصلحين <sup>(١)</sup> .

وليتَ بلاداً حلقَ الجورُ فوقها وحطَ عليها كالعُقاب فخيماً  
تناوئَ فيها الحادثاتُ أديبها وتنبد منها الحاذق المتعلما  
إذا لم تداركها برأي وحكمة تبيت لفتُّاح الممالك مغنماً  
بحيث يكون الملكُ فرعاً مشدباً وحيث يصير التاج نهباً مقسماً  
هناك يُبِيد الله شعبك مثلما أبادت صروف الدهر طسماً وجرهما <sup>(٢)</sup>  
فهل لك أن تُجري العدالة بينهم فيلهج بالشكران من كان مسلماً  
دع العلم يفشو في البلاد لعلَّه يكون لإدراك السعادة سلماً  
وأقص الجواسيس الذين تألبوا على ضفة البسفور جيشاً عرمرما  
ويقول في قصيدة أخرى : <sup>(٣)</sup>

إلى الله يرفع هذا الأنينُ ليضرب فوق يسد الظالمين  
بلاد غدت ملجأً للطغام وكهفاً تموج بالفاجرين  
فيا عين نوحى على حالة ستدمي المآقي بدمع سخين  
ويا قلبُ صبراً لعل الزمان يُنيخ على العصبة الكاذبين  
ويا سيدي أجب الشعب عاماً يلب نداءك طول السنين

١ - الديوان ١ : ٢٩

٢ - طسم وجرهم قبيلتان من قبائل العرب البائدة .

٣ - الديوان ١ : ١٢٤ تحت عنوان « أجب الشعب يا أمير المؤمنين »

فتلك الجواسيسُ أودت بنا وهم يلعبون بدُنْيَا ودين  
أتصغي إلى الزور من قولهم وما هو منهم بقول مُبين  
وتنفي العباد بلا زَلَّة وما هم من الفئة الآثمين  
فراقبْ إلهك فيما بقي وإلا عفا كله بعد حين  
ولا تَرَجُ تكدير ملك صفا بظلم كما كدر الماء طين  
فما أيد الله من مالك بغير العدالة في العالمين  
ومن أين يُعرفُ سلطان قوم إذا ما ذنى قومه أجمعين ؟

ويقول حافظ ، من قصيدة بعث بها إلى داود عمّون الشاعر اللبناني ،  
يدعوه إلى الهجرة لمصر (١) :

وخيلٌ أقام بأرض الشام فبانت تُدل على جارها  
وأضحى تتيه برب القريض كتيه البوّادي بأشعارها  
وللتَّيلُ أولى بذاك الدلال ومصر أحق ببشارها  
فشمّرٌ وعجلٌ إليها المآب وخلّ الشام لأقدارها  
فكيف لعمري أطقّ المقام بأرض تضيق بأحرارها ؟  
وأنت المشمّر إثر المظال سم تسعى إلى محو آثارها

ويقول على لسان بعض المتصوفة في محبوب نافر ، معرضاً بالشيخ أبي  
الهدى الصيادي ، الذي كان يتمتع بنفوذ عظيم في بلاط عبد الحميد ، مشيراً  
إلى ما شاع من أمر غلامه (شكيب) ، وصلته المريبة به (٢) .

أخريقُ الدُفِّ لو رأيت شكيباً وأفضُّ الأذكارَ حتى يغيبا  
هو ذِكرِي وقبِلتي وإمامي وطبيبي إذا دعوتُ الطيبا

(١) الديوان ١ : ١٦٨

(٢) الديوان ١ : ١٦٠ ويراجع في قصة غلام أبي الهدى الصيادي وهربه إلى مصر سنة  
١٩٠١ واستغلال الحديوي عباس له في التشجيع بأبي الهدى الصيادي ، وما جرى من مفاوضة  
لإعادته للأستانة : مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٤٨ - ٣٥٣

لو تراني وقد تعمّدت قتلي      بالتنائي رأيت شيخاً حريياً  
 كان لا ينحني لغيرك إجلالاً      لا ولا يشتهي سواك حبيباً  
 لا تعيبن يا شكيب ديبى      (إنما الشيخ من يدب ديباً)  
 كم شربت المدام في حضرة الشىء      يخ جهاراً وكم سقيت الحليباً ؟  
 فسلوا سبحتي ، فهل كان تسبىء      حي فيها إلا شكيباً شكيباً ؟

ويقول ولي الدين يکن، مشيراً إلى إلقاء أحد الضحايا في مياه البسفور بعد اختطافه من بن أهله في ظلام الليل (١).

في ليلة ليس بها كوكب      كأنما مشرقها مغرب  
 يمسي سواداً كل ما بينها      ففوقها وتحتها غيبها  
 لا يدرك الفكر بها مطلباً      فكل ما يطلبه يهرب  
 جاءوا بمظلوم إلى ظالم      قالوا له هذا هو المذنب  
 بكى وفي الدار بكوا مثله      فكل من في داره ينحّب  
 وقد رأينا حوله صبية      تندب حين أمهم تندب  
 قالوا اجعلوه مثل أترابه      من كان من مذهبه يذهب

.....  
 .....  
 وأقبل الصبح على أيسم      وصبيّة ليس لديهم أب  
 يا بحر لو تنطق أخبرتنا      ما قال من غيب إذ غيبوا

على أن مثل هذا الشعر الساخط كان أكثر انتشاراً في الشام . وإن كان أكثر أصحابه يكتمونونه فيبدأوا شفاهاً ، أو ينشرونه بأسماء مستعارة . وكان أكثر ما يذاع منه ينشر في مصر لما قدمناه في الفصل السابق من أسباب . فمن ذلك قصيدة للشاعر سليم عنحوري يروي فيها قصة لص دفعته الحاجة إلى السرقة ، فزج به في السجن . ثم ذهبت زوجته تلتمس نجاته بالرشوة ،

١ - الديوان ص ٦ ، الصحائف السود ص ٧٢ .

فلم يُرضِ المرتشين من الحكام إلا أن يجمعوا إلى الرشوة مساومتها على  
غيرِ ضيها<sup>(١)</sup>.

يقول في تصوير فقر اللص الذي دفعه إلى السرقة :

صَبِيَّةٌ بَعْضُهُمْ يَسْبِقُ الْبَعْدَ	ضَـنْ هَذَا بِفَضْلِ سُوءِ الْغَدَاءِ
وَبَنَاتٌ مِثْلُ الْمَلَائِكِ حَسَنًا	عَارِيَاتٌ يَنْدِبْنَ حَالَ الشَّقَاءِ
حَوْلَ أُمٍّ تَقَرَّحَتْ مَقْلَتَاهَا	مِنْ دَوَاهِي الزَّمَانِ وَالْأَرْزَاءِ
تَشْتَكِي الْبَرْدَ لَا كِسَاءَ يَاقِيهَا	لِذَعَةِ الْقَرِّ لَا وَقُودَ اصْطِلَاءِ
كَمْ نَهَارٍ ، كَمْ لَيْلَةٍ قَدْ قَضَتْهَا	بَيْنَ نَوُوحٍ وَحَسْرَةٍ وَبَكَاءِ
ظِلْمَاتٌ صَوَاعِقُ وَبُرُوقُ	وَرِيَّاحٌ تَهْبُ فَصْلَ الشَّوَاءِ
لَا بَسَاطٌ وَلَا فَرَّاشٌ وَثِيرُ	لَا سَرَّاجٌ يُنِيلُ بَعْضَ الضِيَاءِ
شُرُفَاتٌ بَلَا سُدُولٍ وَسُقْفُ	دَامَ بِالْوَكْفِ مُمْطَرًا سِيلَ مَاءِ

ثم يقول في سعي زوجته لإنقاذه :

زَوْجَةُ الْلِصِّ بَادَرَتْ بَعْدَ شَهْرٍ	نَحْوَ مَغْنَى رَئِيسِ رَهْطِ الْقَضَاءِ
حَالَ دُونَ الْإِقْدَامِ حُجَّابُ بَابٍ	نَفَحَتْهُمْ بَلِيرَةٌ صَفَرَاءِ
أَدْخَلُوهَا مَقْصُورَةً ذَاتَ عَرْشٍ	فَوْقَهُ مَآكِرُ كَثِيرِ الدَّهَاءِ
قَبِلَتْ هُدْبَ ثَوْبِهِ ثُمَّ خَرَّتْ	فَرَمَاهَا بِنَظَرَةِ الْكِبَرِيَاءِ
سَأَلَتْهُ فِكَائِكَ زَوْجٍ أَثِيمٍ	رَحْمَةً بِالْبَنَاتِ وَالْأَبْنَاءِ
وَحُبَّتِهِ بَعْضَ الْمَنَاتِ نَقُودًا	فَاحْتَوَاهَا بِغِلْظَةِ وَجْفَاءِ
قَالَ هَلَا أَقْنَعْتَ بَعْضَ رِفَاقِي	فَقِيَّوَامُ الرِّعْوَوسِ بِالْأَعْضَاءِ
خَرَجْتَ تَذْرِفُ الدَّمُوعَ غَزَارًا	نَحْوَ عَضْوٍ يَعِزُّ بِالْفَحْشَاءِ
رَامَ مِنْهَا لَكِي تَنَالَ رِضَاهُ	مَا إِلَيْهِ نَشِيرُ بِالْإِيمَاءِ

ويختم قصيدته مقارنةً بين اللص الصغير السجين والصوص الكبار

الطلاق ، فيقول :

لزم السجن زوجها ورجال الد  
واللصوص الكبار صاروا قضاة  
سلبوا المال رشوة واستباحوا  
وإذا قيل : من لنيل المعالي ؟  
وإذا عدّ معشر الفضل يوماً  
أبهذا ومثل هذا صلاح ؟  
تبغني فازوا بسودد وعلاء  
واللصوص الصغار أهل الشقاء  
عرض جهراً وهم من العظماء  
قيل : هذا وذاك ، دون امتراء  
حسبهم من أفضل الأذكاء  
لا ، ورب الأنبياء والأنبياء (١)

هذه صور مما كان يذيعه فريق من الكتاب والشعراء عن اضطراب الحكم  
العثماني وفساده ، كان لها أثر ملحوظ في مطالبة الناس بتقييد سلطة الحكام ،  
وبفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية .

أما الاتجاه الثالث الذي تأثر أصحابه بالحضارة الأوربية وهو المطالبة بما  
سموه ( تحرير المرأة ) ، والدعوة الى تمكينها من المشاركة في الوظائف والأعمال  
العامّة ، فقد كان يتصل اتصالاً وثيقاً بالاتجاهين السابقين ، لأنه يعتمد أولاً على  
أن الحرية الشخصية قد أصبحت في العصر الحديث حقاً لكل إنسان — ذكراً  
كان أو أنثى — ثم هو يعتمد على تخليص تفكيرنا الاجتماعي من سلطان رجال  
الدين ، والزعم بأنهم يصدرّون فيما يُحِلّون وما يحرمون عن اعتبار التقاليد  
والأوهام التي ورثناها عن أسلافنا جزءاً من الدين .

وقد كان أهم ما ظهر في هذا الموضوع كتابين لقاسم أمين ، الذي اقترن  
اسمه من بعد بلقب ( محرر المرأة ) ، وهما : ( تحرير المرأة ) و ( المرأة  
الحديثة ) . وقد طبع الكتاب الأول سنة ١٨٩٩ ، وطبع الثاني سنة ١٩٠٠ .  
وأثار ظهور الكتابين ضجة شديدة في ذلك الوقت ، وظلا موضع أخذ ورد  
في الصحف طوال نصف قرن .

١ - تراجع أمثلة أخرى لمثل هذا الشعر في « شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام » ص ١١ - ١٥



أما كتاب ( تحرير المرأة ) فقد انصرف جهد المؤلف فيه الى التدليل على ما زعمه من أن حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الإسلام ، وأن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده . بينما غلب المنهج الغربي الحديث على كتابه الثاني ( المرأة الجديدة ) ، فأقام بحثه فيه على الإحصاءات التي تدعمها الأرقام والوقائع ، وتؤيدها آراء لبعض كتاب الغرب ومفكره .

يرى قاسم أمين في كتاب ( تحرير المرأة ) أن « الشريعة الإسلامية إنما هي كليات وحدود عامة . ولو كانت تعرضت إلى تقرير جزئيات الأحكام لما حق لها أن تكون شرعاً عاماً يمكن أن يجد في كل زمان وكل أمة ما يوافق مصالحها . أما الأحكام المبنية على ما يجري من العادات والمعاملات ، فهي قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان . وكل ما تطلبه الشريعة فيها هو أن لا يُخل هذا التغيير بأصل من أصولها العامة (ص ١٦٩) . ولكننا ظلمنا الإسلام وعرضناه لأن ينسب إليه الغربيون تأخر المرأة الشرقية . ولو كان لدين من الأديان سلطة على العادات لكانت المسلمة في مقدمة نساء العالم ، لأن الإسلام سبق كل شريعة سواه في تقرير مساواة المرأة بالرجل ( ص ١١ ) . وهو يتناول في كتابه أربع مسائل وهي : الحجاب ، واشتغال المرأة بالشئون العامة ، وتعدد الزوجات . والطلاق . ويذهب في كل مسألة من هذه المسائل إلى ما يطابق مذهب الغربيين ، زاعماً أن ذلك هو مذهب الإسلام .

أما الحجاب ، فهو يعتبره أصلاً من أصول الأدب يلزم التمسك به . ولكنه يطالب بأن يكون منطبقاً على الشريعة الإسلامية ( ص ٥٥ ) . ثم يقول : إن الشريعة ليس فيها نص يوجب الحجاب على الطريقة المعهودة . وإنما هي في زعمه عادة عرضت لهم من مخالطة بعض الأمم ، فاستحسنوها وأخذوا بها ، وألبسوها لباس الدين . كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين ، والدين منها براء (ص ٥٩) . ويورد قوله تعالى : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ

وَمَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ. ذَلِكَ أَزْكَى لَّهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ  
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا  
مَا ظَهَرَ مِنْهَا. وَلِيَضْرِبَنَّ يَخْمَرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ  
إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ، أَوْ آبَائِهِنَّ ، أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ ، أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ ، أَوْ أَبْنَاءَ  
بُعُولَتِهِنَّ ، أَوْ إِخْوَانِهِنَّ ، أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ ، أَوْ نِسَائِهِنَّ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ، أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ  
الرِّجَالِ ، أَوْ الطِّفْلَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، وَلَا يَضْرِبْنَ  
بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ... » ثم يقول : إن الآية قد  
أباحَت أن تظهر بعض أعضاء من جسم المرأة أمام الأجنبية عنها <sup>(١)</sup> ، غير أنها  
لم تسم تلك المواضع . وقد قال العلماء إنها وكلت فهمها وتعيينها إلى ما كان  
معروفاً في العادة وقت الخطاب . واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله  
الاستثناء في الآية. ووقع الخلاف بينهم في أعضاء أخر كالذراعين والقدمين.  
ويمضي قاسم أمين في التدليل على فساد الحجاب . فيقول إن للمرأة حق التعاقد  
شريعاً فكيف يتعاقد معها الرجل دون أن يتحقق من شخصها . ويقول : إن  
الشرع قد أباح للخاطب أن ينظر إلى المرأة التي يريد أن يتزوجها ، ولكننا ضيقنا  
على أنفسنا فيما وسع الله . ويرد على الذين يتذرعون بخوف الفتنة فيقول : إن  
خوف الفتنة يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال ، وليس على النساء تقديره ولاهن  
مطالبات به. ثم يتساءل متهمكماً ( ولماذا لا يؤمر الرجال بالتبرقع خوفاً على النساء  
من الفتنة ؟ .. هل المرأة أقوى عزيمة من الرجل وأقدر على ضبط النفس ؟ ) <sup>(٢)</sup>  
ثم ينتقل قاسم أمين إلى الكلام عن الحجاب بمعنى قصر المرأة في بيتها وحظر

١ - آية « يدنين عليهن من جلابيبهن » واضحة الدلالة في إطالة الثياب حتى تستر الوجه والأطراف .  
وقوله تعالى : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » واضح في ستر شعر الرأس وستر الرقبة  
وفتحة الثوب في الصدر . فأي شيء قد بقي من أعضاء الجسم حتى يقال إن الآيات أباحت أن  
تظهر بعض أعضاء من جسم المرأة ؟ أما قوله تعالى « إلا ما ظهر منها » فواضح أن المقصود  
هو استثناء ما لا سبيل إلى ستره ، أو ما تقتضي الضرورة إظهاره . وهو لا يمكن أن يتبرقع  
اليدنين والوجه على كل حال .

٢ - رد محمد طلعت حرب على ذلك في كتابه « تربية المرأة والحجاب ص ٨٣ » بأن وظيفة الرجل

مخالطتها للرجال ، فيقول : إن الحجاب بهذا المعنى هو تشريع خاص بنساء النبي . ويستشهد على ذلك بالآيتين : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دُعيتُم فادخلوا . فإذا طعمتُم فانتشروا ، ولا مُستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق ، وإذا سألتُموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب . ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً . إن ذلكم كان عند الله عظيماً . » ( يا نساء النبي لستن كأحد من النساء . إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا . وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ... ) أما نساء المسلمين عامة فهن في زعمه منهيات عن الخلوة بالأجنبي فقط . ويستشهد على ذلك بما ينقل عن الطبري من قصة عمر بن الخطاب وقد دخل عليه ضيف فأمر له بالغداء . ودعا زوجته ( أم كلثوم ) إلى مشاركتها (١) .

أما اشتغال المرأة بالشئون العامة ، فهو يقدم فيه بعض الأمثلة التاريخية

هي خارج المنزل . أما وظيفة المرأة فهي داخله . فتكليفها بالتبرقع أقل ضرراً من تكليف من الأسفل في خلقتها - بمقتضى الحكمة الإلهية - وجوده خارج بيته . هذا إلى جانب أن الرجل والمرأة كليهما مكلفان بفض البصر ، ولكن المرأة مكلفة - بالإضافة إلى ذلك - بعدم إبداء الزينة والمحاسن وسترها .

١ - القصة التي أشار إليها قاسم أمين تدل في حقيقة الأمر على عكس ما ذهب إليه . وهي في تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ « طبعة التجارية ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩ م » . فهي تدل على أن زوجة عمر رضي الله عنه كانت تلتزم الحجاب . فهي تعتذر عند دعوتها للطعام بأنها تسمع صوت رجل . وتروي القصة كذلك أن نساء عمر قد انزعجن حين ارتفع صوته « فبجن إلى الستر » . والنصوص كثيرة جداً في شعر العرب وفي المأثور من تاريخهم ، على أن التزام الحجاب قديم في نساء العرب ، وليس طارئاً كما زعم قاسم أمين . أما أن التشريع خاص بنساء النبي صلى الله عليه وسلم فهو زعم لا دليل عليه ، تكذيبه النصوص التاريخية والفقهية . ولئن شاء المزيد من التفصيل أن يعود إلى مقالين لي عن « المجتمع المختلط » و « الجنس الثالث » ص ٨٥ - ١٣٥ من كتابي « محسونا مهددة من داخلها » ط . بيروت ١٣٦١ هـ - ١٩٧١ م .

التي تصور أن عدداً من النساء قد شاركن في مصالح المسلمين العامة في صدر الإسلام . فيشير إلى مكانة عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما من رواية الحديث ، كما يشير إلى تدخل عائشة رضي الله عنها في مسألة الخلافة العظمى . وإلى غزو أم عطية مع النبي ﷺ سبع غزوات حيث كانت تَخْلُفُ المحاربين في رحالهم وتصنع لهم الطعام وتداوي الجرحى وتقوم على المرضى . وهو يرى أن الأحوال التي فصلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة ، مثل الخلافة والإمامة والشهادة في بعض الأحوال ، إنما روعي فيها عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها في الأسرة وحصر الوظائف العامة في الرجال ، وهو تقسيم طبيعي . على أن الإسلام قد خول المرأة حقوقاً عظيمة في كل الأعمال المدنية ، ومنها أهليتها لأن تكون وصيةً على رجل .

أما عن تعدد الأزواج فهو يقول : إن الإسلام قد أنصف المرأة فيه ، ولكن الفقهاء هم الذين انصرفوا إلى مناقشة الألفاظ . ويوازن بين ما يسميه تعريف الفقهاء للزوج ، وبين وصف القرآن له . فيقول : إن الفقهاء يعرفون الزواج بأنه (عقد مملك به الرجل بضع المرأة) . والله تعالى يقول في شأنه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودةً ورحمةً) . ثم يعلق على ذلك بأن الناظر في التعريف الأول الذي فاض به علم الفقهاء - حسب تعبيره التهكمي - والتعريف الثاني الذي نزل من عند الله ( سبحانه وتعالى) ، يرى إلى أي حد وصل انحطاط المرأة في رأي الفقهاء ، وسرى منهم إلى عامة المسلمين . ويبين قاسم أمين أن الإسلام قد منح المرأة حقوقاً لا تقل عن حقوق الرجل . فالله تعالى يقول : (وهن ميثل الذي عليهن بالمعروف) \* ويقول : (وعاشروهن بالمعروف) ويقول جل شأنه تعظيماً لحقهن (وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) . والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله) . وقد كان صلوات الله عليه يخدم النساء ، حتى إنه كان يضع ركبته على الأرض لتضع زوجته عليها رجلها إذا أرادت الركوب . ثم يزعم أن نصوص القرآن في تعدد الزوجات تحتوي إباحةً وحظراً في آن

واحد . فالله تعالى يقول ( فانكحوا ما طاب لکم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملکت أیمانکم . ذلك أدنى ان لا تعولوا ) .

ويقول : ( ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم . فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة . وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ) . فالشارع سبحانه وتعالى في زعمه قد علّق وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ، ثم صرح بأن العدل غير مستطاع <sup>(١)</sup> . ولكن الفقهاء — في زعمه — هم الذين قصّروا ما أوجب الله من العدل بين النساء على النفقة وما شاكلها . وبين المؤلف أن تعدد الزوجات من العادات القديمة التي كانت مألوفة عند ظهور الإسلام ، ومنتشرة في جميع الأنحاء . وأنها تتبع حال المرأة في الهيئة الاجتماعية ، فتكون غالبية في الأمة التي تكون حال المرأة فيها منحطة ، وتقل أو تزول عندما تكون حالها راقية . ويقول إن الشعور بحب الاختصاص طبيعي في المرأة كما أنه طبيعي في الرجل . أو هو على الأقل ميل مكتسب بلغ من النفس الإنسانية بالعادة والتوراث مبلغ جميع الكمالات التي تولدت في نفوس أفراد هذا النوع عند ارتقائه من أدنى درجاته الحيوانية إلى

١ - العدل الذي صرح القرآن الكريم بأنه غير مستطاع هو العدل القلبي ، أي العدل في المحبة ، وهو ما لا يملكه الزوج ولا يستطيعه . ولذلك فهو غير مكلف به . أما العدل الذي يستطيعه والذي هو مطالب به فهو العدل في المعاملة . وآخر الآية الثانية يدل على المطلوب دلالة واضحة « فلا تميلوا كل الميل » . فالفاء للترتيب ، والذي رتبته الآية الكريمة على ما قررته من صعوبة العدل القلبي ، التي تبلغ حد الاستحالة ، هو أن لا يجمع إلى هذا الانحراف عن العدل القلبي انحرافاً عن العدل المادي ، فيما يستطيعه من العشرة والمعاملة ، فتصبح الزوجة كالمعلقة ، لا هي متزوجة فتستمتع بما يستمتع به المتزوجات ، ولا هي عزباء تعيش على أمل الزواج . ولو كان المقصود هو تحريم التعدد لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقد عدد — وصحابته وكثير من السلف الصالح — وقد كانوا متعددين — مخطئين في فهم المقصود من الآيات ، أو مخطئين لحدود الله عن عمد مع علمهم بالمقصود ، وذلك ما لا يقول به منصف ، فكيف يقوله مسلم ؟ والإسلام على كل حال لا يلزم بالتعدد ، ولكنه يترك ذلك لظروف كل بيئة وكل عصر ، ولضمير كل شخص وظروفه التي هو أعلم بها . وحسابه بعد ذلك على الله . فالثواب والعقاب لا يكون إلا مع حرية الاختيار .

ما أُعِدَّ له من الكمال الإنساني، وأن خير ما يعملُه الرجل هو انتقاء زوجة واحدة . إلا في حالات الضرورة ، كالمرض المزمن ومثل أن تكون عاقراً . أما في غير ذلك فليس تعدد الزوجات - في نظره - إلا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية .

أما الطلاق ، فبين قاسم أمين أنه كان مشروعاً عند اليهود والفرس واليونان والرومان، ولم يُمنع إلا في الديانة المسيحية بعد مضي زمن نشأتها . ثم يقول: إن الذين يريدون بالزواج أن لا يَحُلَّ عقدته إلا الموت إنما يطمحون للكمال المطلق ، ولا يراعون الطبيعة البشرية والضرورات التي تجعل الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر . وهذا هو الذي دعا الأمم المسيحية إلى الضغط على الكنيسة حتى أباحت الطلاق . ولكنه يذهب إلى أن إباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر ، وإن كانت منافعها أكثر من مضارها . ولذلك وضعت الشريعة الإسلامية للطلاق أصلاً يجب أن تُردَّ إليه جميع الفروع في أحكامه ، وهو أن الطلاق محظور في نفسه ، مباح للضرورة . ويورد قاسم أمين الأدلة على ذلك من القرآن ومن الحديث . فالله تعالى يقول: (فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوهن شيئاً ويجعل الله فيهِ خيراً كثيراً) (فإن خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ، إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا) (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناحَ عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً . والصلح خير . وأحضرت الأنفس الشح . وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) وجاء في الحديث (أبغض الحلال عند الله الطلاق) (لا تطلقوا النساء إلا لريبة . إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات .) والإمام علي رضي الله عنه يقول: (تزوجوا ولا تطلقوا، فإن الطلاق يهترئ منه العرش .) ثم يقول: إن الأصل في الطلاق الحظر ، والإباحة للحاجة إلى الخلاص . أي أنه محظور إلا لعارض يبيحه . ولكن الفقهاء - في زعمه - لم يراعوا في التفرع تطبيق هذا الأصل الجليل على طريقة واحدة متساوية ، ولم تطرد طرقهم على وتيرة واحدة في تطبيق الأحكام على الوقائع . ويورد أمثلة

من بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالطلاق ويناقشها . ثم يقول : إنه لا ينبغي أن يقع الطلاق بكلمة لمجرد التلفظ بها مهما كانت صريحة<sup>(١)</sup> . فاللفظ لا يجب الالتفات إليه في الأعمال الشرعية ، إلا من جهة كونه دليلاً على النية . وينتهي المؤلف إلى مشروع قانون للطلاق لا يتم فيه الطلاق إلا أمام القاضي ، في وثيقة رسمية بحضور شاهدين ، بعد نصح الزوج أولاً ، ثم تحكيم أهل الزوج وأهل الزوجة ثانياً ، على أن يتقدما بتقرير في حالة إخفاق مساعهما في الصلح .<sup>(٢)</sup>

ذلك عرض موجز لكتاب (تحرير المرأة) ، يتضح منه منهج المؤلف في التوفيق بين الإسلام وبين مذاهب الغربيين . وهو يعرض في خلال كلامه لبيان المضار الناشئة عن الجهل والحجاب . فالمرأة التي تباع جسدها ليست مدفوعة بالشهوة ، ولكن الذي يدفعها إلى ذلك هو الجهل والعجز عن كسب قوتها من طريق شريف . والنقص الذي نشاهده في أخلاقنا ، وما أصابنا من فتور وقلة اكتراث ، وما ابتلينا به من بلادة في الإحساس وفي تذوق الجمال ، كل ذلك إنما هو ناشيء من نقص تربيته الأولى التي تقوم عليها الأم . والتعليم وحده لا يكفي - في نظر قاسم أمين - لتكوين المرأة تكويناً سليماً يجعل منها أداة صالحة للقيام على الأولاد وعلى تنشئة الرجال ، فلا قيمة للقراءة إذا لم تؤيدها التجربة والمشاهدة . ولذلك فهو ينادي برفع الحجاب ، لأن حجاب المرأة في منزلها يحبسها في هذا العالم الضيق ، ويحول بينها وبين العالم الحي ، عالم الفكر والحركة والعمل ، ويجعلها لا ترى ولا تسمع ولا تعرف إلا ما يقع في عالمها الضيق من سفاسف الأمور . ولا يخلو الكتاب من تهكم بما يسميه (جمود رجال الدين) . وبعض

١ - التهوين من قيمة الكلمة إلى هذا الحد يوقع الناس في الفوضى المطلقة ، لأن كل العقود الاجتماعية تقوم على الكلمة .

٢ - لا شك أن في ذلك تقييداً لما أطلقه الله . ويستطيع المتدبر البصير أن يدرك ما يترتب عليه من مضار لا محل للإفاضة في ذكرها هنا . والمهم في الأمر هو أن هذه الآراء التي يحتال المؤلف لإلباسها أثواباً إسلامية من نصوص القرآن والحديث ، هي في حقيقة أمرها آراء غريبة . فتصوره للعلائق الزوجية مستمد من العادات الغربية والقوانين الكنسية .

كلامه يصيب الحقيقة في مثل قوله مشيراً إلى انصراف المشتغلين بالعلوم الإسلامية عن دراسة العلوم الحديثة : « من رأي علمائنا اليوم أن الاشتغال بشئون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شيء لا يعنيههم . وصار منتهى علمهم أن يعرفوا في إعراب البسمة ما يزيد - من غير مبالغة - على ألف وجه على الأقل . يزعمون أنهم وكلوا جميع أمورهم إلى ما يجرى به القضاء ، مع أنك تراهم أشد الناس احتيالا في طلب الرزق من غير وجهه ، وأحرصهم على حفظ ما يجمعون من الحطام ، ونيل ما يتوهمونه شرفاً ورفعة . ولذلك ضُرب المثل بتحاسدهم فيما بينهم - ص ١٠٨ . » وبعض هذا التهكم ينطوي على التجني والتحامل مثل قوله : « والذي يطلع على كتب الفقه يندهش عندما يرى اشتغالهم بتأويل الألفاظ ، والتفنن في فهم معانيها في ذواتها ، بقطع النظر عن الأشخاص . لهذا قصرُوا أبحاثهم جميعاً على الكلمات والحروف ، وامتلات الكتب بالاشتغال بفهم : طَلَّقْتُكَ ، وأنتِ طالق ، وأنتِ مطلقة ، وعَلَيَّ الطلاق ، وطلقتُ رَجُلَكَ ، أو رأسَكَ ، أو عرقَكَ وما أشبه ذلك ... على أننا نظن أن علم الشرائع يقبل أبحاثاً أخرى غير تأويل الألفاظ . والطلاق لم يخرج عن كونه عملاً شرعياً يترتب عليه ضياع حقوق جديدة . وهو في حد ذاته لا يقل عن الزواج في الأهمية ، حيث يتعلق به أعظم الحوادث المدنية ، كالنسب والميراث والنفقة والزواج . فالاستخفاف به إلى هذا الحد أمر يدهش حقيقة كل من له إلمام - ولو سطحي - بالوظيفة السامية التي تؤديها الشرائع في العالم - ص ١٥٣ . »

من هذا العرض يبدو واضحاً أن الكتاب ليس كتاب فقه ، وأن صاحبه ليس فقيهاً يعرض لشرح النصوص الإسلامية شرحاً نزيهاً ليتسبب منها (١) . ولكنه كتاب موجه لخدمة فكرة معينة يحاول المؤلف أن يسخر النصوص لخدمتها . لذلك جاء كتابه مملوءاً بالمغالطات ، سواء كان ذلك في تفسير

١ - بل المعروف المشهور أن مؤلف الكتاب ليس له إلمام بالعلوم الإسلامية . ولذلك شاع بين الناس وقتذاك أن مؤلفه في الحقيقة هو الشيخ محمد عبده أستاذ قاسم أمين .



الآيات القرآنية، أم في النصوص التاريخية والفقهية، أو الأدلة العقلية . وهذا الاتجاه الذي يفسر النصوص تفسيراً جديداً مخالفاً لكل ما هو ثابت متواتر في تفسيرها، هو جزء من اتجاه عام تزعمه الشيخ محمد عبده، متذرعاً إليه بالدعوة إلى فتح باب الاجتهاد ، الذي زعم أن الفقهاء قد أغلقوه . وهو يدعو إلى الملاءمة بين الإسلام وبين الحضارة الغربية . وسوف نعود للكلام عن هذا الاتجاه بعد قليل .

وقد أثار كتاب ( تحرير المرأة ) موجة من المعارضة كان أكثرها مقالات صحفية . وليس فيها من الكتب إلا كتاب ( تربية المرأة والحجاب ) لمحمد طلعت حرب ، الذي اقترن اسمه من بعد بشئون الاقتصاد والمال .

ولم يلبث مؤلف ( تحرير المرأة ) حين واجه هذه المعارضة وأخرجته أن كشف عن أهدافه الحقيقية في كتاب ظهر في العام التالي وهو كتاب ( المرأة الجديدة ) ، الذي بدا فيه أثر الحضارة الغربية واضحاً . فالتزم فيه مناهج البحث الأوروبية الحديثة، التي ترفض كل المسلمات والعقائد السابقة ، سواء منها ما جاء من طريق الدين وما جاء من غير طريقه ، ولا تقبل إلا ما يقوم عليه دليل " من التجربة أو الواقع ، على حسب ما يفعله باحثو الاجتماع الأوروبيون ، وهو ما يسمونه ( الأسلوب العلمي ) .

طلب قاسم أمين إلى المصريين أن يتخلصوا مما وقرّ في نفوسهم من أن عاداتهم هي أحسن العادات، وأن ما سواها لا يستحق الالتفات . وقال : إن طالب الحقيقة لا يجب أن يجري في إصدار أحكامه على هذا الضرب من التساهل ، بل يجب أن يعود نفسه على أن يجري نقده للحوادث الاجتماعية على أسلوب علمي ( ص ٧٥ ) . ونبه في موضع آخر من كتابه إلى وجوب الأخذ بالأسلوب العلمي ، إذا أردنا أن نصل إلى نتيجة صحيحة في معرفة حقوق الناس ، فننظر في الوقائع التي تمر أمامنا ، فنتصور نظريتنا مطبقة في قرية ، ثم في مدينة ، ثم في إقليم ، ونتمثل النساء في جميع أعمارهن

وأحوالهن وطبقاتهن ، بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل . ونتصورهن في المدرسة ، وفي البيت ، وفي الغيط ، وفي الدكان ، وفي المصانع . ثم نستعرض حال النساء في غير بلادنا . ونقف على حالة المرأة في الأزمان الحالية والتقلبات التي طرأت عليها ( ص ٨٣ ) . وبين قاسم أمين في موضع ثالث من كتابه أن معظم الكتاب يبنون أحكامهم على الشهوات . وإن وجد بينهم المنصف كان نصيبه أن يتهم بالتجرد عن الوطنية والعداوة للدين والملة . وأشدّهم اقتصاداً في ذمه يرميه بالطيش والخفة ، توهماً منه أن الاعتراف بفضل الأجنبي مما يزيد طمع الأجانب فينا . والواقع أن السبب في طمع الأجانب فينا ليس هو اعترافنا بانحطاطنا ، وإنما هو ذلك الانحطاط نفسه ( ص ١٩٤ ) . ويؤكد في موضع رابع من كتابه أن العلم ليس منافياً للإحساس الديني كما يزعم كثير من الناس<sup>(١)</sup> . ويضرب لذلك مثلاً بالذي يُشني على مؤلف عظيم قبل أن يقرأ كتبه . ثم يتساءل : فهل إذا قرأها يضعف شعوره بعظمته؟ ويؤكد أن خدمة العلم هي عبادة ، لأنها اعتراف ضمني بأن للمخلوقات قيمة عالية ، وذلك يقود - حسب زعمه - حتماً إلى الاعتراف بعظمة خالقها . هذا إلى أن الاشتغال بالعلم يقوّي حكم العقل ويهذب النفس ويُنمي الإحساس الديني ، لأنه يكسب صاحبه الاعتماد على ضبط النفس ، الذي هو من أهم أركان الأدب ( ص ٢٠١-٢٠٣ ) .

١ - لم يزعم أحد ذلك . ولكن الذي يقوله المتمسكون بالدين والداعون إلى سبيله هو أن هذا الذي نقله عن الأوروبيين أو الأمريكيين وثق فيه ثقة عمياء ونسبه « علماً » ، ليس « علماً » بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، إلا فيما يتصل بالفروع التجريبية كالطبيعة والكيمياء والهندسة والطب . أما ما يتصل منه بالنفس وبالتقنين الاجتماعي والأخلاق ، فهو لا يزيد عن أنه فروض لحل بعض المشكلات ، ولتعليل ما غاب عن الحس . ولذلك فهو موضع الخلاف والأخذ والرد بين دارسي الغرب أنفسهم ، يمينهم وشمالهم . ولو كانت له حقيقة ثابتة ما اختلفوا فيه . ولا ينبغي أن ننسى أن بعض هذه الدراسات - ولا سيما الدراسات النفسية والاجتماعية - قد أصبحت دراسات موجهة ، تسخر لخدمة المذاهب والأحزاب السياسية المختلفة . وبعضها يتذرّع باسم ( العلم ) إلى هدم الدين والأخلاق ومحو الشخصية القومية ، خدمة لأهداف سياسية ترمي إلى توهين الجامعة الوطنية أو الدينية ، من ورائها الاستعمار أو الصهيونية العالمية .

ويناقش قاسم أمين في كتابه (المرأة الجديدة) بعض حُجج المعارضين لسفور المرأة ومشاركتها الرجل في الأعمال ، مثل قولهم : « إن المرأة مخلوق ناقص العقل والتفكير ، وأنها أضعف عزيمة من الرجل وأقل قدرة منه على مقاومة الشهوات ». فيرد على ذلك بأن التشريح الفسيولوجي والتجربة في البلاد التي منحت المرأة حريتها قد أثبتت أن المرأة مساوية للرجل في الملكات. كما يرد عليه بأن الحكم على استعداد المرأة لا يكون عادلاً ومنصفاً ومستوفياً لشرائط البحث العلمي المحايد إلا إذا منحنا المرأة الفرصة التي مُنحها الرجل لتثقيف عقله وتدعيم ملكاته خلال الأجيال الطويلة . ويرفض قاسم أمين أن يصدق ما يذاع من أثر حرارة الجو في إثارة الشهوة ، مما يتذرّع به الداعون إلى الحجاب في البلاد الشرقية الحارة ، ما لم يقم على صحة هذا الزعم دليل علمي. ويستشهد بكلام كاتب إيطالي يقول إن العفة تُكتسب بمنح الحرية للمرأة ، وأن اختلاف الأجواء لا أثر له في ذلك . ويعتمد المؤلف على الدراسات النفسية الحديثة وعلى علم وظائف الأعضاء، في التذليل على أن قوة البنية وسلامة الأعصاب هما من أهم ما يعين الإنسان على ضبط نفسه ، وأن ضعف البنية واعتلال الأعصاب هما من أهم الأسباب التي تجعل الإنسان آلة تلمب بها الشهوات والأهواء . ثم يطبق هذه النتائج العلمية على نساءنا ، فيزعم أن نظام الحياة عندنا يبعث في المرأة شدة الميل إلى الشهوات ، لأن سجنها والتضييق عليها في وسائل الرياضة يعرضها دائماً لضعف الأعصاب . ومتى ضعفت الأعصاب اختل التوازن في القوى الأدبية . ثم يقول : إن زيادة الحَجَر على البنت كلما تقدمت في السن، والتشدد في نهيها عن مخالطة الرجل ، يلفت ذهنها في سن مبكرة إلى ما بين الجنسين من اختلاف . هذا إلى أن الألفاظ والصور المحركة للشهوة، التي تستقر في نفس الطفل والصبي من الأحاديث النافهة التي تترامى إلى أذنه بغير تحفظ من أحاديث الأمهات الجاهلات، تترك أثرها العميق فيه .

ويقول قاسم أمين : إن الحرية في الحياة السياسية هي منبع الخير للإنسان

وأصلُ ترقيته وأساسُ كماله الأدبي. ثم يطبق ذلك على المرأة ، فيقول : « عاشت الأمة المصرية أجيالاً في الاستعباد السياسي . فكانت النتيجة انحطاطاً عاماً في جميع مظاهر حياتها : انحطاط في العقول ، وانحطاط في الأخلاق ، وانحطاط في الأعمال . وما زالت تهبط من درجة إلى أسفل منها حتى انتهى بها الحال إلى أن تكون جسماً ضعيفاً عليلًا ساكنًا يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة الحيوان . فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها في أول الأمر في حيرة لا تدري معها ماذا تصنع بحريتها الجديدة . » « وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء . أول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها ، ويظن الناس أن بلاء عظيمًا قد حل بهم ، لأن المرأة تكون في دور التمرين على الحرية . ومع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئاً فشيئاً ، وترتقي ملكاتها العقلية الأدبية . وكلما ظهر عيب في أخلاقها يداوى بالتربية ، حتى تصبح إنساناً شاعراً بنفسه - ص ٧٠ ، ٧١ . » ثم يبين المؤلف أن النمو الأدبي لا يختلف في سيره عن النمو المادي . فالطفل يحبو قبل أن يمشي . ثم يتعلم المشي بالتدريج مستنداً إلى الحائط أو إلى قائد يقوده ، فإذا استقل بالمشي لم يحسنه إلا بعد أن يتعرض للوقوع على الأرض مرات . فلا ينبغي أن نكون كالأب الأحمق الذي يخاف على ولده إذا مشى أن يسقط على الأرض فيمنعه من المشي ، حتى إذا كبر عاش مقعداً مشلول الرجلين .

ويقسم المؤلف مسئوليات المرأة إلى ثلاثة أقسام (١) ما تحفظ به نفسها (٢) ما تفيد به أسرته (٣) ما تفيد به المجتمع الإنساني . وهو يهمل الكلام عن القسم الثالث الذي يتصل بمشاركة المرأة في الأعمال العامة ، لأن دورها فيه لم يكن في نظره قد جاء وقتذاك . ويقول في القسمين الآخرين : إنه مهما اختلف الناس في فهم طبيعة المرأة ، فليس فيهم من ينكر أنها لا تستغني عن الأعمال التي تحافظ بها على قوتها الحيوية ، وتُعدها للقيام بحاجات الحياة الإنسانية وضروراتها ، كما أنها لا تستغني عن الأعمال والمعارف التي تتعلق

بواجباتها في الأسرة. ثم يقول : إننا قد ورثنا الصورة التي كونهاها عن المرأة من العرب الذين قامت حياتهم - حسب زعمه - على الغزو والنهب ، ومن ثم لم يكن فيها للمرأة نصيب تشارك به في الدولة . ثم لم يكن لها نصيب في تربية الولد ، لأن تربيته كانت مقصورة على تغذية جسمه ، ليسب مقاتلاً لا عالماً فاضلاً. وصورة المرأة هذه التي ورثها المسلمون - حسب زعمه - عن العرب قد تكون صحيحة بالقياس إلى الماضي ، ولكنها مزورة إذا نظرنا إلى الحال والمستقبل ، لأن الحالة الاجتماعية والاقتصادية قد تغيرتا تغيراً تاماً. فقد اتسع الميدان لتجادل العقول . والمرأة إنسان مثل الرجل ، زينت الفطرة بموهبة العقل. فمن حقها أن تسمو إلى مرتبة الرجل أو ما يقرب منها على الأقل . ويعتمد قاسم أمين على إحصاء سنة ١٨٩٧ ، الذي يدل على أن عدد النساء اللاتي يشتغلن بحرفة أو صنعة قد بلغ ٦٣٧٣١ وهو يساوي ٢ ٪ من جملة النساء ، ولا يدخل فيه الفلاحات اللاتي يشتغلن بالزراعة ، ولا الأجنبية اللاتي تبلغ نسبة المحترفات فيهن ٢٠ ٪ ، كما لا يدخل فيه النساء اللاتي لا عائل لهن ممن يعشن عالة على أقاربهن ، أو ممن يستعملن لكسب العيش وسائل لا يعترف بها. ولا يدخل فيه الزوجات اللاتي لا يكفي كسب أزواجهن لضرورات معاشهن ومعيشة أولادهن . ثم يتساءل قاسم أمين : أفلا ينبغي لهذا العدد من النسوة اللاتي تقضي عليهن ضرورات الحياة بمزاحمة الرجال أن يزودن بما يعينهن في معركة الحياة ؟... والمؤلف يسلم بأن الفطرة قد أعدت المرأة للاشتغال بالأعمال المنزلية وتربية الأولاد. ولكنه يرى أن من الخطأ أن نبي على ذلك أن المرأة لا يلزمها أن تستعد بالعلم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم لمعيشة أولادها عند الحاجة . ففي النساء من لم تتزوج ، وفيهن من انفصلت عن الزوج بالطلاق أو الموت ، وفيهن المحتاجات لمعاونة الزوج لفقره أو لعجزه أو لكسله. وفي المتزوجات عدد غير قليل ممن ليس لهن أولاد. ثم يعجب قاسم أمين للذين يعارضون تعليم المرأة . فهم يبيحون للمحتاجات منهن أن يعملن ، ويقولون : إن

الضرورات تبيح المحظورات . ولكنهم ينسون أن مذهبهم هذا ليس له إلا دلالة واحدة ، وهو أنهم يريدون قصر المرأة على الأعمال الحقيرة الممتنة ، كالخدمة في البيوت ، وبيع السلع الزهيدة في الطرقات .

أما القسم الثاني الذي يتكلم المؤلف فيه عن مسئولية المرأة أمام أسرتها ، فهو يعتمد فيه على إحصائية وفيات الأطفال في القاهرة ، ويقارنه بوفيات مدينة ضخمة كلندن ، فيرى أن عدد الموتى من أطفال القاهرة يزيد على ضعف عدد الموتى من أطفال لندن . ويرجع ذلك إلى جهل الأم المصرية بالثقافة الصحية . وهو يقول : إن المرأة المهذبة الحرة هي وحدها التي يمكن أن يكون لها نفوذ عظيم في أسرتها . أما المرأة الجاهلة المستعبدة ، فلا يمكن أن يتجاوز نفوذها نفوذ رئيسة الخدم في البيت . فالمرأة المصرية الجاهلة لا تعرف كيف تعاشر زوجها ، ولا يمكنها أن تدير بيتها ، ولا تصلح لأن تربي أولادها . ذلك لأن أعمال الإنسان تصدر عن أصل واحد ، هو علمه وإحساسه . فإن كان هذا الأصل راقياً كان أثره في كل شيء كبيراً نافعاً حميداً . وإن كان منحطاً كان أثره في كل شيء حقيراً ضاراً غير محمود . ويضرب المؤلف أمثلة لفساد تربية الأبناء من أثر جهل الأم ، مثل منع الطفل من اللعب كي لا يشوش عليها ، ومثل تخويفه بموهمات تثير في ذهنه خيالات قد تلازمه طول عمره ، ومثل وعده بوعود لا تفي بها إذا أرادت مكافأته ، وإظهار الغضب عليه ونهره بالصوت الشديد وإزعاجه بالتهديد ، ثم ضمه وتقبيله وإظهار غاية الندم حين تشاهد انفعاله نتيجة ما أتت .

ويتساءل المؤلف عن علة تأخر الأمم الإسلامية ، ويفترض لذلك ثلاثة أسباب ، هي : الإقليم ، والدين ، والأسرة . ثم يستبعد الفرضين الأولين ، لأنه لم يثبت بأدلة علمية صحيحة أن الحرارة تؤثر في الجسم والعقل تأثيراً سيئاً ، ولأن المسلمين قد برهنوا في ماضيهم على أن دينهم عامل من أقوى العوامل للترقي في المدنية . ولذلك فهو يرد تأخر المسلمين إلى نظام الأسرة الفاسد بسبب جهل المرأة . ويؤيد ذلك بأن الأمم الشرقية التي لا تدين بالإسلام

تشاركهم في ذلك ، لأن وضع المرأة فيها لا يختلف عن وضعه في الأمم الإسلامية . ويقول المؤلف : إن العلوم التي يتلقاها الأبناء في المدرسة لا تزيد قيمتها عن أن تكون محفوظات لا ينفذ منها شيء إلى باطن نفوسهم ، فتكون داعية للعمل حافزة إليه . وذلك لأن تربيتهم الأولى لم تتناول وجدانهم في أول السن . « هذا الوجدان الذي هو المحرك الوحيد للعمل . لا يظهر ولا يقوِّيه ولا ينمِّيه إلا التربية البيتية ، ولا عامل لها في البيت إلا الأم . فهي التي تلقن ولدها احترام الدين والوطن والفضائل ، وتغرس في نفسه الأخلاق الحميلة . وتنفث فيها روح العواطف الكريمة . ص ١٣٨-١٣٩ » . ويختم كلامه عن هذا القسم بقوله : « ولكن المتأمل إذا رَوَّى في الأمور يجد أن لسيّر الإنسانية قوانين خاصة يجب مراعاة أحكامها لنمو الحياة واستكمال قواها ، سواء في الأفراد أو في الجماعات ، وأن كل مخالفة لهذه القوانين لها أثر سيء وضرر عظيم يلحق الفرد أو الهيئة الاجتماعية . فالتعويل على حرمان المرأة من حريتها في اتقاء ضرر سوء استعمال ذلك الحق ربما يفيد في منع بعض النساء من إتيان ما ينشأ عن ذلك الضرر . ولكن من المحقق أنه بجانب هذه الفائدة الخاصة المؤقتة يجلب ضرراً عاماً مستمراً ، وهو تعطيل النمو في ملكات صنف النساء بتمامه ص ١٥٤ » .

وقد اتسم كتاب ( المرأة الجديدة ) - إلى جانب هذا الطابع الغربي الذي يعتمد على آراء مفكري الغرب ، ويصطنع أساليبهم في الإحصاء وفي الدراسات النفسية والاجتماعية والتجريبية <sup>(١)</sup> - بمهاجمة علماء الدين الذين هاجموا من قبل هجوماً عنيفاً واتهموا بالتفرنج وبإفساد تقاليد الإسلام ، عندما نشر كتابه الأول ( تحرير المرأة ) . وقد جرّته مهاجمة رجال الدين إلى القسوة في الحكم على الحضارة الإسلامية في بعض الأحيان . فقد كان معارضو قاسم أمين يرون أن نهضتنا يجب أن تعتمد على تراثنا القديم وعلى

١ - تراجع أمثلة لاعتماد قاسم أمين على آراء الغربيين في كتاب المرأة الجديدة ص ٨-١٧ ،

٤٤ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٦٧ .

حضارتنا الإسلامية وحدها . فهو يرد على ذلك بأن الحضارة الإسلامية قامت على دعائمين : الأساس الديني الذي كَوَّن من القبائل العربية أمةً واحدة ، والأساس العلمي الذي ارتفعت به الأمة الإسلامية وآدابها . ثم يزعم أن العلم كان وقتذاك ضعيفاً في أول نشأته ، وكانت أصوله ضرباً من الظنون التي لم تؤيدها التجربة . ولذلك كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلب الفقهاء على رجال العلم ، ووضعوهم تحت رقابتهم ، وزجوا بأنفسهم في المسائل العلمية ، ينتقدونها ويفتون بمخالفتها لنصوص القرآن والحديث التي يؤولونها . وبذلك حملوا الناس — حسب زعمهم — على إساءة الظن بالعلم ، فنفروا منه وهجروه . وانتهى بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن العلوم جميعاً باطلة إلا العلوم الدينية ، بل قالوا في العلوم الدينية نفسها إنها يجب أن تقف عند حد لا يجوز لأحد أن يتجاوزه . ثم تقدمت العلوم ، وظهرت المكتشفات الحديثة ، واستطاع العلم أن يشيد بناء متيناً لا يمكن لعاقل أن يفكر في هدمه . وبذلك تغلب رجال العلم على رجال الدين . وينتهي قاسم أمين من هذا العرض إلى أن التمدن الإسلامي قد بدأ وانتهى قبل أن يُكشَف الغطاء عن أصول العلم . فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التمدن كان نموذج الكمال البشري ؟ ... ثم يبين أن كثيراً من ظواهر التمدن الإسلامي لا يمكن أن تدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية . ويضرب الأمثلة من نُظُم هذا التمدن في الحكم ، وهي في رأيه أقل من المستوى الذي بلغه اليونان والرومان في كفالة الحريات .<sup>(١)</sup> كما يضرب أمثلة من نظام الأسرة ليبين أنه كان غاية في الانحلال ، وأن الفرق واسع بينه وبين النظم والقوانين التي وضعها الأوربيون لتأكيد روابط الأسرة . ويختم ذلك متسائلاً : إذا كانت هذه

---

١ - هذه المقارنة بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة اليونانية الرومانية وترجيح كفة الأخيرة تبين أن المعين الذي كان يستمد منه قاسم أمين وأضرابه هو كتابات المتحررين في أوروبا liberals الذين كانوا يحقرون الحضارة المسيحية ويمجدون الحضارة اليونانية واللاتينية في جاهليتها الوثنية السابقة على المسيحية .



حالمهم . فما الذي يُطلَب منا أن نستعيره منها ؟ ... وأي شيء منها يصلح لتحسين حالنا اليوم ؟ ... ثم يقول : « متى تقرر أن المدنية الإسلامية هي غيرُ ما هو راسخ في مخيلة الكتّاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه ، لا بما كانت في الحقيقة عليه ، وثبت أنها كانت ناقصة من وجوه كثيرة ، فسيان عندنا بعد ذلك أن احتجاب المرأة كان من أصولها أو لم يكن . وسواء صح أن النساء في أزمان خلافة بغداد والأندلس كنَّ يحضرن مجالس الرجال أو لم يصح . فقد صح أن الحجاب هو عادة لا يليق استعمالها في عصرنا ص ١٨٣ »

ويدعو قاسم أمين في آخر كتابه دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، فيقول — بعد أن يبين أن إعجابنا الشديد بالماضي هو نتيجة لشعورنا بالضعف والعجز : « هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه . وليس له دواء إلا أننا نربي أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها . إذا أتى ذلك الحين — ونرجو أن لا يكون بعيداً — انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربي ، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما في أحوالنا إذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية الحديثة ، وأن أحوال الإنسان مهما اختلفت ، وسواء كانت مادية أو أدبية ، خاضعة لسلطة العلم . لهذا نرى أن الأمم المتقدمة على اختلافها في الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابهاً عظيماً في شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها ولغاتها وكتابتها ومبانيها وطرقها ، بل في كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل. <sup>(١)</sup> هذا هو الذي جعلنا (نضرب الأمثال بالأوروبيين)

١ — يشير قاسم أمين إلى اتفاق الأمم الأوروبية في آداب الاجتماع وفي الكتابة بالحروف اللاتينية وفي ارتداد أكثر لغاتها إلى أصول يونانية لاتينية . ومن المعروف أن قاسم أمين كان يدعو إلى ثورة في لغة الأدب وخطه ، تشبه ثورته الاجتماعية . فننسلخ من لغة القرآن ونكتب آدابنا بلهجاتنا العامية على نحو ما انسلخت اللغات الأوروبية الحديثة من أمها اللاتينية . ونعبر في خطنا عن الحركات بحروف تدخل في بنية الكلمة على طريقة الكتابة بالحروف اللاتينية .

ونشيد بتقليدهم، وحملنا على أن (نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوروبية). «  
» ص ١٨٥-١٨٦ ».

ويختم قاسم أمين كتابه بالإشارة إلى أن ما انبعث في الشرقيين من شوق إلى  
مجاراة الغربيين ، قد حدث بعد أن اختلطوا بهم فتبينوا سوء حالتهم الاجتماعية  
حين قاسوها بحالة الغربيين . ويقول إن الكتاب والمرشدين قد فاتهم أن كلامهم  
لا يترك أثراً إلا إذا وصل إلى النساء ، اللاتي هن حَجَرُ الزاوية في تربية  
الأجيال . فإذا أراد المصريون أن يصلحوا حالهم ، فعليهم أن يبدعوا  
الإصلاح من أوله. « وهذه الحقيقة مع بساطتها وبداهتها قد اعتبرها الناس  
يوم جاهرنا بها في العام الماضي ضرباً من الهذيان . وحكم الفقهاء بأنها خرق  
في الإسلام. وعدّها الكثير من متخرجي المدارس مبالغة في تقليد الغربيين .  
بل انتهى بعضهم إلى القول بأنها جناية على الوطن والدين . وأوهموا فيما  
كتبوا أن تحرير المرأة الشرقية أمنية من آماني الأمم المسيحية تريد بها هدم  
الدين الإسلامي . ومن يعصدها من المسلمين فليس منهم . إلى غير ذلك  
من الأوهام التي يصغي إليها البسطاء ، ويتلذذ باعتقادها الجهلاء ، لعدم  
إدراكهم منافعها الحقيقية . ونحن لا نرد عليهم إلا بكلمة واحدة ، وهي  
أن الأوروبيين إذا كانوا يقصدون الإضرار بنا ، فما عليهم إلا أن يتركونا  
لأنفسنا ، فإنهم لا يجدون وسيلة أوفى بغرضهم فينا من حالتنا الحاضرة .  
» ص ٢١٥-٢١٦ ».

\*\*\*\*

إلى جانب هذه الطائفة التي كانت تحاول النهضة بمصر وبالشرق  
وبالمسلمين عن طريق الأخذ بأساليب الحضارة الغربية، التي هي في زعمهم  
أكثر ملاءمة للعصر، كان هناك فريق آخر يرى أن الأمم الإسلامية التي  
سقطت تحت أقدام الغرب لا يمكن أن تنهض على أساس اعتناق مبادئ  
الغرب ، لأن هذا لا يؤدي إلا إلى إفناء نفسها فيه ، ولا ينتهي إلا إلى إعجابها

بمستعبدتها، وسكونها إليهم ، وأنسها بهم . وعند ذلك لا تجد في نفسها ما يحفزها للتخلص منهم ، لأنها ستفقد إحساسها بأنهم غرباء عنها . لذلك نادى هذا الفريق من المصلحين بأن النهضة الصحيحة لا تقوم إلا على أساس التمسك بديننا وتقاليدنا .

وقد كان من أشد ما أفرع أصحاب هذا المذهب أن شباب المسلمين ممن فتنهم المدنية الغربية - قد استقر في وهمهم أن النسبة إلى الدين سببة ، وأن الظهور بالمحافظة عليه مَعَرَّة ، حتى لقد احتاج أديب من أدباء ذلك العصر وهو الشيخ طه حسين إلى أن يعتذر عن بدء محاضرة له في اللغة والأدب بحمد الله والصلاة على نبيه فقال : « سيضحك مني بعض الحاضرين إذا سمعني أبدأ هذه المحاضرة بحمد الله والصلاة على نبيه ، لأن ذلك يخالف عادة العصر » . (١)

وأصبح الإعجاب بكل وافد من الغرب وهماً مسلطاً على الناس ، حتى لقد احتاج الداعون بدعوة الإسلام إلى أن يضربوا للناس الأمثال بزعماء الغرب ممن يحترمون دينهم ولا يرون الوطنية إلا شعبة من الإيمان . وهذا هو محمد عبده ينقل عن بسمارك قوله : (٢) « لو نُقِضَت عقيدتي بديني لم اخدم بعد ذلك سلطاني ساعةً من زمان . إذا لم أضع ثقتي في الله لم أضعها في سيد من أهل الأرض قاطبة . لكن انظروا إليّ تجدوني ملكة من موارد الرزق ما يكفيني ، وارتقيت من المناصب ما لا مطمع بعده . فلماذا أشتغل ؟ ولم أجهد نفسي في العمل ؟ ولم أعرضها للهموم والآلام ؟ ... لا يبعثني على شيء من هذا إلا شعوري بأنني في جميع ذلك أعمل لوجه الله ... اسلبوني هذا الإيمان تبسببوني محبتي لوطني . اعلموا أنني لو لم أكن مسيخياً مخلصاً لم يكن لكم وزير كبير مثلي يدبر أمر الاتحاد الألماني . »

١ - مجلة الهداية عدد أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩١١ ص ٧٦١ .

٢ - تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٨١ ، من مقال له عن « بسمارك والدين » ، نشر في صحيفة المنار ٢١ يناير سنة ١٨٩٩ .

واتجه الشعراء إلى تدعيم هذه الفكرة وإقرارها وإحلالها محل العقيدة من الشباب ، بتذكيرهم بمجد الإسلام القديم .

يقول محرم : (١)

تذكرَ ماضي دينه فتوجعا      وأحزنه ما نابَه فتفجعا  
وأهلكه من قومه أن قومه      بعمياء يأبى غيمُها أن يقشعا  
وكائنٌ دعاهم بالقوافي إلى الهدى      فلو أسمع الصمَّ الدعاءُ لأسمعا  
لقد زادهم ذاك الدعاءُ ضلالةً      فيا ليتَه لم يُسمع الصوتُ إذ دعا !  
وكيف وجومُ المرء أصبح دينه      مهاناً وقد كان العزيزَ الممنعا ؟  
... هُم ضيعوا ما استبُودَ عوامن نفائس      أراها بأيدي القوم نهياً موزعا  
وهم خذلوا الدين القويم وزعزعوا      جوانبه حتى وهى وتضعضعا  
... وما كنت أخشى أن أرى الدين ذلّةً      ولا أن أراه بعد أمنٍ مروعا  
تصدَّعَ قلبي رحمة لمصابه      وليس عجيباً منه أن يتصدعا !!

ويقول (٢) :

هل الدينُ إلا معقِلٌ نحتمي به      إذا دَلَفَ العادي إلينا فأسرعا  
هو الدينُ ، إن يذهبْ فلا عز بعده      وإن جدَّ ساعينا على إثر من سعى  
ولا دينَ حتى ينزعوا عن ضلالهم      ويصبحَ منهم موطنُ الغي بَلَقعا  
وحتى يصونوا للكتاب زمامه      وحتى يكونوا ساجدين ورُكعا  
هنالك يقوى منهم ما تضعضعا      ويشتُّ من بنيانهم ما تزعزعا

ويقول : (٣)

ياداعي الله مُدَّ الصوتِ وادعُ إلى      جناته من يريدُ النارَ مسرورا

١ - ديوان محرم ١ : ١١١ .

٢ - ديوان محرم ١ : ١١٣ .

٣ - ٨١ : ٢ .

أما ترى الناس لا يبعون صالحةً ولا يخافون فوق الأرض محذورا؟!  
 أما تراهم كأنعامٍ مشردةٍ فوزى تهم وتمضى جُنْحاً زورا؟!  
 يا داعيَ الله إن القوم قد لبسوا ليلَ العَمَاية فابعث فيهم النورا  
 أطيعَ لهم من كتاب الله بيّنةً تجلو اليقينَ وتمحو الشك والزورا  
 ويقول : (١)

أما وجلال الله في ملكوته وآلائه العظمى وآياته الكبرى  
 لقد فدح الخطبُ الذي هال دينه فما يملك المحزون من أجله صبورا  
 ألا نهضةٌ بكريّةٌ عُمريّةٌ تعيدُ إليه مجدّه تارة أخرى  
 وما أنا من رَوْحِ الإله بآيسٍ وإن ملأُ الهمُّ الجوانح والصدرا  
 فيا ربّ لا تبعث إليّ منيٍّ إلى أن أرى البعث المومل والنشرا  
 وهونَ خطوب الدهر إن حان حينُها وطمّت على الأحياء ترهقهم عسرا

ويبيّن لهم الكاشف أن الغرب لم يتقدم إلا حين أخذ بتقاليد الإسلام في  
 الكفاح وفي طلب العزة والسعي للمجد ، وأن المسلمين لم يتخلّفوا إلا حين تخلّوا  
 عما أمرهم به دينهم من ذلك . ولذلك فهو يدعو الشرقيين إلى مجاراة الغربيين  
 في الأخذ بأسباب القوة ، لأنهم أحقّ منهم باتباع ما جاء به الإسلام ، فيقول : (٢).

بني الشرق! أدعوكم إلى خيرٍ منهج  
 فجاروا بني الغرب الذين تشبّهوا  
 وأنتم بتقليد الحدود أحقّ من  
 أسركم أن المحارم تُستبى  
 وأعجبكم أن الطرائق تُعشّفى  
 وإن لكم سيفاً من الدين ماضياً  
 فأحيوا به نهجَ النبي وجددوا  
 يعيد إليكم نُصرةَ العيش ثانياً  
 بأجدادكم حتى تنالوا المعاليا  
 عديّ سلبوكم مظهرأ كان زاهيا  
 ولم تلق فيكم عن حماها محاميا؟  
 ولم ترَ منكم يا بني الشرق واقيا  
 بفُلٍّ إذا جردنموه المواضيا  
 مقاماً لدين الله أصبح باليا

١ - ديوان محرم ٢ : ٨٢

٢ - ديوان الكاشف ١ : ٩١

ورُدوه حتى تستعيدوا شبابه نضيراً وإلاّ عاش ظمآن ذاوياً  
كفاه اكتئاباً ماضى من سكوتكم وغفلتكم عن أمره وكفانياً !!  
فأرضوه عنكم بانتهاج طريقه فما أجمل الدنيا إذا بات راضياً  
هنالك نحني في نعيم ونضرة ونأمنُ عدوان العِدَى والليالي

وغدَى معظم الشعراء هذا الاتجاه الإسلامي، بما كانوا ينشرون من شعر  
يمجد أبطال الإسلام، ويستنبط الموعظة من تاريخهم، ويقدم القدرة الحسنة  
للشباب من حياتهم. وكان شوقي أبرز الشعراء الذين غدوا هذا الاتجاه في  
قصائده الإسلامية المتعددة. فقد أبرز فيها ما يحرص عليه الإسلام  
من دعوة المسلمين إلى الأخذ بأسباب القوة وابتغاء العزة واستهداف  
السيادة، جرياً على نوااميس الكون التي تقوم على التنافس بين  
الأفراد والأمم.

فيقول في (نهج البردة) التي نشرها سنة ١٩١٠ (١) :

قالوا غزوت، ورسَلُ الله ما بُعثوا لقتل نفسٍ، ولا جاءوا لسفك دم  
جهلٍ وتضليلٍ أحلامٍ وسفسطةٍ فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم  
لما أتى لك عفواً كلُّ ذي حسَبٍ تكفل السيفُ بالجهال والعمم  
والشرُّ إن تلقَّه بالخير ضيقَتْ به ذرعاً، وإن تلقَّه بالشر ينحسم  
سل المسيحية الغراء، كم شربت طريدة الشُّرك يؤذيها ويوسعها  
لولا حُماةٌ لها هبَّوا لنصرتها بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

ويقول من قصيدة له، كتبها سنة ١٩١١، في استقبال الأسطول العثماني (٢)

زِدْهُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْقُوَى إن الْقُوَى عِزٌّ لَهُمْ وَقِيَامٌ

١ - الهلال . عدد فبراير سنة ١٩١٠ ص ٣١٤ . الديوان ١ : ٢٥١ .

٢ - الديوان ١ : ١٨٤ ، ١٨٦ . نشرت في مجلة الهلال عدد يونيه سنة ١٩١١

المُلْكُ والدُّوَلَاتُ ما يَبْنِي القنا والعلمُ ، لا ما تَرَفَعُ الأحلام  
والحقُ ليس وإن علا بمؤيد حتى يحوِّط جانبيه حسام  
خطَّ النبيُّ براحتيه خندقاً ومشى يحيط به قناً وسهام  
يا معشرَ الإسلام في أسطولكم عزٌّ لكم ووقاية وسلام  
سبلُ الممالك جارفٌ من شِدَّةٍ وقوى ، وأنتم في الطريق نيام  
حُبُّ السيادة من شمائل دينكم والجيدُ روحٌ منه والإقدام  
والعلمُ من آياته الكبرى إذا رَجَعَتْ إلى آياته الأقوام  
لو تَقَرَّئون صغاركم تاريخه عرف البنون المجدَ كيف يُرام !!

ويقول في قصيدته (الهمزية النبوية) التي نشرها سنة ١٩١٢ ، موجهاً  
خطابه للرسول صلوات الله وسلامه عليه : (١)

وتمدُّ حِلْمُكَ للسفيه مدارياً حتى يضيق بحلمك السفهاءُ  
في كل نفس من سَطَاك مَهَابَةٌ ولكل نفسٍ من نَدَاك رجاءُ  
والرأي لم يُنْضِ المهنددُ دُونَهُ كالسيف لم تَضْرِبْ به الآراءُ

ويقول في قصيدة (ذكرى المولد) التي نشرها سنة ١٩١٤ ، متحدثاً  
عن النبي صلى الله عليه وسلم : (٢)

وكان بيانه للهدى سُبُلًا وكانت خيله للحق غابا  
وعلمنا بناءَ المجد حتى أخذنا إمرةَ الأرض اغتصابا  
وما نيلُ المطالب بالتمنى ولكن توخَّذ الدنيا غلابا  
وما استعصى على قومٍ منالٌ إذا الإقدامُ كان لهم ركابا

ثم هو يبين ما امتاز به الإسلام من اتزان . فهو مزاج معتدل من القوة  
والرحمة ، يقود جهادة وحروبه الخير والهدف الشريف ، ويتحد من شرورها

١ - الديوان ١ : ٢٤ نشرت في مجلة المؤيد ، عدد ٧ مارس سنة ١٩١٢

٢ - الديوان ١ : ٦٢ نشرت في مجلة سر كيس ، عدد ١٥ فبراير سنة ١٩١٤ .

الانصاف وتنكّبُ البغى. وهو يدعو إلى السلام ، ولكنه يخوض الحروب  
إن أُلْجَأَ إليها السفهاء دفاعاً عن هذا السلام .

يقول من قصيدة في رثاء عثمان باشا الغاري ، نشرت سنة ١٩٠٠ (١)

إنما المُلْكُ صارمٌ وسَرَّاعٌ فإذا فارقه ساد الطَّغَامُ  
ونظامُ الأمور عقل وعدل فإذا ولّيا تولى النظام  
وعجيبٌ ، خُلِقَت للحرب ليثا وسجاياك كلهن سَلام !!  
فهى في رأيك القويم حلالٌ وهى في قلبك الرحيم حَرَام  
لك سيفٌ إلى اليتامى بفيَضٍ وحنانٍ يحبه الأيتام  
مستبدٌ على قويٍّ ، حلِيمٌ عن ضَعِيفٍ ، وهكذا الإسلام

ويقول في الهزمية النبوية :

الحربُ في حقٍّ لديك شريعةٌ ومن السُّمومِ الناقعات دواء  
إن الشجاعةَ في الرجال غلاظةٌ ما لم تَزِنْهَا رَأْفَةٌ وسخاء  
والحربُ من شَرَفِ الشعوب فإن بغَوْا فالمجد مما يدعون براء  
والحرب يبعثها القوي تجبُّراً وينوء تحت بلائها الضعفاء  
كم من غَزَاةٍ للرسول كريمةٍ فيها رِضىٌ للحق أو إعلاء  
كانت لجنود الله فيها شِدَّةٌ في إثرها للعالمين رخاء  
ضربوا الضلالةَ ضربةً ذهبت بها فعلى الجهالة والضلال عَفَاءُ  
دَعَمُوا على الحَرْبِ السَّلامَ وطالما حَقَنْتُ دماءً في الزمان دماءُ

وهو يبين في أرجوزته الطويلة (دول العرب وعظماء الإسلام) ، حين  
يدافع عن عثمان بن عفان ، أن الإسلام لا يتعارض مع الدنيا ، ولا يطالب  
الناس بالزهد فيها ، فيقول (٢) :

١ - الديوان ٣ : ١٤٣ نشرت في المجلة المصرية ، ١٦ يونيو سنة ١٩٠٠ ص ٤٩ .

٢ - دول العرب وعظماء الإسلام ص ٥٠ وقد نظم شوقي هذه الأرجوزة في منقاه ، خلال الحرب  
العالمية الأولى .



فإن تسَلُّ ماذا أتى عثمان؟ مما يَرُدُّ الدينُ والإيمانُ  
تجددُ دعاوى القوم لفقوها وسلعاً بالدين تفقوها  
زَرَوْا على الإمام ما لا يُزري وأركبوه الحسنات وزراً  
واستنكروا علوه بالدور عن دارة الثلاثة البدور<sup>(١)</sup>  
وقال قومٌ خالف الأترابا وحالف السَّراء والإثربا  
وكرهوا التمسيرَ والتمدينَا وزعموا الدنيا تُعَفِّي الدينَا  
ويَحْتَمُّوْا مَالَهُمْ ومَالَهُ؟ طاب وطيبَ الحلال مَالَهُ  
مالٌ كما شاء العَفَافُ والكَرَمُ زكا كهدي البيت أو حلى الحرم  
والزهدُ حالٌ للقلوب والنهي ما أمر الله به ولا نهى  
وهذه الدنيا يدُ العَظيم وسِرُّه في مُلكه العَظيم  
أُسْكِنَهَا العقلَ فكانت أشرفاً من كل زاه في السماء أشرفاً  
أحلَّ منها ما صفا مشارعاً وحرَّم الآفات والمصارعا  
وساقها للأنبياء ترسُفُ هذا سليمانُ وهذا يوسفُ  
وَأين من شأنيهما عثمانُ على الذي خوله الرحمنُ؟

ولنما رسم الإسلامُ حكومةً قِيَامُهَا العدلُ والمساواة، لا معبود فيها  
إلا الله. أمرُ الناس فيها شورى. لا يَطْغَى فيها غني على فقير، ولا قويٌّ  
على ضعيف: <sup>(٢)</sup>

داءُ الجماعة من أرسطاليس لم يُوصَف له حتى أثبت دواء  
فرسَمَ بعدَكَ للعباد حكومةً لا سُوقَةً فيها ولا أمراء  
اللهُ فوقَ الخلقِ فيها وحده والناسُ تحت لوائها أكفَاء  
والدينُ يسرٌ، والخلافةُ بيعةٌ والأمرُ شورى، والحقوقُ قضاء  
الإشتراكِيون أنتَ إمامُهُم لولا دعاوى القومِ والغُلواءُ

١ - يقصد بالثلاثة البدور النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما .

٢ - الديوان ١ : ٢٦ من الحمزية النبوية . وقد نشرت سنة ١٩١٢ .

دَاوَيْتَ مُنْتَدَاً وَدَاوَا طَفْرَةً وَأُخْفَ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءُ  
 الْبِرُّ عِنْدَكَ ذِمَّةٌ وَفَرِيضَةٌ لَا مِئْتَةٌ مَمْنُونَةٌ وَجَبَاءُ  
 جَاءَتْ فَوَحَّدَتْ الزَّكَاةُ سَبِيلَهُ حَتَّى التَّقَى الْكِرْمَاءُ وَالْبَخْلَاءُ  
 أَنْصَفَتْ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى فَالْكَلُّ فِي حَقِّ لَدَيْكَ سَوَاءٌ  
 فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَخَيَّرَ مِئْتَةً مَا اخْتَارَ إِلَّا دِينَكَ الْفُقَرَاءُ  
 وَالْإِسْلَامُ يَدْعُو إِلَى الْعَمَلِ . فَالرِّزْقُ مَرْهُونٌ بِالسَّعْيِ ، وَالتَّوَكُّلُ لَا يَغْنِي  
 شَيْئاً إِذَا صَرَفَ صَاحِبُهُ عَنِ الْعَمَلِ . يَقُولُ شَوْقِي فِي السَّيْرِ النَّبَوِيَّةِ : (١)  
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ فِي شَبَابِهِ لَا يَدْعُ الرِّزْقَ وَطَرِيقَ بَابِهِ  
 أَيُّ رَسُولٍ أَوْ نَبِيٍّ قَبْلَهُ لَمْ يَطْلُبِ الرِّزْقَ وَيَبْغِ سُبُلَهُ ؟  
 مُوسَى الْكَالِمُ اسْتَوْجِرَ اسْتِجَاراً وَكَانَ عِيسَى فِي الصَّبَا نَجَّاراً  
 مِنْ أَحْسَنِ الْأَمْثَالِ فِيمَا أَحْسَبَ الْحَبِيزُ لَا يُعْطَى وَلَكِنْ يُكْسَبُ  
 وَالرِّزْقُ لَا يُحْرَمُهُ عَبْدٌ سَعَى مُضِيقاً عَلَيْهِ أَوْ مُوسِعاً  
 لَا تَأَلُّ لَا سَعِيّاً وَلَا تُكْمَلَانَا لَا يَنْفَعُ التَّوَكُّلُ الْكِسْلَانَا  
 كَانَ قُبَيْلَ الْبَعْثِ رَبٌّ مَالٍ وَتَاجِراً مُيَسَّرَ الْأَعْمَالِ  
 يَضْرِبُ فِي حَزْنِ الْفَلَاحِ وَسَهْلِهِ بِمَالٍ عَمَّهُ وَمَالٍ أَهْلَهُ  
 مَبَارَكَ الرِّحْلَةِ وَالْإِقَامَةِ مُسْتَضْحِبَ الْجَدِّ وَالْإِسْتِقَامَةِ  
 وَالرِّزْقُ بَيْنَ النَّاسِ بِحَرٍّ جَارٍ شِرَاعُهُ يُرْفَعُ لِلتَّجَارِ  
 فَاسْتَرَزَقَ اللَّهُ وَقِيفُ بِيَابِهِ وَاكْسَبُ ، فَأَهْلُ الْكَسْبِ مِنْ أَحِبَابِهِ  
 وَكَانَ مِمَّا تَمَخَّضَ عَنْهُ هَذَا الْإِنْجَاهُ الْإِسْلَامِي سُنَّةٌ جَدِيدَةٌ جَرَى عَلَيْهَا  
 النَّاسُ مِنْذُ سَنَةِ ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) وَهِيَ الْإِحْتِفَالُ بِرَأْسِ السَّنَةِ الْهَجْرِيَّةِ . (٢)

١ - دول العرب وعظماء الإسلام ص ٢٤ ، ٢٥

٢ - محمد فريد ص ٩١ . والواقع أن هذا الاحتفال متأثر بالتقليد المسيحي الذي يحتفل برأس السنة الميلادية . وقد فات المقلدين اختلاف الظروف والدلالات في الحالتين لأن أول السنة الهجرية لا يطابق هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام . فقد كان ميلاده وهجرته كلاهما في شهر ربيع الأول .

وكان هذا اليوم يمر من قبل كغيره من الأيام لا يكاد يأبه له أحد ، في الوقت الذي كانت تحتفل فيه الحكومة رسمياً بعيد ميلاد الملكة فيكتوريا ، ثم بعيد الملك إدوارد السابع من بعدها .<sup>(١)</sup> وقد كان احتفال المصريين العظيم بهذا العيد يضم أعداداً غفيرة من الناس . وكان الشعراء قوام هذه الحفلات ، يتبارون في إلقاء ما أعدوا من قصائد ، يعرضون فيها ما مر بالبلاد الإسلامية - وبمصر خاصة - في العام الفائت من أحداث ، مستلهمين العبرة من حياة الرسول ، بما يستنهض الهمم ويدعو إلى العمل والجهاد .

\*\*\*\*

وأخذ أصحاب هذا المذهب الإسلامي يزيلون من أوهام الناس ما اختلط عليهم من أمر دعوتهم ، إذ ظن بعضهم أن الإسلام الذي يدعون إلى إقامة النهضة على أساسه هو هذا الخليط من خرافات الجهال التي غلب فيها الفاسد على الصالح ، فشرع هؤلاء المصلحون يبينون للناس أن الإسلام في جوهره وفي حقيقته يختلف عما هو شائع بين العامة والجهال ، وعمّا انتهى إليه أمره بعد أن أقحم عليه ما ليس منه . فأنجھوا إلى تخليصه مما شابه من أوهام وما خالطه من معتقدات مفسدة ، ليقدّموه للناس في صورته الصحيحة ، وليبينوا لهم أن الإسلام سهل يسير بعيد كل البعد عن التعقيد الذي أقحم عليه فجعله شيئاً صعباً لا يفهمه إلا المحترِفون ، ولا يطيقه إلا أولو العزم من الزاهدين . وأخذوا في الوقت نفسه يهاجمون البدع والأدعياء الذين يستغلون الدين ويتاجرون باسمه ، ويروجون الأباطيل بين الجماهير الجاهلة استجلاباً للنفع وتصيداً للمغانم .

من ذلك مقالان لمحمد عبده نُشرا في الوقائع المصرية سنة ١٨٨٠ . هاجم فيهما أساليب الأدعياء المفسدين من مشايخ الطرق في الموالد . وقد صور فيهما ما يصحب الأذكار من ضرب الطبول ومن هياج الذاكرين

الذين يهيمون هيام المعاتية، ويتجردون من ثيابهم، ويأتون أعمالاً هي أدخل في الشعوذة منها في الدين، من مثل أكل النار والزجاج. وندد محمد عبده في مقالته بما يحدث في الموالد من اختلاط الفتيان بالفتيات ومزاحمتهم ومكاثفتهم في بيوت الله، وهاجم بدعة (الدوسة) التي ينطرح الناس فيها على الأرض مصطفىين أحدهم لجنب الآخر، ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحداً بعد الآخر حتى ينتهي إلى آخرهم، متعجباً من أن يجري هذا بين مسلمين من أهل الإيمان، قد أمر الله بتكريمهم، وحرم إهانتهم إلا لحدٍّ أو تعزيزٍ شرعيٍّ (١).

وتابع عبد الله النديم من بعد ذلك الحملة على هذه البدع الفاسدة في مجلة (الأستاذ). فندد بهذه الطوائف « التي تبتدع أموراً تُضحك السفهاء وتُبكي العقلاء، وتحتال لمطامعها البهيمية بما جلب العار على الأمة، وسلط عليها الأجنبي، يهزأ بديننا ويقبح أعمالنا، ظناً منه أن ما يجريه هؤلاء الجهلة من الدين » وهو يتساءل « أين تصفية الباطن التي هي مدّارُ الطريق؟ وأين الحملول مع هذا الظهور؟... وأين التواضع من ركوب الخيل والبغال، يَقتدُ منها الطبل والمزمار، كأن الخليفة مأمور مركز أو ضابط بلد؟... وأين البعد عن الناس مع هذه المزاحمة الدنيوية؟... »

ويعتجب النديم لما يدّعيه جهلاء هؤلاء المرتزقة من علم ما أنزله الله، زاعمين وصوله إليهم من طريق الفتح أو الإلهام، ولهجومهم على تفسير القرآن بما لا يقوله إلا مجنون، ضالين في كل ما يقولون ومُضِلِّين. ويقتطف الكاتب من كلام السلف الصالح من رجال الطريق، أمثال الرفاعي والجنيد والخواص والبسطامي وذو النون والجيلاني والسهروردي، ما يؤكد أن

---

١ - راجع المقالين في تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ١٣٣ في مقال عنوانه « إبطال البدع في نظارة الأوقاف العمومية » ، ٢ : ١٣٦ وفي مقال عنوانه « بطلان الدوسة » .

## الطريق الصحيح في التمسك بالقرآن والسنة (١).

ويهاجم الجهال من خطباء المساجد الذين يصرفون الناس عن الجِدِّ وعن طلب العزة وعن الإعداد للعدو بما يُبْذَرُونَ فيه ويُعيدون من الدعوة إلى الانصراف عن الدنيا. فيقول : (٢).

« ولا نصل للقوة العلمية وفينا من يقول : العز في الخمول ، والسعادة في العزلة ، والفضل في الزهد في الدنيا والبعد عما في أيدي الناس ، فإن من توكل على الله كفاه » وهذا الفريق متخلِّلٌ بين العامة. يزعم أنه من الهداة ، وهو من المضِلِّين . فلو كان من البُصَرَاء لطالع سيرة نبينا سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وغزواته ، وفتش في سياسته السماوية والأرضية ... فهو لاء بجهلهم سيرة نبيهم سولت لهم أنفسهم أنهم قائمون بإرشاد الأمة وهدايتها إلى طريق الحق ، وما درّوا أنهم أماتوا الهمم وصرفوا النفوس عن التعلق بحواظ الدين والملك معاً . ومن هذا القبيل الذين كدّوا دواوين الخطابة ، وجعلوها قاصرة على التزهيد في الدنيا ، والتحذير من المال وجمعه ، والفرار من المجمع والظهور ، والرضا بنخس العيش والصبر على الذل والهوان ، وتركوها للخطباء يخطبون بها يوم الجمعة ... فلو تصدّت أوروبا لإماتة همم المسلمين وصرفهم عن مجد الملوك والدين والجنس ، وقطعت دهوراً في اختراع طريق تصل به هذه الغاية ، ما اهتدت إلى ما فعله الخطباء ، من تحويل الخطابة عن عهد النبوي إلى ما قاله المتملقون إلى الملوك ، والغافلون عن طريق الهداية وإصلاح الأمة . »

« ونحن نستفتي هؤلاء المشبطين ، إذا كانت الدنيا يُحذَر منها فلمن تُخلِقت ؟ ... وإذا كان الاشتغال بها بهتاناً وضللاً ، ولا يشتغل بها إلا

١ - مجلة الأستاذ عدد ١١ أبريل سنة ١٨٩٣ ص ٧٨٦ « الطرق وما فيها من البدع » ، عدد ٢٥ أبريل سنة ١٨٩٣ ص ٨٢٨ (الطرق وإصلاحها) .

٢ - الأستاذ عدد ٢٠ ديسمبر ١٨٩٢ تحت عنوان « أتقلب الأمم بتقلب الأحوال ونحن نحن ؟ »

أعداء الله فلم نتألم من تسلط الغير علينا ووقوعنا في أيدي المتغلبين ، ونَعُدُّ الرضا بذلك ذنباً ومعصية ؟ »

ثم دعا الكاتب خطباء المساجد إلى أن يحدثوا الناس فيما يتصل بشئونهم وحياتهم السياسية والعمرانية ، ضارباً لهم الأمثال بخطب الرسول والصحابة من بعده ، الذين كانت خطبهم يوم الجمعة في صميم الحياة ، تنصل أشد اتصال بالشئون السياسية والحربية .

وهاجم الكواكبي المبتدعة من غلاة المتصوفين في كتابه ( أم القرى ) مهاجمة عنيفة فقال : (١) .

« إن الطامة من تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين ، الذين استولوا على الدين فقصيعوه وضيعوا أهله . وذلك أن الدين يُعرَف بالعلم ، والعلم يعرف بالعلماء العاملين ، وأعمال العلماء قيامهم في الأمة مقام الأنبياء في الهداية إلى خيري الدنيا والآخرة . ولا شك أن لمثل هذا المقام في الأمة شرفاً باذخاً ، يتعاضم على نسبة الهمم في تحمل عنائه والقيام بأعبائه . فبعضُ ضعيفي العلم وفاقدي العزم تطلعوا إلى هذه المنزلة التي هي فوق طاقتهم ، وحسدوا أهلها المتعالمين عنهم ، فتحيَّلوا للمزاحمة والظهور مظهر العلماء والعظماء ، بالإغراب في الدين ، وسلوك مسلك الزاهدين . ومن العادة أن يلجأ ضعيفُ العلم إلى التصوف ، كما يلجأ فاقدُ المجد إلى الكِبَر ، وكما يلجأ قليلُ المال إلى زينة اللباس والأثاث . فصار هؤلاء المتعالون يدلسون على المسلمين بتأويل القرآن بما لا يحتمله مُحْكَمُ النظم الكريم ، فيفسرون مثلاً البسملة أو الباء منها بسفَر كبير تفسيراً مملوءاً بغلط لا معنى له ، أو يحكم لا برهان عليه . ثم جاءوا الأمة بوراثة أسرار أدعوها ، وعلوم لدُنِّيَّات ابتدعوها ، وتَسَمَّ مقامات اخترعوها ، ووضع أحكاماً لفقوها ،

١ - أم القرى ص ٢٧ - ٣١ . وتأثر هؤلاء الكتاب جميعاً بمحمد بن عبد الوهاب ، وبابن تيمية من قبله واضح في هذا الموضوع . وفي هذا الموضوع يلتبس كلام السلفية بكلام اللبراليين ، والفرق بينهما دقيق . أحدهما يستهدف العودة بالإسلام إلى نقائه وصفائه . والآخر يستهدف محاربة الدين وما يسونه ( العقلية الفيبية ) .

وترتيب قُرْبَاتٍ زخرفوها . »

ثم بين الكواكبي بعد ذلك تأثر رجال الطرق بسيدع اليهودية والنصرانية وبتقوس الكنيسة ، ويرد كثيراً من تقاليدهم ورسومهم إلى نظائرها في النصرانية وفي التقاليد الكنسية ، ويقول إن عبادتهم الله قد أصبحت أشبه شيء بعبادة مشركي العرب التي وصفها الله تعالى بقوله : ( وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكَّاءً وَتَصَدُّيَةً ) أي صغيراً وتصفيقاً . وهؤلاء جعلوا عبادة الله تصفيقاً وشهيقاً ، وخلاعة ونعيقاً . وسحروا بهذه الخزعبلات عقول الجهلاء ، واختلبوا قلوب الضعفاء من النساء وذوي الأهواء والأمراض العصبية ، بتزيينهم هذه الرسوم التي تميل إليها النفوس الضعيفة الحاملة ، التي تستصعب تحصيل الدين من طريق العلم الشاق الطويل . ثم يقول :

« وقد قام هؤلاء المدلسين أسواقٌ في بغداد ومصر والشام وتلمسان قديماً ، ولكن لا كَسْوَقيها في القسطنطينية منذ أربعة قرون إلى الآن ، حتى صارت فيها هذه الأوهام السحرية والخزعبلات كأنها هي دين معظم أهلها لا الإسلام ... فهؤلاء المدلسون قد نالوا بسحرهم نفوذاً عظيماً به أفسدوا كثيراً في الدين ، وبه جعلوا كثيراً من المدارس تكايا للبطالين الذين يشهدون لهم زوراً بالكرامات المُرْهَبَةِ ، وبه حوّلوا كثيراً من الجوامع مجامع للبطالين الذين تَرْتَجُّ من دوي طبولهم قلوب المتوهمين ، وتكفهر أعصابهم ، فيتلبّسهم نوع من الخبَل يظنونهم وهماً الخشوع . وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقاً لهم ، وبه جعلوا مداخيل أوقاف الملوك والأمراء عطايا لأتباعهم ، مما يسمّى في البلاد العثمانية ( دعاكو وطعامية ) <sup>(١)</sup> » .

وسرى أثر هذه الدعوة في الشعر . فرأينا بعض الشعراء يرددون هذه المعاني السابقة . فمن ذلك قول الكاشف في تصوير جهل الجماعات التي تتبع كل ناعق . فلا تلبث أن تنقاد لمن يزعم أنه المهدي المنتظر ( الديوان ١ : ٨٠ ) :

١ - وراجع كذلك ٦١ - ٦٤ من المرجع السابق

كلَّ يومٍ نرى ونسمع مَهْدِيَةً أً ينادي في قومه : اتَّبِعُونِي  
 موهِمًا أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ أَتَى يَسْتَعِيدُ مَجْدَ الدِّينِ  
 وَهُوَ خَالٍ مِنَ التَّجَارِبِ وَالْقِسْوَةِ وَالْعِلْمِ وَالْهُدَى وَالْيَقِينَ  
 فَإِذَا التَّفَّ حَوْلَهُ النَّاسُ أَغْرَا هُمْ بِإِيقَادِ كَسَلٍ شَرٍّ كَمِينَ  
 وَادَّعَى أَنَّهُ بِذَلِكَ مَأْمُورٌ مِنَ الْوَحْيِ كَالنَّبِيِّ الْأَمِينِ  
 وَمَنْ قَامَ فِي جَمَاعَتِهِ يَطْلُبُ إِعْلَانَ سِرِّهِ الْمَكْنُونِ  
 فَمَضَى مُورِثًا عَشِيرَتَهُ كُلَّ بَلَاءٍ مَرٍّ وَذَكَرَ مَهِينِ  
 وَهِيَ ذِكْرَى لِلْمُسْلِمِينَ فَهَلَا خَذَلُوا كُلَّ كَاذِبٍ مَفْتُونٍ ؟!  
 وَرَأَوْا أَنَّ دِينَهُمْ فِي غِنًى عَنْ دَعْوَةٍ مِنْ مُضِلٍّ مَجْنُونٍ

وقوله في تصوير استغلال مشايخ الطرق لجهل الناس الذين يظنون بهم  
 القدرة على كل شيء (١: ٨٠-٨١) :

ومريدٌ لشيخه ناذرٌ عَجَلًا سَمِينًا بِهِ إِلَيْهِ تَقَرَّبُ  
 كُلَّمَا قَدَّمَ الطَّعَامَ لَهُ كَبَّرَ مُسْتَبْشِرًا بِهِ وَتَأَدَّبَ  
 وَسَطًا لِلصِّ فِي الدَّجَى فَتَلَقَاهُ ابْنُهُ فَانْثَنَى وَمَا نَالَ مَأْرَبَ  
 وَدَرَى الْوَالِدُ الْجَهْلُ بِمَا كَانَ فَانْثَنَى عَلَى الْوَلِيِّ وَأَطْنَبَ  
 قَائِلًا : إِنِّي رَأَيْتُ مُغِيثِي فِي مَنَامِي عَلَى جَوَادٍ أَشْهَبَ  
 حَارِسًا مَنْزِلِي يَرُدُّ مُغِيرًا بِالْحَسَامِ الْمَنْصُورِ فِي كُلِّ مَضْرَبٍ  
 فَأَهَانَ ابْنَهُ بِنَسَبِهِ الْفَضْلَ إِلَى شَيْخِهِ الْبَعِيدِ وَأَغْضَبَ  
 فَنَأَى عَنْهُ تَارِكًا بَلْ مُبِيحًا دَارَهُ بَعْدَهُ لَمَنْ يَتَوَثَّبُ  
 وَأَتَى الصِّ ثَانِيًا وَمَضَى بِالْعَجَلِ لَا يَتَّقِي خَفِيرًا وَيَرْهَبُ  
 ثُمَّ هَبَّ الْمُرِيدُ لَا يَجِدُ الْعَجَلَ وَعَادَ ابْنَهُ إِلَيْهِ وَأَنْتَبَ  
 فَدَعَا أَهْلَهُ وَقَالَ لَهُمْ مَا أَخَذَ الْعَجَلَ غَيْرُ شَيْخِي الْمَحَبَّبِ  
 فَلَقَدْ خَافَ أَنْ يَفَاجِئَنَا الصِّ فَلَمْ يَرْضَ أَنْ نُهَانَ وَنُسَلَبَ  
 وَأَرَانِيهِ وَهُوَ يَأْكُلُ فِي مَرَمٍ عَاهٍ فِي صَادِقِ الْمَنَامِ وَيَشْرَبُ



ومن ذلك قوله في تصوير ما يسيطر على الناس من جهل ، حتى إنهم ليتعلقون بكل مُشرّد مجنون ، وكل أحمق يغلب عليه ضعف العقل فيجعله غريب الأطوار مختلف الحال . وهم يظنون لسوء فهمهم للدين أن هذا الجنون هو دليل الولاية والقرب من الله ( ٨٣ : ١ ) :

في قريتي كان فتىً مجنونٌ يضحك من أحواله المحزون  
كأنه القرد إذا ما يُطربُ والأرنبُ الوحشي حين يثب  
فظنه قومٌ ولياً هادياً يكتشف الغيبَ ويدّني النائيا  
ويعلمُ الواقع والمستقبلا فاتخذوه مَرَجعاً وموثلاً  
وما كفاهم طاعةُ الحُكمه حتى دعّوا من يولدون باسمه  
يعطيه كلُّ منهمُ إن نَدّرا له جميع ما اقتنى وادّخرا  
وناب للقوم بعيراً مَرَضُ فاسرعوا إلى الفتى وركضوا  
فأحضروه ورجوا أن يدركه بَسِرّه وروحه والبركه  
فظاف بالبعير ثم صاحوا هاتوا له الجزار والسلاحا  
فأوسعوه بالعصي ضرباً وأشبعوه حسرةً وكربا  
لا يُقبَلُ النصيحُ من النبيه فكيف بالمخبول والمعنوه  
وقد يئهان ذو الحجى إن ذكّرا فكيف بالجاهل حين أنذرا  
هذا وعندي أنّ من تعلقا بمثل ذا الأحمق كان أحمقا

ومن هذا الشعر الهجائي الساخر قوله أيضاً في تصوير نفاق الذين يدّعون الولاية من المشعوذين ( ٨١ : ١ ) .

هاجبه الوجدهُ فما لا يذكر الله تعالى  
مرغياً كالجمل المصّ عبّ إذ حلّ عقلا  
قلتُ هل تبغي بهذا الرقص بالله اتصالا  
قال هذا خيرُ ما ارتا ضَ به الراجي كمالا  
تركُ النفسُ به لد جسم أغللا ثقلا

فهو	دينار	من	هـ	وقد	تاه	اختيالا
وراه	أحد	القسو	م	فأخفاه	اختيالا	
وأحسن	الشيخ	بالحا	دث	فاعتسل	اعتلالا	
ودعا	بالغسوث	حتى	أنعب	القلب	ابتهالا	
قلت	يا هذا	أبيكي	زاهد	مثلك	مالا ؟ !	
لم	لا يلهمك	الذك	ر	عن الحزن	اشتغالا ! ؟	
فتجرد	من دعاوى		مكنت	منك	الحبالا	
إنما	نفسك	من جـ	يمك	لا ترضى	انتقالا	

ويقول محرم في الأدعياء من بعض علماء الدين ، وتكالبههم على الدنيا ، وإذلال أنفسهم لأصحاب السلطان ، يرضونهم بكل سبيل ، ويفتونهم بما يحبون <sup>(١)</sup> :

أرى علماء الدين لا يحفظونه	ولا يعرفون اليوم رتبته العليا
هم اتخذوا ما أدركوا من علومه	سبيلاً إلى ما يشتهون من الدنيا
فضاعوا وضاع الدين ما بين أمة	همو شرعوا فيها الضلالة والغيا
إذا المفسد استفتنا يريد تمادياً	أتوه بأعلام الهدى تحمّل الفتنيا
أيعجب قوماً من أولي العلم أنهم	يسرون بين الناس في نوره عميا ؟
ألا هل أرى من جلّة القوم شافياً	لشعب مريض لا يموت ولا يحيا ؟ !
محتة عوادي الدهر إلا بقية	من الدين والدنيا لمن يؤثر البقيا

\*\*\*\*\*

وظهر بين هاتين الترعنتين ( الغربية والإسلامية ) اتجاه ثالث يرمي إلى التوفيق بين الإسلام وبين حضارة الغرب . وهو الاتجاه الذي أشرت إليه عند الكلام عن دعوة قاسم أمين وأرجأت الكلام فيه إلى هذا الموضع من الكتاب .

وتزعم الشيخ محمد عبده هذا الاتجاه الجديد الذي عرّضه لسخط المتفرنجين والداعين بدعوة الإسلام كليهما - كما يقول كرومر - وإن كان سخط الأولين أقلّ من سخط الآخرين .

وحقيقة الأمر في حركة الشيخ محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغاني الذي اقترن اسمه به في الشطر الأول من حياته لا تزال تحتاج إلى مزيد من الوثائق التي توضح موقفهما وتزيل ما يحيط به من غموض ومن تناقض فيما اجتمع حولهما من أخبار . فبينما يُنزل رشيد رضا - ومعه كل أتباع الشيخ محمد عبده الذين ازداد عددهم على الأيام - منزلة الاجتهاد في الدين، ويرفعونه إلى أعلى درجات البطولة والإخلاص الذي لا تشوبه شائبة ، كان كثير من علماء الشريعة المعاصرين له يتهمونه بالمروق من الدين والانحراف به وتسخيرهم لخدمة العدو . فإذا تركنا هؤلاء وهؤلاء ممن قد يجد الطاعنون سبيلا إلى رميهم بالتحيز والمحاباة . أو التحامل والتزمت ، وجدنا كثرة من النصوص في كتب ساسة الغرب ودارسيه تصور رأيهم فيه وفي مدرسته وتلاميذه ومكانه من الفكر الحديث . وهي جميعاً تتفق على تمجيدهِ والإشادة به وبما أداه للاستعمار الغربي من خدمات ، بإعانتِهِ على تخفيف حدة العداء بينه وبين المسلمين ، وهو عداءٌ يستتبع آثاراً سياسية تضر مصالحه وتهدد بإذكاء الثورات التي لا تفتّر ولا تنقطع (١) .

وإلى جانب ذلك كله نجد إشارات صريحة في كتاب لأحد كبار رجال

---

١ - راجع التقارير السنوية لممثل الاحتلال الإنكليزي في مصر سنة ١٩٠٥ الفقرتان ٧ ، ٩٨ وسنة ١٩٠٦ الفقرة ٣ ( ص ٦ - ٨ منها على وجه الخصوص ) - Modern Egypt ١٧٩:٢ إلى ١٨١ - Whither Islam ص ٦٩ ، ١٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ « راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب . الفقرة ٢ من الفصل ٣ » - Great Britain in Egypt ص ١٦٥ ، ١٧٦ - Islam in Modern History ص ٦٣-٦٧ - الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ٦٤ ، ٧٢ ، ٨٤ - التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر : المقدمة ، الفصل الخامس « زعماء الإصلاح في الأزهر »

الماسونية في مصر - ومن المعروف أنها دعوة تخدم الصهيونية العالمية - تؤكد أن جمال الدين الأفغاني كان رئيساً (محفل كوكب الشرق) الماسوني . كما تؤكد أن محمد عبده كان عضواً في هذا المحفل . إذ يقول :

(وقد ظهرت الماسونية في سورية في مظهر الإخلاص والمحبة أثناء الحوادث العربية سنة ١٨٨٢ فإن الإخوان المصريين والمهاجرين الذين جاءوا سورية قابلهم إخوانهم بالترحيب العظيم ، ودعاهم إلى محافلهم ومنازلهم . وكان الأفاضل الشيخ محمد عبده وإبراهيم بك اللقاني وحسن بك الشمسي وجماعة المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني وغيرهم يحضرون معنا في محفل لبنان وخطبون ، فيشنفون أسماع السوريين بخطبهم النفيسة وأحاديثهم الطلية . ونال الأستاذ الشيخ محمد عبده رتبة البلح والصدف من المندوب الأمريكي الذي حضر إلى محفل لبنان . ) (١) .

ومما يؤكد هذه النصوص ويزيد قيمتها أن الشيخ محمد رشيد رضا - وهو أكثر تلاميذ محمد عبده تعصباً له - قد أيدّها في كتابه (تاريخ الأستاذ الإمام) (٢) .

ومهما يكن من أمر في حقيقة حركة محمد عبده فمن الواضح في آثاره الأدبية - وأكثرها مقالاتٌ صحفية - أنها تنقسم إلى قسمين ظاهرين ، اتجه في أحدهما إلى تدعيم الدعوة للجامعة الإسلامية ، بينما اتجه في القسم الثاني إلى تقريب الإسلام من الحضارة الغربية والتفكير الغربي الحديث .

وكان من أهم ما اتجه إليه في القسم الأول من هذه المقالات - أيام اتصاله بالأفغاني - محاربة ما استولى على المسلمين من ضعف الحمم وفتور العزائم ، والانصراف عن الدنيا وعن مكافحة العدو والتخلص من الاستعباد ،

١ - فضائل الماسونية ص ١٢٤ . وراجع كذلك مقدمة الكتاب . وقد أصبح ذلك ثابتاً ثبوتاً قطعياً من مجموعة الوثائق التي نشرتها جامعة طهران مصورة سنة ١٩٦٣ تحت رقم ٨٤١ ، نقلاً عما عثر عليه من أوراق جمال الدين الخاصة تحت اسم (سيد جمال الدين ، مشهور به أفغاني) .

٢ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٨١٩ ، ٨٧٣ .

ظانين أن دينهم يأمرهم بالاستسلام لما يجري عليهم لأنه من قضاء الله .  
يقول في إحدى مقالاته عن القضاء والقدر (١) :

« مضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطاناً على الأعمال البدنية .  
فما يكون في الأعمال من صلاح أو فساد ، فإنما مرجعه فساد العقيدة  
وصلاحها ، على ما بينا في بعض الأعداد الماضية . ورب عقيدة واحدة تأخذ  
بأطراف الأفكار ، فيتبعها عقائد ومدرّكات أخرى ، ثم تظهر على البدن  
بأعمال تلائم أثرها في النفس . ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من  
قواعد الكمال إذا عُرِضَتْ على الأنفس في تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها  
الاشتباه على السامع ، فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها ، أو تصادف عنده  
بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة ، فيعلق بها عند الاعتقاد شيء  
مما تصادفه . وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها . وربما تتبعها  
عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم ، أو على خبث الاستعداد ، فتنشأ  
عنها أعمال غير صالحة ، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد ،  
ولا كيف يُصَرِّفه اعتقاده . والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الأعمال إنما  
نشأت عن الاعتقاد بذلك الأصل وتلك القاعدة . ومن مثل هذا الانحراف  
في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الأديان غالباً ، بل هو  
علّة البدع في كل دين على الأغلب . وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه  
من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الأعمال ، حتى أفضى بمن ابتلاهم  
الله به إلى الهلاك وبئس المصير . وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على  
الطعن في دين من الأديان ، أو عقيدة من العقائد الحقّة ، استناداً إلى أعمال  
بعض السذج المنتسبين إلى الدين أو العقيدة . »

« من ذلك عقيدة القضاء والقدر ، التي تُعد من أصول العقائد في الديانة

---

١ - نشرت في العروة الوثقى عدد أول مايو سنة ١٨٨٤ ، ونشرت بعد ذلك مرة أخرى في

مجلة « الأستاذ » عدد ١٦ مايو سنة ١٨٩٣ « تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٥٩ - ٢٦٧ »

الإسلامية الحققة . كثرَ فيها لغطُ المغفلين من الإفرنج ، وظنوا بها الظنون ، وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قومٍ إلا سلبتهم الهمّة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعّة . ورموا المسلمين بصفات ، ونسبوا إليهم أطواراً ، ثم حصروا علتها في الاعتقاد بالقدر . »

ثم يأخذ محمد عبده في بيان الفرق بين الجبريّة الذين يزعمون أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار ، وبين الاعتقاد بالقدر الذي ترشد إليه الفطرة . فيقول بأن « كل حادث له سبب يقارنه في الزمان . والإنسان لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضرٌ لديه . ولا يعلم ماضيها إلا مُبدعُ نظامها . وإن لكل منها مَدْخلاً ظاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وإرادةُ الإنسان إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة . » ويقول إن الإفرنج الذين ينسبون تأخر المسلمين إلى القضاء والقدر يجهلون حقيقة هذه العقيدة ، ويخلطون بينها وبين مذهب الجبر ، الذي انقرض أصحابه في أواخر القرن الرابع الهجري . فالاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرّد من شناعة الجبر . تتبعه صفةُ الجراءة والإقدام ، ويبعث على اقتحام المهالك ومقارعة الأهوال ، وعلى الجود والسخاء . ذلك لأن الذي يعتقد أن الأجل محدود . وأن الرزق مكفول ، وأن الأشياء بيد الله يُصَرِّفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته وملته ؟ ... وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في سبيل تعزيز الحق وتشيد المجد ؟

ثم يبين محمد عبده أن الإيمان بالقضاء والقدر هو الذي دفع المسلمين الأولين إلى أن يفتحوا العالم في مدة لا تتجاوز ثمانين عاماً . ويقول : إنه لم يظهر في التاريخ قائدٌ عظيم ، إلا كان مؤمناً بالقضاء والقدر . ويضرب الأمثال لذلك بكورش الفارسي ، والإسكندر اليوناني ، وجنكيزخان التتري ، ونابليون الفرنسي <sup>(١)</sup> .

١ - راجع مقالا آخر لمحمد عبده في الموضوع نفسه نشر في المؤيد سنة ١٩٠٢ « تاريخ الأستاذ

الإمام ٢ : ٣٩١ » .

ويقول محمد عبده في مقال آخر له نشر في العروة الوثقى عن (النصرانية والإسلام وأهلهما) (١) : « إن المسيحية قد بنيت على المسالمة والمياسرة وجاءت برفع القصاص . ومع ذلك نرى الأمم المسيحية تتسابق إلى الفتح والغلب والتفنن في اختراع أدوات الغلبة والقتال . والإسلام قد بُنيَ على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة . ومع ذلك نرى الأمم التي تدين به متهاونة بالقوة متساهلة في طلب لوازمها . ثم يتساءل هل تبدلت سُنَّة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ ... هل استبدت الأبدان فيهما على الأرواح ؟ ويعرض الكاتب حال المسلمين منذ اتصالهم بالمسيحيين ، ف يرى أن المسلمين كانت لهم في الحروب الصليبية آلات نارية فزع لها المسيحيون ، فكانت السبب في انهزامهم . ويرى أن الدين المسيحي إنما امتد ظله وعمت دعوته في الممالك الأوربية من أبناء الرومانيين ، وهم أصحاب حرب وفروسية . ثم يرى أن المسلمين إنما وهنت قوتهم بسبب ما دخل عليهم من بدع ليست من الدين ، حين انتشرت قواعد الجبر ، وحين أدخل الزنادقة والسوفسطائيون والكذابون من نقلة الحديث ما فيه السم القاتل لروح الغيرة ، الموجب لضعف الهمم وفتور العزائم .

ويقول محمد عبده في مقال آخر له عن (الأمل وطلب المجد) (٢) : « ليس الأمل هو الأمنية والتشهي اللذان يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى ، ويعبر عنهما بلبت لي كذا من الفضل ، مع الركون إلى الراحة والاستلقاء على الفراش ، واللهو بما يُبعد عن المرغوب ، كأن صاحبهما يريد أن يبدل الله سُنَّتَه في سير الإنسان ، عنايةً بنفسه الشريفة أو الخسيسة ، فيسوق إليه ما يهيج بخاطرهم بدون أن يصيب تعباً أو يلاقي مشقة . إنما الأمل رجاء يتبعه عمل ، ويصحبه حمْلٌ للنفس على المكاره ، وعركٌ لها في المشاق والمتاعب ، وتوطئتها لملاقاة البلاء بالصبر ، والشدائد بالجلد ، وتهوين كل

١ - تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٣٧ - ٢٤٣

٢ - العروة الوثقى العدد ١١ - ١٩ يونيه ١٨٨٤ « تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٩٠ - ٢٩٧ »

مُسْلِمٌ يَعْرِضُ لَهَا فِي سَبِيلِ الْغَرَضِ مِنَ الْحَيَاةِ ، حَتَّى يَرْسُخَ فِي مَدَارِكِهَا أَنْ  
الْحَيَاةَ لَغَوِ إِذَا لَمْ تُتَغَدَّ بِنَيْلِ الْأَرْبِ ، فَيَكُونُ بَذْلُ الرُّوحِ أَوَّلَ خُطْوَةٍ بِخُطْوِهِ  
الْقَاصِدِ ، فَضْلاً عَنِ الْمَالِ الَّذِي لَا يُقَصَّدُ مِنْهُ إِلَّا وَقَايَةُ بِنَاءِ الْحَيَاةِ مِنْ صَدَمَاتِ  
حَوَادِثِ الْكَوْنِ . »

وَيَمْضِي مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ فِي بَيَانِ أَنَّ الْمِيلَ لِلرَّفْعَةِ أَمْرٌ فِطْرِي . فَكُلُّ وَاحِدٍ  
يَطْلُبُ الْكَرَامَةَ ، وَالتَّمَكُّنَ فِي قَلْبِ الْآخِرِ . لِذَلِكَ يَتَرَاخَمُ النَّاسُ فِي الْأَمَالِ  
وَالْأَعْمَالِ ، حَتَّى يَكُونُوا جَمِيعاً شُرَفَاءَ بَمَا يَأْتُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ . حِكْمَةٌ مِنْ  
اللَّهِ . لِيَعْلَمَ الَّذِينَ جَاهَدُوا وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ . ثُمَّ يَقُولُ إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ تَضَعِفُ  
هَمُّهُمْ حِينَ يَتَوَالَى عَلَيْهِمُ الصَّدَامُ ، فَيَصِيبُهُمُ الْإِنْخِطَاطُ الَّذِي قَدْ يَوُولُ إِلَى  
الْيَأْسِ وَالْقَنُوطِ . وَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْكُمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْحِطَّةِ ، وَيَسْجُلُونَ عَلَيْهَا  
الْعِجْزَ عَنْ كُلِّ رَفْعَةٍ ، إِذْ يَوُطِّنُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى قَبُولِ مَا يُوْجِبُهُ إِلَيْهِمْ مِنْ  
إِهَانَةٍ . فَيَنْزِلُ إِحْسَاسُهُمْ إِلَى مَرْتَبَةِ الْأَنْعَامِ ، وَيَرْضَوْنَ بِمَا تَرْضَى بِهِ الْبَهَائِمُ .  
وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَسْتَرْيَحُونَ بِذَلِكَ مِنَ الْكَدِّ ، فَهُمْ إِنْ تَرَكَوا الْعَمَلَ لِأَنْفُسِهِمْ  
سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ يَكْلِفُهُمُ بِالْعَمَلِ لغيرِهِمْ ، فَيَكُونُونَ كَالنَّمَالِ الْحَمَّالَةِ ،  
لَا تَسْتَفِيدُ مِمَّا تَحْمِلُ شَيْئاً ، وَظِيفَتُهَا أَنْ تَسْعَى وَتَشْقَى لِيَسْعِدَ غَيْرُهَا وَيَسْتَرْيَحَ .  
ثُمَّ يَبِينُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ السَّبَبَ فِي ضَعْفِ الْهَمِّ هُوَ ضَعْفُ الْإِيمَانِ فَيَقُولُ :  
« عَجَباً . كَيْفَ تَتَبَدَّلُ أَحْكَامُ الْجَبِلَةِ وَكَيْفَ يَمْتَحِي أَثَرُ الْفِطْرَةِ ؟ كَيْفَ  
تَسْفُلُ النَّفْسُ حَتَّى لَا تَطْلُبَ رَفْعَةً ؟ وَكَيْفَ تَقْنَطُ حَتَّى لَا يَكُونَ لَهَا أَمَلٌ ،  
وَالْأَمَلُ وَحِبُّ الْكَرَامَةِ طَبِيعِيَانِ فِي الْإِنْسَانِ ؟ بَعْدَ إِعْمَانِ النَّظَرِ نَجْدِ السَّبَبِ فِي  
ذَلِكَ ظَنُّ الْإِنْسَانِ أَنَّ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ إِنَّمَا تَصْدُرُ عَنْ قُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ بِالْإِسْتِقْلَالِ ،  
وَأَنَّ قُوَّتَهُ هِيَ سُلْطَانُ أَعْمَالِهِ ، وَلَيْسَ فَوْقَ يَدِهِ يَدٌ تَمُدُّهُ بِالْمَعُونَةِ أَوْ تَصُدُّهُ  
بِالْقَهْرِ . فَإِذَا صَادَفَتْهُ الْمَوَانِعُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَقَطَعَتْ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْوُصُولِ ،  
رَجَعَ إِلَى قُدْرَتِهِ فَوَجَدَهَا قَانِيَةً ، وَقُوَّتَهُ فَرَأَاهَا وَاهِنَةً . فَيَعْتَرِفُ بِوَهْنِهِ ، وَيَسْكُنُ  
إِلَى عِجْزِهِ . فَيِيَأْسُ وَيَقْنَطُ ، وَيَبْذُلُ وَيَسْفُلُ ، اعْتِقَاداً مِنْهُ بِأَنَّهُ لَا دَافِعَ لَتِلْكَ  
الْمَوَانِعِ الَّتِي تَعَاصَتْ عَلَى قُدْرَتِهِ ، مَتَى كَانَتْ قُوَّةُ الْمَانِعِ أَعْظَمَ مِنْ قُوَّتِهِ .



فلا سبيل إلى العمل ، لاستحالة قهر المانع . فينقطع الأمل ، فيقع في الشقاء الأبدى . »

« أما لو أيقن بأن لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة ، تخضع كل قوة لعظمته ، وتدين كل سطوة لجبروته الأعلى ، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه ، يُصرف عباده كيف يشاء ، لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس ، وتغتال آماله غائلةُ القنوط . فإن صاحب اليقين لو نظر إلى ضعف قدرته ، لا يفوته النظرُ إلى قوة الله التي هي أعلى من كل قوة ، فيركن إليها في أعماله ، ولا يجد اليأسُ إلى نفسه طريقاً . فكلما تعاظمت عليه الشدائدُ زادت همته انبعاثاً في مدافعتها ، معتمداً على أن قدرة الله أعظم منها . وكلما أُغلق في وجهه بابٌ فُتحت له من الركون إلى الله أبواب . فلا يحل ولا يَكِل ، ولا تدركه السَّامة ، لا اعتقاده أن في قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء ويلقي قيادهم إلى الأذلاء ، وأن يدك الجبال ويشق البحار ، ويمكن الضعفاء من نواصي الأقوياء ... ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التي لا ريبَ فيها بما قال وهو أصدق القائلين : ( إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ) وبما حكى من قول نبيه إبراهيم : ( وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ) . فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلاً على الكفر والضلال ، ومن أين يطرق اليأسُ قلباً عقد على الإيمان بالله وبقدرته الكاملة ؟ »

ويختم محمد عبده مقاله هذا بالتوجه إلى المسلمين . يخاطبهم بقوله تعالى : ( إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ) .

هكذا مضى محمد عبده في هذه الفترة من حياته ينبه الغافلين ويوقظ النائمين ، ويبين للناس أن الدين ليس كلمات تقال في صلاة ، أو تقليداً يتبع في صوم ، أو ترديداً غافلاً للشهادتين فحسب . ولكن الإسلام مع ذلك كله ، بل قبل ذلك كله ، عقيدة تهيم على كل تصرفات المسلم وتوجهه في كل أعماله . وكان من أخطر ما صنعه محمد عبده في هذه المقالات العنيفة

الثائرة ، أن خرج على الناس بجملة من الآيات القرآنية ، كان الناس قد صُرفوا عن تدبرها ، وأهملوا الاستشهاد بها والتأمل في معانيها ، حتى بدت حين عرضها محمد عبده على الناس ، وبثها في ثنایا مقالاته ، يربط بينها وبين الظروف التي تجتازها الأمم الإسلامية ، كأنها شيءٌ جديد يسمعه الناس للمرة الأولى .

والواقع أن الآيات التي كان يستشهد بها الوعاظ في خطبهم ومقالاتهم منذ شدد الاستبداد قبضته على الناس ، لم تكن تتجاوز ما يتصل بما أعد الله من حسن الثواب للمتقين ، وما أعد من العذاب للعصاة والمفسدين . ولكن محمد عبده أبرز في مقالاته جملة من آيات الجهاد ، جهاد النفس وجهاد العدو ، ولفت الأنظار إلى مكان الجهاد من العقيدة الصحيحة . فهو يكتب عن امتحان الله المؤمنين <sup>(١)</sup> ، فيصدر المقال بالآية : ( ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم . فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . ) وبين أن الذين يزعمون أنهم مؤمنون ، ثم لا يسهل عليهم الإيمان احتمال المشاق وتحشم المصاعب في سبيله ، ليسوا بمعزل عن المنافقين . ويستشهد بالآية : ( لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والله عليم بالمتقين . ) إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم ، فهم في ربهم يترددون . ) ويختم مقاله بقوله : « إن امتحان الله للمؤمن سنة من سنته ، يميز بها الصادقين من المنافقين قرناً بعد قرن ، إلى أن تنقضي الدنيا . في كل قرن يدعو الله المؤمنين إلى قوم أولي بأس شديد . فإن يطيعوا يؤثم أجراً حسناً . وإن يتولوا يعذبهم عذاباً أليماً . فميزان عدل الله منصوب إلى يوم القيامة ، وهناك الجزاء الأوفى . »

وفي مقال آخر له عن أسباب حفظ الملك <sup>(٢)</sup> ، يصدره بالآية : ( أفلم

١ - تاريخ الإمام ٢ : ٣١٧ - ٣١٩ .

٢ - المرجع السابق ٢ : ٣٢٠ - ٣٢٥ .

يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يَعْقِلُونَ بها أو آذانٌ يَسْمَعُونَ بها. فإنها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور .) ويطلب إلى الناس التأمل فيمن أهلك الله من شعوب ، ومن أباد من قبائل . وما دمر من بلاد ، للاعتبار بأسباب هلاكهم . ويذكر من أسباب حفظ الملك الاتحاد . مستشهداً بالآية : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .) ويذكر منها عدم الاعتماد على الأجنبي ، مستشهداً بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوئى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق .) وقوله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دُونكم ، لا يألونكم خبالاً . ودوا ما عنيتم . قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر .) ويذكر منها انصراف الناس عن التوغل في الشهوات ، التي تغفل قلوبهم عن الفرائض المفروضة عليهم ، وتصرفهم عن القيام بواجباتهم ، مستشهداً بالآيات (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها . فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً . وكنا نحن الوارثين) (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون . لا تجأروا اليوم ، إنكم منا لا تنصرون) . (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تتمرحون .)

ويذكر منها الشورى ، مستشهداً بأمر الله نبيه ، وهو المعصوم من الخطأ ، بقوله : (وشاورهم في الأمر) ، وبما امتدح به الله تعالى المؤمنين في قوله : (وأمرهم شورى بينهم) . ويذكر منها إعداد القوة ، صوناً للأمة من أطماع الطامعين ، ويستشهد بالآية : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) . ويختم المقال بحث العلماء على تنبيه الغافلين عما أوجب الله ، وإيقاظ النائمة قلوبهم عما فرّض الدين . وعلى أن يُزيلوا اليأس بتذكيرهم وعَدَّ الله - ووعدُه الحق - في قوله (وعَدَّ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى

لَهُمْ ، وَلِيَبْدَلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا (١) )

واتجه محمد عبده بعد عودته من المنفى إلى التقريب بين الإسلام وبين الحضارة الغربية . واتخذ اتجاهه هذا أشكالا مختلفة . فظهر أحيانا في صورة مقالات أو مشاريع أو برامج تدعو إلى إدخال العلوم العصرية في الجامع الأزهر . وظهر تارة أخرى في صورة تفسير لنصوص الدين من قرآن أو حديث ، يخالف ما جرى عليه السلف في تفسيرها ، ليقترب بها إلى أقصى ما تحتمله - بل إلى أكثر مما تحتمله في بعض الأحيان - من قُربٍ لقيم الغرب وتفكيره ، لكي يصل آخر الأمر إلى أن الإسلام يساير حضارة الغرب ويتفق مع أساليب تفكيره ومذاهبه .

وصحب الحركة الداعية إلى إدخال الدراسات العصرية في الأزهر حملة تحاول أن ترسم صورة قائمة لما آل إليه أمره ، مشنعة بما تتضمنه بعض العلوم التي تدرس فيه من سخف ومن تفاهة ، داعية إلى التحرر من الآراء السائدة المقررة التي يتوارثها الخلف عن السلف (وهو ما سمته التقليد) ، والتفكير بما يلائم ظروف الحياة الجديدة (وهو ما سمته الاجتهاد) . وكانت هذه الحملة تُنقَّب عن أسوأ ما في الأزهر وما في كتبه لتعرضه على الناس . وقد يما قالوا (من فتنش عن عيب وجده) .

فمن ذلك ما كتبه رشيد رضا في وصف حياة طالب العلم في الأزهر ، إذ يقول (٢) :

« كانت أمكنة الجامع الأزهر من صُحنه إلى مقاصيره إلى أروقته إلى مغاطسه وميضاته وكُنُفه مجتمَع أوساخ ، ومهَبَّ روائح عفنة ، ومنبع وخامة ، وبؤرة أمراض معدية . فإذا دخل الداخل إلى الصحن وجد فيه بقايا الكُرات والفجل وقشور البصل وفضلات الخبز العفنة وجلود الفسيخ وقُمامات الكنس

١ - وراجع كذلك مقاله في العروة الوثقى « سنن الله في الأمم » - تاريخ الأستاذ الإمام ٢ :

٣٢٥ - ٣٣١ .

٢ - المرجع السابق ١ : ٤٨٠ - ٤٨١

من مواضع النوم أكواماً . وإلى جوانبها ما يراق من مياه الشرب المأخوذة من الصهاريج ، وما تحمله النعال من وحل الطريق ، حيث يتأبط المجاور مَدَّاسَه بلا نفص ولا تنظيف . وبين هذا وذاك كثيرٌ من البصاق والنخامة والنخاعة . ثم إذا ذهب إلى جهة الميضاة وجد حواليتها أمثال ذلك ، ورأى قطع الخبز المبلول تعوم في مائها ، وهي تتدفق بما يسيل من أفواه المتوضئين وأنوفهم ساعة الوضوء . وربما وجد على جوانبها بعض الفضلات . ( بل كان بعضهم يستنجي بمائها من جوانبها . وقد أخبرني الأستاذ الإمام أنه لم يكن قط يتوضأ من ميضاة الأزهر ، بل كان يأخذ الماء من مَصْبَه فيها المسمى بالسلسول على قلته ، ويتوضأ منه وكانت ميضاة الجامع الأحمدي أقدر من ميضاة الأزهر ، ولا سيما أيام الموالد الثلاثة . كان النساء يغسلن أولادهن من العذرة فيها ، حتى تُرَى سابحةً وراسبة فيها . ومع هذا كله كان الخرافيون يعدون إبطال الميضاة المكشوفة واستبدال الأنابيب بها « الحنفيات » من سيئات الإصلاح الذي ذهب ببركات الأزهر ) . <sup>(١)</sup> وإذا قصد المغاطس وجد على مياهها طبقة كالدهن من الأدران ، وشم منها ما لا تحمل الأنوف والأبدان . <sup>(٢)</sup> « وإذا وصل إلى غرف السكنى في الأروقة وجد هذا يغسل ثيابه ويهريق الماء بين يديه ، فيمنعه الكسل أن يمضي بها إلى البالوعات . وذاك يطبخ والدخان يسود وجه الحائط وداخل المسكن . وذاك يغسل آنية ويريق ماءها المخلوط بالدهن والزيوت . وقد يحملهم الكسل على ترك غرف النوم الأسبوع والأسبوعين بلا كنس ، فيتراكم فيها التراب مع بقايا المأكولات . هذا إلى ازدحام السكان في الغرفة الواحدة ، ونومهم مزدحمين ، رأس الواحد عند رجل أخيه . ومعهم فيها - على ضيقها - متاعهم وفراهم وخبزهم وملابسهم وخزائن كتبهم وأدوات الطبخ والوقود . »

« وإذا طاف الطائف في جوانب الجامع وحول الأساطين وفي الأماكن

١ - العبارة التي بين القوسين منقولة عن الهامش .

٢ - كذلك وجدت العبارة في النص . ولعل الصواب « ما تحمل من الأنوف والأبدان » .

التي يسمونها بالحارات، وجدها كلها مشحونةً بخزائن الحشب القائم بعضها فوق بعض صفوفًا بلا نظام، تجري بينها لقذارتها الفيران، حتى يخالها الراي لقدم عهدها من آثار الأقدمين. وإذا فتحت الواحدة منها انتشرت روائح المَشِّ وعَفَنِ الحبز، فلا يملك رائيتها إلا أن ينهزم أمامها ويفر مغلوباً إلى حيث ينتهي به الفرار. »

ويقول في وصف ما آلت إليه حالهم الخلقية والعلمية (١) :

« ولقد كان محمد عبده، على شدة عنايته بالأزهر وأهله والدفاع عنهم ومبالغته في تكريمهم، شديد الاحتقار لهم في نفسه، إلا أفراداً منه. وكان للأزهر عنده ثلاثة ألقاب يُطلقها عليه المرة بعد المرة أمام بعض الخواص، عند شدة تأله من فساد حالهم، وهي: الأصطبُّل، والمارِستان، والمَخْرُوب (بهذا اللفظ العامي) ... وناهيك بما ذكره الشيخ عبد الكريم من شهادة الزور، حتى من قضاة الشرع والمفتين، الذين لقَّبَ المحقِّقُ ابنُ القيم أمثالهم (بالموقعين عن رب العالمين). وكان قد اطلع على ما لم يطلع عليه أحد من مخازيهم بعمله في إدارة الأزهر، وتفتيشه للمحاكم الشرعية، كأكلِ السُّحْتِ من الرشوة على الأحكام والفتاوى، وعلى ما هو أشدَّ ضرراً منه، وهو المحاباة في امتحان شهادة العالمية. ثم ناهيك بما هو المُعَدُّ لهذه المخازي كلها، وهو الذلة والمهانة أمام كبراء رجال الدنيا من الحكام وغيرهم ... وقد أشار الشيخ عبد الكريم إلى شيء من شتائمهم البذيئة المزرية، التي لا تُبقي في النفس أثراً للكرامة الفطرية الموروثة ولا عزة الإيمان المكتسبة ... دُع تأثير القذارة والأمراض في توطين النفس على الذل واحتمال الضيم ». « وشر من ذلك كله تمكنُ الخرافات والأوهام من أكثر القوم، حتى إن الشيخ حَسُونَة، الذي كان يعدّه الأستاذ الإمام أمثلهم، كان يقبل يد أحد أدياء الولاية من الدجالين الذين كانوا يخدعون العوام، بما يلبسون عليهم ويوهمونهم من المكاشفات والكرامات، فيأمنونه على نسايتهم، حتى

لأنهم كن يدخلن معه الحمام !! وناهيك بما يفعلونه في احتفالات الموالد  
المتبدعة، ومشاركتهم لسدنة القبور المعبودة فيما يُندَر لها من المال والفول  
النابت وغير ذلك . »

ويقول <sup>(١)</sup> : « كان طلبة الجامع الأزهر لا نصيب لهم في صناعة الكتابة  
والإنشاء . وكان الواحد منهم إذا كتب لأبيه يستمنحه إرسال الزاد والنفقة  
قصرت صحيفته عن بيان المطلوب له . ولم ينفعه ما حصله من قواعد العربية  
بشيء ، وجاء خطه في مكتوبه نقشاً مكسراً الخطوط ناقص الحروف . وإذا  
أراد أن يبين ما صرفه وما يلزمه عبّر عن ذلك باللفظ لا بالرقم ، لعدم معرفته به . »  
« هذه حالة كادت تكون عمومية بين الطلبة والعلماء . وهي باقية في  
الكثير من الأكابر إلى اليوم . وإني لأعرف واحداً منهم كان ممن دعاهم  
المرحوم الشيخ الإنبائي إلى الإفطار عنده في رمضان . فاعتذر إليه بالكتابة ،  
فكان كتاب اعتذاره على حال لم ير مثلاً الرائون ، إذ كتبه إليه في ورق  
من أوراق العطار ، والكتابة فيها غير منتظمة الشكل ، والخط لا يقرأ إلا  
لمن تعود قراءة هذه الخطوط ، والأربعة الأسطر التي كتبها اعتذاراً للشيخ ،  
كان فيها أكثر من عشر لحنات لا يمكن تطبيقها على قواعد العربية  
ولو مع التأويل الذي تعودوه . وهذه الرقعة من عالم كبير إلى عالم أكبر . »  
ومهما يكن نصيب هذه الصورة من الصدق أو المبالغة فالذي لا شك  
فيه أنها صورة مظلمة تنفّر القارئ من الأزهر ومن كل ما فيه ومن فيه .  
وربما نفرت من الإسلام نفسه ، لأن مفهوم الإسلام في الأذهان مرتبط بعلمائه  
ومؤسّساته أراد الناس ذلك أو لم يريدوه . وذلك هو ما دعا باحثاً أوربياً  
مثل جب H. R. Gibb لأن يقول :

« وقد بدأ تلاميذ الشيخ محمد عبده المخلصون ، حتى في حياته ، يظهرون  
بمظهر واضح صريح . وقد كان هو نفسه في مادة العقيدة يعارض قبول  
كل شيء دون مناقشة ، أي يعارض ( التقليد ) كما يقال في الإسلام . وهذا

الرأي يُعتبر لبنةً في بناء الحركة المتعددة ، أو خشبةً الخلاص في حركة التحرر العلمانية (١) .

ويقول كذلك في موضع آخر :

« إن تلامذته الحقيقيين يمتزجون بالصفوف التي أنشئت لإنشاء أوربياً وينضمون للحلقات العلمانية ... ومن ناحية أخرى نجد الشيخ محمد عبده قد صنع جسراً فوق الهوة التي تفصل التعليم التقليدي عن التعليم العصري الخاضع لمذهب العقلين الذي غزا الشرق من الغرب . » (٢)

والواقع أن فتاوى محمد عبده وآراءه الجريئة كانت لا تزال تباكر الناس وتراوحهم عن طريق دروسه في الأزهر ، وعن طريق الندوات التي كان يعقدها في منزله أو في منازل بعض مريديه ، وعن طريق المقالات التي كان ينشرها في الصحف . وقد كان تفسيره للقرآن أحفل هذه الدروس وأكبرها تأثيراً ، لأنه كان يجمع عدداً من أصحاب الثقافات الإسلامية والغربية — أو الدينية والمدنية كما يقولون — على السواء . من علماء الأزهر ، وأساتذة المدارس الثانوية والعالية ، وكبار رجال القضاء الأهلي ، والوجهاء ، ورجال الحكومة ، ومنهم محافظ القاهرة . وكان يلقي بعض هذه الدروس في دار أحمد تيمور . وهناك التقى به كثير من الأساتذة الذين أشتهروا في الحياة العامة أو شغلوا مناصب كبيرة في الدولة ، مثل الشيخ أحمد إبراهيم وحافظ إبراهيم ومحمد كرد علي وأحمد فتحي زغلول ورفيق العظم وقاسم أمين وعبد العزيز جاويز بعد عودته من أوروبا . (٣) وكانت جرأته في الملاءمة بين الإسلام وبين حاجات العصر ، ومعارضته علماء الأزهر في عصره ، سبباً في كثير من الحملات التي خاضت فيها الصحف . متهمة إياه بتسخير الدين لخدمة العدو الغاصب . وقد

١ - الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ٧٢

٢ - الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ٨٤

٣ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٧٦٩ ، ٧٧٣



أعان على ذلك عداؤه للخديوي عباس ، الذي بلغ من كراهيته له أن غضب على الذين شيعوه بعد موته <sup>(١)</sup> .

ومن أمثلة هذه الآراء الجريئة ما عُرِف في ذلك الحين بالفتوى الترنسفالية ، فقد كانت من أعظم ما شَنَعَ به خصومه ومعارضوه . وخلاصة المسألة أن أحد المسلمين في الترنسفال أرسل إلى الشيخ محمد عبده يستفتيه في ثلاثة أمور ، أولها لبس البرانيط ، وثانيها أكل اللحوم التي يذبحها نصارى الترنسفال على غير طريقة المسلمين ، إذ يضربونها بالبُلْط ولا يذكرون عليها اسم الله ، وثالثها صلاة الشافعية العيد خلف الحنفية ، مع ما بينهما من خلاف في فرضية التسمية وفي تكبيرات العيدين . وقد أفتى محمد عبده بجواز الأمور الثلاثة التي سأل عنها الترنسفالي . ولكن المسألة التي أثارت عليه الشغب خاصة هي المسألة الثانية ، التي أفتى فيها بجواز أكل لحوم النصارى ، مستنداً إلى قوله تعالى (اليوم - أحل لكم الطيبات . وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) فقد قال هذا بعد تحريم الميتة . وأحل طعامهم وهو يعلم ما يقولون عند الذبح ، ويعلم ما يعتقدون بعزير والمسيح . ورأى محمد عبده في فتواه أن المضروبة بالبلطة هي غير الموقوذة التي حرّمها الله . فالوقيد والموقوذ هو الذي يُقتل بغير مُحَدَّد من عصا أو حجر <sup>(٢)</sup> .

ومن أمثلة هذه الفتاوى الجريئة ما أفتى به من جواز الاستعانة بالكفار وأهل البدع والأهواء فيما ينفع المسلمين ، وذلك حين استفتاه بعض مسلمي الهند الذين يدعون إلى إنشاء الجمعيات لتربية أيتام المسلمين ، مستعينين في ذلك ببعض الأجانب وغير المسلمين . وقد جاء في هذه الفتوى : <sup>(٣)</sup> « إن ما يفعله أولئك الأفاضل دعاة الخير هو الإسلام ، ومن أجل مظاهر

١ - راجع في ذلك مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٣٤ - ٣٧ ، ٣٩ وتاريخ الأستاذ الإمام

١ : ٥٧١ ، ٥٧٧ ، ٥٨٩

٢ - راجع التفاصيل في تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٦٦٨ - ٧١٦

٣ - المرجع السابق ١ : ٦٤٨ - ٦٦٦

الإيمان . وإن الذين يكفرونهم أو يضللونهم هم الذين تعدوا حدود الله ،  
وخرجوا عن أحكام دينه القويم . . بقي أن بعض المتشدقين ربما تعرض لهم  
الشبهة في فهم قوله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم  
لا يالونكم خبيلاً ) إلى آخر الآية . »

وبعد أن أورد المقتي جملة الآيات التي تصرح أو تشير إلى المنع من  
موادة المؤمنين لغير المؤمنين قال :

« على أنه لا شبهة لهؤلاء الجهلاء الجهلة في مثل هذه الآيات تسوُّغ لهم تفسيق  
إخوانهم أو تكفيرهم بعد ما جاء في الآية المحكمة من قوله تعالى :  
( لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم  
أن تبزؤهم وتقسطوا إليهم . إن الله يحب المقسطين . إنما  
ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم  
وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ) . ومن يتولهم فأولئك هم  
الظالمون ( ١ ) ، وبعد ما جاء من القصص الذي قصه الله علينا لتكون لنا فيه  
أسوة ، إذ قال : ( وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به  
علم فلا تطعهما . وصاحبهما في الدنيا معروفاً ) ، وبعد ما أباح الله  
لنا في آخر ما أنزل على نبيه ﷺ نكاح الكتابيات . ولا يكون نكاح في  
قوم حتى تكون فيهم قرابة المصاهرة . ولا تكون تلك القرابة حتى تكون  
المودة . » ثم أورد محمد عبده في فتواه أمثلة كثيرة لاستعانة النبي ﷺ والخلفاء  
الراشدين ومن تبعهم من الأمويين والعباسيين بغير المسلمين من الذميين .  
مثل هذه الآراء قد تبدو في ظاهرها ولا بأس بها ولا غبار عليها ، بينما هي  
في حقيقة الأمر تدعو إلى مذهب التحرر ( Liberalism ) ، الذي يذهب في  
التسامح الديني إلى درجة تكاد تنمحي معها الحدود الفاصلة بين المذاهب والنحل .  
ولهذه النزعة أمثلة كثيرة فيما خلفه محمد عبده ، مثل قوله في ختام

١ - هذه الآية تنقض دعوى محمد عبده ولا تؤيدها . لأنها تنهى المسلم عن الاستعانة بالمستعمرين  
الذين غزوا دياره .

بعض دروسه في المنطق ، يحض على التفكير المتحرر ( Liberal ) الذي لا يوقر رأياً ، ولا ينتهي عند الحدود التي يُخشَى معها الزلل ، فيما يستعصي على طاقة العقل ويخرج عن حدود صلاحيته : (١)

« ما الذي يُعتق الأفكار من رِقها ، وينزع عنها السلاسل والأغلال ، لتكون حرة مطلقة ؟ ... الجواب على هذا السؤال يحتاج إلى شرح طويل. لأن تخليص الأفكار من الرق والعبودية من أصعب الأمور . ويمكن أن نقول فيه كلمة جامعة يرجعُ إليها كلُّ ما يقال ، وهي ( الشجاعة ) . الشجاع هو الذي لا يخاف في الحق لومة لائم . فمتى لاح له يصرخ به ويجاهر بنصرته ، وإن خالف بذلك الأولين والآخرين ... لا يرجع عن الحق أو يكتم الحق لأجل الناس إلا الذي لم يأخذ إلا بما قال الناس . ولا يمكن أن يأتي هذا من مُوقِنٍ يعرف الحق معرفة صحيحة . »

« إن استعمال الفكر والبصيرة في الدين يحتاج إلى الشجاعة وقوة الجنان ، وأن يكون طالب الحق صابراً ثابتاً لا ترعزعه المخاوف . فإن فكراً الإنسان لا يستعبده إلا الخوف من لوم الناس واحتقارهم له إذا هو خالفهم ، أو الخوف من الضلال إذا هو بحث بنفسه . وإذا كان لا بصيرة له ولا فهم ، فما يُدْريه ، لعل الذي هو فيه عَيْنُ الضلال . »

ومن أمثلة هذا الاتجاه أيضاً قوله في تزوين البحوث الإسلامية التي كتبها مفكرو الغرب من ( المستشرقين ) ، وهي بحوث متحررة لا تصدر عن تقليدٍ للإسلام أو توقيرٍ للسابقين المقدمين من رجاله : (٢)

« إننا لو أردنا أن نكتب في تاريخ علم الكلام مثلاً فلا يوجد في توارخنا مادةٌ تفي بالغرض . يذكرون أن واصل بن عطاء أول من تكلم في العقائد على مذهب المعتزلة ، واعتزل مجلس الحسن البصري . ولكن ما سبب ذلك ؟ من أين جاءه هذا الفكر الجديد ؟ وكيف انتشر هذا المذهب ؟ وما الذي

١ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٧٦٢ - ٧٦٣

٢ - المرجع السابق ١ : ٩٢٧

حدا بالشيخ أبي الحسن الأشعري للقول بأن الوجود عين الوجود؟ ومتى دخلت الفلسفة كتب العقائد؟ ... وماذا كان غرض العلماء من إدخال الفلسفة على العقول مع العقائد في وقت واحد؟ ... كل هذا يعسر علينا أن نعرفه من توارخنا. ويمكننا أن نعرف كثيراً من شؤون الإسلام وتاريخه من الكتب الإفرنجية. فإن فيها ما لا نجده في كتبنا. إن العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الإسلام من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر إلا إذا كان متقناً للغة من اللغات الأوروبية، تمكنه من الاطلاع على ما كتب أهلها في الإسلام وأهله من مدح وذم، وغير ذلك من العلوم.

ومن أمثلة هذا الاتجاه الذي يبرر الحضارة الغربية تبريراً إسلامياً قوله في إباحة الصور والتماثيل: (١)

« الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يُسمع. والشعر ضرب من الرسم الذي يُسمع ولا يرى. إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشؤون المختلفة، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية. يصورون الإنسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا، والطمأنينة والتسليم. وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض. ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً باهراً. »  
وبعد أن أفاض في بيان مزايا التصوير قال :

« ربما تعرّض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام، وهي : ما حكم هذه الصور في الشريعة الإسلامية، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية، أو أوضاعهم الجسمانية؟ ... هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب؟ ... فأقول لك إن الرسم قد رُسم، والفائدة محققة لا نزاع فيها، ومعنى العبادة

١ - المرجع السابق ٢ : ٤٩٨ - ٥٠٢ وراجع رأياً آخر كذلك في إباحة التصوير في مجلة الهداية عددي يونيو ويوليو سنة ١٩١١ ص ٤٨٩

وتعظيم التمثال أو الصورة قد مُحي من الأذهان . فإما أن تفهم الحكمة مر نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإما أن ترفع سؤالا إلى المفتي وهو يجيبك مشافهة . فإذا أوردت عليه حديث ( إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصوّرون ) أو ما في معناه مما ورد في الصحيح ، فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك إن الحديث جاء في أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسبيين : الأول اللهو ، والثاني التبرك بمثال من تُرسم صورته من الصالحين . والأول مما يبغضه الدين . والثاني مما جاء الإسلام لمحوه . والمصوّر في الحالين شاغل عن الله ، أو ممهد للإشراك به . فإذا زال العارضان وقُصِدَت الفائدة كان تصويرُ الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر ... ولا يمكنك أن تجيب المفتي بأن الصورة على كل حال مِظَنَّةُ العبادة ، فإني أظن أنه يقول لك إن لسانك أيضاً مظنة الكذب فهل يجب ربطه ، مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب؟ ... على أن المسلمين لا يسألون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها . وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء ، أو مَنْ سماهم بعضهم بالأولياء ، وهم ممن لا نعرف لهم سيرة ، ولم يطلع لهم أحد على سريرة . ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة ، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع ، وهم يخشونها كخشية الله أو أشد ، ويطلبون منها ما يخشون أن لا يجيبهم الله فيه ، ويظنون أنها أسرع إلى إجابتهم من عناية الله سبحانه وتعالى . لا شك أنه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد . ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الإنسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية ، وتمثيل الصور الذهنية . »

ويذكرنا ذلك كله بما جاء في تقرير اللورد كرومر في صدر مشروع مدرسة القضاء الشرعي ، الذي وضعه محمد عبده مع آخرين بتكليف منه ، حيث قال : « كنت أتصل بين الحين والحين بالبارون كالي حاكم البوسنة لتبادل الرأي في الموضوعات ذات الطابع المشترك . وقد استطعت أن أحصل - بفضل مساعدته ومساعدة خليفه - على معلومات وافية عن الكلية التي أنشأتها حكومة

النمسا والمجر في ساراجيفو لتخريج القضاة ( يقصد قضاة الشرع المسلمين ) ، وهي كلية قد أثبتت نجاحها من كل الوجوه . وقد وضعت هذه المعلومات تحت تصرف لجنة ذات كفاية ممتازة يرأسها المفتي الأكبر السابق ، ( يعني الشيخ محمد عبده ) بِقَصْدٍ وضع خطة مشابهة تلائم ظروف مصر وحاجاتها . وقد أتمت اللجنة عملها في شهر يونيه السابق . ووضعت النظم المقترحة تحت تصرف الحكومة . وهي الآن قيد البحث في وزارة العدل ( الحقانية وقتذاك ) . وهذه النظم تزود الطالب ببرامج ثقافية ذات طابع تحرري of a liberal character لا تحصر الطالب في الدراسات الدينية الخالصة<sup>(١)</sup> . « على أن هذه الفترة التي تلت عودته من المنفى لم تخل من أثر اتجاهه الأول في بعض ما دافع به عن الإسلام . وقد كان أشهر أعماله فيه رده على هانوتو ، الذي كتب مقالا عن الإسلام في معرض الحديث عن سياسة فرنسا في المستعمرات الإسلامية ، قارن فيه بين الإسلام والنصرانية . ونشرت ترجمة مقاله سنة ١٩٠٠ ، فرد عليه محمد عبده ردّاً طويلاً في ثلاث مقالات ، كانت حديث الناس وشغلهم في ذلك الوقت .

تكلم هانوتو في مقاله<sup>(٢)</sup> عن تاريخ النزاع بين الإسلام والمسيحية ، وتحقق الظفر للديانة الأخيرة في القرن التاسع عشر . وقال إن فرنسا قد صارت بكل مكان في صلة مع الإسلام ، بل صارت صدر الإسلام وكبده . فالإسلام يحيط بها في إفريقيا ، ويمتد في آسيا إلى الصين ، وهو قائم بأوروبا في الأستانة « حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية . ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض . » ثم قال إن المسلمين في سائر أقطار الأرض يتجهون إلى الكعبة ، وتجمعهم رابطة واحدة ، وأنهم يكرهون الدول المسيحية التي تحتلهم . فالدراويش يبذرون بذور الحقد والكراهية للدول المسيحية حيث

١ - تقرير سنة ١٩٠٥ الفقرة ٩٨ ص ٤٩ من الأصل الإنكليزي .

٢ - تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٤٠١ - ٤١٤ .

حلوا في تنقلاتهم بين البدو والقرى والمدن . وقال إن المتعصبين من المسلمين (مثل السنوسي) ، تقوم عقيدتهم على مبدأ كفاح غير المؤمنين . وعلى كراهية المدنية الحاضرة . وقد لبثوا زمناً مديداً لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين المسيحية من علاقات . وانتهى من هذا العرض إلى قوله : « توجد بالآستانة نفسها وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب . ونخشى أن تفترسنا إذا أغمضنا الطرف . »

ثم دخل هانوتو في موازنة بين الدينين ، فقال إن المسائل الأساسية في كل دين هي التي ترتبط بالقدر ، والمغفرة ، والحساب . وقال إن نظرة الأديان والمفكرين إلى هذه المسائل تتمثل في اتجاهين : اتجاه يقول بتناهي الربوبية في العظمة والعلو ، ويجعل الإنسان في حضيض الضعف ودرك الوهن . واتجاه آخر يرفع مرتبة الإنسان ويخوله حق القربى من الذات الإلهية ، بما فطر عليه من إيمان وإرادة ، وبما أتاه من أعمال صالحة ومن حسنات . ثم قال هانوتو إن نتيجة الاتجاه الأول هو تحريض الإنسان على إغفال شئون نفسه ، وبث القنوط في قلبه وتثبيط همته . أما الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني فهو يؤدي إلى الجلال والعمل . ومثل للاتجاه الأول بالديانة البوذية ، كما مثل للاتجاه الثاني بالثقافة اليونانية . ثم قال : إن المسيحية هي الوارثة لآثار الآريين ، وهي منقطعة الصلة بالمذاهب السامية ، وإن كانت مشتقة منها . أما الإسلام فهو متأثر بالمذهب السامي ، ولذلك فهو ينزل بالإنسان إلى أسفل الدرك ، ويرفع الإله عنه في علاءٍ لا نهاية له . وأصول الثالث السري مشتقة من ضرورة وجود إله بشري يحو ذنب الجنس البشري ، ويحمّل المسيحي على إتيان الأعمال التي تقربه من الله . أما الإسلام فهو يتمسك بالوحدانية ، ويرفض ذلك ، فيجعل المسلم كمن يهوي في الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ، ولا يملك في ذلك من حيلة غير متابعة الصلوات . فلفظ الإسلام معناه الاستسلام المطلق لإرادة الله .

ثم أشار هانوتو إلى اختلاف الباحثين والسياسيين الفرنسيين في تصور العلاقات التي تربطهم بالمسلمين . فالمسيو كيمون يعتقد أن « الإسلام جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً . بل هو مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولي ، يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء . » وهو يرى المسلمين وحوشاً ضارية . ويعتقد أن الواجب إبادة خمسهم ، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح « محمد » (١) في متحف اللوفر . والمسيو لوازون (القس ياسنت سابقاً) ، يعتقد أن الإسلام هو الدين المسيحي محسناً ومحوراً . فهو يعتبر الإسلام أرقى مبدأ وأسمى كعباً من المسيحية . وهناك فريق ثالث يتوسط بين الفريقين ، ويقول إن الإسلام قنطرة للأمم الإفريقية ، ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية .

ثم قال هانوتو إن هذه الآراء المتباينة هي التي أحدثت التناقض في أعمال فرنسا الاجتماعية والسياسية والإدارية . وطالب بأن تقوم السياسة الاستعمارية على الدراسة العميقة الدقيقة للشعوب الإسلامية وللإسلام . ثم قال إن الإسلام دين وسياسة ، وأن شعور المسلمين مبهم من حيث الجامعة السياسية أو الرابطة المدنية أو الوطنية . فالوطن عندهم في الإسلام . وهم يقولون إن السلطة مستمدة من الألوهية . فلا يجوز أن يتولاها إلا المسلمون . ثم أشار هانوتو إلى نجاح فرنسا في فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية في تونس . وقال إنها قد استطاعت أن تحقق هذا الانقلاب العظيم بلباقة وحذق ، دون أن تثير ضجيجاً أو تدمراً . فتوطدت دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس . وتسربت الأفكار الأوروبية بين السكان بدون أن يتألم منها إيمان المحمدي . وبذلك انفصم الحبل بين هذا البلد وبين البلاد الإسلامية الأخرى ، الشديدة الاتصال بعضها ببعض . ودعا في آخر مقاله إلى أن تتخذ تونس مثالا يقاس عليه ، ونموذجاً يُنَسَج على منواله .

ورد محمد عبده على مقال هانوتو في ثلاث مقالات .



أما المقال الأول فقد اتهم فيه هانوتو بتحريك نيران العداوة في الفرنسيين ، وإثارتهم على حرب المسلمين . ولفت إلى ذلك نظر الشباب المصري الذي يتعصب للثقافة الفرنسية . وقال محمد عبده إن أصل التمدن الآري هو الهند . وهم يعتقدون بفناء العالم ، وأنه لا يليق بالإنسان أن يهتم بشئون العيش . وقال إن الإسلام هو الذي حمل إلى أوروبا مدينيات العالم ، من فارس ومصر واليونان والرومان ، بعد أن صفاها وهذبها ، وذلك عن طريق الأندلس . ثم تساءل بعد ذلك عما يعني هانوتو من المقارنة بين المدينة السامية والمدينة الآرية . فليس هناك علاقة بين الدين المسيحي وبين المدينة الحاضرة . فالإنجيل يأمر أتباعه بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها . ويوجب عليهم إذا سلبهم السالب قميصاً أن يعطوه الرداء أيضاً ، وإذا ضربهم الضارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الأيسر . ويقص عليهم أن دخول الجحيم في سَمِّ الحياض أيسرُ من دخول الغني في ملكوت السماوات . فهل تقوم المدينة الأوربية على هذا الأساس ؟ . . . ثم قال : إن الفينيقيين من الساميين . وهم أساتذة العالم في الصناعة والتجارة ، بل القراءة والكتابة . ومنهم الآراميون . وقد كانت لهم مدينة لا تُنكَّر أيام الرومانيين . ولا زالت الأمم يأخذ بعضها من بعض في المدينة ، لا فرق في ذلك بين آري وسامي . ثم أشار محمد عبده إلى ما قرره هانوتو من أن الدين الإسلامي يراد به التوحيد ، والدين الآري يُقصد به ما يقابله . وقال إن هذا خطأ واضح ، لأن التوحيد هو دين عبراني فقط . عُرف به إبراهيم وبنوه ، ومنهم عيسى . أما بقية الساميين من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة في الكتاب المقدس فقد كانوا وثنيين مشبهين <sup>(١)</sup> .

وتناول محمد عبده في مقاله الثاني <sup>(٢)</sup> مناقشة مسألة القدر والجبر عند الآريين والساميين ، أو النصارى والمسلمين ، فقال إن الآرية والسامية لا

١ - تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٤١٥ - ٤٢٠

٢ - المرجع السابق ٢ : ٤٢٠ - ٤٢٤

دخل لهما في هذه المشكلة ، فقد عظم الخلاف فيها بين المسيحيين أنفسهم . ثم قال إننا لا نعرف يهودياً استلقى على قفاه ، وترك العمل اتكالا على القدر . ولكن نعرف ذلك في الأديرة وبين الرهبان . ونعرف بين المذاهب اليونانية ما يذهب إلى أن الأشياء توجد بالاتفاق والمصادفة ، ولا يحتاج الممِكنُ في وجوده إلى سبب . وذلك الاعتقاد أدخل في باب الجبرية من إسناد كل أمرٍ إلى خالق الكون . ثم بيّن أن النبي وأصحابه جاهدوا في سبيل نشر الدعوة ، ولم يكتفوا بالتسليم للقدر في إتمامها ، قائلين إن الذي كفل لهم النصر يكفيهم التعب . كما بيّن أن الآريين الذين دخلوا في الإسلام ، من فرس ورومان ، هم الذين أفسدوا العقائد الإسلامية ، فأدخلوا فيها ما ليس منها . وأن الأوهام التي يبثها المتصوفة في الدين ترجع إلى أصولٍ فارسية وهندية .

أما المقال الثالث ، فقد تناول فيه التوحيد والتنزيه ، وتجسد الألوهية والتشبيه ،<sup>(١)</sup> فقال إن الوثنية وتوهم السلطان الإلهي ظاهراً في بعض الموجودات المادية ، كان عقيدة الواقفين على أبواب الإنسانية ، لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها . وكلما ارتقى الإنسان في العلم ، تمزقت دون روحه حُجُبُ المادة وانجلي له الوجود الأعلى . وقد كان هذا شأن اليونانيين ، حتى جاء سقراط وأفلاطون وأرسطو . وكذلك كان المصريون ، لم يقف بهم العلم دون التوحيد . غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم ، واستبقوا صور العبادات الأولى . ثم بيّن أن أهل التشبيه قسман : قسم يعتقد بالألوهية بعض الموجودات المشهودة ، وقسم آخر يعتقد أن باري الكون يظهر فيها . وبين هذين قسم ثالث ، يعتقدون بالوسائط ، ويقيسون الله على الكبراء وأهل السمو منهم ، فيتخذون بعض من يظنون بهم القرب من الله شفعاء ، يلجئون إليهم ليقرّبوهم منه سبحانه . وهؤلاء قد استعبدوا أنفسهم للسادن والكاهن وللزعماء ووارثيهم ، واستسلموا لهم في جميع شؤونهم . ثم قال إن ربط

١ - المرجع السابق ٢ : ٤٢٥ - ٤٣٢

هانوتو بين المسيحية وبين الديانة اليونانية باطل ، لأن المسيحية بذات وسعها في بداية أمرها لتطهير الأرض من الوثنية . وكان التنزيه قوام دعوتها ، ولم تظهر آثار التشبيه إلا بعد قرون من نشأتها وقال إن من المسيحيين الآن - مثل بعض طوائف البروتستانت - من يعتقد أن المسيح لم يكن إلا نبياً مختاراً بعثه الله لخلاص البشر . ومن غير المعقول أن تجاهد المسيحية من حولها من الوثنيين ، لتخرجهم من وثنية إلى وثنية . أما الإسلام فقد دعا إلى التوحيد . وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من كَدُنْ آدم ونوح وإبراهيم إلى موسى . ثم هو دين الأنبياء بعد موسى ، ودين خاتم رسل إسرائيل عيسى عليه السلام . ولم يُنكِر الإسلام أن في اليهود وفي المسيحيين خصوصاً أهل تنزيه . وذكر أن منهم من مال إلى التشبيه ، ودعاه إلى الرجوع لأصل دينه ، حتى يقوم بالعبادة وحده ، ويُعْتَق من سلطة الرؤساء والرعماء ، الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه ووهمه . وبهذه العقيدة التي تدعو إلى التوحيد فتح المسلمون الدنيا ، وجالوا في علوم السماوات والأرض ، فنبغوا في مختلف فروع العلوم . وإنما فسدوا وتأخروا حين فسدت عقيدتهم ودخل فيها ما ليس منها . ورد محمد عبده على ما توهمه هانوتو ، من أن الإسلام قد قطع الصلة بين العبد وربّه ، فقال إن الإسلام قد أفضى بالعبد إلى ربّه ، وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبّيعه رضاه . ثم قال إن ثورة المستعمرات لا ترجع إلى أن فرنسا مسيحية . فلو أسلمت الأمة الفرنسية بأسرها ، ثم كانت معاملتها لغير الفرنسيين على ما نعهد في الجزائر ومدغشقر ، لما أحبها أهل المستعمرات ولا مالوا إليها .

وبعد هذا المقال ، انبرت جريدة (الأهرام) لمناقشة محمد عبده والرد عليه ، زاعمة أنه بنى ردة على ترجمة محرفة لكلام هانوتو . ولما اطلع هانوتو على ما جاء في النسخة الفرنسية من الأهرام ، كتب مقالا جديداً نشرت (المؤيد) ترجمته ، حاول فيه الاعتذار عما رُمي به من إغراء دولته بالمسلمين . وقال إنه لم يحاول فيما قال إلا الإصلاح وإقامة السلام . ثم نشر (الأهرام)

بعد ذلك حديثاً لصاحبه مع هانوتو قال فيه : إنه روى آراء كيمون ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ، وهو لا يعتقد بها . وقال إن أوروبا لم تتقدم إلا بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية . ونصح الشرق بأن يحذو حذو أوروبا ورد بعض مفاسد الشرق إلى أسلوب الحكم العثماني . كما رده إلى ما يتوهمون من أنهم يستطيعون تحقيق النجاح باستغلال ما بين الدول الأوروبية من تنافس من خصومة ، وبإقامة البراهين على عدالة قضيتهم . والواقع أن الدول الأوروبية لا تهمها العدالة ، ولكن تهمها مصالحها الاستعمارية . ونصح الشرقيين بأن ينهجوا نهج أوروبا كما فعلت اليابان ، فيعملوا على نشر العلوم العصرية في بلادهم ، وعلى إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب . وقال إن العبرة ليست في إقامة المدارس ونشرها ، ولكنها في وضع مناهج الدراسة السليمة . وختم مقاله بأن السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية ، وهي التي كانت قاعدة أوروبا الأولى في سياستها ، وبها تقدمت وتمدنت ونجحت (١) .

ورد محمد عبده على هذا المقال الأخير في ثلاث مقالات أخرى شرح فيها علل الأمم الإسلامية ، ورسم الطريق لعلاجها (٢) .

وقد ظل أصدقاء محمد عبده وأنصار دعوته يكثرون بما يلقون من تشجيع الإنكليز الذين كانوا يمكنون لهم في إدارات الحكومة وفي مناصب الدولة الكبرى (٣) ، وبما يجدون من تأييد الثقافة الحديثة التي تشد أزرها الصحف والمجلات والمدارس . وظل خصومه ومعارضو دعوته يقلون ويضعفون بمناوأة الإنكليز لهم ومحاربة أجهزة التعليم والثقافة لآرائهم . حتى أصبح اسم محمد عبده مقترناً في أكثر الأذهان بالإصلاح المستنير ، وأصبح اسم معارضيه

١ - المرجع السابق ٢ : ٤٤٠ - ٤٤٨

٢ - المرجع السابق ٢ : ٤٤٩ - ٤٦٨

٣ - راجع ما جاء في تقارير كرور السنوية بمناسبة تعيين سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف . تقرير سنة ١٩٠٦ الفقرة ٣ تحت عنوان Egyptian Nationalism ص ٨ وراجع كذلك كتابنا ( الإسلام والحضارة الغربية ) ص ٩٢ وما بعدها

مقرناً بالتزمت وضيق الأفق المُفسدِ لسماحة الإسلام .

وقد ظهر صدى ذلك في الشعر الذي قيل في رثاء محمد عبده . فقد أشاد الشعراء الذين شاركوا فيه بفضله على النهضة الإسلامية . فمن ذلك قول حافظ إبراهيم في رثائه ، مشيراً إلى منهجه الجديد في التفسير وإلى توفيقه بين العلم والدين ، وما لقي في ذلك من أذى <sup>(١)</sup> :

وَأَذَوَكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَأُنْكَرُوا مَكَانَكَ حَتَّى سَوَّدُوا الصَّفَحَاتِ  
رَأَيْتَ الْأَذَى فِي جَانِبِ اللَّهِ لَذَةً وَرُحْتَ وَلَمْ تَهْمُمْ لَهُ بِشَكَاةٍ  
لَقَدْ كُنْتَ فِيهِمْ كَوَكْباً فِي غِيَابِهِ وَمَعْرِفَةً فِي أَنْفُسِ نَكِيرَاتِ  
أَبْنَتْ لَنَا التَّنْزِيلَ حُكْماً وَحِكْماً وَفَرَّقَتْ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلُمَاتِ  
وَوَفَّقَتْ بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ وَالْحُجَا فَأُطْلِعْتَ نُوراً مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِ  
وَقَفَّتْ (لَهَانُوتُو) وَ(رَيْنَان) وَقَفَّةً أَمْدَكَ فِيهَا الرُّوحُ بِالنَّفَحَاتِ

ومن ذلك رثاء الكاشف ، الذي أشار فيه إلى ما ذهب إليه محمد عبده من أن صلاح الأمة بصلاح الرعية لا السلطان ، وإلى ما غرس في المسلمين من روح التسامح الذي يتفق مع حقيقة الإسلام . كما أشار إلى عبارته المشهورة « لا يصلح الشرق إلا مستبدٌ عادل » ، ودافع عما اتهم به خصومه من موالة الإنكليز ، فقال <sup>(٢)</sup> :

فَأَرَيْتَ أَهْلَ الشَّرْقِ أَنْ صَلَاحَهُمْ بِنَفْسِهِمْ لَا بِالْمُلُوكِ مُوَكَّدَ  
وَأَبْنَتْ لِلْمَغْلُوبِ عِلَّةَ عَجْزِهِ وَمِرَاسَ غَالِبِهِ فَهَمٌّ يَقْلُدُ  
مِنْ بَعْدِ مَا أَمْضَى اللَّيَالِي نَحَائِفًا مَرَقَبًا أَوْ ذَا شَكَاةٍ يَحْقِيقُ  
وَأَضْلَهُ نَقَرَ يَرُونَ نَجَاتَهُ فِي أَنْ يَسْبُوا مِنْ بَغْيٍ وَيَعْرِبِدُوا  
... يَتَطَلَّبُ الدِّسْتُورَ أَقْوَامٌ ، وَلَوْ وَلَّيْتَ حُكْمَ شُعُوبٍ قِصَرَ أَخْلَدُوا  
وَعَدَا يَتَوَدُّ غَلَاتُهُ وَحُمَاتُهُ لَوْ أَطْلَقُوا لَكَ أَمْرَهُمْ وَتَقَيَّدُوا

١ - ديوان حافظ ٢ : ١٤

٢ - ديوان الكاشف ٢ : ١٢٢ - ١٢٤

وقضيت فيهم مستبداً عادلاً فجمعت شملهم وأنت المفرد<sup>(١)</sup>  
 ... أنصفت حتى ما يسير لمسلم متنصر حقداً ولا متهوداً  
 ما قمت بالإصلاح إلا بعد ما قدرت قوة من يكيد ويؤسّد  
 وجعلت عفوك عن عداتك سنةً للقادرين بها إليهم تعهد  
 ما الحرب تقتيل العدا، لكنها نزع الحكيم من الورى ما عودوا

\*\*\*\*\*

وظهر صدى دعوة محمد عبده في كثير مما كتبه تلاميذه ومعاصروه.  
 فمن ذلك ما كتبه رفيق العظم (وهو أحد تلاميذه) رداً على مقال عبد القادر  
 حمزة : « خطر علينا وعلى الدين » الذي أشرنا إليه في صدر هذا الفصل .  
 فدعا في مقاله إلى تنقيح الدين وتهذيبه على غرار ما حدث في أوروبا قبيل  
 ما يسمونه عصر النهضة في القرن السادس عشر ، حتى يصبح - حسب  
 زعمه - ملائماً للعصر وصالحاً للحياة .<sup>(٢)</sup> بين رفيق العظم في مقاله أن  
 نهضتنا الصحيحة لا يمكن أن تقوم إلا على أساس الدين بعد تنقيته من  
 الشوائب ، وأن الذين يطالبون بعدم إقحام الدين في شئون الحياة لا يفرقون  
 بين الدين في حقيقته ، وبين الدين كما انتهى إليه أمره ، ولا يميزون بين  
 المصلحين من علماء الدين ، وبين المتنطعين من الجاهدين الذين يدافعون عن  
 بدع مستحدثة وعادات بالية فاسدة يسمونها الدين . ثم رد على الذين يزعمون  
 أن سبيل الإصلاح هو في اتباع الغربيين الذين نبذوا الدين ، فقال :

« رب قائل يقول : ما أغنى هؤلاء المصلحين عن إصلاح الدين ، وأحرامهم  
 بالدعوة إلى إصلاح أمر الدنيا ، وبيان وجوه الخير والسعادة ، التي تتم بها سعادة

١- راجع مقاله « إنما ينهض بالشرق مستبد عادل » تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٩٠ وقد  
 تمنى فيه أن يحكم مصر دكتاتور صالح لمدة خمس عشرة سنة ، وهي سن مولود يبلغ الحلم ،  
 يولد فيها الفكر الصالح ، وينمو تحت رعاية الوالي الصالح ، الذي يحمل الناس على رأيه  
 في منافعهم بالرهبة ، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة .

٢- المقتطف عدد مايو سنة ١٩٠٤ ص ٤٠٢ - ٤١٠

الامم الراقية التي نبذت الدين . فالحواب عن ذلك أن المرض إنما يزول بزوال سببه . وإذا علمنا أن سبب انحطاط المسلمين اتخاذهم البدع والعوائد ديناً ، وهي ليست من الدين . واستسلامهم بسبب ذلك للرضا بما وجدوا عليه آباءهم الأولين ، لزمنا أن نسعى بإزالة السبب . ومتى زال ونشطت العقول من عقال الأسر للعوائد ، والإغراق في الاستسلام لكل ما يقال إنه من الدين ، حق وقتئذ على العقلاء والمصلحين أن يحولوا وجهتهم إلى الإصلاح المدني . إذ يجدون يومئذ كل الأمة آذاناً مصغية لما يقولون ، وقلوباً واعية لما به ينطقون .

ومضى الكاتب في بسط نظريته التي تقوم على أن الإصلاح المدني يستبَع الإصلاح الديني . وأن المجتمع القوي الناجح لا يقوم إلا على أساس العقيدة السليمة ، مؤيداً رأيه بالنظر إلى تاريخ النهضة الأوربية نفسها ، التي يدعو بعض المصلحين إلى اقتفاء آثارها . فقد بدأت هذه النهضة في القرن السادس عشر الميلادي بالإصلاح الديني الذي دعا فيه لوثر إلى ترك البدع الدينية ، وتطهير العقائد من شوائب الحشو القاتلة للعقول . ثم كان الإصلاح المدني من بعد نتيجة لهذا الإصلاح الديني الذي أطلق العقل من قيود السيطرة الجائرة ، بمثل ما كان الإصلاح السياسي نتيجة للثورة الفرنسية .

ثم تتبع رفيق العظم تاريخ دخول البدع على الدين مما استدعى ظهور طائفة من المتشددين ، فرأى أن الإسلام كان في أوله سهلاً يسيراً ، لا يزيد على أن يلقن الداخل فيه كلمة التوحيد ، ويعلم أركان الصلاة ، ويؤمر بحفظ شيء من القرآن ، ثم يقال له : هذا هو الإسلام في بساطته ويسره . وكان المتفقهون قلة من الصحابة . ولم يكونوا يجاوزون في فقههم واقع الأمر الذي يعين على معرفة أحكام الدين . فلما دخل كثير من الوثنيين وأهل الكتاب في الدين ، نقلوا معهم جملة من الآراء الفلسفية والبدع العقلية ، مثل بدعة معبد الجهنني وغيلان الدمشقي في القول بالقدر (واختلف أرباب المقالات بين جبرية وقدرية ومشبهة وما لا يعد من الفرق التي جمعها الإسلام . وفرقتها الوثنية والابتداع . ) و ( رأى ذلك فريق آخر من الأمة

فهاهم ما رأوا . فنادوا : واغيرناه على الدين . وبالغوا في الإنذار والتحذير  
وقول : هذ حلال وهذا حرام ، وهذا يمس الدين ، وهذا تقليد للوثنيين ،  
وهذا يشكك المسلمين . حتى أخرجوا صدر الأمة ، بالصاقهم كل شيء  
بالدين . فالقيام والقعود والأكل والشرب والتخاطب والتعامل والعلم والتعلم  
كله بالدين ومن الدين وللدين . وبالحملة لم يدعوا شيئاً من العوائد إلا أدخلوه  
في الدين . »

وخلص رفيق العظم من كلامه إلى الإجابة على السؤال الذي ختم به  
عبد القادر حمزة مقاله ( هل في النداء بالدين فائدة ؟ ... ) فأجاب على ذلك  
بأن الكاتب قد أخطأ حين فهم أن المنادين بالدين كلهم يدعون إلى التمسك  
به على ما دخله من الحشو واللغو المضر . فنحن في حاجة إلى النداء باصلاح  
الدين لا النداء بالدين مطلقاً كما ظن . « وإنما ينفع النداء بالدين ، إذا امتاز  
تجار الدين والمتعصبون للتقاليد ، عن علماء الدين والإصلاح الغيورين ، وتركوهم  
وشأنهم في الدعوة إلى تطهير العقول من أدران الاعتقاد الباطل الذي تلبس  
به سواد الأمة ، فأصبحوا بعيدين عن قبول السعادة المدنية بُعْدَ الأرض  
عن السماء . »

وتابع عبد العزيز جاويش أستاذه الشيخ محمد عبده في منهجه ، فأنشأ  
مجلة ( الهداية ) سنة ١٩١٠ . وأخذ يفسر فيها القرآن على أسلوب شيخه ،  
في تقريب الإسلام من قِيسَم العصر وثقافته ، التي هي في حقيقة أمرها مستمدة  
من قِيسَم الغرب وثقافته . وأفسح من صفحات مجلته للمترجم من الثقافات  
الغربية الحديثة في التربية والاجتماع والدراسات النفسية والأدب شعره ونثره .  
أما ما كان يُنشر في المجلة من مقالات إسلامية فبعضه يستهدف تقريب  
الدين من الثقافة الغربية الحديثة . وبعضه يستهدف تقريبه من المدنية الغربية  
ليطابق أنماط الحياة السائدة . فمما نشرته المجلة في تقريب الإسلام من الثقافة  
الغربية الحديثة مقال للشيخ طنطاوي جوهرى في التوفيق بين الإسلام وبين



مذهب دارون في التطور ، يقول فيه : (١)

« إني قرأت تلك المحاورات . وعلمت ما في تلك القضايا ، ولم أر شيئاً يغير الدين ، ولا فكراً يضر بعقائد المسلمين . فالإسلام يأمر الناس باليقين ، ولا يقين إلا بالعلوم التي يسميها الناس "عصرية" ، وهي في الحقيقة علوم إسلامية . »  
ثم يقول :

« إن الإيمان بالله تعالى قضية كلية لا يناقضها مذهب من المذاهب ، ولا ينافيها منهج من المناهج . فإذا قلت إن الله وضع العالم منظماً مرتباً سائراً على القانون والترتيب والحكمة والتناسق ، كما هو القضية الأولى (٢) ، أو قلت إن الخيل والحمر تولد بينهما بغل ، فلا كفران ولا خسران . كل ذلك حكمة إلهية وعجائب حكمية . وما يكفر بتلك القضايا إلا المتوسطون في العلم ، الذين لم يرتقوا إلى طبقات الحكماء . فإن عقولهم لا تسع نظاماً وترتيباً وإلهاً قادراً حكيماً . ومثلهم كمثل العامة الذين لا تسع عقولهم أن تتصور تأثير العقاقير في الأمراض ، ويكتفون بالإيمان ، وهم جاهلون بنظام العالم وحكمته وترتيبه . »

ثم رد نظرية دارون في التطور الى علماء المسلمين فقال :  
« قد علمتم أن مذهب دارون قد رجع إلى قضيتين اثنتين ، وهما لا ينافيان الألوهية (٣) . فدلالة العالم المنظم على الله قضية كلية لا يختلف فيها المحققون ، وإن غفل عنها الكثيرون . ولقد كانت هذه القضية الناموسية سرّاً مكنوناً عند علماء الإسلام ، كم أخفوها عن العوام . وتسمى عند

١ - الهداية عدد أكتوبر سنة ١٩١٠ ص ٥٨٣ - ٥٩٦ .

٢ - رد الكاتب في مقاله مذهب دارون إلى قضيتين : أولاهما أن العوالم العضوية من النبات والحيوان والإنسان متشابهة منتظمة متناسقة ، يتصل أولها بآخرها . وثانيتهما هي أن الأجناس العليا مشتقة من الأجناس الدنيا . ومسألة القرد والإنسان جزء من آلاف من تلك القضية . وترجع كلها إلى التوالد الذاتي من الجماد .

٣ - القضيتان اللتان أشرت إليهما في الهامش السابق .

علمائهم ( دائرة الوجود ) وعند أهل السنة والمعتزلة بالقضاء والقدر ، وتسمى في القرآن بالميزان . ووردَ الترتيبُ النظاميُّ بذكر الإنسان فالحيوان فالنبات فالسماوات وكواكبها وشموسها في سورة النحل ، رجوعاً بالعوالم من أواخرها إلى أوائلها ، وهذا عجب عجاب . وقد قال الغوالي رحمه الله : لا يعرف هذا السيرَ إلا المحققون الذين درسوا أكثر العلوم . »

ودعا طنطاوي جوهري علماء المسلمين وشبابهم إلى الاستعانة على توثيق إيمانهم بدراسة العلوم . « فقراءة التشریح والطبیعة والكیمیاء وسائر العلوم العصرية ، ودراسة الحيوان والنبات والإنسان ، أجلُّ عبادة . وهي أفضل من سائر القُرُبات كما شرحه العلماء . وهي أفضل من صلاة النافلة والإحسان للفقراء . ولولا قصورُ علماء القرون الماضية ما ضاع المسلمون ، وما أحاطت بهم عادات الدهر ، ولا أصابتهم كوارث الحدثن (١) . »

ورد على ما يزعم الزاعمون من أن دراسة العلوم الطبيعية تورث الزيغ عن الدين وزعزعة اليقين فقال :

« إن أولئك الملحدین أحد اثنین . إما رجل جهل الطبيعة ودرس قشورها فهو من الشاكِّين . وإما رجل ضعفت قوته الحاكمة ، فملأ عقله بالمحفوظات ، وليس له من قوة الحكم من نصيب . إن بعض الشرقيين أسرعوا إلى الإلحاد لقلة بضاعتهم من العلوم . ( علوم الطبيعة يقينٌ للحكماء ، شكٌ لمن دونهم ) . فما مثلهم إلا كالحفافيش أو الفَرَاش يهرها ضوءُ الشمس ، أو كالفقير أصابه الغنى فجأةً ، أو كثيرون الأسباب بهرَّتْها بعد حبسها حمرة الألوان . هذه طبائع بعض الإنسان . ومن الناس من يمل من هذا الكلام ، إما لفسوقٍ فيه ، وإما لكبرٍ وخيلاء ، لئلا يقول الناس رجوع عن رأيه . وإما ليتظاهر بأنه أعلمُ مَنْ حوله من العالمين . وما درى المسكين أن الإنكار أسهل شيء على الجاهلين . وليس يُعوِّزه إلا العنادُ الذي ماله من نَفَاد . »

١- راجع أم القرى ص ٣٧ - ٣٨ ، طبائع الاستبداد ص ٣٤ - ٣٦ في بعض الأمثلة على ما يستفيدة علماء الدين من العلوم الحديثة في فهم دينهم ، وما كشف عنه العلم الحديث من بعض أسرار القرآن ، كما يذهب إليه الكواكبي .

ومما نشرته ( الهداية ) في التوفيق بين الدين وبين حضارة الغرب التي تغاير حضارة المسلمين وأنماط حياتهم مقال لعبد القادر المغربي في حجاب المرأة (١) ، بين فيه أن الغرض من الحجاب في الإسلام هو صيانة كرامة النساء وتوفير حرمة الأعراض . وأن الإسلام لم يحدد له صورة خاصة وكيفية بعينها . وإنما نهى عن التبرج وعن الخلوة بالأجنبي . ولكن المسلمين جروا في حجاب نسائهم على طرائق اختلفت باختلاف بيئاتهم وأقطارهم وعمرانهم وأمزجتهم وسائر المؤثرات التي تحيطهم . وأورد أمثلة كثيرة على جواز السفور . منها أن النبي ﷺ شهد وليمة عرس ، وكانت العروس نفسها تخدم المدعوين . ومنها أن زوجة عبد الله بن عمر كانت تنزل إلى المسجد فتصلي الفجر غلساً . ومنها أن أبا بكر كان يجتمع بالنساء الأجنيات ويحادثهن . وأن سفيان الثوري وأضرابه كانوا يزورون رابعة العدوية ويسمعون كلامها . وأن عائشة الباعونية (في القرن الحادي عشر من الهجرة) كانت تقرأ درساً عاماً في الجامع الأموي بدمشق ، وكان يحضر درسها العلماء والصُلَحَاءُ وعامةُ الناس . وأن عمر بن الخطاب كان إذا رأى امرأة مُرْخِيَةً قناعاً على وجهها كشف القناع ونظر إليها فإن وجدها جميلة أقرها ، وإلا ألزمها بالسفور وترك القناع . وأن عائشة بنت طلحة كانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها (أي أنها تشعر من نفسها بأنها أعظم من أن يحدث نفسه بها فاسق) ، وأن سُكَيْنة بنت الحسين كانت تجالس الجِلَّةَ من قريش ، ويجتمع إليها الشعراء ، وتأذن للناس إذناً عاماً حتى تغص بهم الدار ، فتأمر لهم بالطعام ، ثم تسأل الشعراء وتنقد أعمالهم .

ومما كتبه عبد العزيز جاویش في تدعيم هذا الاتجاه خطابُه الذي ألقاه في المؤتمر المصري سنة ١٩١١ ونادى فيه بوجوب مراعاة أحوال الزمان

١ - الهداية . عدد ديسمبر سنة ١٩١٠ ص ٧٠٩ ٧١٤ وكل ما أورده من أشلة يحتاج إلى مراجعة ومناقشة . فبعضه مروي عن غير ثقات . وبعضه مما لا تقوم به الحجة . وبعضه الآخر مما انتزع من سياقه وحرف عن وجهه .

والمكان في تطبيق الشريعة الغراء . وقد جاء فيه (١)

« ألا ليهدأ روع أولئك الذين يتتقنون غيرةً على الدين كلما عرضتْ حال يدعو فيها داع إلى الإصلاح ، واهمين أنه لا يكون شيء من ضروب الإصلاحات إلا حيث يكون المساسُ بأحد أصول الدين . وإذا لم يكن بدم من أن يغار ، فإن أحتق ما تحقق عليه غيرةُ المؤمن ، بل أولى ما تَسْكُبُ عليه حباتُ القلوب دماً من المحاجر ، هذا الشرعُ الذي لتحقيق به التوهين ، وتلك الأمة التي كادت تكون في الغابرين . ليهدأ روعُهُم ، وليخففوا عنهم بعض ما بهم ، وليعلموا أن من الواجب تطهير الشرع من بعض الأحكام الاستنباطية ، التي قررها نفر من أهل العلم ، دون رعاية للمصلحة العامة ، التي هي أصلٌ من أصول الشرع الشريف ... »

« لقد سنّت لنا شريعتنا أن نأخذ بالأصلح الملائم للأزمة والأمكنة ، حتى لا يكون على الناس حرج ولا ضرار . بل رخصت أن يُعدّل عن النص ، إذا ثبت ثبوتاً قاطعاً أن الضرورة توجب هذا العدول ، وكانت المصلحة التي تنتج من اتباع النص أقل مما ينتج هذا العدول . »

ثم ذهب الكاتب إلى أن قوانين الشرع عامة كلية ، وأن الذي نُصّ عليه فيها من أحكام التعامل قليل ، وأن الباقي تُرك للاستنباط ما يناسب الضرورات والحاجات التي ستجِدُ للناس . كما زعم أن تقييد الناس بآراء الفقهاء الأقدمين ، الذين استنبطوا من الأحكام ما يناسب أحوال زمانهم ، قد أوقع الناس في حرج لا مُسَوِّغ له من الشرع ، واضطربهم إلى الأخذ بنُظُم الأمم الغربية . وقدم في مقاله أمثلة لعدول النبي ﷺ والصحابه عليهم رضوان الله عن قاعدة الشرع رعاية للأصلح . منها أن النبي ﷺ نهى أن تُقَطَّع الأيدي في الحد في حالة استثنائية هي الحرب . ومنها أن عمر رضي

١ - الهداية عدد مايو سنة ١٩١١ ص ٢٩٧ - ٣١٢ ، مجموعة أعمال المؤتمر المصري الأول

ص ١٢٥ - ١٣١ .

الله عنه نهى أن يجلد في حدٍّ من كان يباشر الحرب. (١) ومنها إسقاط الحد في عام المجاعة . ودعا الفقهاء إلى الخروج عن عزلتهم ، وإلى دراسة المجتمع ، ليتعرفوا أعراضه وأطواره ، كما دعاهم إلى الاختلاط بسائر طبقات الأمة ليعرفوا عناصر الحياة الاجتماعية ، ومِمَّ تتركب ، وكيف تمتزج ، وما يطرأ عليها من التغيرات ، وكيف تترقى . وطلب إليهم أن يرجعوا لأهل الرأي من الأمة ليستعينوا بهم على مراعاة المصلحة العامة ، فيكون تقريرهم مجتمعاً عليه ، لانطباقه على الحاجات المتنوعة والضرورات المتعددة .

وأخذ عبد العزيز جاويش في تفسيره للقرآن يسير على منهج الشيخ محمد عبده في ربطه بالظروف القائمة ، متنقلاً في ذلك بين التاريخ والأدب والاجتماع والسياسة . فمن ذلك بيانه أن حكمة الله قد اقتضت أن لا يلي الأرض إلا المصلحون ، وذلك في تفسيره لقوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة) . قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدسُّ لك؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلمَ آدمَ الأسماءَ كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلمُ غيب السماوات والأرض ، وأعلمُ ما تُبدون وما كنتم تكتمون . ) وقد جاء في تفسيره: (٢)

« كيف تكفرون بالله بعد إذ أرادت الملائكة أن تكون لهم الخلافة في الأرض دون البشر ، وذلك لمكانتهم من الله تعالى ، ولعكوفهم على عبادتهم وتسبيحهم بحمده وتقديسهم له ، فبين الله لهم أن شرائط الخلافة في الأرض ليست تقطع الليل في التسبيح والتهجد ، ولا قضاء الأعمار في الحفوف من

١ - خطأ الكاتب هنا واضح . وهو ناشئ عن إقامة الاستثناء الشاذ مقام الأصل . والشاذ لا يقاس عليه .

٢ - الهداية عدد فبراير سنة ١٩١٠ ص ٦٨ - ٧٦

حول العرش . وإنما شرائط الاستيلاء على الأرض ، والاستمتاع بما على ظهرها ، والتصرف فيما تضمّنه جوفها ، لا تكاد تخرج عن وجود العقل المفكّر ، وما زوّد الله به نبي آدم من الجوارح والنظام البديع ... لو أن عمران الأرض واستحقاق الخلافة فيها كانا معقودين بمجرد طاعة طائفة من عباده ، وانهما كهم في تسيّحه وتقديسه ، والتزامهم لقواعد عرشه الرفيع ، لاختص الله من عباده بذلك ملائكته المقربين ، الذين لا يَعْصُونَ الله ما أَمَرَهُمْ ويفعلون ما يؤمرون . ولكنه تعالى سبقت حكمته أن لا يرث الأرض إلا العاملون ، الذين يستخدمون مواهبهم العقلية والجسمية فيما خلقت له ، والذين لا يطلبون الغايات إلا من طرائقها الطبيعية... وإذا كانت هذه هي سنّته القديمة ، وتعاليمه التي هدى إليها الأخيار من ملائكته ، فعلام يستند جهال المسلمين من خاصتهم وعامتهم ، إذ يحاولون أن يدفعوا عنهم غارات المغيرين بتلاوة الآيات ورمي الجمرات واستصراخ الأموات ؟ وإذا يقابلون تهاطل الرصاص وتقاطر الجلل وانفجار كرات (الديناميت) بقراءة السور ومدارسة البخاري والابتهاال بالدعوات ، وقطع الأوقات بالركعات والسجادات ، وتأبط (الجلجلوتية) و(حزب البحر) وأشباهاها ، مما لم يأت به من الله سلطان ، ولا يتقبله عقل إنسان ؟ ... علام يستند أولئك الذين عطّلوا سنة الله الفطرية ، واستمسكوا بسخافات الخرافات ، وتربّصوا خوارق العادات ، وما لم يأذن به الله من المنسجيات ؟ ... وليت شعري ماذا أفادتهم اللّحى الكثّة المرسلة ، أو السبح الغليظة المتدلّية ؟ ثم ماذا أفادتهم يقظات الأسحار ، وقد استغرق منامهم سائر النهار ؟ وهل ينفعهم التعفف عن الدرهم والدينار ، إذا تركوهما لأعداء بلادهم ودينهم ، يحاربونهم بها ، ويملكون رقابهم بمُحكّم أطواقها ؟ ... لقد والله ذلّ من يُغني أعداءه ويُفقّر نفسه ، كما ذلّ من يترك لخصومه ميادين المنافسة ، ينفردون فيها بالكر والفر ، والنهي والأمر ، والتصرف في كل شأن . »

ومن ذلك إبرازه لما ينطوي عليه الإسلام من تسامح ، وذلك في تفسير

قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ، مَنْ آمَنَ  
بِالله واليوم الآخرِ وَعَمِلَ صَالِحًا، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ. وَلَا خَوْفٌ  
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.) إذ جاء في تفسيره : (١)

« وما كان الله ليظلم هؤلاء ليهوديتهم ولا أولئك لنصرانيتهم . اللهم  
إلا إذا أشركوا به غيره، أو أنكروا اليوم الآخر ، أو هجروا صالحات  
الأعمال . فأولئك لا يَأْجُرُهُمُ اللهُ ولا يؤمنهم من الفزع والخوف . أما الذين  
آمَنوا من قوم إبراهيم واليهود والنصارى والصابئين الذين ليسوا على دين  
من تلك الأديان ، فإن الله لا يَفَرِّقُ بين أحدٍ منهم ، ما داموا يؤمنون بتوحيده  
وبالحياة الآخرة ، ويأتون من الأعمال صالحاتها . فما الله بمفضلٍ قومًا على  
قوم حتى يقيموا توحيده وتطمئن نفوسهم إلى دينه . فإن فعلوا ذلك . ثم  
أتوا من الأعمال ما يَصْلِحُ الحياتين الدنيوية والأخروية ، فلهم أَجْرُهُمْ عِنْدَ  
رَبِّهِمْ ، لا ينقصهم منه شيئاً . »

« أما الأعمال الصالحة ، فقد سبق أن المراد بها كل ما يُكسِبُ الإنسانَ  
قوة في الدنيا وازدلاًفاً إلى الله في الآخرة . فمن صالحات الأعمال كلُّ ما  
يُفْضِي إلى غنى الأمم وعلو مكانتها . كما أن من صالحات الأعمال كل ما  
يُخَفِّفُ ويُلْهِمُ أصحاب الولايات ، ويؤدي إلى إصلاح الشؤون العامة ، اجتماعيةً  
كانت أو علمية أو اقتصادية . ومن البديهي أنه ما عُنِيَتْ أُمَّةٌ بذلك إلا  
ذهب الخوفُ والفزعُ عن نفوسها ، وملاً السرورُ والفرحُ صدورها . »

« ولقد خالفنا المفسرين في تأويل قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) . ذلك  
أن القرآن الكريم سَمَّى إبراهيمَ بالمسلم ، ودعا دينه الإسلام (إذ قال له  
به أسلم . قال أسلمتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . ووصَّى بها إبراهيمُ بنه ويعقوبُ ،  
إِنِّي إِنَّا اللهُ أَصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ . فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) . والمراد  
من هذه الآية بيان أن الدين عند الله الإسلام . وأنه من يبتغ غيرَ الإسلام

ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين . »

« أما معنى الإسلام الذي كان دين إبراهيم الخليل فإنه توحيدُ الله تعالى بالربوبية واختصاصه بالعبادة . (إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين) . على تلك القاعدة بُنيَ دين إبراهيم ومن تبع سنته من أهل مكة . كما بُنيَ دين سيد الكائنات محمد المصطفى وأهل مكة : (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا . والله ولي المؤمنين) . »

\*\*\*\*

انقسم زعماء الإصلاح كما رأينا إلى فريقين : فريق ينظر إلى قديم المسلمين والعرب بمجده ويستوحيه . وفريق آخر ينظر إلى ما حقق الغرب في حاضره من تفوق يزينه للمسلمين ويدعوهم إلى احتدائه والسير على خطاه . وسرى هذان الأسلوبان في كل شئون الحياة . فأصبحنا أمام فريقين متقابلين : فريق يدعو الناس إلى الثورة على الماضي ، ويدفعهم إلى الحديد دفعاً لا رفق فيه ولا هوادة . ويحملهم عليه حملاً لا تدرج فيه . وفريق آخر يقول : إن علة تأخرنا هي موت ضمائرنا وفقر عزائنا . وذلك ما لا سبيل إلى إحيائه إلا بالإسلام الذي يُعلّم المسلم أن يحمل أعباء الحياة أمانةً وأن الجهاد لإعزاز المسلمين وتحريرهم فريضة .

وكان المعتدلون من دعاة الحضارة الغربية لا يعارضون في تنقيحها وتهذيبها واستبعاد ما يتعارض منها مع ديننا وتقاليدينا . وكان المعتدلون من دعاة الإسلام لا يعارضون في إصلاح عاداتنا وتقاليدينا واستبعاد الضار منها مما أُقْحِم على الإسلام وليس منه . ويرون أن التمسك بالدين لا يتعارض مع الأخذ بالنافع من المخترعات والحديد من الدراسات التجريبية والتطبيقية التي تتركز النشء لكي يساير النهضة الصناعية . ولكنهم يفرقون بين ذلك وبين الحضارة والثقافة التي تتصل بالعقائد والعادات والتقاليد والأذواق وآداب المجتمع وأساليب الحياة وأنماط العيش . فيعارضون أشد المعارضة في أن تكون حضارتنا وثقافتنا



صورة من حضارة الغرب وثقافته أو امتداداً لها .

ولكن المتطرفين من الفريقين كانوا يبلغون في تطرفهم الشطط في كثير من الأحيان. فكان في المجددين من يبلغ في دعوته حد التهور والخروج على الأمة والارتقاء في أحضان الغرب. وكان في المحافظين من يبلغ في محافظته حد الجمود والتنطع ومحاربة كل جديد مهما ثبتت نفعه، والتمسك بكل قديم مهما تبين بطلانه وضرره .

كان بعض دعاة التجديد الذين ينادون باقتفاء الحضارة الغربية يبالغون في الاستخفاف بعلماء الدين ، حتى يجرهم ذلك إلى الاستخفاف بالدين نفسه ، كالذي تجده في بعض مقالات ولي الدين يكن ، حين يجاهر بالإفطار في رمضان مستخفاً بالصائمين ، يتهمهم بالنفاق وبالإفطار سرّاً ، أو بضيق الأفق والتضييق على الناس في حرمتهم الشخصية . فيقول فيما يقول :<sup>(١)</sup>

« في البلاد العثمانية كل المسلمين صائمون . كانت الحكومة المستبدة تسجن المفطر إلى أن يأتي اليوم الثالث من عيد الفطر . وكان أكثر المفطرين يدعون الصوم ويحسنون تقليد الصائمين ، حتى لقد بلغ أمر الكذب أن يضرب المفطر في بيته من يدخن بجانبه سيكارتته . وقد خرجت بها ذات يوم في رمضان وراء أمر عرض أريد قضاءه ، فلما ركبت الترامواي رأيت جماعة من الأجانب على رؤوسهم القبعات وبأفواههم سيكاراتهم ، والناس ينظرون إليهم شزراً ، ولا يقدر أحد منهم أن يخاطب أحد أولئك الأجانب بكلمة تسوءه . وكانت علبة سيكارتتي معي فنسيت أن اليوم من أيام رمضان فأخرجت سيكارة جعلتها في فمي . وأقمت أنتظر أن يمد إلي أحد الجالسين شيئاً أشعلها به . فمشيت في عيون الركب ، وجعل بعضهم يغمز بعضاً مشيراً إلي بلحظه . ففطنت لموضع خطئي ، وقلت : أداويه لكم أيها الكاذبون

١ - راجع مقاله الذي نشر في المقطم « أكذوبة إبريل ، وأكذوبة رمضان » الصحائف السود

بالكذب. ثم وثبتُ من مكاني بغتةً كمن تذكر شيئاً كان نسيه، وقلتُ: لعن الله الشيطان. كدتُ والله أدخنُ سيكارتِي وأنقض صومي.»

ويصور بعد ذلك احتقاره الشديد لعلماء الدين وقد التقى بأحدهم عند بعض أصدقائه فيقول :

« ... فلما انتهينا من الطعام وخرجنا إلى المكان المعدّ للتدخين دنا مني أحد المعمّمين . وهو رجل كالجرادة ، له لحية كقائمة المزاد ، وعينان كزيتونتين . فنظر في وجهي مليّاً ثم قال لي : لمَ لا تصوم ؟ ... قلت : لا أدري . قال : كيف لا تدري ؟ ... قلت : ككل من لا يدري . فغلب الضحكُ على الرجل ، وتنحيتُ أنا جانباً كي لا يطير في وجهي رشاشٌ من فيه . فقال : ما لك تنأى عني ؟ أغولُ أنا فتخافني ؟ ... قلت : كلا . بل فَمَكْ رائحته منتنة فلا أقدر أن أشمها . »

ونجد مثل هذا الاستخفاف في مقال آخر له ، يصفه فيه ذبح الأضاحي في العيد فيقول : (١)

« أمس أُرهِفَت الشِفَار ، وشَمَّرَ الجازرون عن سواعدهم ، وجيء بالأضاحي التي أَسْمَنُها مقتنوها وطلّوها فراءها بالحناء وبالورس . وفيهم من مَوَّهوا بالذهب قُرُونَهَا ودهنوا بالزعفران آذانها . فأكب أهلُ الصناعة على صناعتهم ، فَمِنَ مكبرٍ ذابح ، ومن نافخ ضارب ، ومن سالخ جاذب ، ومن مقطّع ناصب . وعلى أبواب البيوت الأقيال وأبناء الأقيال من الساسانيين وقوفاً صفوفاً ، أو جُثَمًا قُعوداً ، يراقبون من كل باب مصراعه ، وكأن البدرَ سيطلع عليهم في موكبه السماوي ، أو كأن سينجابُ غشاءُ الأبصار فتبدو من ورائه القِسَمُ . » ثم يقول في استخفاف :

١ - راجع مقاله « الإسراف ! الإسراف ! » الصحائف السود ص ٨٢ - ٨٥ . والعجب للكاتب ، يضيق صدره بذبح الخراف ، ولا يضيق بذبح الأوربيين للديكة الرومية مثلاً في أعيادهم .

« لا أدري حُكْمَ الأضاحي فيما يرجع إلى الدين، فلا أتعرض له بشيء »  
مجانبةً للشطط. ولكن ما هذا الإسراف؟... ألنا ثأرٌ عند الغنم فنثار؟ أم  
الغنم كثيرةٌ فزيد أن تقل؟... ما روى لنا أحدُ المؤرخين أن جدَّ الغنم نطح  
أبانا آدم، فنجعل عداؤنا محمولاً على هذا السبب. » (١)

وكان المحافظون من دعاة الإصلاح الإسلامي يهاجمون الفريق الأول،  
ويتهمونهم بالتفرنج ويهدم الإسلام. فمن ذلك قصيدةٌ لمحرّم، يهاجم فيها  
قاسم أمين في دعوته إلى تحرير المرأة، فيقول: (٢)

أغرّكِ يا أسماءُ ما ظن قاسمٌ!؟ أقيمى وراءَ الخِدرِ فالمراءُ واهِمٌ  
تضيّقن ذرعاً بالحجاب، وما به سوى ما جنت تلك الرؤى والمزاعم  
سلامٌ على الأخلاق في الشرق كله إذا ما استبيحت في الخدور الكرائم  
أقاسمٌ لا تقذف بجيشك تبتغي بقومك والإسلام ما الله عالمٌ  
لنا من بناء الأولين بقيةً تلوذ بها أعراضنا والمحارم  
أسائل نفسي إذ دلّقت تريدها أنت من البانين أم أنت هادم؟  
... أنا في الثنايا الغرُّ والطررُ العلى بما عجزت عنه اللحي والعمائم؟  
فلا ارتفعت سفنُ الجواء بصاعد إذا حلّقت فوق النور الحمام  
عفا الله عن قوم تهادت ظنونهم فلا النهجُ مأمونٌ ولا الرأي حازم  
ألا إن بالإسلام داءً مُخامِراً وإن كتابَ الله للداءِ حاسم

ومن ذلك مقال كتبه عبد الله النديم بأسلوبه الواقعي الساخر في مجلة  
(التنكيّت والتبكيّت)، يصور فيه أحد أبناء الريف، وقد عاد من أوربا  
بعد أن أتم تعليمه في بعثة حكومية. فقال: (٣)

« وُلِدَ لأحد الفلاحين ولدٌ فسماه (زعيط). وتركه يلعب في التراب وبنام

١ - راجع كذلك أمثلة لا تحصى للكاتب بعلماء الدين في ديوانه ص ١٩ ، ٣٥ ، ٣٧ .

٢ - ديوان محرم ٢ : ٦٣ - ٦٥

٣ - العدد الأول ٦ يونيو سنة ١٨٨١ - سلافة النديم ص ٨٢ مقال بعنوان « عربي تفرنج »

في الوحل، حتى صار يَقْدِرُ على تسريح الجاموسة ، فسَرَّحه مع البهائم إلى الغيظ ، يسوق الساقية، ويَحْوِلُ الماء. وكان يعطيه كل يوم أربع (حَنَدَ وَيَلَات) وأربعة (أَمْخَاخ بَصَل)، وفي العيد كان يقدِّم له (البِخْنِي)، ليمتعه بأكل اللحم بالبصل. وبينما هو يسوق الساقية وأبوه جالس عنده مر بهما أحد التجار ، فقال لأبيه : لو أرسلتَ ابنك إلى المدرسة لتعلم وصار إنساناً . فأخذه وسلمه إلى المدرسة . فلما أتم العلوم الابتدائية أرسلته الحكومة إلى (أوروبا) لتعلم فنَّ عَيْشَتِهِ له. فبعد أربع سنين ركب (الوابور) وجاء عائداً إلى بلاده. فَمِنْ فَرَح أبيه حضر إلى الاسكندرية ووقف برصيف (الجمرك) ينتظره . فلما خرج من (الفلوكة) <sup>(١)</sup> قرب أبوه ليحتضنه ويقبله، شأنَ الوالد المحبِّ لولده . فدفعه في صدره . «

ثم يحكي النديم الحوار في لهجته التي دار بها . فالابن ضيق بهذه العادة التي يراها شيئاً قبيحاً ويتمنى لو فعل أبوه مثلما يفعل الغربيون فيضع يده في يد ابنه ويقول في رقة (بون أريفي) . والأب لا يفهم ما يقوله ابنه، ويظن أنه يعيِّره بأنه (ريفي) . فيضيق الولد قائلاً (أنتم يا أولاد العرب كالبهائم لا تفهمون) . ويتكرر هذا الموقف حين يلتقي بأمه وتقدم له غداءً من اللحم والبصل . فيُظهر الضيق الشديد بالطعام ويعنف أمه لأنها أكثرت من ال... . ويبدو كأنه يبحث في ذاكرته عن اسم (البصل) فلا تسعفه إلا التسميةُ الفرنسيةُ (أونيون). ولا تفهم أمه عنه. فتظل تستوضحه، ويظل يصفه لها، حتى يقع عليه حين يقول : (الذي تَدْمَعُ منه العين) فتقول أمه (تعني البصل ؟) فيقول بلهجته الفرنسية الغالبة عليه (سي سا . بصل ... بصل .) وتَعْجَبُ أمهُ وَيَعْجَبُ أبوه من أمره. كيف نسي البصل وقد كان كلُّ طعامه منه ؟!

ويختم الكاتب هذا الحوار باستنباط العظة من القصة قائلاً :

١ - (الفلوكة) في اللهجة العامية بمصر قارب يلحق بالسفينة لنقل راكبيها إلى الشاطئ. كأنه محرف عن « الفلك » بضم الفاء وسكون اللام وهي : السفينة .

« وشكاه (معيط) لأحد النبهاء ، وقال : ولدي توجه إلى أوروبا ، وحضر  
يذم بلاده وأهله ، ونسي لغته . فقال له النبيه : ولدك لم يتهدب صغيراً ،  
ولا تعلم حقوق وطنه ، ولا عرف حق لغته ، ولا قدّر شرف الأمة ، ولا  
ثمرّة الحرص على عوائد الأهل ، ولا مزية الوطنية . فهو وإن كان تعلم  
علوماً ، إلا أنها لا تفيد وطنه شيئاً . فإنه لا يميل إلى إخوانه ، ولا يستحسن  
إلا من يعرف لغتهم . على أنه أصبح كالغراب لما أراد أن يقلد الحجل في  
مشيته . وعجز عن التقليد ، واستحال عليه عودّه لطبيعته الأولى ، فأصبح  
يقفز قفزاً . وقد خرج عن حدّ الجنسية وطباع النوعية . ولا يفعل فعل ولدك  
إلا لئيم جاهل بوطنه . فكم من شبان تعلمت في أوروبا ، وعادت محافضةً  
على مذهبها وعوايدها ولغتها ، وصرفت علومها في تقدم بلادها وأبنائها ،  
ولم ينطبق عليهم عنوان (عربي تفرنج) . »

وإلى جانب هذين الاتجاهين ظهر اتجاه ثالث يريد أصحابه أن يجمعوا  
بين الاتجاهين وأن يوفقوا بين الطرفين . فنادوا بأن الإسلام هو الأساس  
الذي يجب أن يقوم عليه الإصلاح ، ولكنهم فسروا نصوصه تفسيراً جديداً  
يقبل معه كثيراً من أساليب الحياة والتفكير الوافدة من الغرب . وقد كان  
هذا الاتجاه الأخير - ولا يزال - مثاراً كثيراً من الجدل في تقديره والحكم  
عليه . وسوف أعود للكلام عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله .

تم الجزء الأول بحمد الله

## قائمة

بطبعات الكتب التي أحلت عليها في هوامش الكتاب (١)

(١)

الاتجاهات الحديثة في الإسلام تأليف « ا. ر. جب » ترجمة كامل سليمان  
طبع بيروت ١٩٥٤ .

أم القرى لعبد الرحمن الكواكبي . الطبعة الأولى ( على نفقة محمود طاهر  
صاحب جريدة العرب ) .

( ت )

تاريخ آداب اللغة العربية ( الجزء الرابع لجورجي زيدان الطبعة الأولى سنة  
١٩١٤ م ( مطبعة الهلال بالفجالة . مصر ) .

تاريخ الأستاذ الإمام ( الجزء الأول ) لمحمد رشيد رضا الطبعة الأولى سنة  
١٣٥٠ هـ ( ١٩٣١ م ) مطبعة المنار بمصر .

تاريخ الأستاذ الإمام ( الجزء الثاني ) لمحمد رشيد رضا الطبعة الثانية سنة  
١٣٤٤ هـ ( ١٩٢٥ م ) مطبعة المنار بمصر .

تاريخ الأستاذ الإمام ( الجزء الثالث ) لمحمد رشيد رضا الطبعة الثانية سنة  
١٣٦٧ هـ ( ١٩٤٨ م ) . مطبعة المنار بمصر .

---

١ - رتب هذه القائمة ترتيباً أبجدياً حسب أوائل أسماء الكتب . وأسقط منها الصحف والمجلات  
لعدم الاختلاف في طبعتها .

تاريخ التعليم في مصر ( ٣ أجزاء ) لأحمد عزت عبد الكريم الطبعة الأولى  
١٩٤٥ م مطبعة النصر بمصر .

التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر ( ألفريد بلنت - ٥ أجزاء ) العدد ٦٩  
من سلسلة « اخترنا لك » .

تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد الطبعة الثالثة ١٩١٢ م مطبعة التقدم بمصر .  
تاريخ المسئلة المصرية ( ترجمة العبادي وبدران ) تأليف تيودور روتشتين  
الطبعة الثانية ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م لجنة التأليف .

تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده تأليف تيودور روتشتين وتعريب  
علي أحمد شكري ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م .

تاريخ المفاوضات المصرية ( الجزء الأول ) لمحمد شفيق غربال ١٩٥٢ م  
مكتبة النهضة المصرية .

تحرير المرأة لقاسم أمين الطبعة الثانية ١٩٤١ م مطبعة روزاليوسف .  
تربية المرأة والحجاب لمحمد طلعت حرب مطبعة الترقى ١٣١٧ هـ ( ١٨٩٩ ) م .

( ث ) .

الثورة العربية لعبد الرحمن الرافعي الطبعة الثانية ١٩٤٩ م مطبعة السعادة بمصر .

( ح )

حرب البلقان الأولى تأليف يوسف البستاني المحرر بالجريدة ١٩١٣ م .  
الحركة الأدبية في حلب تأليف سامي الكيالي معهد الدراسات العربية ١٩٥٦ .

( د )

دفاع المصري عن بلاده ( خطب ومقالات مصطفى كامل في صيف ١٣٢٤ هـ -  
١٩٠٦ م مطبعة اللواء بمصر .

دول العرب وعظماء الإسلام لأحمد شوقي ١٩٣٣ م مطبعة مصر .  
الدولة العربية المتحدة ( الجزء الثالث ) لأمين سعيد ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨ م مطبعة  
عيسى البابي الحلبي .

ديوان إسماعيل صبري ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م مطبعة لجنة التأليف  
ديوان البارودي ( جزآن ) ( محمود سامي البارودي ) طبعة المنصوري ( لآخر  
حرف اللام ) مطبعة الجريدة ديوان حافظ ( الجزء الأول ) ( محمد حافظ  
إبراهيم ) الطبعة الثانية ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م مطبعة دار الكتب .  
ديوان حافظ ( الجزء الثاني ) ( حافظ إبراهيم ) الطبعة الأولى ١٩٣٧ م مطبعة  
دار الكتب

ديوان شوقي ( الجزء الأول ) ( أحمد شوقي ) ١٩٢٥ م مطبعة مصر  
ديوان شوقي ( الجزء الثاني ) ( أحمد شوقي ) ١٩٣٠ م مطبعة مصر  
ديوان شوقي ( الجزء الثالث ) أحمد شوقي ١٩٤٦ م مطبعة دار الكتب  
ديوان شوقي ( الجزء الرابع أحمد شوقي مطبعة الاستقامة نصر المكتبة التجارية  
مع مقدمة لمحمد سعيد العريان

ديوان صالح مجدي ١٣١٢ هـ - ١٨٩٤ م مطبعة بولاق  
ديوان عبد الحليم المصري ( الجزء الأول ) ( عبد الحليم حلمي المصري ) ١٩١٠ م  
( مع مقدمة لمحمد صادق عنبر )

ديوان عبد الحليم المصري ( الجزء الثاني ) ١٩١١ م  
ديوان عبد الحليم المصري ( الجزء الثالث ) ١٣٣٦ هـ - ١٩١٨ م مطبعة المعارف  
بالفجالة مصر .

ديوان عبد المطلب ( محمد عبد المطلب ) الطبعة الأولى . مطبعة الاعتماد بمصر  
ديوان الغاياتي ( علي الغاياتي ) الطبعة الثانية ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨ م مطبعة عطايا  
بمصر

ديوان الكاشف ( الجزء الأول ) ( أحمد الكاشف ) الطبعة الثانية ١٣٣٢ هـ -  
١٩١٤ م مطبعة الترقى بمصر  
ديوان الكاشف ( الجزء الثاني ) الطبعة الأولى ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م مطبعة  
الجريدة بمصر



ديوان محرم ( الجزء الأول ) ( أحمد محرم ) الطبعة الأولى ١٩٠٨ م مطبعة  
الجريدة بمصر

ديوان محرم ( الجزء الثاني ) الطبعة الأولى ١٣٣٨ هـ - ١٩٢٠ م مطبعة الفتوح  
بدمنهور

ديوان نسيم ( الجزء الأول ) ( أحمد نسيم ) ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م مطبعة  
الاصلاح

ديوان نسيم ( الجزء الثاني ) ( أحمد نسيم ) ١٩١٠ م مطبعة الهلال .  
بمصر

ديوان ولي الدين يكن الطبعة الأولى ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٤ م مطبعة المقتطف  
بمصر

( ذ )

ذكرى وعبرة ( الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ) لسليم البستاني . الطبعة  
الأولى ١٩٠٨ م مطبعة الأخبار

( ر )

روتستين ( راجع تاريخ المسألة المصرية )

( ز )

زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين الطبعة الأولى ١٩٤٨ م نشر  
مكتبة النهضة المصرية

( س )

سلافة النديم ( الجزء الأول ) بقلم عبد الله النديم الطبعة الأولى ١٣١٤ هـ -  
١٨٩٧ م المطبعة الجامعة بمصر

سلافة النديم ( الجزء الثاني ) الطبعة الأولى ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م مطبعة هندية  
بمصر

( ش )

شعراء العصر لمحمد صبري ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م مطبعة الأمة بمصر  
شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام لأحمد الطرابلسي معهد الدراسات العربية ١٩٥٦

شوي ( راجع صداقة أربعين عاماً )  
الشوقيات ( مجموعة شعره من ١٨٧١ - ١٨٩٨ م ) الطبعة الثانية ١٣٣٠ هـ -  
١٩١٢ م مطبعة الإصلاح بمصر

( ص )

الصحائف السود لولي الدين يكن ١٩١٠ م مطبعة المقطف بمصر  
صداقة أربعين عاماً لشكيب أرسلان ١٩٣٦ م مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر  
( ط )

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبد الرحمن الكواكبي . الطبعة الأولى ،  
مطبعة المعارف بالقاهرة بمصر

( ع )

عباس الثاني ( ترجمة فؤاد ... ) تأليف اللورد كرومر . مطبعة التوفيق بمصر  
عبد الحميد ظل الله على الأرض ( ترجمة راسم رشدي ) تأليف الدكتورة  
آمالوتلين ١٩٥٠ م دار النيل للطباعة بمصر  
عصر الخرافة جزآن ( ترجمة أبو ريدة ، محمد بكير خليل ) تأليف جستاف  
شنتلير سلسلة الفكر الحديث ( لجنة التأليف والترجمة والنشر )

( ف )

فضائل الماسونية تأليف شاهين بك مكاروريوس صاحب مجلة اللطائف المصورة  
مطبعة المقطف ١٨٩٩ م ( ومنه نسخة في مكتبة جامعة الاسكندرية رقم  
١٥٦٠٨ ) .

( ل )

ليالي سطيح تأليف محمد حافظ إبراهيم الطبعة الأولى ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م ،  
مطبعة الإصلاح بمصر

( م )

ما هنالك ( لأديب فاضل من المصريين ) مطبعة المقطم بمصر ١٨٩٦ م

مجموعة أعمال المؤتمر المصري الأول ١٩١١ م المطبعة الأميرية بمصر  
محمد فريد ، لعبد الرحمن الرافعي . الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م مطبعة  
لجنة التأليف

مذكرات عراي ( جزآن ) بقلم أحمد عراي . كتاب الحلال في فبراير .  
مارس سنة ١٩٥٣ م

مذكراتي في نصف قرن ( الجزء الأول : من ١٨٧٣ م - ١٨٩٢ م ) الحاج  
أحمد شفيق ( باشا ) الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م مطبعة مصر  
مذكراتي في نصف قرن ( الجزء الثاني ١ : من ١٨٩٢ م - ١٩٠٢ ) الطبعة  
الأولى ١٩٣٦ م - مطبعة مصر

مذكراتي في نصف قرن ( الجزء الثاني ب : من ١٩٠٣ م - ١٩١٤ م ) الطبعة  
الأولى ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م مطبعة مصر

المرأة الجديدة تأليف قاسم أمين الطبعة الثانية ١٩١١ م مطبعة الشعب  
المسامير تأليف عبد الله النديم ( غني بطبعه الشريف ي . ن . هـ . م )  
المسألة الشرقية تأليف مصطفى كامل . الطبعة الأولى ١٨٩٨ م مطبعة الآداب  
بمصر

مصر للمصريين تأليف سليم نقاش ( نشر منه ٦ أجزاء من ٤ - ٩ ) ١٣٠٢ هـ -  
١٨٨٤ م مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية  
مصر والاحتلال الإنجليزي ( مجموعة أعمال مصطفى كامل من ١٨٩٥ م -  
١٨٩٦ م ) ١٩١٣ م مطبعة الآداب .

مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال تأليف عبد الرحمن الرافعي . الطبعة  
الثانية ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م مطبعة الفكرة بمصر

مصطفى كامل تأليف عبد الرحمن الرافعي الطبعة الثانية ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م  
مطبعة لجنة التأليف

معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثالث ( ترجمة عبد العزيز جاويد ) تأليف هـ . ج .  
ولز ١٩٥٠ م مطبعة لجنة التأليف بمصر

معالم تاريخ الإنسانية المجلد الرابع ( ترجمة عبد العزيز جاويد ) تأليف هـ . ج .  
ولز ١٩٥٢ م مطبعة لجنة التأليف بمصر  
المنتخبات ( جمع إسماعيل مظهر ) بقلم أحمد لطفي السيد . نشر مكتبة  
الأنجلو المصرية

منتخبات المؤيد ( السنة الأولى ١٨٩٠ م ) ١٣٢٤ هـ مطبعة المؤيد .

( هـ )

هـ . ج . ولز ( راجع معالم تاريخ الإنسانية )

( و )

وطنيتي ( راجع ديوان الغاياتي )

#### مراجع إنجليزية

- 1 — Great Britain in Egypt ( F. W. polson Newman ) 1928
- 2 — Islam in Modern History ( W. C. Smith ) princeton 1957
- 3 — Modern Egypt ( The Earl of Cromer ) 1908
- 4 — Reports by His Majesty's Agent and Consul General  
on the Finances, Administration, and Condition of  
Egypt and the Soudan .
- 5 — Whither Islam ? edited by H. A. R. Gibb 1932

## فهرس

### الفصل الأول - الجامعة الإسلامية

(ص ١٧ - ص ٦٦)

غلبة النزعة الإسلامية على العصبية الجنسية ص ١٧ - المسألة الشرقية في نظر كثير من الكتاب والمفكرين هي امتداد للنزاع الصليبي ص ١٨ - الخلاف بين تركيا والأمم البلقانية من مظاهر هذا النزاع ص ١٨ - مقالات العروة الوثقى في الحث على اتحاد كلمة المسلمين ص ٢٠ - أم القرى للكواكبي ، الأستاذ لعبدالله النديم ص ٢١ - المسألة الشرقية لمصطفى كامل ص ٢٢ - تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد ص ٢٦ - مصر الحديثة لكرومر ص ٢٧ - تعلق الشعراء بالخليفة التركي صورة من صور الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ص ٢٨ - الشعراء يلجؤون إلى الخليفة شاكين من الاحتلال ص ٣٢ - الدول الأوربية تتذرع بالدين طمعاً في اقتسام الإمبراطورية العثمانية ص ٣٧ - الإنجليز والخلافة العربية ص ٣٨ - الشعراء يثورون لكل ما يمس شعباً إسلامياً حيثما كان ص ٤١ - حرب اليونان سنة ١٨٩٧ ، الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، سقوط السلطان عبد الحميد ص ٤٣ - حرب طرابلس سنة ١٩١١ ص ٥١ - حرب البلقان سنة ١٩١٢ ص ٥٦ - قدوم طيارين تركيين إلى مصر سنة ١٩١٤ ص ٦٠ - مهاجمة كرومر الإسلام والمسلمين أعانت على التعلق بفكرة الجامعة الإسلامية ص ٦١ - أنصار الجامعة الإسلامية ليسوا جميعاً من المؤيدين للنفوذ التركي في مصر ص ٦٢ .

### الفصل الثاني - الجامعة المصرية

(ص ٦٧ - ١٢٤)

الوطنية بمعناها الإقليمي في مصر صدى للاتجاه الأوربي نحو فكرة القومية في القرن التاسع عشر ص ٦٧ - الدعوة الجديدة نشأت قبيل الثورة العراقية ص ٦٩ - ولكنها لم تكن مناقضة لفكرة الجامعة الإسلامية ص ٧١ - محمد عبده يهاجم المتفرنجين ص ٧٣ - ويهاجم الذين يحطون من قدر العصبية الدينية

ص ٧٤ - الدعوة الوطنية التي ظهرت قبيل الثورة العرابية نتيجة لتسلط العنصر التركي ، وهي تستهدف رفع الظلم ص ٧٥ - البارودي ص ٧٦ - صالح مجدي ص ٧٨ - فتور الحركة بعد فشل الثورة العرابية ، ثم انبعاثها في أوائل القرن العشرين ص ٨١ - مصطفى كامل لا يرى تعارضاً بين الجامعة المصرية والجامعة الإسلامية ص ٨٢ - روح مصطفى كامل تسري في شعراء الوطنية الذين يتغنون بالوطن المحبوب ص ٨٥ - الغاياتي ص ٨٦ - محرم ص ٨٨ - حزب الأمة والحزب الوطني الحر يعارضان الجامعة الإسلامية ويريان أن الوطنية هي المصلحة المشتركة التي تجمع بين المواطنين ص ٩٠ - صحيفة المقطم تؤيد الاحتلال ص ٩٠ - حزب الأمة فريقان : فريق كبار الملاك ، وفريق المثقفين ص ٩٤ - الجريدة تصور الاحتلال على أنه حقيقة واقعة ص ٩٥ - الجريدة والمقطم تشتركان في إقامة الوطنية على أساس النفع والمصلحة ص ٩٦ - الجريدة تهاجم الجامعة الإسلامية ص ١٠٢ - الثائرون والعقلاء ص ١٠٤ - اشتراك المقطم والجريدة في مهادنة الاستعمار وفي محاربة الجامعة الإسلامية ص ١٠٥ - الاحتلال يتحدث عن المصرية والتمصير بالمعنى الذي تقرره صحيفتا الجريدة والمقطم ص ١٠٧ - الإنجليز يعملون على إضعاف النفوذ التركي وإذبال شوكة العصبية الإسلامية ص ١٠٨ - الجامعة المصرية بالمعنى الذي تدعو إليه الجريدة والمقطم ضعيفة الأثر في الشعر ص ١١٣ - نسيم ص ١١٤ - ولي الدين يكن ص ١١٦ - لازم هذه الحركة القومية اتجاه شعري قوي نحو إحياء مجد مصر القديم ص ١١٧ - شوقي هو أكثر الشعراء مشاركة في إبراز هذا الاتجاه ص ١٠٠

الفصل الثالث - محنة الجامعة المصرية - المؤتمر القبطي والمؤتمر المصري

( ص ١٢٥ - ١٥١ )

المسلمون والقبط قبل الاحتلال ص ١٢٥ - المسلمون والقبط بعد الاحتلال ص ١٢٧ - بدء الفتنة ، الصحف القبطية ص ١٢٨ - بدء الدعوة للمؤتمر القبطي ص ١٣١ - مقتل بطرس غالي ص ١٣٢ - تفاقم الخلاف ص ١٣٤ - انعقاد المؤتمر القبطي في أسيوط ومطالب الأقباط ص ١٣٥ - المؤتمر المصري في هليو بوليس ص ١٣٦

– المؤتمر القبطي والمؤتمر المصري هما قمة العنف في النزاع بين عنصري الأمة ، ولكنهما نقطة البداية الصحيحة في الجامعة القومية ص ١٣٨ – مجهودات الشعراء في تخفيف الأزمة وفي بناء الوحدة : الغاياتي ص ١٣٩ – إسماعيل صبري ص ١٣٩ – شوقي ص ١٤٠ – نسيم ص ١٤٣ – ولي الدين يكن ص ١٤٣ – محرم ص ١٤٥ – حافظ ص ١٤٧ – عود إلى شوقي ص ١٤٨ .

#### الفصل الرابع – تيارات سياسية

( ص ١٥٢ – ٢٤٢ )

الثورة العرابية هي بداية التطور في الوعي السياسي المصري ص ١٥٢ – من كلمات الأفغاني ص ١٥٣ – صالح مجدي ص ١٥٥ – من كلام محمد عبده في الشورى وفي نشأة الرأي العام ص ١٥٧ – انتشار روح الهزيمة بعد فشل الثورة العرابية ص ١٦٠ – الإنجليز يثبتون أقدامهم ويتسلطون على كل المرافق العامة ص ١٦١ – المؤيد تستنهض الهمم وتثير مسألة الجلاء ص ١٦٢ – صحيفة الأستاذ تحمل على الإنجليز وأعوانهم ص ١٦٦ – مصطفى كامل والجلاء ص ١٧٢ – الحديوي عباس يتزعم الحركة الوطنية في أول حكمه ص ١٧٣ – التفاف المصريين حول الحديوي عباس ص ١٧٤ – عباس يصطدم بكرومر ص ١٧٦ – اضطهاد كرومر لعباس يزيد عطف الشعب عليه ص ١٧٩ – من كلمات مصطفى كامل ص ١٨٠ – الشعر الذي مدح به عباس في هذه الفترة من صميم الشعر الوطني ص ١٨٣ – من شعر شوقي ص ١٨٣ – من شعر حافظ ص ١٨٤ – إسماعيل صبري ، محرم ص ١٨٥ – الكاشف ، عبد المطلب ص ١٨٦ – عباس يتراجع أمام كرومر ص ١٨٧ – اضطراب عباس وتخطيط سياسته ص ١٨٩ – استسلامه وانصرافه إلى جمع المال ص ١٩١ – جورست يرضي شره عباس للسلطة والمال فيتنكر للحركة الوطنية ص ١٩٤ – الوطنيون يحاربون في جبهتين ، فيقاومون الإنجليز ويهاجمون الحديوي وأذئاب الاستعمار ص ١٩٥ – مقال محمد عبده في ذكرى محمد علي ص ١٩٧ – الشعراء يهاجمون عباساً : الغاياتي ص ٢٠٠ – محرم ص ٢٠٥ – الكاشف

ص ٢٠٦ - عبد الحليم المصري ص ٢٠٨ - النزاع بين السلطة التشريعية والسلطة الفعلية ص ٢١٣ - الانجليز يجدون في اصطناع الأولياء والأصدقاء ص ٢١٣ - شوقي شاعر عباس ، وشعره يتبع قلب أميره ص ٢١٤ - نسيم شاعر كرومر ص ٢١٥ - ولي الدين يشيد بالانجليز اعترافاً بفضلهم في حماية تركيا الفتاة ص ٢١٧ - الشاميون في مصر من أنصار الاحتلال ص ٢٢٤ - الحالية الأرمنية والاحتلال ص ٢٢٢ - صور من مهاجمة المصريين للشاميين النازلين بمصر : مصطفى كامل ص ٢٢٣ - عبد الله النديم ص ٢٢٦ - حافظ إبراهيم ص ٢٢٦ - الغاياتي ص ٢٢٧ - فريق ثالث يتردد بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية ومنه حافظ ص ٢٢٨ - الأحزاب والصحف بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية ص ٢٣٢ - اشتداد الخصومة بين الأحزاب وانشغال الصحف عن المسائل العامة بالمهاترات ص ٢٣٣ - المصلحون يضجون من هذه الفوضى المفسدة للأخلاق والأذواق : عبد الله النديم ص ٢٣٥ - حافظ إبراهيم ص ٢٣٦ - محرم ص ٢٣٨ - الدعوة إلى الاتحاد وضم الصفوف : حافظ ص ٢٣٩ - محرم ص ٢٤٠ - شوقي ص ٢٤١

#### الفصل الخامس - نزعات إصلاحية

(ص ٢٤٣ - )

السياسة الإصلاحية ص ٢٤٣ - فساد المجتمع المصري ٢٤٤ - صورة من هذا الفساد في رواية « الوطن » لعبدالله النديم ص ٢٤٥ - أدب واقعي يتبع عيوب المجتمع بالنقد والهجاء ص ٢٥٠ - من شعر الكاشف ٢٥١ - حافظ ص ٢٥٢ - محرم ص ٢٥٣ - انقسام زعماء النهضة إلى فريقين : فريق يكافح الاحتلال ، وفريق يطالب بالإصلاح ص ٢٥٤ - كرومر يشجع المطالبين بالإصلاح ص ٢٥٤ - المطالبون بالإصلاح طائفتان : فريق يدعو للأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، وفريق يدعو إلى الاحتفاظ بالتقاليد الإسلامية ص ٢٥٥ - تناقض في الحياة الاجتماعية من أثر تجاوز هذين التيارين ص ٢٥٥ - دعاة الحضارة الغربية من أصحاب الثقافة الأوروبية ومن مسيحيي الشاميين



المقيمين في مصر ص ٢٥٦ - كرومر والاسلام ص ٢٥٩ - أثر الحضارة الغربية والتفكير الأوربي يتجلى في ثلاث دعوات كبيرة شغلت الرأي العام ص ٢٦٤ - (١) الدعوة إلى الحرية الشخصية وإلى النظام النيابي الأوربي ص ٢٦٥ - الكواكبي في طبائع الاستبداد ص ٢٦٦ - (٢) الدعوة إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية وتأثرها بالمتحررين وبمفكري عصر النهضة في أوربا ص ٢٧٤ - الاستعمار والصهيونية العالمية يعينان على ترويج هذه الدعوة ص ٢٧٦ - السلطان عبد الحميد هو المقصود بكثير مما كان يكتب ويذاع ص ٢٨٠ - « أم القرى » للكواكبي ص ٢٨٠ - « ذكرى وعبرة » للبستاني ص ٢٨٤ - نسيم ص ٢٨٩ - حافظ ص ٢٩٠ - ولي الدين يكن ص ٢٩١ - سليم عنحوري ص ٢٩١ - (٣) الدعوة إلى (تحرير المرأة) ص ٢٩٣ - (تحرير المرأة) لقاسم أمين ص ٢٩٣ - (المرأة الجديدة) لقاسم أمين ص ٣٠٤ - حركة الإصلاح الاسلامي ص ٣١٢ - من شعر الإصلاح الاسلامي : محرم ص ٣١٣ - الكاشف ص ٣١٤ - شوقي أبرز شعراء هذا الاتجاه ص ٣١٥ - دعوة الإسلام إلى الأخذ بأسباب القوة ص ٣١٥ - ما يمتاز به الاسلام من اعتدال واتزان ص ٣١٦ - الاسلام لا يتعارض مع الاستمتاع بطيبات الحياة ص ٣١٧ - الحكومة الاسلامية ص ٣١٨ - دعوة الاسلام إلى العمل ص ٣١٩ - الاحتفال برأس السنة الهجرية من ثمار هذه الحركة الاسلامية ص ٣١٩ - حقيقة الاسلام تختلف عن واقعه بعد أن غلبت عليه البدع الفاسدة ص ٣٢٠ - من بدع بعض المنتسبين إلى الطرق ص ٣٢٠ - من كلام الجهلة من خطباء المساجد ص ٣٢٢ - من بدع أدعياء التصوف أيضاً ص ٣٢٣ - صدى هذه الدعوة في الشعر : الكاشف ص ٣٢٥ - محرم ص ٣٢٧ - اتجاه ثالث يتوسط بين الاتجاهين الاسلامي والغربي : حركة محمد عبده في التوفيق بين الاسلام وبين حضارة الغرب ص ٣٢٨ - اتجاهه في القسم الأول من حياته إلى استنهاض همم المسلمين ودعوتهم إلى الكفاح : مقالة « القضاء والقدر » ص ٣٣٠ - مقالة « الإسلام والنصرانية وأهلها » ص ٣٣٢ - مقالة « الأمل وطلب المجد »

ص ٣٣٢ - مقاله « أسباب حفظ الملك » ص ٣٣٥ - اتجاه محمد عبده في القسم الثاني من حياته إلى التقريب بين الاسلام وبين حضارة الغرب ص ٣٣٧ - الدعوة إلى إدخال العلوم العصرية في الأزهر والتشجيع به : من كلام محمد رشيد رضا ص ٣٣٧ - هـ . ر . جب يقول : إن محمد عبده قد أعان على تأسيس حركة التحرر العلمانية ص ٣٤٠ - فتاوى محمد عبده وندواته ودروسه ص ٣٤١ - : الفتوى الترنسفالية ص ٣٤٢ - إفتاؤه بجواز الاستعانة بالكفار وأهل البدع والأهواء فيما ينفع المسلمين ص ٣٤٢ - دعوته إلى التحرر الفكري ص ٣٤٣ - دعوته إلى قراءة كتب المستشرقين ودراساتهم الاسلامية ص ٣٤٤ - إباحته التصوير والنحت ص ٣٤٥ - صلة هذا الاتجاه بمشروعات اللورد كرومر ص ٣٤٦ - لم تخل هذه الفترة من أثر اتجاهه الأول في بعض ما دافع به عن الإسلام : مقال هانوتو ورد محمد عبده ص ٣٤٧ - من رثاء محمد عبده ص ٣٥٤ - صدى دعوة محمد عبده في تلاميذه ومعاصريه : رد رفيق العظم على مقال عبد القادر حمزة ( خطر علينا وعلى الدين ) ص ٣٥٦ - عبد العزيز جاويز يتابع اتجاه محمد عبده في مجلة الهداية ص ٣٥٧ - تقريب الاسلام من الثقافة الغربية الحديثة ( مقال لطنطاوي جوهري في التوفيق بين الاسلام وبين مذهب داروين ) ص ٣٥٩ - التوفيق بين الاسلام وبين حضارة الغرب ( مقال لعبد القادر المغربي في حجاب المرأة ) ص ٣٥٩ - التوفيق بين الاسلام وبين أنماط الحياة السائدة ( خطاب لعبد العزيز جاويز في وجوب مراعاة أحوال الزمان والمكان في تطبيق الشريعة ) ص ٣٦٠ - أمثلة من أسلوب عبد العزيز جاويز في تفسير القرآن ص ٣٦٢ - انقسام المصلحين إلى محافظين ومجددين وأثر هذا الانقسام في مختلف نواحي الحياة ص ٣٦٥ - المتطرفون من دعاة التجديد يستخفون بالدين وبعلمائه ص ٣٦٥ - المحافظون من دعاة الإصلاح الاسلامي يهاجمون المجددين ويتهمونهم بالتفرنج : رد محرم على قاسم أمين ص ٣٦٧ ، ( عربي تفرنج ) لعبدالله النديم ص ٣٦٨ - الفريق الثالث يحاول الجمع بين الطرفين المتناقضين ص ٣٧٠ .



الأندال برقاب الرجال ، فنكسّ الرءوس وذلل النفوس . استبداد لا مرشد له إلا التعت عن هوى تميلُ به النفس إلى حيث لا تدري ، ولا شرع له ولا وازع ، يحلل اليوم ما يحرمه غداً ... الخ ص ١٨-١٩ » .

ثم يقدم المؤلف صوراً مظلمة من تحكم الاستبداد وتغلغله في شتى نواحي الحياة ، حتى بات الناس مراقبين في كل حركاتهم . يحصي عليهم الجواسيس أنفاسهم ، ولا يأمن فيه أحدهم أن يفاجئه طارق في دياجي الظلام فيختطفه من بين ذويه ليزج به في السجون ، أو يُقذف به منفياً إلى أقصى الأرض ، أو يلقى به في مياه البسفور ، لمجرد شبهة لا تقوم عليها بينة . يقول :

« وهذه القيود والأغلال في أعماق السجون تكاد تشتبك غيظاً لكثرة ما أثقلتها المعاصم والأقدام . وهذه بنغازي وبعض المدن النائية في أطراف السلطنة تضج منتحبة لما ترى من شقاء المبعدين . بل هذا البوسفور يوشك أن يفور تلهفاً على تلك الجثث ، فيقذف بها إلى ثغريه خشية أن تبيت دفينة في بطون الحيتان . - ص ٢٥ » (١) .

ويصور ما أسمى فيه رجال الدولة من حذر الوشاية فيقول :

« كانوا سجينين في بيوتهم ، تُوجسُ منهم الخيفة ، إذا تجاوزوا الأبواب . وعليهم العيون مبثوثة في المنازل والطرق ، لا يعلمون أهم واقفون لهم في الطريق ، أم قاعدون بين جلسائهم وندمائهم في بيوتهم ، أم جاثمون بين خدمهم في غرف نومهم ومطابخهم . لا يحسر الوزير أن يزور وزيراً ولو كان حبيباً له قبل الوزارة . يمعن الفكرة طويلاً قبل أن يفوه بكلمة ، خوف أن تووّل أو تنقل . تأخذه الهواجس فلا يعلم مصيره مساء يومه ... ولهذا كنت ترى معظم هؤلاء الأمراء الأرقاء على تحفز واستعداد ، حتى إذا خشوا الغدر بهم تناولوا حقيبتهم المعدة لمثل هذا اليوم . وطلبوا ملجأً يتقون به

---

١ - وراجع كذلك مقالا لولي الدين يكن يصور فيه إلقاء أحد الضحايا في مياه البسفور ، وكان قد نشره في صحيفة المقطم بعنوان « خليج البسفور في إحدى ليالي الشتاء » (الصحائف السود ٧٢ - ٧٦)